

تفسير القرآن

جمال البنا

جمال البنا

تفسير القرآن الكريم

بين القدامى والمحدثين

من قال فى كتاب ا عز وجل برأيـه فأصـاب فقـد أخطأ..

"حديث – أخرجه أبو داود والترمذى اللفظ لأبى داود – عن جندب سنن أبى داود فى كتاب العلم – باب الكلام فـى كتاب ا بغير علم ج٣ ص٣٣ .

أى أرض تقلنى، وأى سماء تظلنى إذا قلت فى كتـاب ا برأيى أو بما لا أعلم .

أبو بكر الصديق .

ثلاثة كتب لا أصل لها: التفسير والمغازى والملاحم .

الإمام أحمد بن حنبل .

ليس المهم الآن تفسير القرآن ولكن تثوير القـرآن لأن فى هذا إعادته إلى رسالته الأولى: إخراج الناس من الظلمات إلى النور .

جمال البنا

لم نتعرض فى هذا الكتاب لدعوى النسخ إلا لصـفحات معدودة لإعطاء القارئ فكرة عامة. أما تفصيل القـول فيـه فسيكون موضوعاً لكتاب بعنوان "تفنيد دعوى النسخ" يصدر فى هذه السلسلة إن شاء ا ...

مُقدِّمة



والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله

فى رجب من عـام ١٤٠٢ هجريـة – مـايو ١٩٨٢ أصدرت كتاب "الأصلان العظيمان – الكتاب والسنة" حـاملاً "رؤية جديدة" لهذين المنبعين العظيمين للإسلام. ورأى الذين أطلعوا عليه أنه يمثل فعلاً رؤية جديدة. فقد كان ختام مرحلة طويلة من التفكير، وتضمن اجتهادات تختلـف عـن الفكـر الشائع والمقرر .

مع هذا، فإن عشرين سنة مضت منذ صـدوره جعلـت الرؤية التى كانت جديدة – قديمة بالنسبة لما انتهى إليه الفكر والاجتهاد طوال عشرين عاماً بحيث حدث تطوير جذرى لما كانت عليه الرؤية فى تلك الفترة السابقة

ولما كانت نسخ "الأصلان العظيمان" قد نفدت من وقت طويل، وألح عدد من الأصدقاء على إعادة طبعه رأيـت أن أحقق مطلبهم بطريقة جديدة تلك هى أن أطبع كل باب مـن أبوابه الهامة على حدة كما صدرت، وأضيف إليها ما تطور إليه الفكر خلال العشرين عاماً وهما يكملان بعضهما – فـلا يفهم التطوير ما لم يفهم الأساس الذى قام عليه هذا التطوير.

وبدأنا بالفصول الثلاثة الأولى التى تشغل الصفحات من ١١٣ إلى ١٢٨ دون تقيد حرفى وهو عن "تفسير القرآن بين القدامى والمحدثين" وكانت تشغل الصفحات مـن ٤٣ إلـى ١٢٨ وكنت قد وقفت فيه عند التفسير العصرى الذى تقدم به الدكتور مصطفى محمود وأوردنا مقـالات الـدكتورة أبنـه الشاطئ التى نقدته فيها .

فأضفنا إليه ما جاء فى الجزء الأول من كتاب "نحو فقه جديد" (وهذا الجزء معظمه عن القـرآن الكـريم). وكـذلك إضافات مما جاء فى كتاب "تثوير القرآن" .

كما زيدت إضافات لم تقيد فى أى كتـاب مـن كتبنـا، وكأنها كانت تنتظر هذه الطبعة فأدرجناها ...

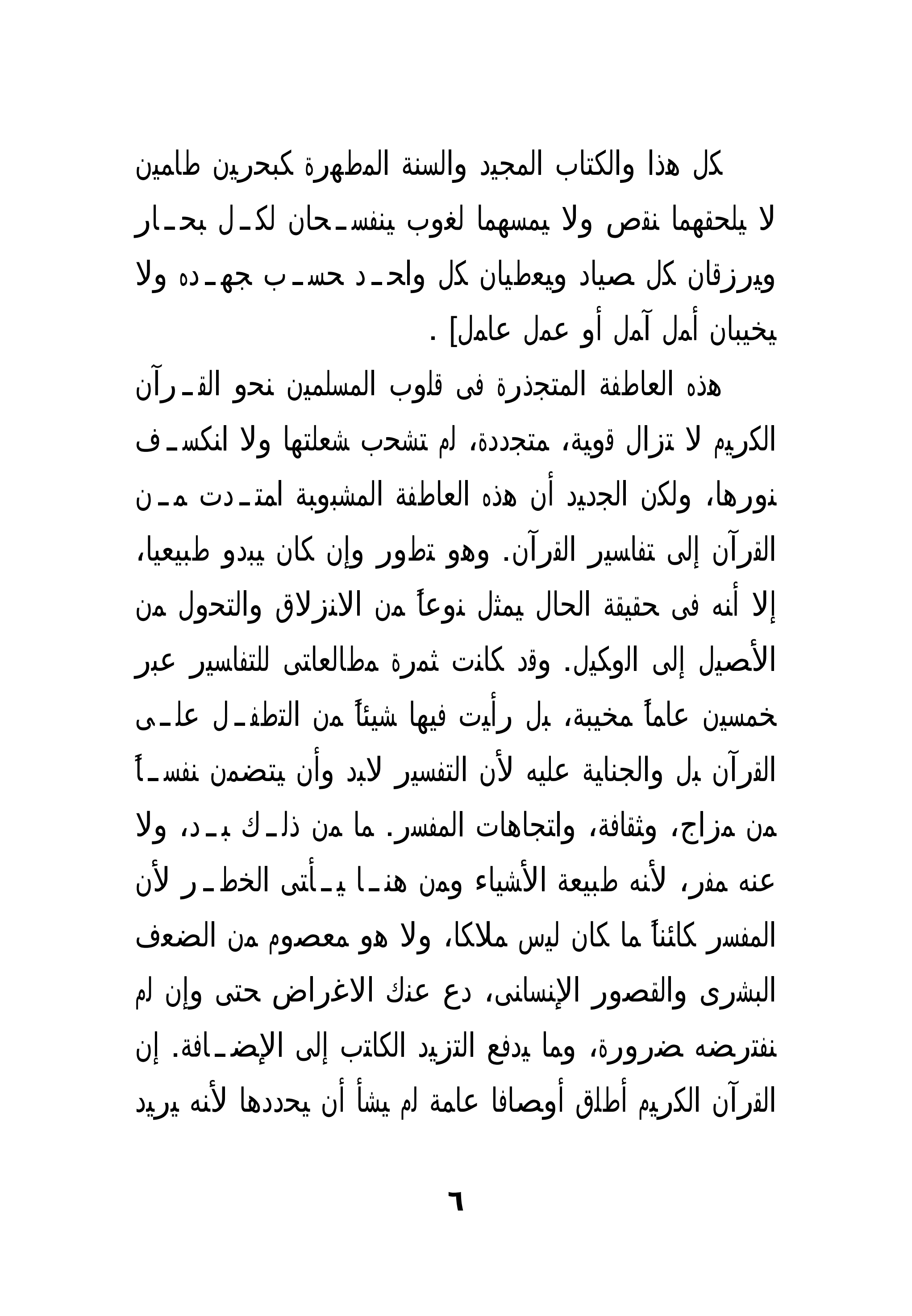
بهذه الإضافات زادت هذه الفصول الثلاثة من كتاب "الأصلان العظيمان" قرابة ضعف الأصل. وأصبح يضع القارئ مع آخر ما أصدرناه عن تفسير القرآن .

* * *

لقد صورنا موقف العلماء قدامى ومحدثين من القرآن الكريم وسنة الرسول فى مقدمة "الأصلان العظيمان" فقلنا :

ما أكثر الكتب والمجلدات التى صدرت عن الكتاب والسنة .

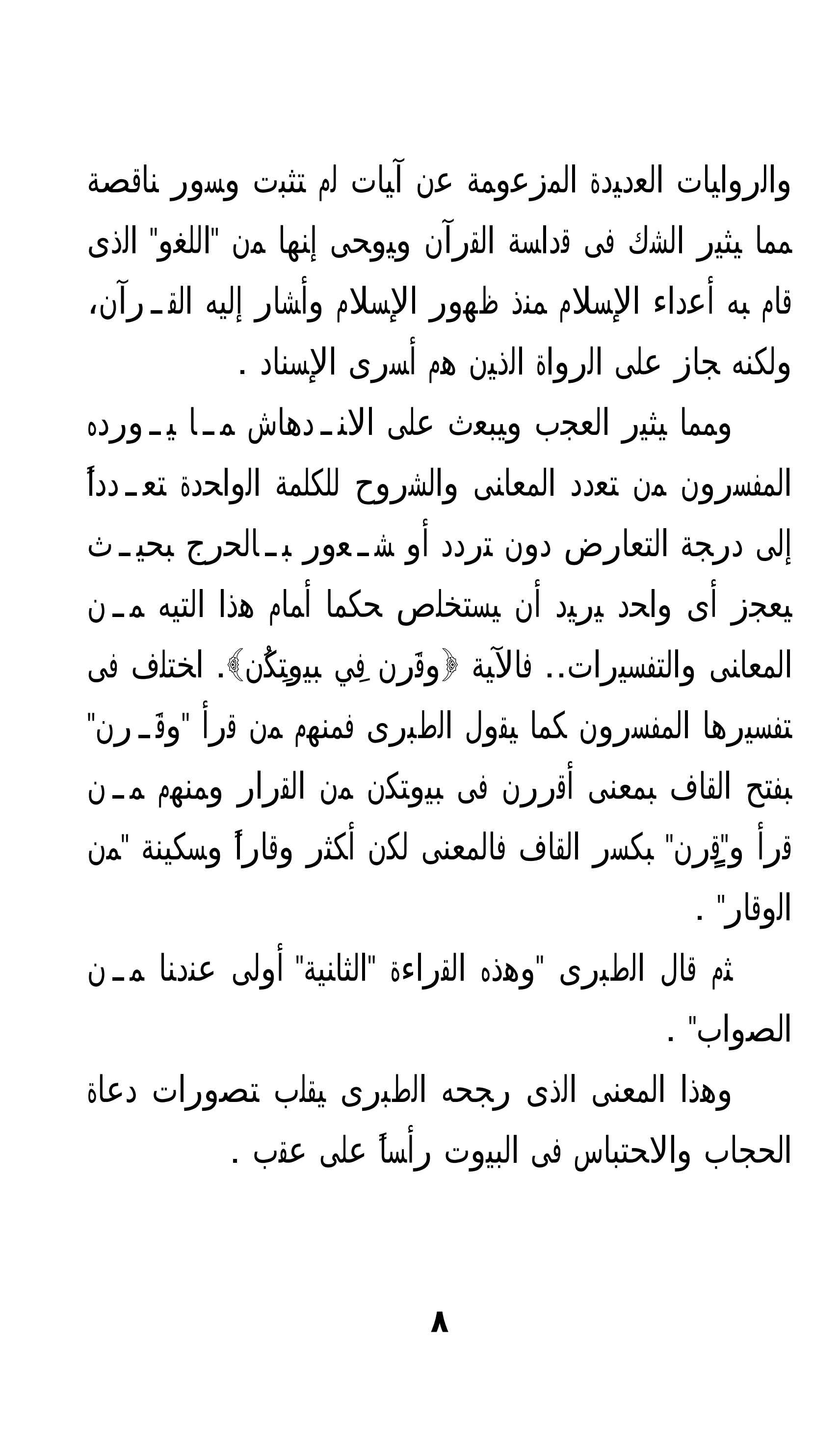
أجيال بعد أجيال وأعمار تلو أعمار طوال أربعة عشر قرنا متوالية وعلى امتداد أربعة أركان الأرض. والعلماء – من أعماق أفريقيا إلى مشارف سيبريا يعكفون على كلام ا وحديث رسوله يحتسبون عند ا ما يلقون من مشقة وما يضحون به من عمر وما يكابدون من سير وترحال بحثا عن مرجع أو تثبتا من حديث... أو سماعا من شيخ ويعتصرون أذهانهم فى شرح غامضه وتيسير عسيره.. وما أن يظن واحد منهم أنه أشفى على الغاية أو قارب النهاية حتى يتبدى أفق جديد لفقيه يبدأ حيث انتهى الأول ثم يتكرر الأمر معه كما تكرر مع من سبقه .



كل هذا والكتاب المجيد والسنة المطهرة كبحرين طامين لا يلحقهما نقص ولا يمسهما لغوب ينفسـحان لكـل بحـار ويرزقان كل صياد ويعطيان كل واحـد حسـب جهـده ولا يخيبان أمل آمل أو عمل عامل] .

هذه العاطفة المتجذرة فى قلوب المسلمين نحو القـرآن الكريم لا تزال قوية، متجددة، لم تشحب شعلتها ولا انكسـف نورها، ولكن الجديد أن هذه العاطفة المشبوبة امتـدت مـن القرآن إلى تفاسير القرآن. وهو تطور وإن كان يبدو طبيعيا، إلا أنه فى حقيقة الحال يمثل نوعاً من الانزلاق والتحول من الأصيل إلى الوكيل. وقد كانت ثمرة مطالعاتى للتفاسير عبر خمسين عاماً مخيبة، بل رأيت فيها شيئاً من التطفـل علـى القرآن بل والجناية عليه لأن التفسير لابد وأن يتضمن نفسـاً من مزاج، وثقافة، واتجاهات المفسر. ما من ذلـك بـد، ولا عنه مفر، لأنه طبيعة الأشياء ومن هنـا يـأتى الخطـر لأن المفسر كائناً ما كان ليس ملاكا، ولا هو معصوم من الضعف البشرى والقصور الإنسانى، دع عنك الاغراض حتى وإن لم نفترضه ضرورة، وما يدفع التزيد الكاتب إلى الإضـافة. إن القرآن الكريم أطلق أوصافا عامة لم يشأ أن يحددها لأنه يريد

لها أن تتجاوب مع التطورات، ومع النفسيات وما تتطور إليه العصور دون أن يكون فى ذلك قسـر أو تطويـع، ولكـن المفسرين يخصصون هذه المعانى العامة بمـا سـبق إلـى أذهانهم أو ما وجدوه تحت أيديهم من شعر منحول أو حديث موضوع أو اقتباس من أهل الكتاب. فإذا قال القرآن ﴿غَيـر الْمغْضوبِ علَيهم ولا الضالين﴾. قالوا اليهـود والنصـارى. وإذا قال ﴿ولا تُؤْتُوا السفَهاء أَموالَكُم﴾. قالوا النساء والصبيان وإذا قال ﴿لَهو الْحدِيثِ﴾. قالوا الغنا، وإذا قـال ﴿ولْيضـرِبن بِخُمرِهِن علَى جيوبِهِن﴾. يروون عن ابن عباس صفة تغطى الرأس ولا تظهر إلا عينا واحدة وإذا قال ﴿الذِي خَلَقَكُم مِـن نَفْسٍ واحِدةٍ﴾. قالوا آدم، وإذا قال ﴿وعلَى الـذِين يطِيقُونَـه فِديةٌ﴾. يضيفون فى شرحهم "لا" وهذا كله حجر على المعنى القرآنى وقول بغير علم دع عنك النسخ الذى جعل المفسرين جزارين يمسكون بسكين ويذبحون الآيات أو ينحونها جانبـا كأن لم تكن. حتى وهى تقرأ من المصحف، ولم اقرأ كتابـا من الكتب التى وضعها المستشرقون المغرضون إلا وأجـد ذكراً لآية السيف التى نسخت قرابة مائة آية من آيات الصفح والسماح والحرية. يستشهدون بها على "وحشـية الإسـلام"،

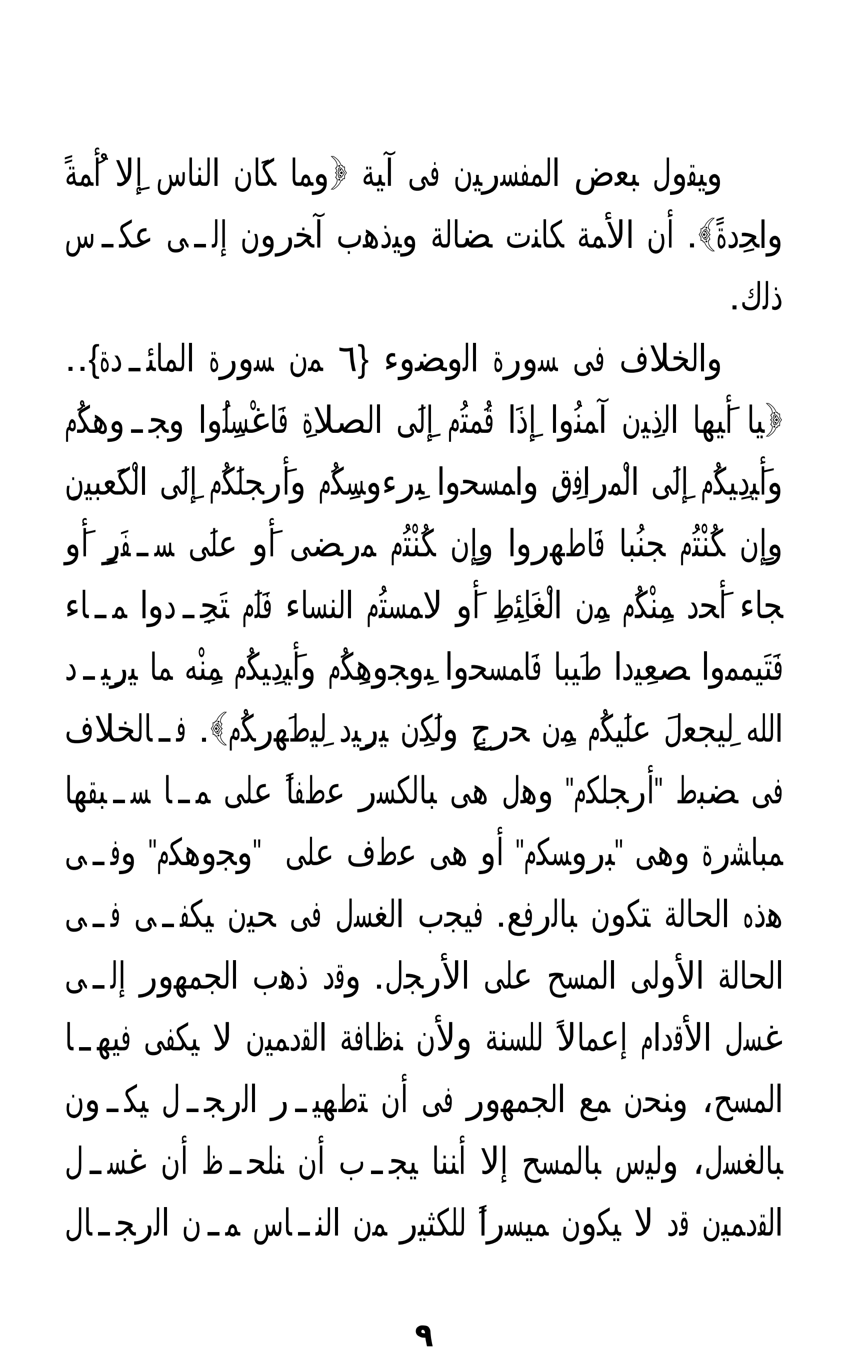


والروايات العديدة المزعومة عن آيات لم تثبت وسور ناقصة مما يثير الشك فى قداسة القرآن ويوحى إنها من "اللغو" الذى قام به أعداء الإسلام منذ ظهور الإسلام وأشار إليه القرآن، ولكنه جاز على الرواة الذين هم أسرى الإسناد .

ومما يثير العجب ويبعث على الاندهاش ما يورده المفسرون من تعدد المعانى والشروح للكلمة الواحدة تعدداً إلى درجة التعارض دون تردد أو شعور بالحرج بحيث يعجز أى واحد يريد أن يستخلص حكما أمام هذا التيه من المعانى والتفسيرات.. فالآية ﴿وقَرن فِي بيوتِكُن﴾. اختلف فى تفسيرها المفسرون كما يقول الطبرى فمنهم من قرأ "وقَرن" بفتح القاف بمعنى أقررن فى بيوتكن من القرار ومنهم من قرأ و"قِرن" بكسر القاف فالمعنى لكن أكثر وقاراً وسكينة "من الوقار" .

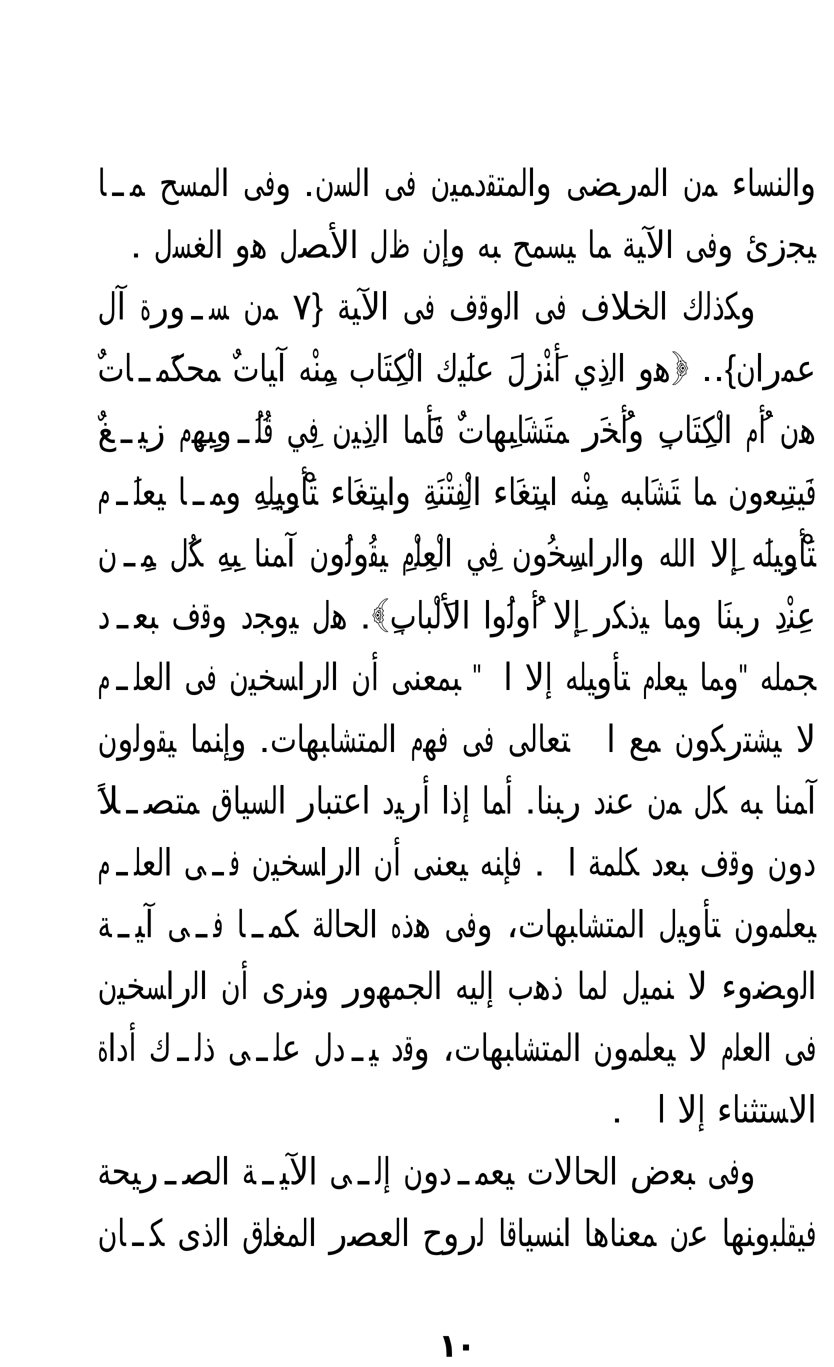
ثم قال الطبرى "وهذه القراءة "الثانية" أولى عندنا من الصواب" .

وهذا المعنى الذى رجحه الطبرى يقلب تصورات دعاة الحجاب والاحتباس فى البيوت رأساً على عقب .



ويقول بعض المفسرين فى آية ﴿وما كان الناس إلا أمةً واحدةً﴾. أن الأمة كانت ضالة ويذهب آخرون إلى عكس ذلك.

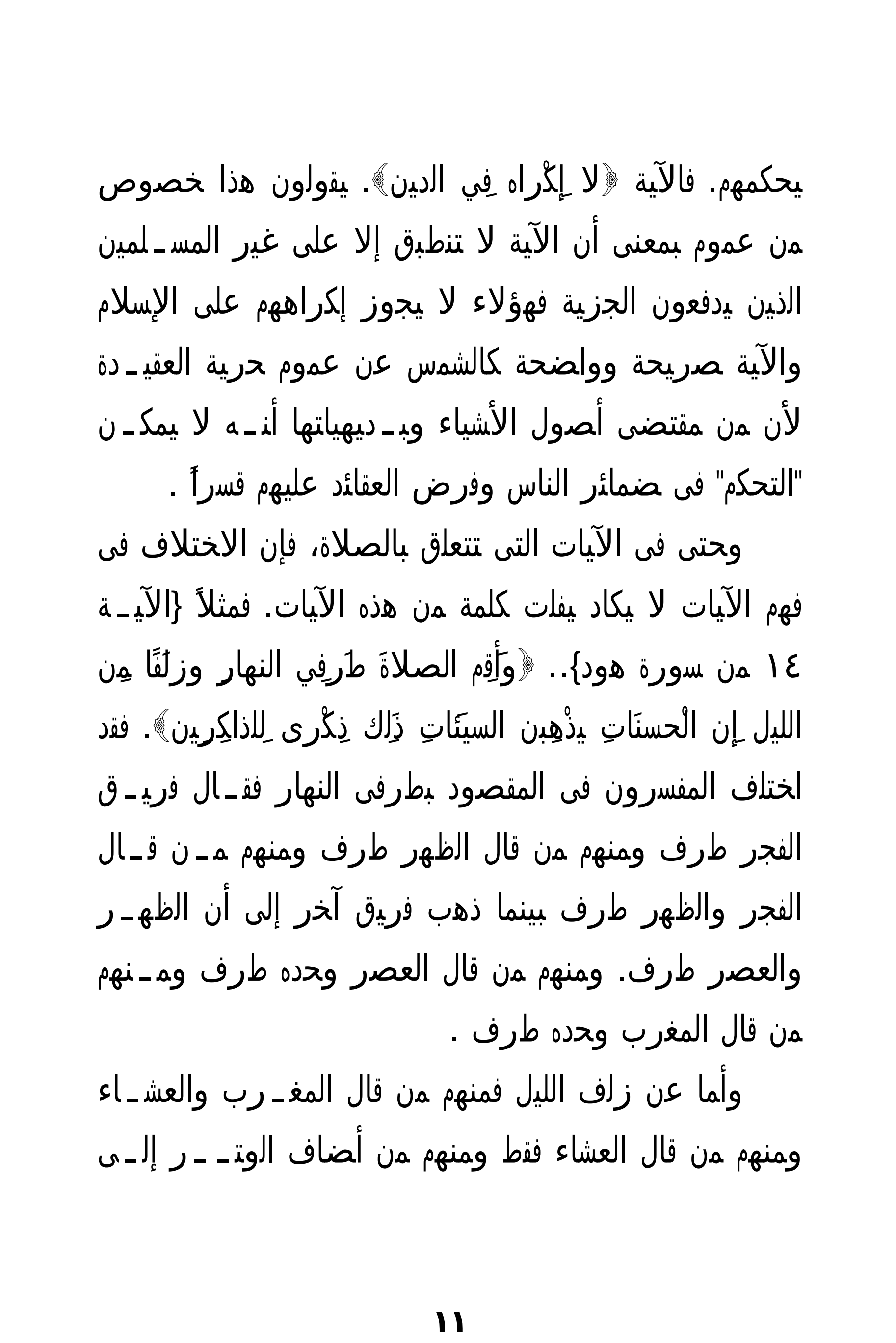
والخلاف فى سورة الوضوء {٦ من سورة المائدة}.. ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وامسحوا برءوسكم وأرجلكم إلى الكعبين وإن كنتم جنبا فاطهروا وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم﴾. فالخلاف فى ضبط "أرجلكم" وهل هى بالكسر عطفاً على ما سبقها مباشرة وهى "بروسكم" أو هى عطف على "وجوهكم" وفى هذه الحالة تكون بالرفع. فيجب الغسل فى حين يكفى فى الحالة الأولى المسح على الأرجل. وقد ذهب الجمهور إلى غسل الأقدام إعمالاً للسنة ولأن نظافة القدمين لا يكفى فيها المسح، ونحن مع الجمهور فى أن تطهير الرجل يكون بالغسل، وليس بالمسح إلا أننا يجب أن نلحظ أن غسل القدمين قد لا يكون ميسراً للكثير من الناس من الرجال



والنساء من المرضى والمتقدمين فى السن. وفى المسح مـا يجزئ وفى الآية ما يسمح به وإن ظل الأصل هو الغسل .

وكذلك الخلاف فى الوقف فى الآية {٧ من سـورة آل عمران}.. ﴿هو الذِي أَنْزلَ علَيك الْكِتَاب مِنْه آياتٌ محكمـاتٌ هن أُم الْكِتَابِ وأُخَر متَشَابِهاتٌ فَأَما الذِين فِي قُلُـوبِهم زيـغٌ فَيتبِعون ما تَشَابه مِنْه ابتِغَاء الْفِتْنَةِ وابتِغَاء تَأْوِيلِهِ ومـا يعلَـم تَأْوِيلَه إِلا الله والراسِخُون فِي الْعِلْمِ يقُولُون آمنا بِهِ كُلٌ مِـن عِنْدِ ربنَا وما يذكر إِلا أُولُوا الأَلْبابِ﴾. هل يوجد وقف بعـد جمله "وما يعلم تأويله إلا ا " بمعنى أن الراسخين فى العلـم لا يشتركون مع ا تعالى فى فهم المتشابهات. وإنما يقولون آمنا به كل من عند ربنا. أما إذا أريد اعتبار السياق متصـلاً دون وقف بعد كلمة ا . فإنه يعنى أن الراسخين فـى العلـم يعلمون تأويل المتشابهات، وفى هذه الحالة كمـا فـى آيـة الوضوء لا نميل لما ذهب إليه الجمهور ونرى أن الراسخين فى العلم لا يعلمون المتشابهات، وقد يـدل علـى ذلـك أداة الاستثناء إلا ا .

وفى بعض الحالات يعمـدون إلـى الآيـة الصـريحة فيقلبونها عن معناها انسياقا لروح العصر المغلق الذى كـان



يحكمهم. فالآية ﴿لا إكْراه فِي الدين﴾. يقولون هذا خصوص من عموم بمعنى أن الآية لا تنطبق إلا على غير المسلمين الذين يدفعون الجزية فهؤلاء لا يجوز إكراههم على الإسلام والآية صريحة وواضحة كالشمس عن عموم حرية العقيدة لأن من مقتضى أصول الأشياء وبديهياتها أنه لا يمكن "التحكم" فى ضمائر الناس وفرض العقائد عليهم قسراً .

وحتى فى الآيات التى تتعلق بالصلاة، فإن الاختلاف فى فهم الآيات لا يكاد يفلت كلمة من هذه الآيات. فمثلاً {الآية ١٤ من سورة هود}.. ﴿وأَقِم الصلاةَ طَرفِي النهارِ وزلَفًا مِن الليل إِن الْحسنَاتِ يذْهِبن السيئَاتِ ذَلِك ذِكْرى لِلذاكِرِين﴾. فقد اختلف المفسرون فى المقصود بطرفى النهار فقال فريق الفجر طرف ومنهم من قال الظهر طرف ومنهم من قال الفجر والظهر طرف بينما ذهب فريق آخر إلى أن الظهر والعصر طرف. ومنهم من قال العصر وحده طرف ومنهم من قال المغرب وحده طرف .

وأما عن زلف الليل فمنهم من قال المغرب والعشاء ومنهم من قال العشاء فقط ومنهم من أضاف الوتر إلى

المغرب والعشاء ومنهم من أضاف الفجـر إلى المغـ ـرب والعشاء .

﴿أَقِم الصلاةَ لِدلُوكِ الشمسِ إِلَى غَسق الليل وقُرآن الْفَجرِ إِن قُرآن الْفَجرِ كَان مشْهودا﴾عن دلوك الشمس إلـى غسـق الليل {فى الآية ٧٨ من سورة الإسراء} فقد قال البعض دلوك الشمس الظهر ومنهم من قال المغرب ومنهم من قال الظهر والعصر. وعن غسق الليل قيـل العشـاء وقيـل المغـرب والعشاء[1] .

وأضيف إلى الناسخ والمنسوخ، وأسباب النزول وغيرها من "علوم القرآن" "علم" آخر هو القراءات التى لم تقف عنـد اختلاف كتابة أو نطق بعض الكلمات لأن لهجة قريش لم تكن لهجة العرب كافة.. وهى جزئية كان لابد وأن يـذهب بهـا التطور كأن تقرأ ﴿وإِذَا قَاموا إِلَى الصـلاةِ قَـاموا كُسـالَى يراءون الناس ولا يذْكُرون الله إِلا قَلِيلاً﴾. {١٤٢ النسـاء}.. بفتح "كسالى" وهى لغة تميم وأسد أو ﴿هيهاتَ هيهـاتَ لِمـا تُوعدون﴾. {٣٦ المؤمنون}.. بكسر التائين، وهى لغة تمـيم وأسد ومثل ﴿وزِنُوا بِالْقِسطَاسِ الْمستَقِيمِ ذَلِك خَيـر وأَحسـن

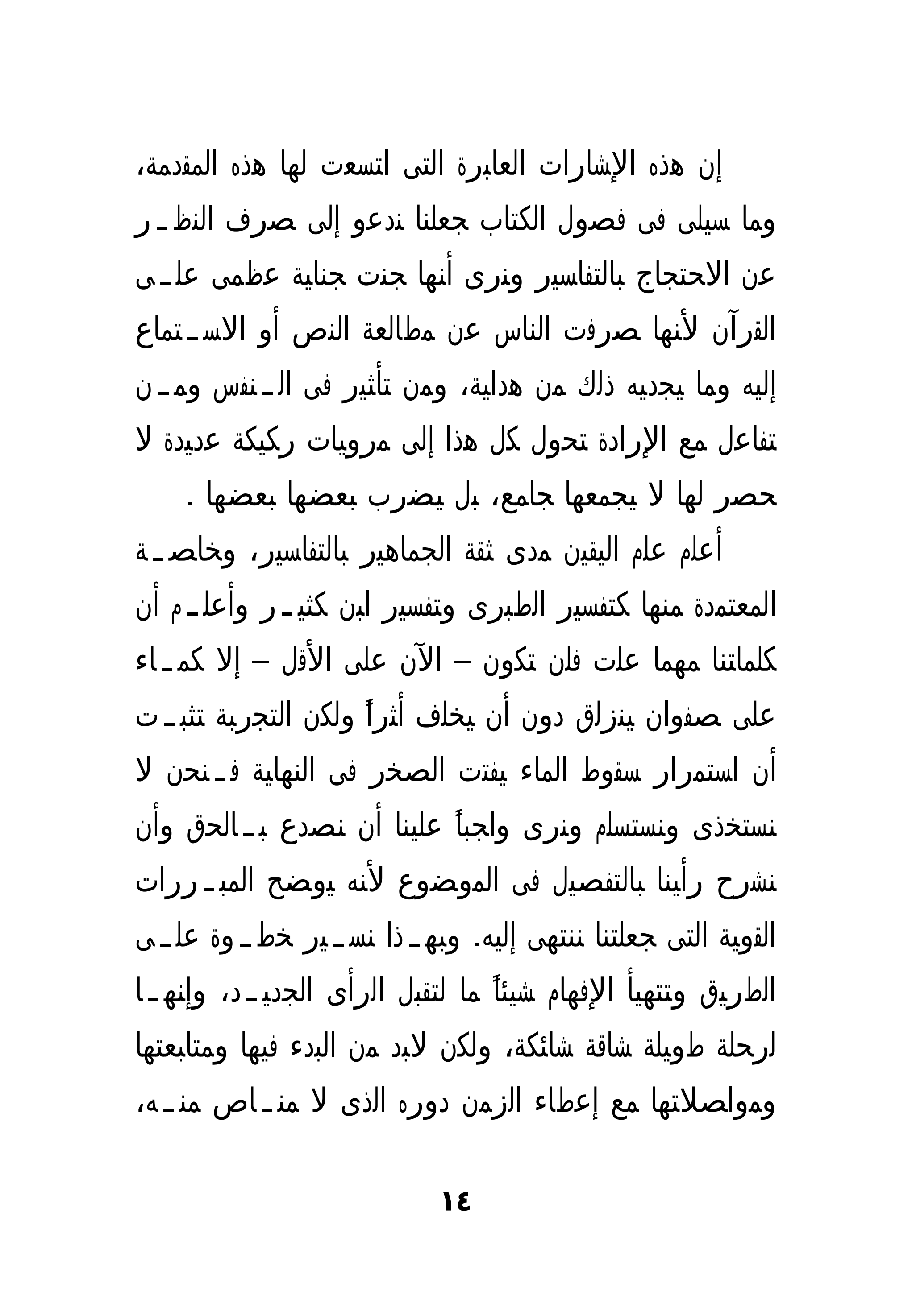
---

(١) أنظر هذه الحالات وكثير غيرها فى كتاب "إشـكاليات الخطـاب الـدينى للدكتور محمد السعيد" الصفحات ١١٩ وما بعدها .

تأْوِيلاً﴾. {٣٥ الإسراء}.. فقد قرأ الـبعض بكسـر القـاف والبعض الآخر بفتحها ومثل "حتى يقول الرسول" بفتح اللام وضمها أو "لا بيع فيه، ولا خلة، ولا شفاعة" برفع الأسـماء الثلاثة أو فتحها، نقول إن الأمر لم يقف عند هذا، فقد تعـدى إلى إضافة أو حذف كلمات كما فى سورة الليل ﴿والليـل إِذَا يغْشَى. والنهار إذا تجلى والذكر والأنْثَـى﴾. وقيـل أن أبـا الدرداء كان يقرأها كذلك "أى بدون وما خلـق" وأراد أحـد الأسلاف أن يلتمس له العذر فقال باحتمال نسخها ولم يبلغ أبا الدرداء هذا النسخ فكان عذراً أقبح من الذنب يحـذف ومـا خلق، ومثل قراءة بن مسعود فى سورة النساء أن ا لا يظلم مثقال نملة، بدلاً من مثقال ذرة. ومثل ما قيل عن أن عبد ا بن عباس كان يقرأ فيما استمتعتم به (إلـى أجـل مسـمى) فآتوهن أجورهن. وبهذا يمكن استحلال زواج المتعة .

وكما فى قراءة شنبوذ فى سورة الكهف، وكأن يأخذ كل سفينة صالحة غصبا ومثل قراءة الكوفيين فتثبتوا فى سورتى النساء والحجرات بدلاً من فتبينوا .

* * *



إن هذه الإشارات العابرة التى اتسعت لها هذه المقدمة، وما سيلى فى فصول الكتاب جعلنا ندعو إلى صرف النظـر عن الاحتجاج بالتفاسير ونرى أنها جنت جناية عظمى علـى القرآن لأنها صرفت الناس عن مطالعة النص أو الاسـتماع إليه وما يجديه ذلك من هداية، ومن تأثير فى الـنفس ومـن تفاعل مع الإرادة تحول كل هذا إلى مرويات ركيكة عديدة لا حصر لها لا يجمعها جامع، بل يضرب بعضها بعضها .

أعلم علم اليقين مدى ثقة الجماهير بالتفاسير، وخاصـة المعتمدة منها كتفسير الطبرى وتفسير ابن كثيـر وأعلـم أن كلماتنا مهما علت فلن تكون – الآن على الأقل – إلا كمـاء على صفوان ينزلق دون أن يخلف أثراً ولكن التجربة تثبـت أن استمرار سقوط الماء يفتت الصخر فى النهاية فـنحن لا نستخذى ونستسلم ونرى واجباً علينا أن نصدع بـالحق وأن نشرح رأينا بالتفصيل فى الموضوع لأنه يوضح المبـررات القوية التى جعلتنا ننتهى إليه. وبهـذا نسـير خطـوة علـى الطريق وتتهيأ الإفهام شيئاً ما لتقبل الرأى الجديـد، وإنهـا لرحلة طويلة شاقة شائكة، ولكن لابد من البدء فيها ومتابعتها ومواصلاتها مع إعطاء الزمن دوره الذى لا منـاص منـه،

فالزمن جزء من العلاج كما كان يقول الإمام الشهيد حسـن البنا. وعلينا أن نقوم بـدورنا دون كـلال.. ولكـن دون أن نستكثر.. أو نستعجل.. فإن لكل شىء مستقر، ولـيس مـن المفروض علينا أن ننجح، أو أن نتوصل إلى هدايـة النـاس ﴿إنك لا تَهدِي من أَحببتَ ولَكِن الله يهدِي من يشَـاء﴾، ولا يعنينا أن يتم الانتصار على أيدينا أو فى حياتنا "فهذا مستبعد" وحسبنا أنا فتحنا الطريق، ولا يخالجنا شك أن النصـر فـى النهاية سيكون للحق لأن ا تعالى كفله.﴿ فَأما الزبد فَيـذْهب جفَاء وَأما ما ينفَع الناس فَيمكُثُ فِي الأَرضِ﴾ .

ولو كان الأمر بيدى لقات لقومى – كما قال هود ..

﴿وما أُرِيد أَن أُخَالِفَكُم إِلَى ما أَنْهاكُم عنْـه إِن أُرِيـد إِلا الإِصلاح ما استَطَعتُ وما تَوفِيقِي إِلا بِاللهِ علَيهِ تَوكلْتُ وإِلَيهِ أُنِيب﴾. {٨٨ هود} ..

جمال البنا

القاهرة في : رمضان ١٤٢٤ هـ

أكتـوبر ٢٠٠٣ م

الباب الأول

تفسير القرآن الكريم لدى المفسرين القدامى

الفصل الأول

بين يدى القرآن الكريم

رأينا أن من الخير قبل أن نبدأ الحـديث عـن تفسـير القرآن الكريم أن نقدم بين يدى هذا الموضوع تعريفاً لبعض خصائص القرآن بما فى ذلك الرد على بعض التساؤلات مثل لماذا أنزل القرآن بالعربية وما هـى خصـائص الصـياغة القرآنية وسر الإعجاز الخ... حتى يتهيأ القارئ نفسيا وفكريا لتفهم ما سيلى عن التفسير ..

– ١ –

لماذا أنزل القرآن باللغة العربية ؟

لما كان القرآن هو معجزة الإسلام الذى أحله ا محـل المعجزات القديمة للأديان السابقة وردّ على العـرب الـذين طالبوا بمثل هذه المعجزات ﴿وقَالُوا لَولا أُنْزِلَ عليهِ آياتٌ مِن ربهِ قُلْ إنما الآياتُ عِنْد اللهِ وإنما أَنَا نَذِير مبـين(٥٠) أَولَـم

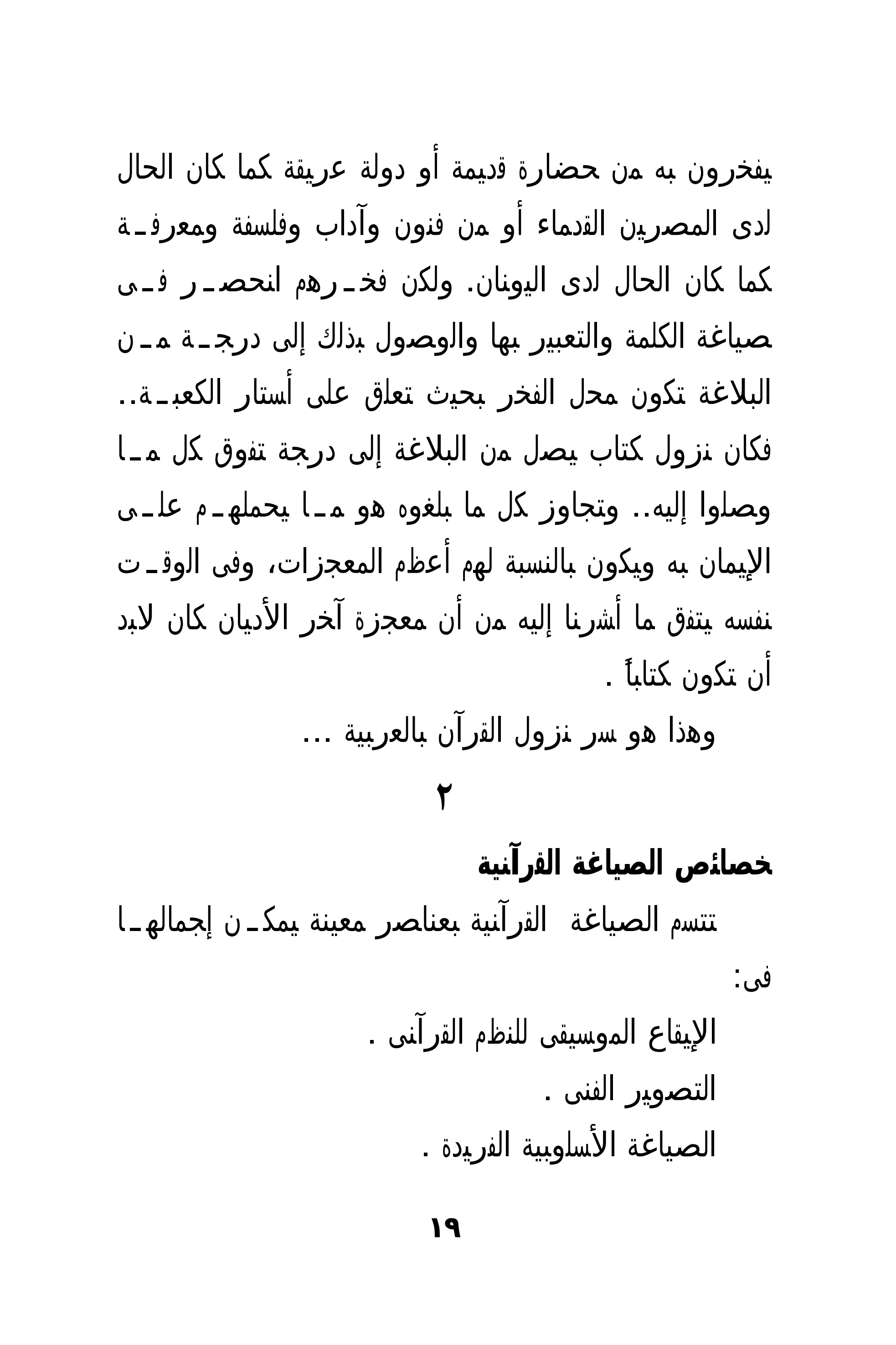
يكْفِهِم أَنا أَنْزلْنَا علَيك الْكِتَاب يتْلَى علَيهِم إِن فِي ذَلِك لَرحمةً وذِكْرى لِقَومٍ يؤْمِنُون﴾. {٥١ العنكبوت} ..

فهذه الآية الأخيرة جعلت فى القرآن الكفاية من المعجزات وفسرت ذلك بأن فيه الرحمة والذكرى ويمكن حتى للذين لا يؤمنون بالمعجزات الاحتجاج بها، لأن مثول الرحمة والذكرى بين الناس هو أكبر معجزة .

ومع أن الإسلام أنزل للناس جميعا إلا أنه كان لابد أن يتوجه أولا إلى قوم معينين وأن ينزل القرآن بلغة معينة. وقد اصطفى ا العرب والعربية لأن هذا الاصطفاء كان يتفق مع ما أراده ا للإسلام من أن يكون آخر الأديان وأشملها إذ أن مثل هذا الدين الذى لن يأتى بعده دين ولن تأتى معه معجزة كان لابد أن يكون ذا معجزة دائمة خالدة باقية مع الناس – ما بقوا، كذلك أن تكون هذه المعجزة متفقة مع ما ستبلغه البشرية من رشد وما ستكون عليه من رقى بفضل العلم والمعرفة بوجه خاص، كان لابد إذن أن تكون معجزة آخر الأديان وأبقاها "كتابا" يعيش مع الناس ما عاشوا... ويتفق مع مستواهم الفكرى بحيث كلما تقدموا وجدوا أن هذا الكتاب لا يتخلف عنهم بل هو آونة معهم وآونة أخرى أمامهم بحيث

يأخذون منه ما يفهمون وما يتفق معهم ويجدون فيه ما قد لا يفهمونه تماما لأن فهمه من حظ أجيال تأتى بعدهم ويتـوفر لهم علم أكثر وهذا كله يستبعد أن تكـون معجـزة الإسـلام "حدثا" مثل إحياء الموتى أو شفاء المرضى أو ضرب البحر بالعصا فينفلق كل فرق كالطود العظيم.. لأن هذه الأحـداث العظام وإن أقنعت المعاصرين لها فإنهـا تكـون غيـر ذات معنى للأجيال التالية التى لم تعاصرها وتشهدها وإنما كانـت هذه المعجزات سائغة لأن هذه الأديان كانت مرحلية.. أمـا بالنسبة للدين الأخير الدائم فكان لابد أن تكون معجزته – كما ذكرنا – كتابا يجد فيه كل جيـل هـدى ورحمـة ومعرفـة وحكمة.. وفى شرح هذا المعنى قال صاحب الوفا "فلو قـال ملحد اليوم أى دليل على صدق محمد وموسى فقيل له محمد شق له القمر وموسى شق له البحر لقال هذا محال. فجعل ا سبحانه وتعالى هذا القرآن معجزا لمحمد ليظهر دليل صدقه بعد وفاته وجعله دليلا على صدق الأنبياء إذ هو مصدق لهم ومخبر عن حالهم" .

فلما تعين هذا تعين بالتالى أن يتنزل هذا الكتاب علـى العرب.. وأن يكون بالعربية. لأن العرب لم يكن لهـم مـا



يفخرون به من حضارة قديمة أو دولة عريقة كما كان الحال لدى المصرين القدماء أو من فنون وآداب وفلسفة ومعرفة كما كان الحال لدى اليونان. ولكن فخرهم انحصر فى صياغة الكلمة والتعبير بها والوصول بذلك إلى درجة من البلاغة تكون محل الفخر بحيث تعلق على أستار الكعبة.. فكان نزول كتاب يصل من البلاغة إلى درجة تفوق كل ما وصلوا إليه.. وتجاوز كل ما بلغوه هو ما يحملهم على الإيمان به ويكون بالنسبة لهم أعظم المعجزات، وفى الوقت نفسه يتفق ما أشرنا إليه من أن معجزة آخر الأديان كان لابد أن تكون كتاباً .

وهذا هو سر نزول القرآن بالعربية ...

٢

خصائص الصياغة القرآنية

تتسم الصياغة القرآنية بعناصر معينة يمكن إجمالها فى:

الإيقاع الموسيقى للنظام القرآنى .

التصوير الفنى .

الصياغة الأسلوبية الفريدة .

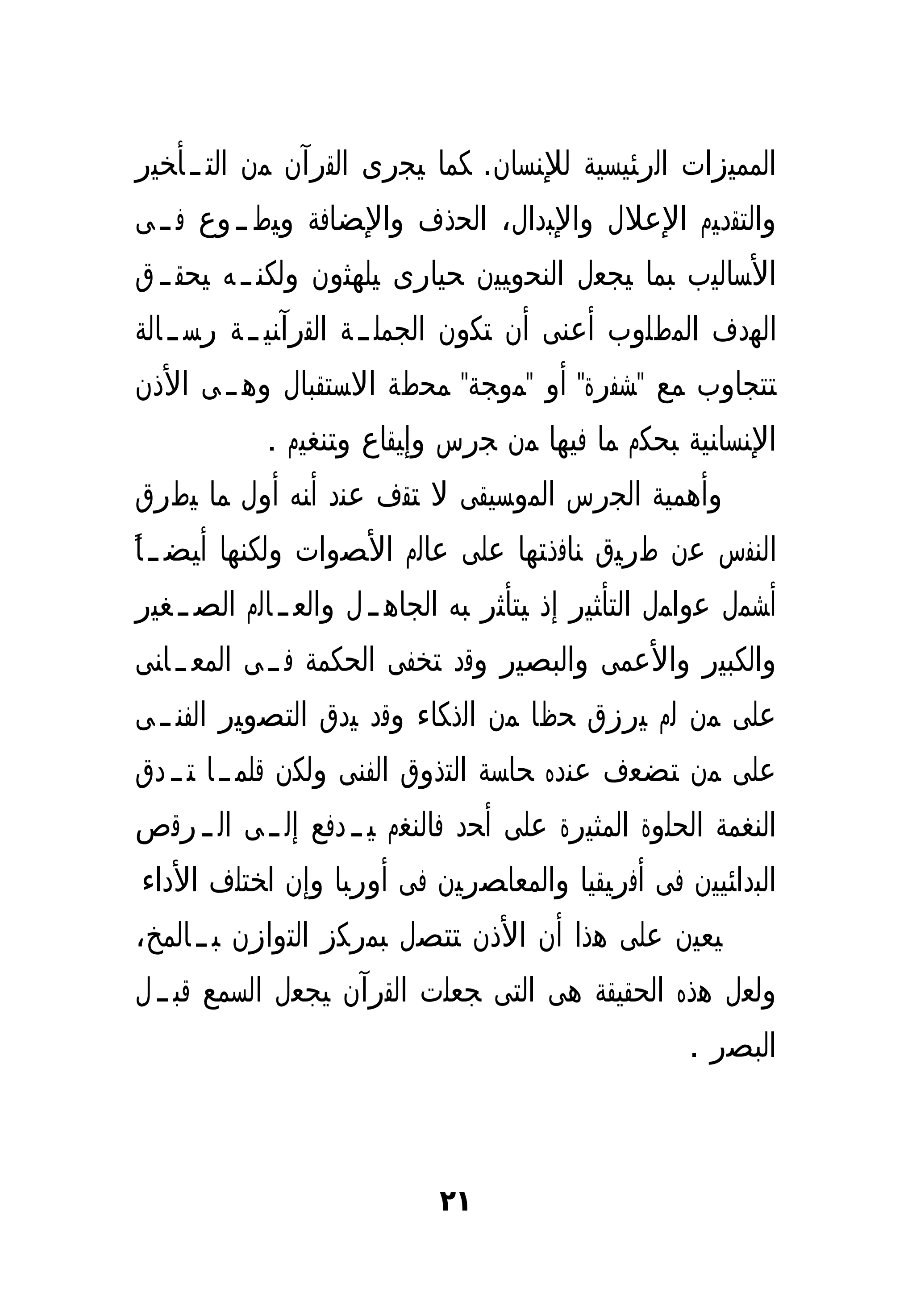
البعد عن التفاصيل والسرد الممل .

استخدام وسائل التأثير النفسية (السيكولوجية) .

وأخيراً إبراز القيم باعتبارها المرجعية فى الأعمال .

نحن نعنى بالإيقاع الموسيقى للنظم القرآنى: أن الكلمات والألفاظ اختيرت اختيارا خاصـا بحيـث يحقـق التنـاغم الموسيقى مدا وغنا وارتفاعا وانخفاضا فالكلمات الثلاثة ﴿مِن الْمُؤْمِنِين رِجالٌ صدقُوا﴾. على سبيل المثال تضم الحركـات الثلاث للكسر والفتح والضم مشبعة وكأنها درجات فى سـلم موسيقى ويمكن أن توضع فى نوتة موسيقية طبقا "لتون" كل كلمة وقد كانت هذه الحقيقة هى أصل نشأة علم التجويد. الذى كان بدوره أصل التلحين فى الموسيقى العربية وكان كبـار الملحنين هم كبار القراء .

وقد يبدأ القرآن بعض سوره بكلمة تمثل بعض الحروف (ألف لام ميم) أو (طاء سين ميم) وكأنها استهلال موسـيقى لإثارة الاهتمام ولإحداث الأثر الإيقاعى لما فى هذه الحروف من مد وكسر فضلا عما فى هذا الاستهلال من إبـداع لـم يسبق إليه أو يلحق به، وما يوحى به من قسـم بـالحروف وكأنها شفرة "للكلمة" المكتوبة، أو المقروءة، وهـى إحـدى



المميزات الرئيسية للإنسان. كما يجرى القرآن من التـأخير والتقديم الإعلال والإبدال، الحذف والإضافة ويطـوع فـى الأساليب بما يجعل النحويين حيارى يلهثون ولكنـه يحقـق الهدف المطلوب أعنى أن تكون الجملـة القرآنيـة رسـالة تتجاوب مع "شفرة" أو "موجة" محطة الاستقبال وهـى الأذن الإنسانية بحكم ما فيها من جرس وإيقاع وتنغيم .

وأهمية الجرس الموسيقى لا تقف عند أنه أول ما يطرق النفس عن طريق نافذتها على عالم الأصوات ولكنها أيضـاً أشمل عوامل التأثير إذ يتأثر به الجاهـل والعـالم الصـغير والكبير والأعمى والبصير وقد تخفى الحكمة فـى المعـانى على من لم يرزق حظا من الذكاء وقد يدق التصوير الفنـى على من تضعف عنده حاسة التذوق الفنى ولكن قلمـا تـدق النغمة الحلوة المثيرة على أحد فالنغم يـدفع إلـى الـرقص البدائيين فى أفريقيا والمعاصرين فى أوربا وإن اختلاف الأداء

يعين على هذا أن الأذن تتصل بمركز التوازن بـالمخ، ولعل هذه الحقيقة هى التى جعلت القرآن يجعل السمع قبـل البصر .

كما يجب الإشارة إلـى أن الإيقـاع الموسـيقى يسـر الاستمتاع بقراءة القرآن والتعبـد بتلاوتـه وسـهل حفظـه والاستشهاد به فى المناسبات والخطب والأحاديث وتكـوين الملكة الأسلوبية التى يتوفر لها الإيقاع والبلاغة .

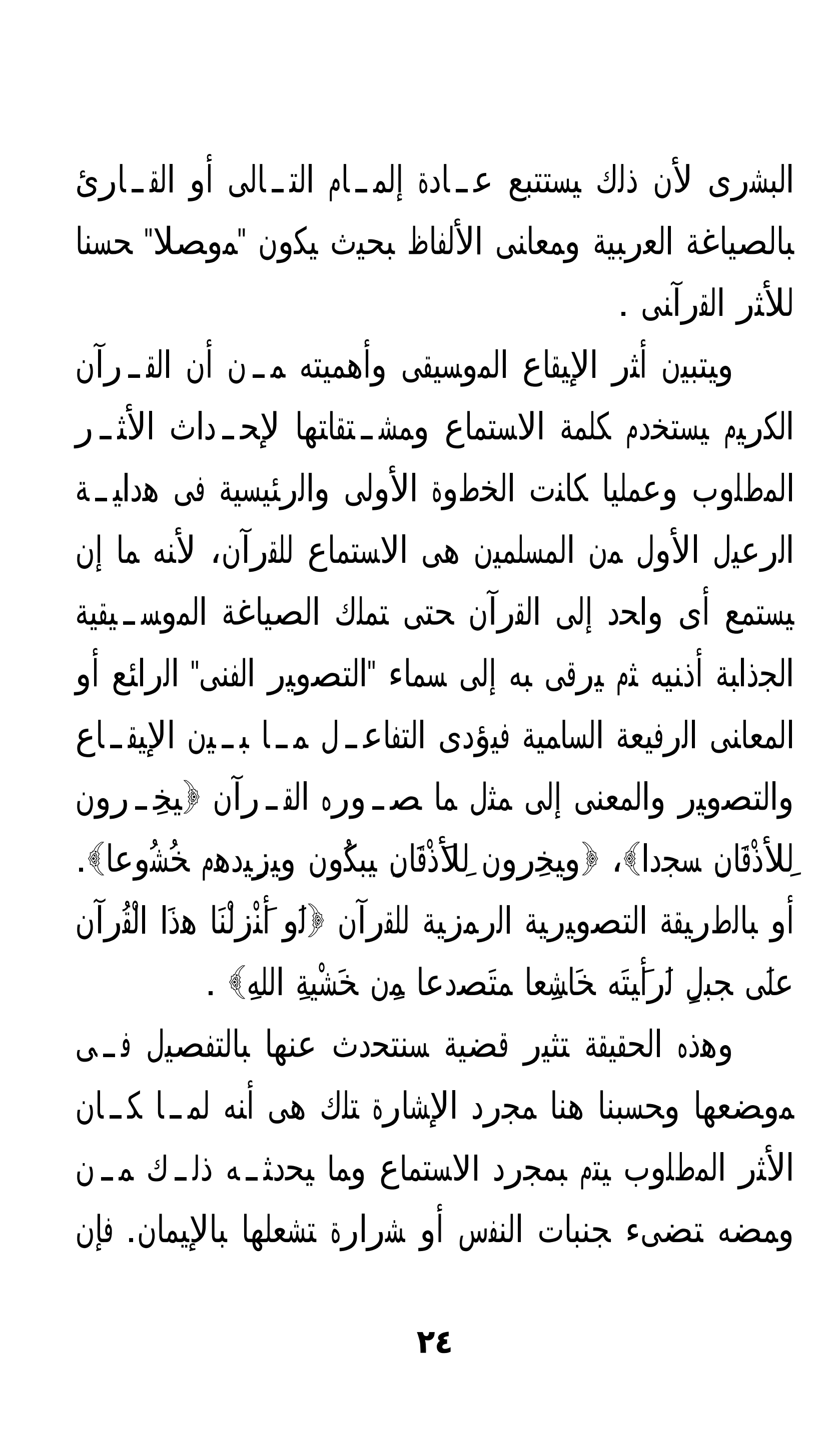
فإذا كانت الصياغة الموسيقية قد وسعت من التصـرف النحوى ويسرت الاستمتاع بقراءة القرآن وحفظه والاستشهاد به فلا يقل عن هذا أهمية أنها كانت فى أصل نشأة الموسيقى العربية. وعلم التجويد هو أساسا علـم موسـيقى وإذا أريـد لمعاهد الموسيقى والكونسرفتوار أن تتوصل إلـى موسـيقى عربية فإن أحد المكونات الرئيسية التى تكفـل لهـا العـرق العربى هو التجويد الذى يجب أن يدرس لطلاب وطالبـات هذه المعاهد وبدون هذه المادة يمكـن أن يقحـم فـى عـالم الموسيقى نمط غريب تنبو عنه الأذن العربية ولا يكون مـن مبرر للأخذ به إلا مجرد التقليد. وليس فى هذا الاقتـراح أى غرابة أو حتى تجديد. لأن كبار الموسيقيين المصرين تتلمذوا على أيدى كبار القراء وكان هؤلاء القراء أنفسهم يجمعـون بين قراءة القرآن وإنشاد المدائح ويقومون بتلحين الأغـانى وقد تتلمذ المغنيان البارزان عبد الوهـاب وأم كلثـوم علـى

أيديهم وتأثرت أم كلثوم بوجه خاص بأستاذها الأول الشـيخ أبو العلا تأثرا كبيرا، بل إن الأستاذ فتحى رضوان روى أنه سمع سيدة إنجليزية كانت مشغولة بفن البالية وطافت الـبلاد الإسلامية بحثا عن موضوعات للبالية من التراث الإسـلامى وهى تتلو سورة النجم وتردد آياتها ورأسها تتمايل مع إيقاع الآيات وقال "وقد خيل إلى وأنا أسمع هـذا اللفـظ القرآنـى المبين على لسان هذه الأعجمية التى لا تكاد تنطق القافـات والعينات إلا بشق الأنفس أننى أسمع هـذه السـورة للمـرة الأولى وحسبت أن هذه السيدة تصـطنع النشـوة والبهجـة الوجدانية لولا أن الانفعال بقى فترة غالبا عليها وهى تحاول أن تضبط شعورها وقد مدت يدها خلسة وفيها منديل صغير لتموه عبرة ترقرقت فى عيونها"[(١)] .

على أن حديثنا عن الإيقاع الموسيقى للـنظم القرآنـى يجب أن لا يلفتنا عن الطبيعة الفريدة لهذه الموسـيقى وأنهـا تختلف عن مألوف الموسيقى فهى لم تصطحب أبدا بالآلات، ولا ينتظر أن يحدث شىء كهذا رغم أن المقرئين كانوا فـى فترة معينة هم الملحنين الموسيقيين وإنما ارتبطت بالصـوت

---

(١) آراء حرة فى الدين والحياة للأستاذ فتحـى رضـوان – كتـاب الهـلال ص٧٦- ٧٧ .



البشرى لأن ذلك يستتبع عادة إلمام التالى أو القارئ بالصياغة العربية ومعانى الألفاظ بحيث يكون "موصلا" حسنا للأثر القرآنى .

ويتبين أثر الإيقاع الموسيقى وأهميته من أن القرآن الكريم يستخدم كلمة الاستماع ومشتقاتها لإحداث الأثر المطلوب وعمليا كانت الخطوة الأولى والرئيسية فى هداية الرعيل الأول من المسلمين هى الاستماع للقرآن، لأنه ما إن يستمع أى واحد إلى القرآن حتى تملك الصياغة الموسيقية الجذابة أذنيه ثم يرقى به إلى سماء "التصوير الفنى" الرائع أو المعانى الرفيعة السامية فيؤدى التفاعل ما بين الإيقاع والتصوير والمعنى إلى مثل ما صوره القرآن ﴿يخِرون لِلأذْقَانِ سجدا﴾، ﴿ويخِرون لِلأذْقَانِ يبكُون ويزِيدهم خُشُوعا﴾. أو بالطريقة التصويرية الرمزية للقرآن ﴿لَو أَنْزلْنَا هذَا الْقُرآن علَى جبلٍ لَرأَيتَه خَاشِعا متَصدعا مِن خَشْيةِ اللهِ﴾ .

وهذه الحقيقة تثير قضية سنتحدث عنها بالتفصيل فى موضعها وحسبنا هنا مجرد الإشارة تلك هى أنه لما كان الأثر المطلوب يتم بمجرد الاستماع وما يحدثه ذلك من ومضه تضىء جنبات النفس أو شرارة تشعلها بالإيمان. فإن

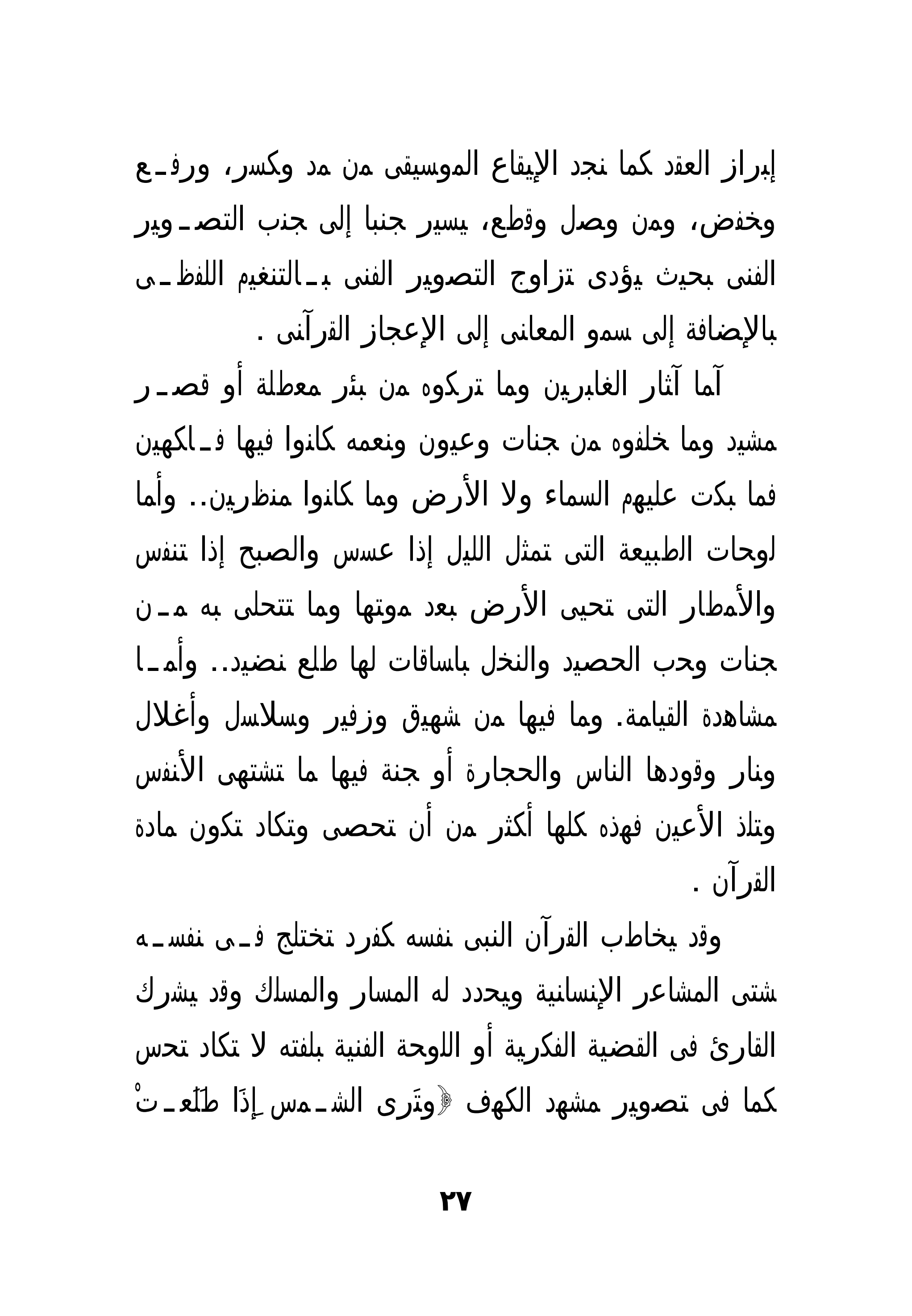
"التفسير" وما أطنبوا فيه من "علوم القـرآن" قـد لا تكـون بالأهمية المظنونة بل إنها يمكن أن تذهب به فى متاهـات لا تخلو من لبس أو فضول أو تكاف أو غير ذلك من المزالق .

ويحرص القرآن أن تأخذ آياته "تصويراً فنيـاً فتسـاق الوقائع والأحداث والمشاهد والمعانى والتوجيهات فى معالجة فنية مع الاحتفاظ بموسيقية النظم بحيث تصبح كل مجموعـة من الآيات لوحة فنية تنضح بالألوان وتنبض بالحيـاة ومـن العسير الاستشهاد بأمثلة على ذلك لتعددها ولكثرتها، ولأنهـا تكاد تكون المعالجة الغالبة وقد يصور ذلك هذه الآيات .

﴿الله نُور السماواتِ والأَرضِ مثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهـا مِصباح الْمِصباح فِي زجاجةٍ الزجاجةُ كَأَنها كَوكَب دري يوقَد مِن شَجرةٍ مباركَةٍ زيتُونِةٍ لا شَرقِيةٍ ولا غَربِيةٍ يكَـاد زيتُهـا يضِيء ولَو لَم تَمسسه نَار نُور علَى نُورٍ يهدِي الله لِنُورِهِ من يشَاء ويضرب الله الأَمثَالَ لِلناسِ والله بِكُل شَيءٍ علِـيم**(٣٥)** فِي بيوتٍ أَذِن الله أَن تُرفَع ويذْكَر فِيها اسمه يسبح لَه فِيهـا بِالْغُدو والآصال**(٣٦)** رجالٌ لا تُلْهِيهم تِجارةٌ ولا بيع عن ذِكْرِ اللهِ وإِقَامِ الصلاةِ وإِيتَاءِ الزكَاةِ يخَافُون يوما تَتَقَلب فِيهِ الْقُلُوب والأبصار**(٣٧)** لِيجزِيهم الله أَحسن ما عمِلُوا ويزِيـدهم مِـن

فَضلِهِ والله يرزقُ من يشَاء بِغَيرِ حِساب(٣٨) والذِين كفَـروا أعمالُهم كسرابٍ بِقِيعةٍ يحسبه الظمآن ماء حتى إذَا جاءه لَـم يجِده شَيئًا ووجد الله عِنْـده فَوفـاه حِسـابه واللـه سـريع الْحِسابِ(٣٩) أَو كظُلُماتٍ فِي بحرٍ لُجي يغْشَاه موج مِن فَوقِـهِ موج مِن فَوقِهِ سحاب ظُلُماتٌ بعضها فَوقَ بعضٍ إذَا أَخْـرج يده لَم يكَد يـراها ومن لَم يجعلْ الله لَه نُورا فَما لَـه مِـن نُـورٍ(٤٠) أَلَم تَرى أَن الله يسبح لَـه مـن فِـي السـماواتِ والأَرضِ والطير صافاتٍ كُلٌ قَد عَلِم صلَاتَه وتَسبِيحه واللـه علِيم بِما يفْعلُون﴾. {٤١ النور} ..

ففى هذه الآيات نجد اللوحات التصويرية تتلاحـق بـل وتتلاصق وإن كان لكل منها كيانها وموضوعها الخـاص.. فالأولى تصور نور ا   والثانية تصور المسـاجد ومشـاهد العبادة فيها. أما الذين كفروا فتصور اللوحة الثالثة أعمـالهم كسراب. أو كظلمات متكاثفة "إذا أخرج يده لم يكـد يراهـا" وتختم اللوحات بلوحة تصور تسبيح الجميع ﴿والطير صافاتٍ كُلٌ قَد عَلِم صلاتَه وتَسبِيحه﴾. وهذه اللوحات الأربـع تكـاد تكون "نفس واحد" رغم أن لكل منها موضوعها الخاص لأن السلك الذى انتظمها جعلها عقدا نضيدا تساعد كل حبة فـى



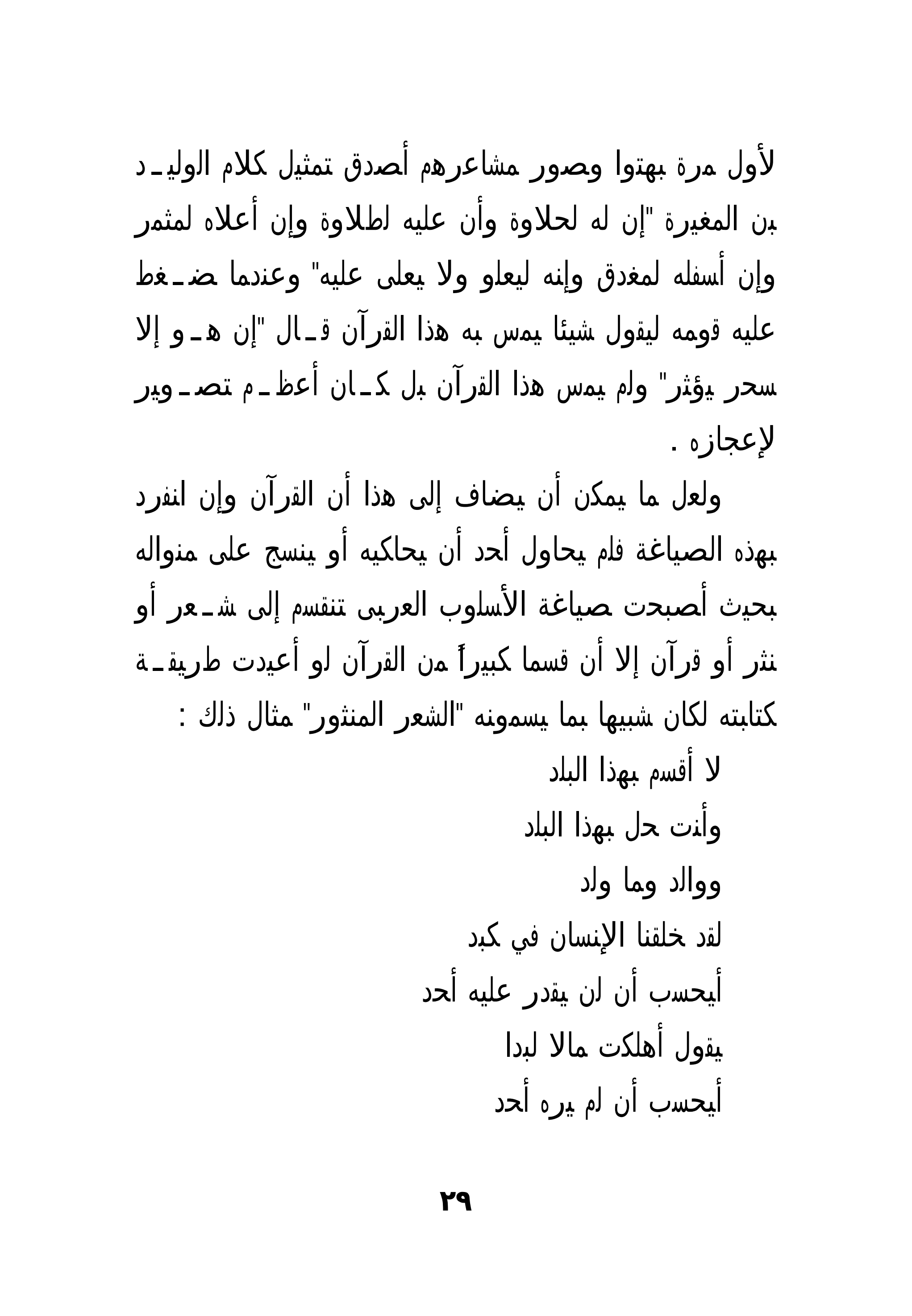
إبراز العقد كما نجد الإيقاع الموسيقى من مد وكسر، ورفـع وخفض، ومن وصل وقطع، يسير جنبا إلى جنب التصـوير الفنى بحيث يؤدى تزاوج التصوير الفنى بـالتنغيم اللفظـى بالإضافة إلى سمو المعانى إلى الإعجاز القرآنى .

آما آثار الغابرين وما تركوه من بئر معطلة أو قصـر مشيد وما خلفوه من جنات وعيون ونعمه كانوا فيها فـاكهين فما بكت عليهم السماء ولا الأرض وما كانوا منظرين.. وأما لوحات الطبيعة التى تمثل الليل إذا عسس والصبح إذا تنفس والأمطار التى تحيى الأرض بعد موتها وما تتحلى به مـن جنات وحب الحصيد والنخل باساقات لها طلع نضيد.. وأمـا مشاهدة القيامة. وما فيها من شهيق وزفير وسلاسل وأغلال ونار وقودها الناس والحجارة أو جنة فيها ما تشتهى الأنفس وتلذ الأعين فهذه كلها أكثر من أن تحصى وتكاد تكون مادة القرآن .

وقد يخاطب القرآن النبى نفسه كفرد تختلج فـى نفسـه شتى المشاعر الإنسانية ويحدد له المسار والمسلك وقد يشرك القارئ فى القضية الفكرية أو اللوحة الفنية بلفته لا تكاد تحس كما فى تصوير مشهد الكهف ﴿وتَرى الشـمس إِذَا طَلَعـتْ

تَتَزاور عن كهفهم ذَاتَ الْيمِينِ وإِذَا غَربَـتْ تَقْرِضهـم ذَاتَ الشمال وهم فِي فَجوةٍ مِنْه ذَلِك مِن آياتِ اللهِ من يهدِ الله فَهو الْمهتَدِي ومن يضلِلْ فَلَن تَجِد له ولِيا مرشِدا. وتَحسبهم أَيقَاظًا وهم رقُود ونُقَلبهم ذَاتَ الْيمِينِ وذَاتَ الشمال وكَلْـبهم باسِـطٌ ذِراعيهِ بِالْوصِيدِ لَو اطلَعتَ علَيهم لَوليتَ مِنْهم فِرارا ولَملِئْتَ مِنْهم رعبا﴾. فبكلمة واحدة لا تكاد تحس هى "وتـرى" يجـد القارئ نفسه وقد اختطف من عالمه وزمنه ودنياه ليندمج فى هذا الحدث البعيد وتأتى "وتحسبهم" و"لو أطلعت" لتعزز مـن إشراك القارئ واستغراقه فى حدث وقع من آلاف السنين ولا يعلم عنه شيئاً .

ومما أنفرد به القرآن الصياغة الخاصة التى جاء بهـا والتى لا تعد نثرا أو شعرا كمألوف النثر والشـعر. فـالنظم القرآنى يقوم على فقرات أو جمل تسمى كل جملة (أو بضعه جمل) آية وتنتهى هذه الآية بخاتمة أو "قفلة" تشـبه القافيـة بحيث يتحقق إيقاع واحد أو متقارب بين النهايات مع تكـوين كيان خاص للآية يتصل بما بعدها من آيات. وقد حار العرب أين يضعون القرآن. فليس هو بالنثر، وليس هو بالشعر وإنما هو ضرب جديد لم يكن لهم به عهد من قبل. وعندما سمعوه



لأول مرة بهتوا وصور مشاعرهم أصدق تمثيل كلام الوليـد بن المغيرة "إن له لحلاوة وأن عليه لطلاوة وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق وإنه ليعلو ولا يعلى عليه" وعندما ضـغط عليه قومه ليقول شيئا يمس به هذا القرآن قـال "إن هـو إلا سحر يؤثر" ولم يمس هذا القرآن بل كـان أعظـم تصـوير لإعجازه .

ولعل ما يمكن أن يضاف إلى هذا أن القرآن وإن انفرد بهذه الصياغة فلم يحاول أحد أن يحاكيه أو ينسج على منواله بحيث أصبحت صياغة الأسلوب العربى تنقسم إلى شـعر أو نثر أو قرآن إلا أن قسما كبيراً من القرآن لو أعيدت طريقـة كتابته لكان شبيها بما يسمونه "الشعر المنثور" مثال ذلك :

لا أقسم بهذا البلد

وأنت حل بهذا البلد

ووالد وما ولد

لقد خلقنا الإنسان في كبد

أيحسب أن لن يقدر عليه أحد

يقول أهلكت مالا لبدا

أيحسب أن لم يره أحد

ألم نجعل له عينين

ولسانا وشفتين

وهديناه النجدين الخ...

أو ...

والشمس وضحاها

والقمر إذا تلاها

والنهار إذا جلاها

والليل إذا يغشاها

والسماء وما بناها

والأرض وما طحاها

ونفس وما سواها

فألهمها فجورها وتقواها

قد أفلح من زكاها

وقد خاب من دساها الخ...

ولا يقتصر ذلك على السور المكية ذات الفقرات القصار فمن الآيات المدنية ما يمكن كتابتها كالآتى :

يا بني أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر

واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور

ولا تصعر خدك للناس

ولا تمش في الأرض مرحا

إن ا   لا يحب كل مختال فخور

واقصد في مشيك واغضض من صوتك

إن أنكر الأصوات لصوت الحمير

أو ...

في بيوت أذن ا

أن ترفع ويذكر فيها اسمه

يسبح له فيها بالغدو والآصال. رجال

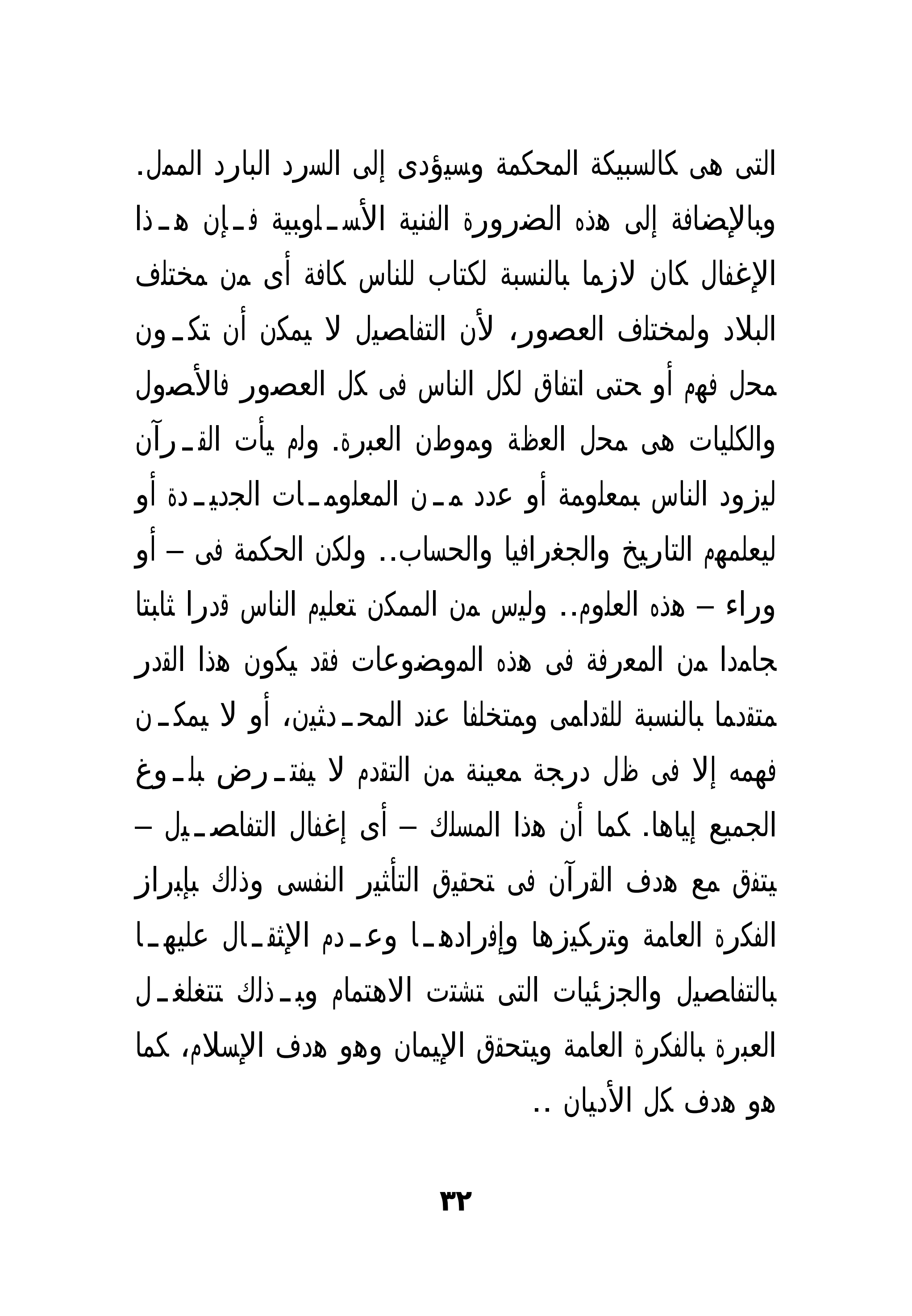
لا تلهيهم تجارة ولا بيع

عن ذكر ا

وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة الخ ...

ونحن فى عرضنا لهذه اللفتة إنما نكشف فحسب شاهدا جديدا على الحيوية الفذة التى تتمتع بها الصـياغة القرآنيـة وقدرتها على التجاوب مع الأفهام والأذواق على اختلافها ..

من خصائص الأسلوب القرآنى إهمال التفاصيل سـواء كانت فى الأحداث أو تعلقت بالأمكنة والأعداد والتواريخ لأن ذلك سيجنى على الإيقاع الموسيقى ويبتذل الصـياغة الفنيـة

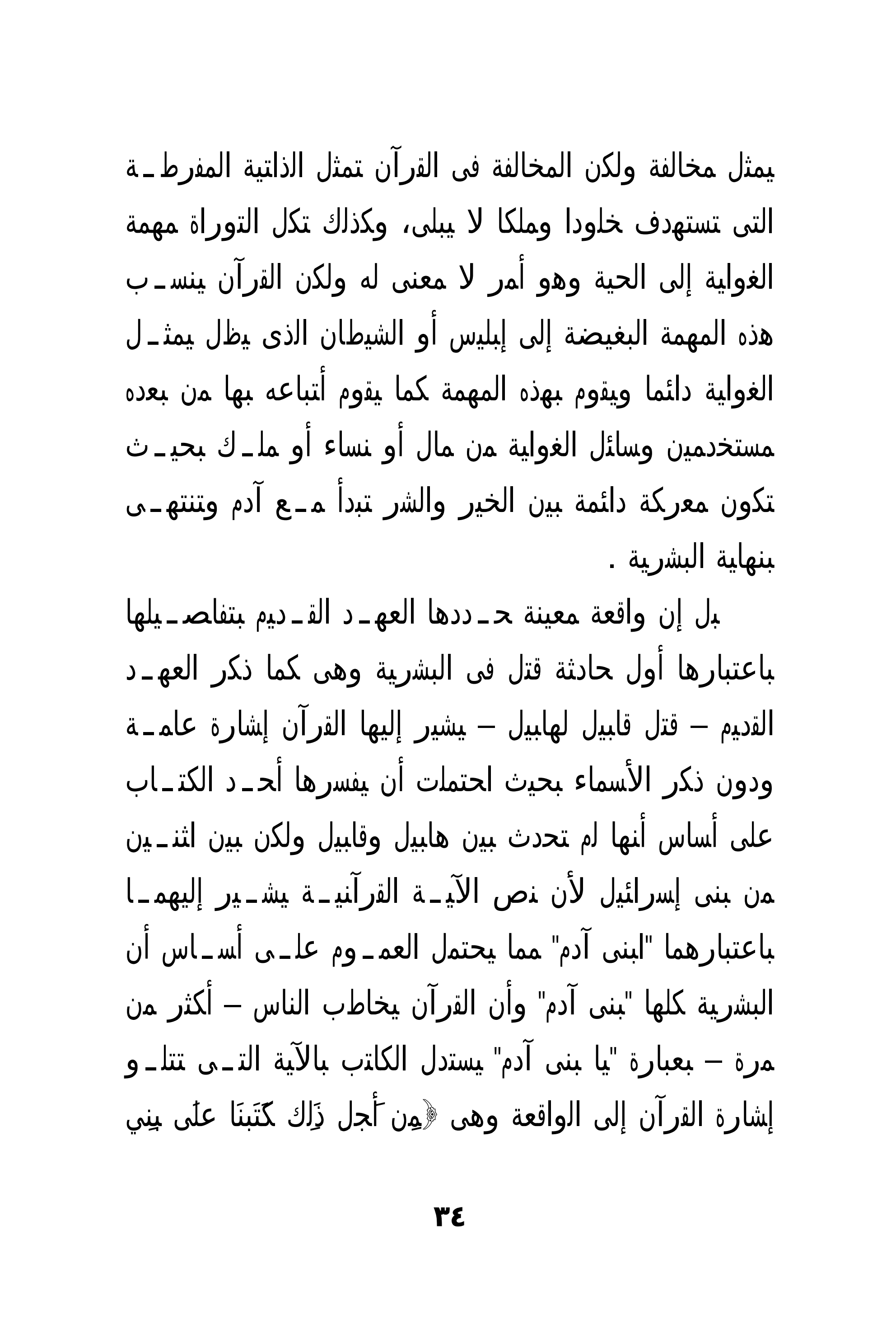


التى هى كالسبيكة المحكمة وسيؤدى إلى السرد البارد الممل. وبالإضافة إلى هذه الضرورة الفنية الأسـلوبية فـإن هـذا الإغفال كان لازما بالنسبة لكتاب للناس كافة أى من مختلف البلاد ولمختلف العصور، لأن التفاصيل لا يمكن أن تكـون محل فهم أو حتى اتفاق لكل الناس فى كل العصور فالأصول والكليات هى محل العظة وموطن العبرة. ولم يأت القـرآن ليزود الناس بمعلومة أو عدد مـن المعلومـات الجديـدة أو ليعلمهم التاريخ والجغرافيا والحساب.. ولكن الحكمة فى – أو وراء – هذه العلوم.. وليس من الممكن تعليم الناس قدرا ثابتا جامدا من المعرفة فى هذه الموضوعات فقد يكون هذا القدر متقدما بالنسبة للقدامى ومتخلفا عند المحـدثين، أو لا يمكـن فهمه إلا فى ظل درجة معينة من التقدم لا يفتـرض بلـوغ الجميع إياها. كما أن هذا المسلك – أى إغفال التفاصـيل – يتفق مع هدف القرآن فى تحقيق التأثير النفسى وذلك بإبراز الفكرة العامة وتركيزها وإفرادهـا وعـدم الإثقـال عليهـا بالتفاصيل والجزئيات التى تشتت الاهتمام وبـذلك تتغلغـل العبرة بالفكرة العامة ويتحقق الإيمان وهو هدف الإسلام، كما هو هدف كل الأديان ..

والقرآن فى هذا يختلف عن التوراة[1]. التى تتحدث فى سفر التكوين عن خلق الدنيا فى ستة أيام بالتفصيل وما خلقه ا كل يوم حتى استراح فى اليـوم السـابع. ثـم تتقصـى بالتفصيل قصة آدم وغواية الحية لحواء وتتابع أبناء آدم ابنا ابنا حتى بنى إسرائيل فالقرآن يشير إجمالاً إلى هذه الأمور. وهو لا يتحدث عنها فى سورة واحدة أو بضعة سور ولكنـه يشير إليها أو يتحدث عن طرف منها فـى معظـم السـور، وعلى كثرة إشاراته إلى آدم فإنه لم يشر أبداً إلى مـا ذكـره العهد القديم عن خلق ا لحواء من أحد أضلاع آدم عنـدما كان نائما وحديث الحية لحواء وإغرائها، كمـا أن تكييـف القرآن يختلف عن تكييف التوراة، فالتوراة، تذهب إلى أن ا تعالى حرم على آدم الأكل من شجرة المعرفة ولكن القـرآن يصفها بأنها شجرة الخلد وملك لا يبلى فالمخالفة فى التـوراة لا تتضمن مأربا ذاتيا أى أن آدم وحواء عنـدما أكـلا مـن شجرة المعرفة لم يستهدفا نفعا خاصا لهما وإنما أرادا معرفة الخير والشر وهو أمر جدير أن لا يكون موضوع عقاب أو

---

١) المقصود التوراة المتداولة بين الأيدى الآن والتى تعرضت لتحريف جعلها ما هى عليه خلافا لما كانت عليه عندما أنزلها ا ، وهو أمر يقضى بع تعـدد الترجمات، أن لم تكن المصالح المكتسبة .

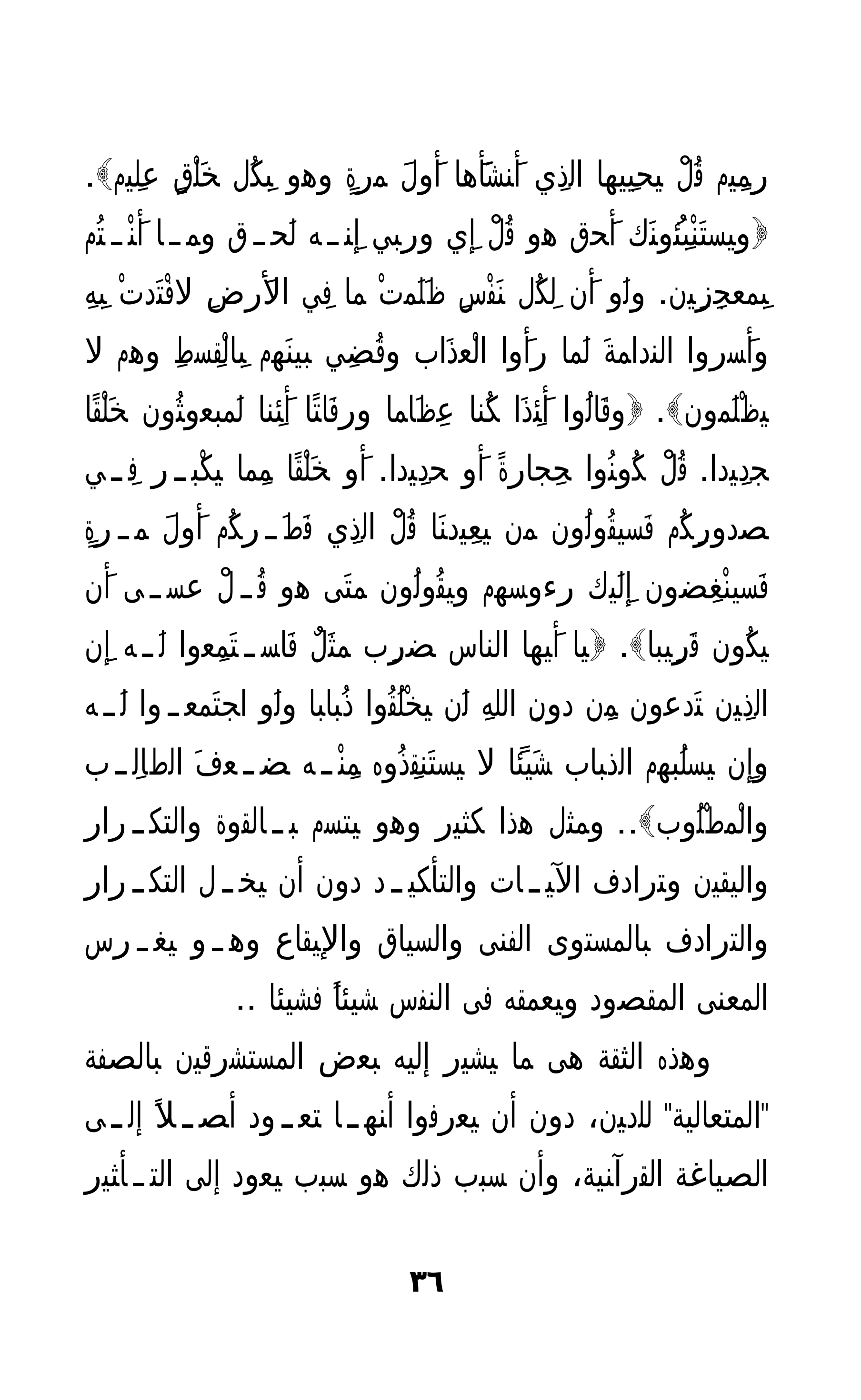


يمثل مخالفة ولكن المخالفة فى القرآن تمثل الذاتية المفرطـة التى تستهدف خلودا وملكا لا يبلى، وكذلك تكل التوراة مهمة الغواية إلى الحية وهو أمر لا معنى له ولكن القرآن ينسـب هذه المهمة البغيضة إلى إبليس أو الشيطان الذى يظل يمثـل الغواية دائما ويقوم بهذه المهمة كما يقوم أتباعه بها من بعده مستخدمين وسائل الغواية من مال أو نساء أو ملـك بحيـث تكون معركة دائمة بين الخير والشر تبدأ مـع آدم وتنتهـى بنهاية البشرية .

بل إن واقعة معينة حـددها العهـد القـديم بتفاصـيلها باعتبارها أول حادثة قتل فى البشرية وهى كما ذكر العهـد القديم – قتل قابيل لهابيل – يشير إليها القرآن إشارة عامـة ودون ذكر الأسماء بحيث احتملت أن يفسرها أحـد الكتـاب على أساس أنها لم تحدث بين هابيل وقابيل ولكن بين اثنـين من بنى إسرائيل لأن نص الآيـة القرآنيـة يشـير إليهمـا باعتبارهما "ابنى آدم" مما يحتمل العمـوم علـى أسـاس أن البشرية كلها "بنى آدم" وأن القرآن يخاطب الناس – أكثر من مرة – بعبارة "يا بنى آدم" يستدل الكاتب بالآية التـى تتلـو إشارة القرآن إلى الواقعة وهى ﴿مِن أَجل ذَلِك كَتَبنَا علَى بنِي

إِسرائِيلَ أَنه من قَتَلَ نَفْسا بِغَيرِ نَفْسٍ أَو فَسـادٍ فِـي الأَرضِ فَكَأَنما قَتَلَ الناس جمِيعا ومن أَحياها فَكَأَنما أَحيا الناس جمِيعا ولَقَد جاءتْهم رسلُنَا بِالْبينَاتِ ثُم إِن كَثِيرا مِنْهم بعد ذَلِـك فِـي الأَرضِ لَمسرِفُون﴾. {٣٢ المائدة}.. وقد يكون الكاتب أبعـد وأغرب فى اجتهاده.. ولكن الآية لا تتضمن نفيا قاطعا لهـذا الرأى .

ومن عناصر الإعجاز فى الصياغة القرآنية رنة الثقـة والتأكيد واليقين واستخدام أدوات التأثير النفسية التى تتمشـى فى أسلوبه وتجرى فى محاوراته وتجعل المعنى يدخل فـى النفس ويتغلغل فى أعماقها سواء كانت هذه الأدوات لغويـة، كالتكرار، أو موضوعية .. كالوجاهة والمنطقية فى المحاجة، وبهذا يقطع الطريق على الشبهات ويقضـى علـى التـردد والتشكك. وقد ظن بعض اللغويين أن التكرار يعيب البلاغـة ويخالف الإيجاز المأثور.. وهو جهل بالنفس البشرية.. ومـا يجب أن يتسم به الأسلوب الذى يوجه إليها – وما يصـطنعه من أدوات لينفذ إلى قلب القارئ والسامع من تأكيـد قـاطع للحقائق ونفى بات للشبهات ورد مقنـع علـى التسـاؤلات ﴿وضرب لَنَا مثَلاً ونَسِي خَلْقَه قَالَ من يحي الْعِظَـام وهِـي


رمِيم قُلْ يحيِيها الذِي أنشأها أولَ مرةٍ وهو بِكُل خَلْقٍ علِيم﴾.
﴿ويستَنبِئُونَك أحق هو قُلْ إِي وربي إِنـه لَحـق ومـا أنْـتُم بِمعجِزِين. ولَو أن لِكُل نَفْسٍ ظَلَمتْ ما فِي الأَرضِ لافْتَدتْ بِهِ وأَسروا الندامةَ لَما رأَوا الْعذَاب وقُضِي بينَهم بِالْقِسطِ وهم لا يظْلَمون﴾. ﴿وقَالُوا أَئِذَا كُنا عِظَاما ورفَاتًا أَئِنا لَمبعوثُون خَلْقًا جدِيدا. قُلْ كُونُوا حِجارةً أَو حدِيدا. أَو خَلْقًا مِما يكْبـر فِـي صدورِكُم فَسيقُولُون من يعِيدنَا قُلْ الذِي فَطَـركُم أَولَ مـرةٍ فَسينْغِضون إِلَيك رءوسهم ويقُولُون متَى هو قُـلْ عسـى أَن يكُون قَرِيبا﴾. ﴿يا أَيها الناس ضرِب مثَلٌ فَاسـتَمِعوا لَـه إِن الذِين تَدعون مِن دونِ اللهِ لَن يخْلُقُوا ذُبابا ولَو اجتَمعـوا لَـه وإِن يسلُبهم الذباب شَيئًا لا يستَنقِذُوه مِنْـه ضـعفَ الطالِـب والْمطْلُوب﴾.. ومثل هذا كثير وهو يتسم بـالقوة والتكـرار واليقين وترادف الآيـات والتأكيـد دون أن يخـل التكـرار والترادف بالمستوى الفنى والسياق والإيقاع وهـو يغـرس المعنى المقصود ويعمقه فى النفس شيئاً فشيئا ..

وهذه الثقة هى ما يشير إليه بعض المستشرقين بالصفة "المتعالية" للدين، دون أن يعرفوا أنهـا تعـود أصـلاً إلـى الصياغة القرآنية، وأن سبب ذلك هو سبب يعود إلى التـأثير

النفسى وأن ا تعالى لما كان لابد أن يكون متعاليـاً (وهـو أمر لا يؤمنون به – لأنهم لا يؤمنون أصلاً بـا ، أو بإلـه كالذى قدمه التصور الإسلامى). فإنهم رتبوا عليها ما شاءوا من نتائج .

* * *

ولكن هذا كله، أعنى الأسلوب الإيقاعى المـنغم الـذى يتوفر له الجرس الموسيقى والتصوير الفنى الـذى يعطـى الصورة كاملة والصياغة الفنية التى تحقق التركيز باستبعادها للتفاصيل المشتتة واستخدام أدوات التأكيد والتكرار واليقـين السيكلوجية، إنما أريد بها فى النهاية خدمة المعانى. وهنا فى عالم المعانى نجد إعجازا لا يقـل عـن الإعجـاز اللغـوى ويفضله بأنه ينسحب على غير العرب فيمكن عند الترجمـة أن تحتفظ المعانى بقدر كبير من إعجازها يكفـى – عنـدما تكون الترجمة أمينة – لإيمان المطلع عليها حتى عندما يحرم تأثير الإعجاز الأسلوبى واللفظى .

والإعجاز فى المعانى يتضمن شقين.. الشق الأول: أن قسما كبيرا من المعانى القرآنية يعالج النفس البشرية وينفـذ إلى ما وراء "خائنة الأعين وما تخفى الصـدور" وتصـور

تقلباتها ومشاعرها كالضعف أمام النساء "والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة" والجزع أمام الفاقة، والبغى عند الغنـى والاستخذاء أمام الضراء والبطر عند السراء. وقد يشير إلى الضعف البشرى والوقوع فى الأخطاء والذنوب فى بعـض الحالات ويفتح باب الرجاء على مصراعيه وينـادى ﴿قُلْ يا عِبادِي الذِين أَسرفُوا علَى أَنْفُسِهم لا تَقْنَطُوا مِن رحمةِ اللهِ إن الله يغْفِر الذنُوب جمِيعا إنه هو الْغَفُور الـرحِيم﴾. ويصـور النفس الإنسانية عندما يزودها الإيمان بقـوى لا تقهـر ولا تضعف أمام طغيان الطاغين وما يوقعونه بـالمؤمنين مـن عسفٍ وتعذيب، من تصليب أو تحريق أو استحياء أو تذبيح. ويضرب الأمثلة بأفراد من الأمم القديمة "اقضِ ما أنت قاض. إنما تقضى هذه الحياة الدنيا" أو من المؤمنين بـالنبى الـذين عندما رأوا الأحزاب فقالوا: ﴿هذَا ما وعدنَا اللـه ورسـولُه وصدقَ الله ورسولُه وما زادهم إلا إيمانًا وتَسلِيما﴾. ويرسـم صورة الجماهير المستغلة المستعبدة المضللة من قياداتها وقد تملكها الندم على سلبيتها أمام قادتها وزعمائها الذين أضلوها السبيلا، ويذكر أنباء الأمم الماضية وصراعهم ومصـارعهم

وآثارهم الدارسة من بئر معطلة وقصر مشيد ﴿فَمَـا بَكَـتْ عَلَيْهِم السماء والأرض وما كَانُوا منظَرِين﴾ .

فهذا القسم من المعانى القرآنية أقرب إلى الفنون وهـو يعرض أدبا إنسانيا وتصويراً نفسيا يبقى مـا بقيـت الـنفس البشرية ويفضل أسمى ما تقدمه الفنـون والآداب فـى هـذا المضمار لأنه يتميز عليها بالإيجاز فى المضمون والإعجاز فى الأسلوب مما يمكن حفظه والاستشهاد به .

ورغم أن الترجمة تذهب بروعته، كما هو الشـأن فـى ترجمة الأثر الفنى، فتظل للمعانى قوتها وقد قرأت عن سيدة أوروبية أنها ما أن قرأت ترجمة السورة ٩٢ حتـى أحسـت بدموعها تتساقط. وهى سورة الضحى التى واسى فيهـا ا رسوله بتعبيرات لمست قلبها .

* * *

أما الشق الثانى من الإعجاز فى المعانى. فإنـه يتعلـق با والكون والمجتمع وهو فى هذه كلها يعـرض معـان لا نجدها فى غير القرآن ولا يستثنى من هذا الكتب السـماوية الأخرى أو الروائع التى وضعها الأدباء والعلماء والمفكرون والفلاسفة فلا نجد فيها الإحكام والوضوح الذى فى القرآن..

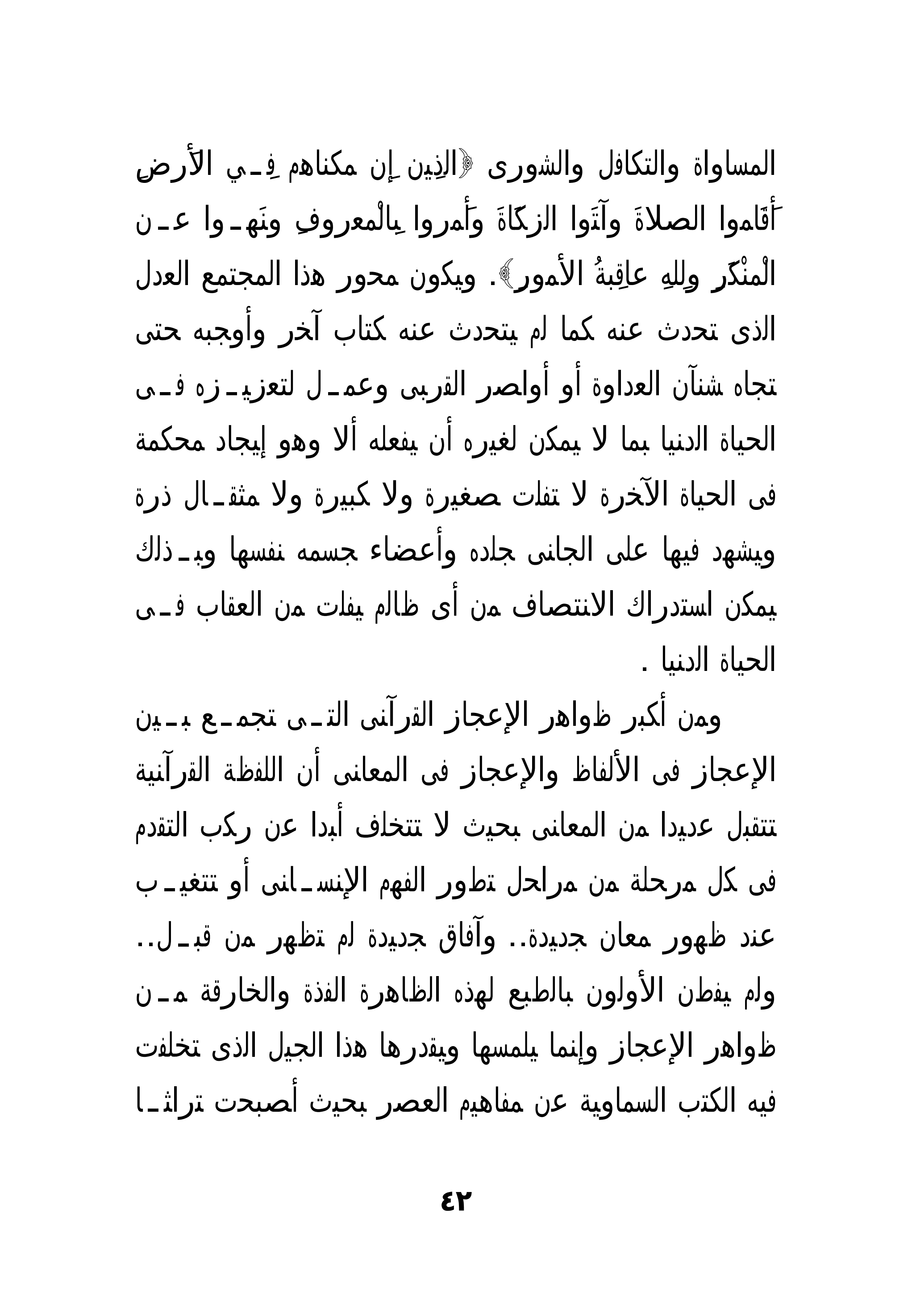
أو التماسك العجيب بينها وأنها كلها تبدأ من منطلـق واحـد لتنتهى كلها إلى غاية واحدة لأنها كلها ليست إلا شواهد لقدرة ا وأدلة على إرادته .

وقد استنقذ القرآن مفهوم "ا " من الإقليمية الضيقة التى كانت تحكمه وتجعله رهنا بأقوام معينين يحمل اسما ويتصف بصفة لدى قوم ما غير ما يحمله وما يتصف به لـدى قـوم آخرين، كما برأه من التجسيم والوثنية التى افتعلهـا الكهنـة والسدنة ليمكنوا لأنفسهم من ورائها، ومن التجريد الذى ذهب إليه الفلاسفة بحيث جعلوا من ا مجرد بلـورة للفـروض وللقيم والمثل العليا. وبدلا من هذه التصورات المشوهة التى نجدها فى الكتب السماوية المحرفة أو الأفكار التـى كانـت منتهى ما وصل إليه الفلاسفة يعرض القرآن الصورة التى لا يمكن إلا للوحى أن يأت بها صورة الإلـه القـادر الخـالق الرحمن الرحيم الذى لا يقربه تجسيم أو تشـبيه.. ويتعـالى علوا كبيرا عن تجريد يحرمه الحياة والإرادة لأنـه الخـلاق لكل ما فى هذا الكون من حياة وإرادة ..

ولما كان العقل البشرى يعجز عن تصور ذات ا وكان أسلوب "المناطقة" والفلاسفة المعقد مما لا يكـون متاحـا أو

سائغا لكل الناس. ولا يريد القرآن – فى الوقت نفسـه – أن يخضع الناس لهيمنة كهنـة يحتكـرون المعرفـة الإلهيـة ويعلمونها للناس فإنه رسم للفرد العادى الطريقة السائغة وفى الوقت نفسه المثلى – للتعرف على ا وذلك بـالتفكير فـى نعمه وآلائه ومخلوقاته مـن الشـموس والنجـوم والبحـار والأنهار والحيوان والأشجار "ربنا ما خلقت هذا باطلا" ووجه الأنظار إلى حقيقة أن هذه المخلوقات التى قد تتنـاهى فـى الكبر كالمجرات اللانهائية – كما قد تتنـاهى فـى الصـغر كالذرات الدقيقة "أمم أمثالكم" وأنها كلها تسير طبقـا لنظـام دقيق وغاية محكمة فلا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون فهذا الكون منضبط قصدى يسير طبقا لقوانين محكمة حتـى يـأذن ا بنهايتـه فيسمح لهذه القوانين بالاختلال .

ويعرض القرآن للمجتمع البشرى فيقدم صورة المجتمع الوثنى الذى يقوم على الاستغلال والطغيان وإرهاب الملـوك والأحبار والكهنة للشعوب والجمـاهير واسـتحواذهم علـى السلطة والمال الخ... فهذا المجتمع الوثنى هو ما جاء القرآن ليخلص الناس منه وليوجد مجتمعـا جـ ـديدا يقـوم علـى


المساواة والتكافل والشورى ﴿الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهـوا عـن المنكر ولله عاقبة الأمور﴾. ويكون محور هذا المجتمع العدل الذى تحدث عنه كما لم يتحدث عنه كتاب آخر وأوجبه حتى تجاه شنآن العداوة أو أواصر القربى وعمـل لتعزيـزه فـى الحياة الدنيا بما لا يمكن لغيره أن يفعله ألا وهو إيجاد محكمة فى الحياة الآخرة لا تفلت صغيرة ولا كبيرة ولا مثقـال ذرة ويشهد فيها على الجانى جلده وأعضاء جسمه نفسها وبـذلك يمكن استدراك الانتصاف من أى ظالم يفلت من العقاب فـى الحياة الدنيا .

ومن أكبر ظواهر الإعجاز القرآنى التـى تجمـع بـين الإعجاز فى الألفاظ والإعجاز فى المعانى أن اللفظة القرآنية تتقبل عديدا من المعانى بحيث لا تتخلف أبدا عن ركب التقدم فى كل مرحلة من مراحل تطور الفهم الإنسـانى أو تتغيـب عند ظهور معان جديدة.. وآفاق جديدة لم تظهر من قبـل.. ولم يفطن الأولون بالطبع لهذه الظاهرة الفذة والخارقة مـن ظواهر الإعجاز وإنما يلمسها ويقدرها هذا الجيل الذى تخلفت فيه الكتب السماوية عن مفاهيم العصر بحيث أصبحت تراثـا

لا يعتد به إلا بالنسبة للوقت الذى نزلت فيه أو المجتمع الذى نزلت له حاشا القرآن الذى تقدم فيه اللفظة القرآنيـة معـانى جديدة تتطابق مع مفاهيم العصر. كما ستتطابق مع ما سيأتى من العصور.. فإذا قال قائل وكيف يتفق هذا قلنا إنه الإعجاز القرآنى المنزل من لدن علام الغيوب وإذا كنا نفهم اليوم من القرآن ما عجز عن فهمه الأولون. فما الذى يمنع أن يفهم من يأتى بعدنا معان عجزنا نحن عن فهمها ؟ .

وهكذا نجد أن الإعجاز القرآنى يتضمن شقين.. الأول: الصياغة وما يتفرع منها من أسلوب وإيقاع. والثانى: المعانى والتوجيهات. وأن كل شق منها له تفريعاته الخاصـة ولكـن الاقتصار على الإعجاز اللغوى الذى استأثر بمعظم اهتمـام الذين يعنون بإعجاز القرآن يهمل إعجاز المعانى وهو الهدف والغاية من الإعجاز اللغوى فضلا عن أن الإعجاز اللغـوى بأسره يمكن أن يفقد أثره نتيجة عدم المعرفة باللغة العربيـة فترجمة القرآن تذهب قطعا بإعجازه اللغوى الذى لا يمكـن أبدا أن يترجم، ولكنها لا تذهب المعانى وروعة هذه المعانى وأعجازها تدفع كل المنصفين للإيمان به إن لم يكن الإيمـان بالمعنى الاصطلاحى فبالاعتراف بعظمته وقوته. وقـد أورد

القرآن أفضل إيراد قيمة التوحيد "الذى جاءت بـه اليهوديـة وأنقذه من أن يكون هذا التوحيد "ملاكى" لليهود خاصـة دون الناس كما تحدث عن الرحمة، ووصف نفسه بالرحمن الرحيم بما يماثل حديث المسيحية عن قيمتها البارزة "المحببة" ورفع عاليا الحرية فى العقيدة والعدل فى العمل .

* * *

إن تضافر الإعجاز اللغوى بالإعجـاز فـى المعـانى واتساقها وتفاعلهما جعلا القرآن معجزة لا يمكن جحـدها أو المراء فيها وجعلا الكتاب والفنانين أسرى الإعجاز القرآنـى بدءا من المشرك الذى سمعه من فم محمد فقال "إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة الخ..." حتى الشاعر الفلسـطينى المولـد الشيوعى المذهب محمود درويش الذى قال فى حديث له مع مندوب مجلة الحزب الشيوعى الفرنسى "فرانس نوفيه" :

"علاقتى بالإسلام كشاعر هى علاقة لغوية فقط. القرآن هو أكبر إنجاز لغوى حققه العرب إن ديالكتيك الكلمات فى ما بينها فى القرآن هو شىء ثورى بحد ذاته وكذلك إيقاع هـذا

النص.. الإيقاع العميق الذى به يقرأ النص وعلاقة الصـور بالكلمة"[1] .

وعندما سئل الكاتب والصحفى الكبيـر إحسـان عبـد القدوس عن المؤثرات فى تكوينه رد :

"القرآن.. أقولها بكل اعتزاز وأنا مؤمن بـأن الأديـب الذى يكتب بالعربية لكى يستقيم له جمال العبارة وموسـيقى الجملة يجب أن يوثق صلته بالقرآن قراءة ودراسة. وهذا ما يحدث لى بالفعل فقد قرأت القرآن عشرات المرات وقد بدأت بحكم نشأتى مع جدى العالم الأزهرى – اقرأه من باب التدين وأذكر أنى أصبت بحالة نفسية وأنا فى السابعة عشـر مـن عمرى ألزمتنى الفراش فترة طويلة وتخلصت منها بقـراءة القرآن ثلاث مرات متوالية كعلاج نفسى ثم بدأت بعد ذلـك أقرأ القرآن قراءة الدراسة والتذوق لجمال عبارته والإحساس بموسيقاه التى لا تدانيها موسيقى"[2] .

وبعد بضع سنوات من نشره هذا الرأى كرره فى مقاله بجريدة الأهرام الذى كان ينشر تحت عنوان "أمس.. اليوم.. وغدا" فقال :

---

(١) جريدة البيان المغربية ٢٣- ١٩٧٩/١٢/٢٤ ص٧ .
(٢) مجلة الجديد – العدد ٢٦ – ٧٣/٢/١ ص٦ .

"وأنا مؤمن بأنه لا يمكن أن يصل القلم إلى أسلوب لـه رنينه وله جاذبيته إلا إذا كان الكاتب قد قرأ القـرآن وتـأثر بنغمات أسلوبه. إن أسلوب القرآن هو الموسـيقى الأساسـية للغة العربية"[1].

وهذا أمين الخولى يتحدث عن القرآن باعتباره "كتـاب العربية الأكبر وأثرها الأدبى الأعظم، فهو الكتاب الذى أخلد العربية وبنى كيانها وخلد معها فصار فخرها وزينة تراثهـا. وتلك صفة القرآن يعرفها العربى مهما يختلف به الـدين أو يفترق به الهوى، ما دام شاعرا بعربيته مدركا أن العروبـة أصله فى الناس وجنسه بين الأجناس وسواء بعد ذلك أكـان العربى مسيحيا أو وثنيا أم كان طبيعيا دهريا لا دينيا أم كان المسلم المتحنف – فإنه سيعرف بعروبته منزلة هذا الكتـاب فى العربية ومكانته فى اللغة دون أن يقوم ذلك على شـىء من الإيمان بصفة دينية للكتاب أو تصديق خاص بعقيدة فيه".

أما طه حسين فإنه يتحدث عن أثر القرآن فـى تقـويم الألسنة العربية [حين تلتوى باللهجات العامية المختلفة فالذين يحفظون القرآن فى الصبا ويكثرون قراءته ويجودونها أصح

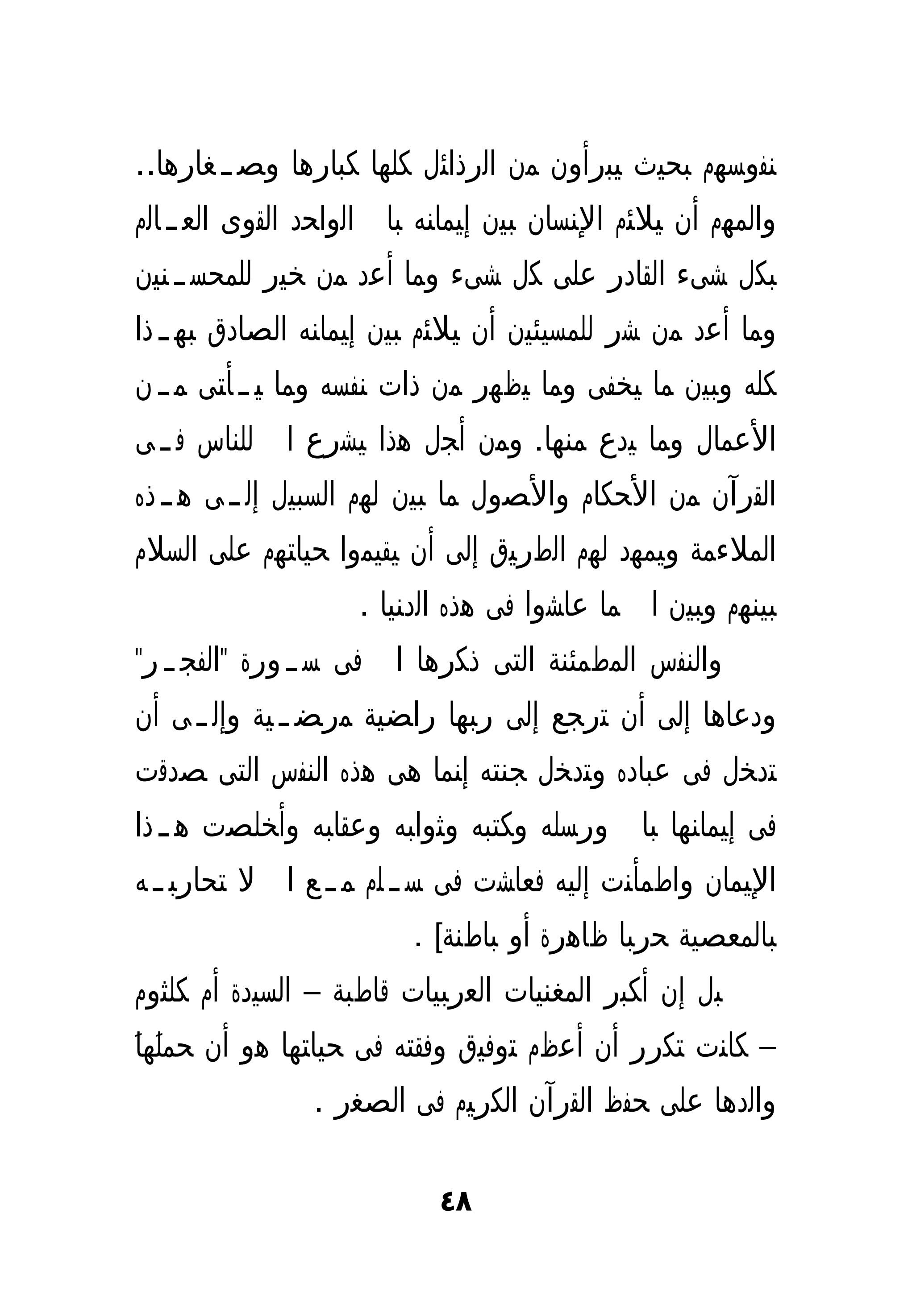
---

(٢) الأهرام: ذكريات فى كلمة وداع "أمس واليوم وغدا" ٧٧/١/٢٧ .

الناس نطقا بالعربية وأقلهم تخليطا فيها.. ومن أجل ذلك كانت الأجيال السابقة إلى عهد قريب تأخذ الصبية حين يتعلمـون القراءة والكتابة بحفظ القرآن كله أو بعضه.. والقرآن بعد هذا كله هو الذى حفظ اللغة العربية أن تذوب فى اللغات الأجنبية التى تغلبت على اللغة العربية بحكم السياسة فـى عصـور كثيرة وظروف مختلفة.. عصم القرآن هذه اللغة من الضياع وحال بين الخطوب الجسام وبين التأثير فيها..] .

كما نقل من حـديث طـه حسـين عـن إعجـاز القـرآن قوله:

والقرآن كله من عند ا   وهو وحدة فى روحه وإعجازه مهما يختلف تنزيل سورة ومهما تختلف موضوعات السـور ومذاهب القول فيها، فللقرآن وحدته من حيث أنه يدعو دائما إلى أصول معينة: إلى توحيد ا   ونبذ الشرك على اخـتلاف صوره والإيمان بمحمد صلى ا   عليه وسلم وما جـاء بـه القرآن والإيمان بالرسل الذين جاءوا قبل محمد ومـا أنـزل عليهم من الكتب والإيمان بالبعث وبالحياة الأخرى بعد هـذه الحياة الأولى وما يكون فيها من ثواب ونعيم. ومـن عـذاب وجحيم. ثم هو يأمر الناس بأن يقيموا حياتهم فيما بينهم وبين


نفوسهم بحيث يبرأون من الرذائل كلها كبارها وصـغارها..
والمهم أن يلائم الإنسان بين إيمانه با   الواحد القوى العـالم
بكل شىء القادر على كل شىء وما أعد من خير للمحسـنين
وما أعد من شر للمسيئين أن يلائم بين إيمانه الصادق بهـذا
كله وبين ما يخفى وما يظهر من ذات نفسه وما يـأتى مـن
الأعمال وما يدع منها. ومن أجل هذا يشرع ا   للناس فـى
القرآن من الأحكام والأصول ما بين لهم السبيل إلـى هـذه
الملاءمة ويمهد لهم الطريق إلى أن يقيموا حياتهم على السلام
بينهم وبين ا   ما عاشوا فى هذه الدنيا .

والنفس المطمئنة التى ذكرها ا   فى سـورة "الفجـر"
ودعاها إلى أن ترجع إلى ربها راضية مرضـية وإلـى أن
تدخل فى عباده وتدخل جنته إنما هى هذه النفس التى صدقت
فى إيمانها با   ورسله وكتبه وثوابه وعقابه وأخلصت هـذا
الإيمان واطمأنت إليه فعاشت فى سـلم مـع ا   لا تحاربـه
بالمعصية حربا ظاهرة أو باطنة] .

بل إن أكبر المغنيات العربيات قاطبة – السيدة أم كلثوم
– كانت تكرر أن أعظم توفيق وفقته فى حياتها هو أن حملَها
والدها على حفظ القرآن الكريم فى الصغر .

فهؤلاء جميعا أخذوا بروعة النظم وسمو المعـانى فـى القرآن، ويمكن القول دون مبالغة أن الإعجاز القرآنى كـان هو باب هؤلاء الفنانين والأدباء إلى الإسلام، وأنه كان الحبل الذى يربطهم بالإسلام مهما أخذتهم بعيدا عنـه الملابسـات والدواعى والظروف. وقد كان الشهيد سيد قطب هو الابـن البكر للعقاد وتصدى لمهاجمة محمد سعيد العريان الذى كان يدافع عن الداعية الإسلامى مصطفى صادق الرافعى ولم يكن له علاقة خاصة بالإسلام. ولكن "التصوير الفنى" و"مشـاهد القيامة فى القرآن" جذبت سيد قطب إلى القرآن وما إن عاش فيه حتى كتب "العدالة الاجتماعية" ومن العدالة الاجتماعيـة إلى النظريات السياسية التى جعلت منه داعيـة ثـم شـهيدا إسلاميا .

أما الذين حرموا لذة تذوق الإعجاز اللغـوى ممـن لا يعرف العربية فقد لا يفوتهم تذوق الإيقاع الموسيقى للـنظم القرآنى وأن يستمعوا إليه كما يسـتمعون إلـى "سـيمفونية" وسيجدون فى المعانى التى أبرزها القرآن والتى لا يمكن أن تترجم ما يعينهم على فهمه والإيمان به ولكن من المؤسف أن المسلمين لم يعنوا بترجمة المعانى ترجمة سليمة ولم يهتمـوا

بتوصيلها إلى أوربا وأمريكا وغيرها من الدول التى تجهـل الإسلام. ولو تم هذا الحدث لامتد الإسلام فى هذه الدول التى تعانى من التعقيدات اللاهوتية من ناحية ومن الملل المـادى من ناحية أخرى .

وأخيراً.. فعندما نتحدث عن القرآن كمعجـزة الإسـلام ونتقصى عناصر هذا الإعجاز وشواهده يجب أن لا ننسى أن القرآن هو الذى وحد العرب وأنه هو الذى أعطاهم السـيف والميزان "ليقوم الناس بالقسط" ثم جعلهم شهداء على النـاس فانطلق العرب حاملين هذه الرسالة داعين إلى حضارة جديدة فقضوا على الإمبراطوريات التى قامت على القهـر والـرق والطبقية والطغيان والوثنية واحلوا محلها مجتمعات إنسـانية تقوم على المساواة وتجعل الناس جميعا كأسـنان المشـط لا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى ويبـدع مـن الـنظم الاجتماعية والاقتصادية
أرقى النظم كما تشهد بذلك مقارنة توجيهات الرسول والخلفاء الراشدين للولاة والقادة فى الحرب والسـلم بمـا تتضـمنه الدساتير والنظم الحديثة[1] .

---

(١) لا ينفى هذا أن توجيهات الإسلام لم تطبق بصفة كاملة إلا فترات محدودة كفترة الحكم النبوى والخلافة الراشدة، أما ما بعدها فقد تغلبت قوى السـلطة،

وعندما تسللت عوامل الضـعف والتحلـل إلـى هـذه المجتمعات لم يفقد القرآن دوره المعجز لأنه عنـدما عـدت عوادى التحلل والانقسام وخضع العالم الإسلامى للاسـتعمار البريطانى والفرنسى والهولندى والبلجيكى والبرتغالى ومـا رسمته هذه النظم الاستعمارية من تمزيق العـالم الإسـلامى وصبغ كل منطقة بصبغة الدولة المستعمرة ظل القرآن الرباط الوحيد الذى يربط هذه الأشلاء ويحفظ لها الـروح والحيـاة ويحول دون أن تنفصل عن بعض كلية – وقدم اللغة القياسية والموحدة التى تتكلم بها هذه الشعوب أو علـى الأقـل تلـم بطرف منها وتأنس إليها.. فكان القرآن فـى الحـالين قـوة الانطلاق وقوة الحفاظ .

أفلا يعد ذلك معجزة من معجزات القرآن نلمسـها فـى الحاضر وتثبتها لنا وقائع التاريخ فى الماضى ..

وليس الذنب فى هذا هو ذنب الإسلام، ولكنه نتيجة لعدد كبير مـن العوامـل والضرورات .

- ٣ -

سر إعجاز القرآن

كان الكشف عن سر إعجاز القرآن هو الأمل الطموح الذى تملك عدداً من الكتاب القدامى والمحدثين. فقد فوجئ الجميع بصياغة جديدة كل الجدة. مختلفة كل الاختلاف فى الأسلوب وفى نحت الكلمات وفى وصلها بعضها ببعض واستخدام تعبيرات ومعانٍ كلها لم تكن مألوفة فكدّوا الأذهان فى التوصل إلى سر الإعجاز ويمكن القول أنهم أبدعوا علماً جديداً بعد علم النحو هو "البلاغة" وقسموها إلى ثلاثة علوم علم البيان ويضم التشبيه والمجاز والاستعارة والكناية بتفصيلات عديدة.. وعلم المعانى وفيه تقسيم الكلام إلى خبر وإنشاء وأضرب الخبر وأقسام الإنشاء إلى أمر ونهى واستفهام وتمن الخ... والقصر والفصل والإيجاز والإطناب وأخيراً علم البديع وفيه المحسنات اللفظية والجناس والاقتباس والمحسنات المعنوية من تورية وطباق ومقابلة الخ... ومع أن هذه الأفانيين كانت موجودة فى الشعر العربى. إلا أن ذلك لم يدفع همة العلماء لإبداع هذا العلم وإنما دفعهم إلى هذا

القرآن لأنه القمة فيها ولأنه أصبح "ديوان العرب" بدلاً مـن الشعر واستأثر بالصدارة دونه .

وكان أول من كتب عن هذا الموضوع أبـو عبـد ا محمد بن يزيد الواسطى فى كتابه "إعجاز القرآن" ثم وضـع أبو عيسى الرمانى المتوفى فى سنة ٣٨٢ كتابـه الإعجـاز وجاء القاضى أبو بكر الباقلانى المتوفى سنة ٣٠٤ فوضـع كتابه المشهور "إعجاز القرآن" الذى أجمع المتـأخرون مـن بعده على أنه (باب فى الإعجاز على حدة). حتى جاء عبـد القاهر الجرجانى المتوفى فى سنة ٤٧٤ فوضع كتابه دلائـل الإعجاز وأسرار البلاغة وممن ألفوا فى الإعجاز أيضاً فخر الدين الرازى واستخرج منها كتابه فى إعجاز القـرآن. ثـم الأديب ابن أبى إصبع المتوفى سنة ٦٥٤ فقد صنف كتـاب بدائع القرآن أورد فيه نحو مائة نوع من معانى البلاغة ثـم ابن القيم الجوزية المتـوفى سـنة ٧٥١. وعنـدما وضـع الزمخشرى تفسيره الكشاف عنـى فيـه بنـواحى البلاغـة والإعجاز وقد رأينا فى كشف الظنون أن شرف الدين الحسن بن محمد الطيبى المتوفى سنة ٧٤٣ وضع عليه شرحاً فـى

ست مجلدات ضخمة أكثر فيها من إيـراد النكـت البيانيـة وكانت أكثر ما جاء به"[1] .

وعنى هؤلاء الكتاب بإبراز الإعجاز اللغوى والأسلوبى الذى أشرنا إليه فى مستهل هذه الفقرة. ولما كانوا علماء لغة فقد رأوا الإعجاز كل الإعجاز هو أن تضم آية مثل ﴿وقِيـلَ يا أرض ابلَعِي ماءكِ ويا سماء أَقْلِعِي وغِيض الْماء وقُضِـي الأمر واستَوتْ علَى الْجودِي وقِيلَ بعدا لِلْقَـومِ الظـالِمِين﴾. واحداً وعشرين ضرباً من البديع مع أنها سبع عشرة كلمـة. وأن فى آية ﴿ليهلِك من هلَك عن بينَةٍ ويحيا من حـي عـن بينَةٍ﴾. أربعة عشر نوعاً من البلاغة هى الإيجاز والترشـيح والإرداف والتمثيل والمقارنة والاستدراك والإدباج والإيضاح والتهذيب والتعليل والتنكيت والمساواة وحسن النسق وحسـن البيان ! .

ولا جدال أن الأمر كذلك بالنسبة للغويين ولكن القـرآن لم ينزل ليحمل اللغويين على الإيمان بـه بحكـم إعجـازه

---

(١) تاريخ آداب العرب للأستاذ مصطفى صادق الرافعـى – الجـزء الثانى ص١٤٨- ١٥٣ .

اللغوى، ولا يعنى القارئ العادى هذا التفنن فـى القـول ولا يؤثر فيه، ولا يلمس وجدانه. أو يشعره "نبض القرآن" .

وقد اعترف كاتب إسلامى محنك هو الأسـتاذ محمـود محمد شاكر "أن الذين بحثوا عن جانب البيان لم يصلوا إلـى شىء، لا الباقلانى ولا عبد القادر الجرجانى ولا مـن لـف لفهما من الأئمة والباحثين كل هؤلاء قـاربوا ولـم يمسـوا حاولوا ولم يحققوا. وإنما تشاغلوا بأمور أخـرى لا تتصـل بالبيان"[1]. فإذا كنا ننتقد هؤلاء الأسلاف فإن المعاصرين بما فيهم الشيخ شاكر نفسه لم يأتوا بما يفضل ما جاء به الأسلاف لأنهم ركزوا أيضاً على الجانب البيانى/ اللغوى. فى حين أن هذا جانب من الجوانب. وفكرة أن القرآن نزل بلغة العـرب وبالتالى تأثر باللغة العربية وأثر فيها – هو ممـا لا يجـوز المبالغة فيه لأن القرآن وإن كان قـد نـزل بلغـة العـرب واستهدف التأثير أولاً على هؤلاء العرب فإن هذا لم يكن إلا بداية لهدف كبير أراده ا هو هداية البشرية كلها، والـذين يعلمون العربية فيها قلة. كما أن القرآن لم يتأثر بلغة العرب

---

(١) أنظر بحثاً ألقاه الدكتور عبد الصبور شاهين فى جامعـة قطـر، ونشرته مجلة الأمة فى عدد شوال ١٤٠٥ ص٦٤ .

قدر ما أبدع لغته الخاصة بل واستعار من اللغات الأخـرى عديداً من الألفاظ والتعبيرات. والجانب البيانى/ اللغوى على أهميته ليس أهم جوانب إعجاز القـرآن ولا يقـدره – كمـا وضعه الباقلانى والجرجانى إلا المتضـلعون فـى اللغـة. وهؤلاء ليسوا بحاجة إليه ليعلموا الإعجاز اللغوى/ البيـانى للقرآن. وفى الحقيقة فإن كل ما قاموا به هو وضـع أسـماء لوجوه الإعجاز اللغوى عندما ابتدعوا علم البلاغة كما أشرنا فى مستهل هذه الفقرة .

وكان من أكبر أسباب عجز الكتاب القدامى عن الاهتداء إلى سر الإعجاز عدم ربطهم ما بـين الصـياغة القرآنيـة والرسالة التى استهدفها القرآن والتى من أجلها نـزل وهـى هداية الناس وما يعنيه هذا من خلق الـنفس البشـرية خلقـاً إيمانياً جديداً. إذ هناك ارتباط قوى ما بين الوسيلة والغايـة. وهو ما جعلناه مفتاحاً من أهم مفـاتيح الخطـاب القرآنـى وإدراك إعجازه

ومع أن المحدثين كانوا أسعد حظاً وتوفر لهم مـا لـم يتوفر لأسلافهم. فإن نصيبهم من الإبداع فى مجال الإعجـاز كان كنصيب إخوانهم فى مجال التفسير محدوداً، فقد خصص

الأستاذ مصطفى صادق الرافعى الجزء الثانى من كتاب "آداب اللغة العربية" لإعجاز القرآن وحام حول مجالات جديدة غير المحاولات البلاغية المعهودة، ودعا الشيخ أمين الخولى إلى تفسير يستشف البلاغة النفسية المؤثرة فى القرآن وقام ببداية فى هذا الصدد. ولكنه تصور أن التفسير السليم هو أن يفسر القرآن تفسيراً موضوعياً أى حسب الموضوعات وليس حسب السور وللاقتراح جانب من الوجاهة وداع يدعو إليه ولكنه قد لا يغنى عن تفسير السور سورة، سورة، وليس آية، آية لأن السورة القرآنية سبيكة ولا يكون فى اختلاف موضوعاتها "فوضى" كما يذكر المستشرقون لأنهم يعاملون القرآن كما لو كان كتاباً من الكتب ويغفلون عن دور كل آية فى التأثير النفسى وأن هذا التفسير لا يحدث إلا بحشد وتوظيف الموضوعات المختلفة ليتحقق هذا الدور[1].

وكتب الأستاذ الدكتور محمد عبد ا دراز "النبأ العظيم" عن بعض خصائص القرآن مثل "البيان والإجمال" وهما فى رأى الدكتور دراز عجيبة خارقة من عجائب التعبير إذ أن

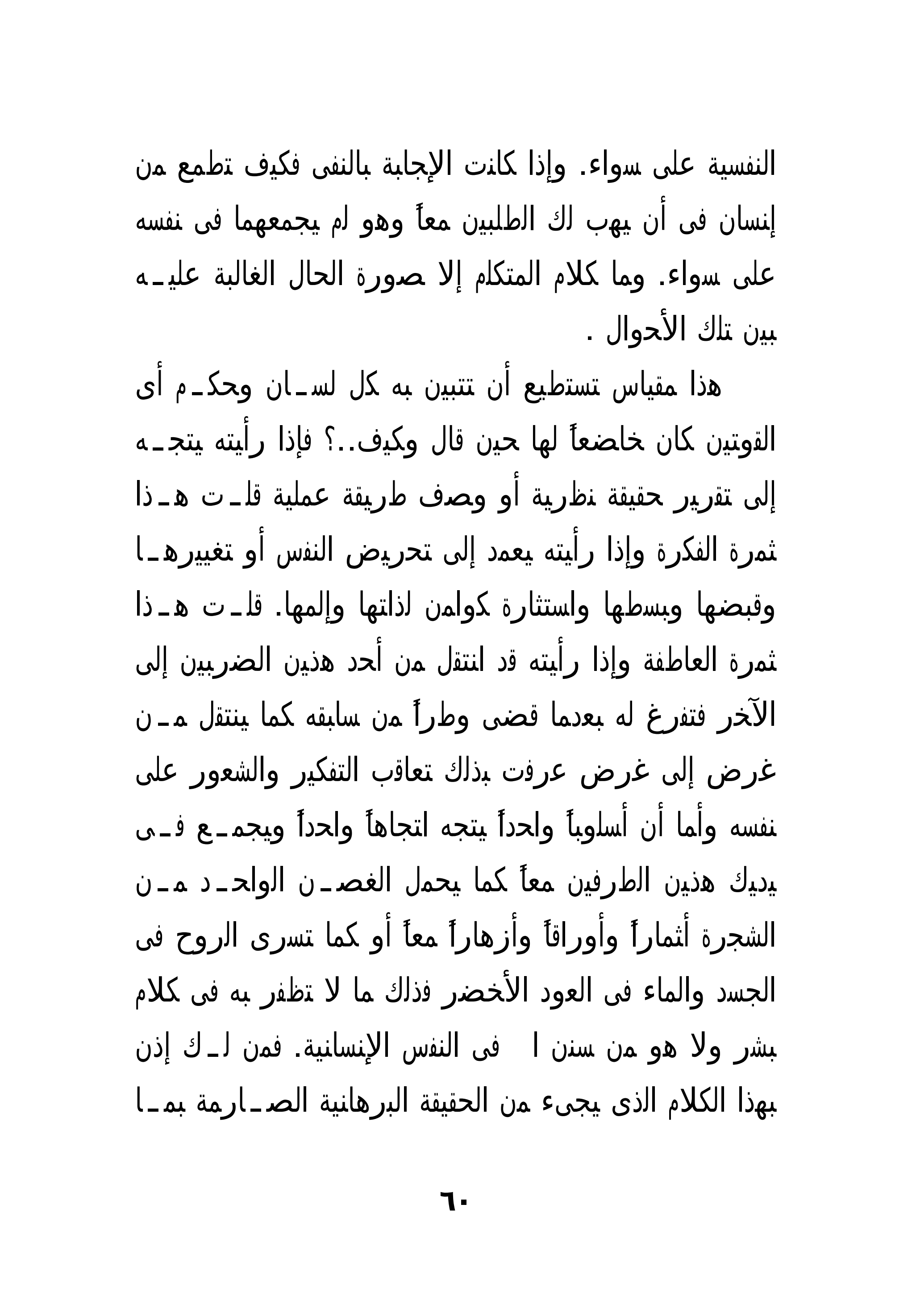
---

(١) انظر لمزيد من شرح هذه النقطة الفصل الرابع .

الناس إذا عمدوا إلى تحديد أغراضهم لم تتسع إلى تأويل وإذا أجملوها ذهبوا إلى الإبهام أو الإلباس أو إلى اللغو الـذى لا يفيد ولا يكاد يجتمع لهم هذان الطرفان فى كلام واحد. ولكنك تقرأ الآية من القرآن فتجد فى ألفاظها من الشفوف والملاءمة والإحكام والخلو من كل غريب عن الغرض ما يتسابق بـه مغزاها إلى نفسك دون كد خاطر ولا استعادة حديث كأنك لا تسمع كلاماً ولغات بل ترى صوراً وحقائق ماثلة وهكذا يخيل إليك أنك قد أحطت به خبراً ووقفت على معناه محدوداً، ولو رجعت إليه مرة حتى ترى للجملة الواحدة أو الكلمة الواحدة وجوهاً عده كلها صحيح أو محتمل الصحة كأنما هى فـص من الماس يعطيك كل ضلع منه شعاعاً فـإذا نظـرت إلـى أضلاعه جملة بهرتك بألوان الطيف كلها فلا تدرى ماذا تأخذ عينيك وتدع.. ولعلك لو وكلت النظر فيها إلى غيـرك رأى منها أكثر مما رأيت، وهكذا تجد كتاباً مفتوحاً مـع الزمـان يأخذ كل منه ما يسر له، بل ترى محيطاً مترامى الأطـراف فى الأصول والفروع. وكيف وسـع الآراء العلميـة علـى اختلاف وسائلها فى القديم والحديث وهو على لينه للعقـول والإفهام صلب متين لا يتناقض ولا يتبدل يحتج به كل فريق

لرأيه ويدعيه لنفسه وهو فى سمّوه فوق الجميع يطـل علـى معاركهم حوله وكأن لسان حاله يقول لهؤلاء "قل كل يعمـل على شاكلته فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلاً" .

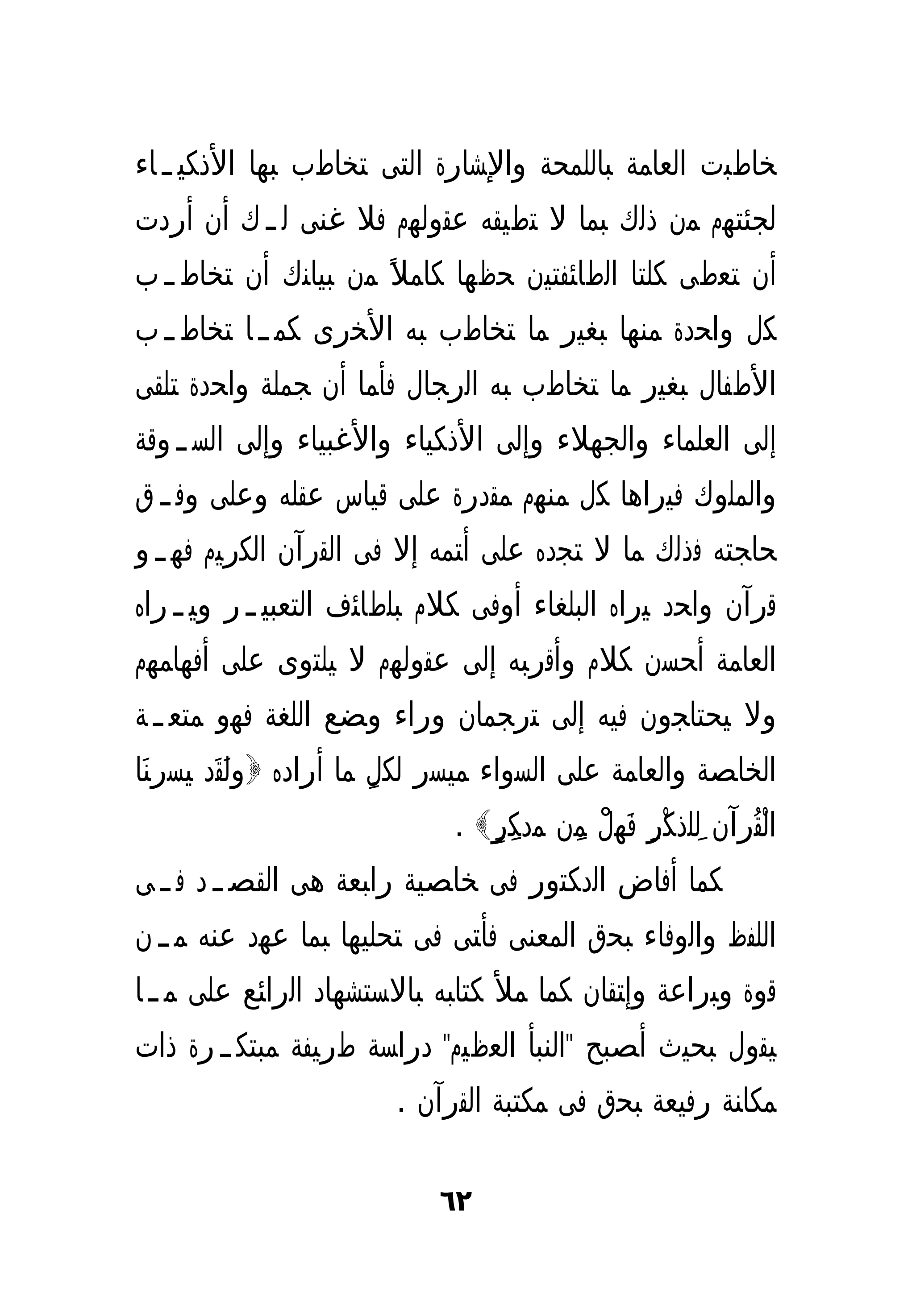
ومن الخصائص القرآنية التى بسطها الـدكتور (إقنـاع العقل وإمتاع العاطفة) فقد تحدث عنهما حين قال "لقد عرفنـا كلام العلماء الحكماء وعرفنا كلام الأدبـاء والشـعراء فمـا وجدنا من هؤلاء ولا هؤلاء إلا غلوا فى جانب وقصوراً فى جانب آخر، فأما الحكماء فإنما يؤدون إليك ثمار عقولهم غذاء لعقلك ولا تتوجه نفوسهم إلى اسـتهواء نفسـك واخـتلاف عاطفتك فتراهم حين يقدمون إليك حقائق العلوم لا يأبهون لما فيها من جفاف وعرى ونبوعن الطباع أما الشـعراء فإنمـا يسعون إلى استثارة وجدانك وتحريك أوتار الشعور من نفسك فلا يبالون بما صوروه لك أن يكون غياً أو رشداً وأن يكون حقيقة أو تمثيلاً فتراهم جادين وهم هـازلون يسـتبكون وإن كانوا لا يبكون ويطربون وإن كانوا لا يطربون ﴿والشـعراء يتبِعهم الْغَاوون﴾. الآية وكل امرئ حين يفكر فهو فيلسـوف صغير ولكل امرئ حين يحس فإنما هو شاعر صغير فهـل رأيتم أحداً تتكافأ فيه قوة التفكير وقوة الوجدان وسائر القوى


النفسية على سواء. وإذا كانت الإجابة بالنفى فكيف تطمع من إنسان فى أن يهب لك الطلبين معاً وهو لم يجمعهما فى نفسه على سواء. وما كلام المتكلم إلا صورة الحال الغالبة عليـه بين تلك الأحوال .

هذا مقياس تستطيع أن تتبين به كل لسـان وحكـم أى القوتين كان خاضعاً لها حين قال وكيف..؟ فإذا رأيته يتجـه إلى تقرير حقيقة نظرية أو وصف طريقة عملية قلـت هـذا ثمرة الفكرة وإذا رأيته يعمد إلى تحريض النفس أو تغييرهـا وقبضها وبسطها واستثارة كوامن لذاتها وإلمها. قلـت هـذا ثمرة العاطفة وإذا رأيته قد انتقل من أحد هذين الضربين إلى الآخر فتفرغ له بعدما قضى وطراً من سابقه كما ينتقل مـن غرض إلى غرض عرفت بذلك تعاقب التفكير والشعور على نفسه وأما أن أسلوباً واحداً يتجه اتجاهاً واحداً ويجمـع فـى يديك هذين الطرفين معاً كما يحمل الغصـن الواحـد مـن الشجرة أثماراً وأوراقاً وأزهاراً معاً أو كما تسرى الروح فى الجسد والماء فى العود الأخضر فذلك ما لا تظفر به فى كلام بشر ولا هو من سنن ا فى النفس الإنسانية. فمن لـك إذن بهذا الكلام الذى يجىء من الحقيقة البرهانية الصـارمة بمـا

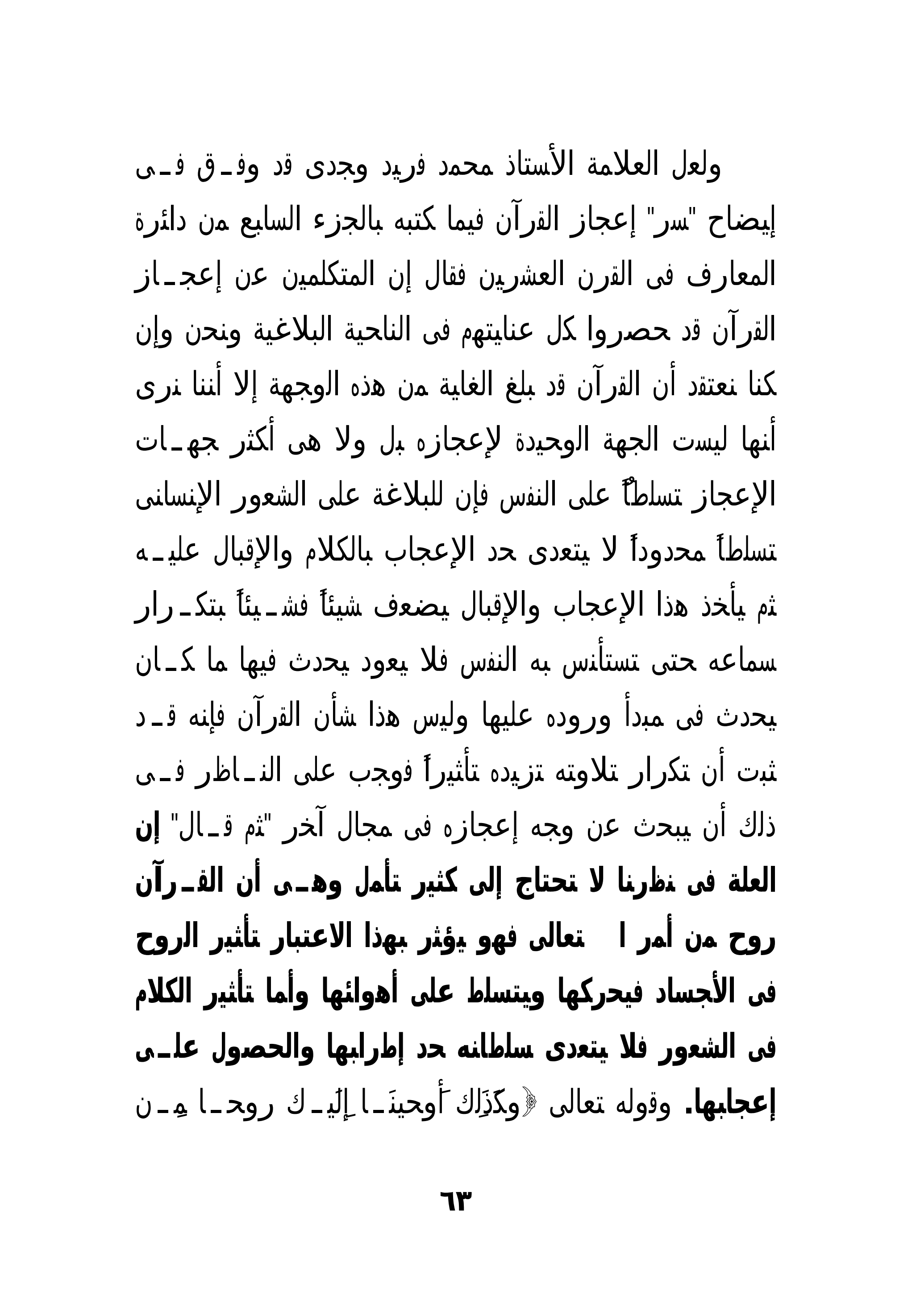
يرضى حتى أولئك الفلاسفة المتعمقين ومن المتعة الوجدانية الطيبة بما يرضى حتى هؤلاء الشعراء المرحين..!! "..ذاك رب العالمين.." فهذا الذى لا يشغله شأن عن شأن وهـو القادر على أن يخاطب العقل والقلب معاً بلسان، وأن يمـزج الحق والجمال معاً يلتقيان فلا يبغيان، وأن يخرج من بينهمـا شراباً خالصاً سائغاً للشاربين وهذا هو ما تجده فـى كتابـه الكريم حيثما توجهت. ألا تراه فى نسجه قصصه وأخباره لا ينسى حق العقل من حكمة وعبرة أو لا تـراه فـى معمعـة براهينه وأحكامه لا ينسى حظ القلب من تشـويق وترقيـق وتحذير وتنفير يبث ذلـك فـى مطـالع آياتـه ومقاطعهـا وتضاعيفها. ﴿تَقْشَعِر مِنْه جلُود الذِين يخْشَون ربهم ثُم تَلِـين جلُودهم وقُلُوبهم إِلَى ذِكْرِ اللهِ﴾. "تلك آيات ا سبحانه وأنـه لقول فصل" .

وثالثة هذه الخصائص لدى الدكتور دراز هى ما حصره الباحث فى (خطاب العامة والخاصـة) إذ هـذان الخطابـان يمثلان غايتين أخريين متباعدتين عند الناس. لو أنك خاطبت الأذكياء بالواضح المكشوف الذى تخاطب به الأغبياء لنزلت بهم إلى مستوى لا يرضونه لأنفسهم فى الخطاب ولو أنـك



خاطبت العامة باللمحة والإشارة التى تخاطب بها الأذكيـاء لجئتهم من ذلك بما لا تطيقه عقولهم فلا غنى لـك أن أردت أن تعطى كلتا الطائفتين حظها كاملاً من بيانك أن تخاطـب كل واحدة منها بغير ما تخاطب به الأخرى كمـا تخاطـب الأطفال بغير ما تخاطب به الرجال فأما أن جملة واحدة تلقى إلى العلماء والجهلاء وإلى الأذكياء والأغبياء وإلى السـوقة والملوك فيراها كل منهم مقدرة على قياس عقله وعلى وفـق حاجته فذلك ما لا تجده على أتمه إلا فى القرآن الكريم فهـو قرآن واحد يراه البلغاء أوفى كلام بلطائف التعبيـر ويـراه العامة أحسن كلام وأقربه إلى عقولهم لا يلتوى على أفهامهم ولا يحتاجون فيه إلى ترجمان وراء وضع اللغة فهو متعـة الخاصة والعامة على السواء ميسر لكلٍ ما أراده ﴿ولَقَد يسرنَا الْقُرآن ِللذكْرِ فَهلْ مِن مدكِرٍ﴾ .

كما أفاض الدكتور فى خاصية رابعة هى القصـد فـى اللفظ والوفاء بحق المعنى فأتى فى تحليها بما عهد عنه مـن قوة وبراعة وإتقان كما ملأ كتابه بالاستشهاد الرائع على مـا يقول بحيث أصبح "النبأ العظيم" دراسة طريفة مبتكـرة ذات مكانة رفيعة بحق فى مكتبة القرآن .



ولعل العلامة الأستاذ محمد فريد وجدى قد وفـق فـى إيضاح "سر" إعجاز القرآن فيما كتبه بالجزء السابع من دائرة المعارف فى القرن العشرين فقال إن المتكلمين عن إعجـاز القرآن قد حصروا كل عنايتهم فى الناحية البلاغية ونحن وإن كنا نعتقد أن القرآن قد بلغ الغاية من هذه الوجهة إلا أننا نرى أنها ليست الجهة الوحيدة لإعجازه بل ولا هى أكثر جهـات الإعجاز تسلطاً على النفس فإن للبلاغة على الشعور الإنسانى تسلطاً محدوداً لا يتعدى حد الإعجاب بالكلام والإقبال عليـه ثم يأخذ هذا الإعجاب والإقبال يضعف شيئاً فشـيئاً بتكـرار سماعه حتى تستأنس به النفس فلا يعود يحدث فيها ما كـان يحدث فى مبدأ وروده عليها وليس هذا شأن القرآن فإنه قـد ثبت أن تكرار تلاوته تزيده تأثيراً فوجب على النـاظر فـى ذلك أن يبحث عن وجه إعجازه فى مجال آخر "ثم قـال" **إن العلة فى نظرنا لا تحتاج إلى كثير تأمل وهـى أن القـرآن روح من أمر الله تعالى فهو يؤثر بهذا الاعتبار تأثير الروح فى الأجساد فيحركها ويتسلط على أهوائها وأما تأثير الكلام فى الشعور فلا يتعدى سلطانه حد إطرابها والحصول علـى إعجابها.** وقوله تعالى ﴿وكَذَٰلِكَ أَوحينَـا إِلَيـكَ روحـا مِـن

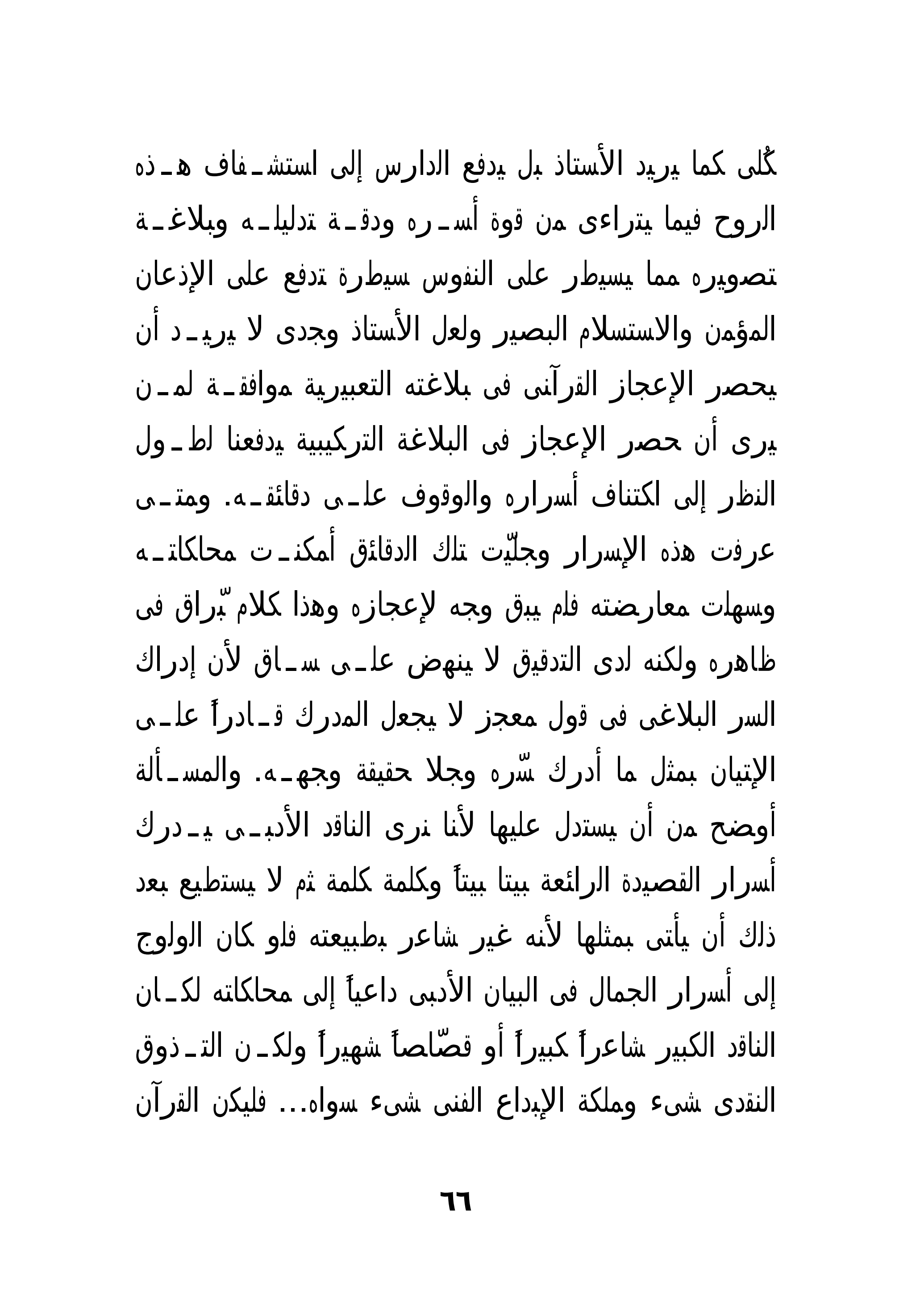
أمرنَا﴾. يكفى وحده فى إرشادنا إلى جهـة إعجـاز القـرآن وقصور الإنس والجن عن الإتيان بمثله وبقائه إلـى اليـوم معجزة خالدة تتلألأ فى نورها الإلهى وتتألق فى جمالها الفذ، فلا جرم كانت له روحانية خاصة هى عندنا جهـة إعجـازه والسبب الأكبر فى انقطاع الإنس والجن عن محاكاة أقصـر سورة من سوره وارتعاد فرائص الصناديد والجبـابرة عنـد سماعه وناهيك بروحانية الكلام الإلهى" .

إلى أن قال "ولا مشاحة فى أن القرآن فصيح قد أخرس بفصاحته فرسان الخطابة وقادة البلاغة، وهـو حكـيم بهـر الفلاسفة، وهو حق ألزم كل ضال الحجة، وهو هدى وشـفاء لما فى الصدور.. وكل هذه صفات جليلة تؤثر فـى العقـل والشعور والعواطف والميول فتتحكم فيها تحكم المالـك فـى ملكه ولكنه فوق ذلك **روح من أمـر ا تصـل مـن روح الإنسان إلى حيث لا تصل إليه أشعة البلاغـة والبيـان ولا سيالات الحكمة والعرفان من صميم معناه إلى حيث لا يحوم حوله فكر ولا خاطر ولا يتخيله خيال شاعر"[١].**

---

(١) الفقرات الخاصة بكتاب الدكتور محمد عبـد ا دراز. وكـذلك الفقـرة الخاصة بالأستاذ فريد وجدى منقولة من كتاب الدكتور محمد رجـب بيـومى البيان القرآنى من ص٢٥٣ إلى ص٢٥٨ .

وعقب الدكتور محمد رجب البيومى على كلام الأسـتاذ فريد وجدى فقال "لقد جعل الأستاذ العلامة محمد فريد وجدى روحانية القرآن سر إعجازه رداً بذلك علـى مـن يجعلـون إعجاز القرآن فى بلاغته ونظمه وفصاحة أسلوبه، ومـتعللاً بأن الأسلوب البليغ يفقد أثره القوى متى اتصلت تلاوته حتى يصبح فى نظر قارئه المتعهد شيئاً غيـر ذى جـدة..!! ولا كذلك القرآن فإن أثره النفسى يتجدد باتصال قراءتـه مهمـا كثرت تلاوته. نحن نتساءل فى الرد على ذلـك أيمكـن أن تظهر روحانية القرآن دون أسلوب بليـغ يحملهـا النـاس؟ فيستحيل علينا بداهة أن نتصور هذا الظهور دون كلام يقال؟ وإذا ثبت أن الأسلوب القرآنى هو موضع هـذه الروحانيـة النافذة فقد صارت الشقة قريبة بين من يقولـون بالإعجـاز البلاغى وبين الأستاذ الكبير إن لم تكن هنـاك شـقة علـى الإطلاق! وإذا كانت بلاغة البشر تفقـد تأثيرهـا باسـتمرار التلاوة دون بلاغة القرآن فلأن الأسلوب القرآنى يحمل مـن وسائل إعجازه ما يرتفع به عن بلاغة البشر وعلينا أن نبحث عن ذلك فى مطاوى نظمه وطريقة تعبيره وتصويره. وكون القرآن روحاً من أمر ا   لا يحصر إعجازه البيانى فى معنى



كُلى كما يريد الأستاذ بل يدفع الدارس إلى استشـفاف هـذه الروح فيما يتراءى من قوة أسـره ودقـة تدليلـه وبلاغـة تصويره مما يسيطر على النفوس سيطرة تدفع على الإذعان المؤمن والاستسلام البصير ولعل الأستاذ وجدى لا يريـد أن يحصر الإعجاز القرآنى فى بلاغته التعبيرية موافقـة لمـن يرى أن حصر الإعجاز فى البلاغة التركيبية يدفعنا لطـول النظر إلى اكتناف أسراره والوقوف علـى دقائقـه. ومتـى عرفت هذه الإسرار وجلّيت تلك الدقائق أمكنـت محاكاتـه وسهلت معارضته فلم يبق وجه لإعجازه وهذا كلام ّبراق فى ظاهره ولكنه لدى التدقيق لا ينهض علـى سـاق لأن إدراك السر البلاغى فى قول معجز لا يجعل المدرك قـادراً علـى الإتيان بمثل ما أدرك ّسره وجلا حقيقة وجهـه. والمسـألة أوضح من أن يستدل عليها لأنا نرى الناقد الأدبـى يـدرك أسرار القصيدة الرائعة بيتا بيتاً وكلمة كلمة ثم لا يستطيع بعد ذلك أن يأتى بمثلها لأنه غير شاعر بطبيعته فلو كان الولوج إلى أسرار الجمال فى البيان الأدبى داعياً إلى محاكاته لكـان الناقد الكبير شاعراً كبيراً أو قصّاصاً شهيراً ولكـن التـذوق النقدى شىء وملكة الإبداع الفنى شىء سواه... فليكن القرآن

ذا روح قوية غالبة ولكن هذه الروح تستكن فى كلمات وآيات وسور هى موضع الإعجاز .

وما ذكره الدكتور محمد رجب البيومى لا ينفى ما قاله الأستاذ محمد فريد وجدى الذى تحدث عن "سـر" الإعجـاز وأعاده إلى أن القرآن روح من أمر ا أو أنه كلمة منـه إذ لابد أن يتضمن قبساً من الخلق والإبـداع والأصـالة التـى تستعصى على الناس. أما المفردات التى يتبدى فيهـا هـذا الإعجاز فهو ما حاول إيضاحه الكُتّاب الذين تحـدثوا عـن الإعجاز. ولكن المفردات لا تغنى عن "الروح" فكون القرآن من ا تعالى هو بمثابة الروح من الجسم وهو سر الإعجاز أما مفرداته فهى بمثابة أعضاء الجسم .

ونحن نؤمن بهذا، وبأن سر الإعجاز هو تلـك النفثـة الإلهية التى تجعل القرآن وثيقة فريدة سامية، لا نقول "ملكية" ولكن إلهية.. ومن حق العرب الذين صدر القـرآن بلغـتهم وجعلهم يملكون هذه الذخيرة – هذه المعجزة – الفريـدة أن يفخروا وان يحمدوا ا على هذه المنة .

* * *

ويقدم بعض الكتاب المعاصرين مداخل إلى سر إعجاز القرآن تختلف عن مداخل الكتـاب القـدامى الـذين عنـوا بالجوانب البيانية والبلاغية، فهم يلمسون جوانب أخرى سنقدم صورتين منها الأولى: من كاتب معروف هو الأستاذ الدكتور زكى نجيب محمود والأخرى من قسيس أمريكى كان يقـرأ القرآن ليتصيد بعض أخطاء تعينه فى التبشـير بالمسـيحية والتنديد بالإسلام!! فحوله القرآن إلى مسـلم.. يـدعو إلـى الإسلام! .

ولم يعرف للدكتور زكى نجيب محمود سابقة للإسـلام باعتباره المنظر الأكبر للوضعية المنطقية، ولكنه يعرض هنا صورة لتأثير إحدى سور القرآن عليه طفلاً فشاباً فكهلاً .

والكلمة تحت عنوان "الناقة والجمل" وها هى بنصها ..

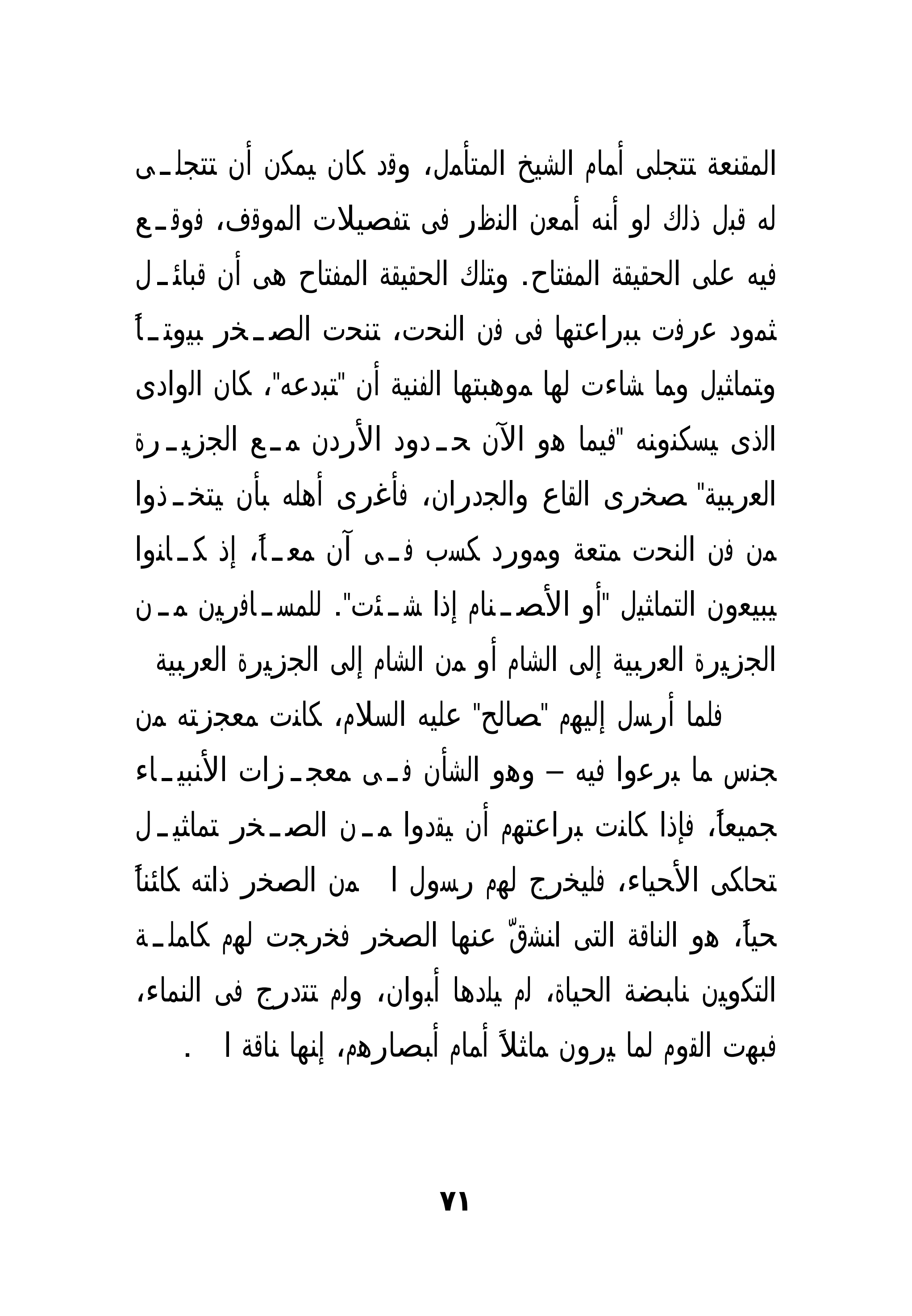
كانت السور القصار هى أول ما التقـى بسـمعى مـن القرآن الكريم، وأقول "سمعى" ولا أقول "عقلى"، إذ كيف كان لصبى فى الخامسة أن يدرك ما احتوى عليه اللفظ القرآنـى المعجز من معان اقتضته بعد ذلك عمراً طويلاً ملأه بالدرس والتأمل، ليفهمها الفهم الصحيح. أو ما ظنه الفهم الصـحيح، لكن صبى الخامسة – مع ذلك – قد ارهف أذنيه للنغم، فمـا

زلت أذكر – بعد هذه الأعوام الطوال – كيـف كـان ذلـك الصبى المفتون بما سمع وبما حفظ، يترنم لنفسه بآيات خاصة أكثر من سواها، ولست أدري الآن ماذا كان سر اختياره لما يترنم به، وكان منه قوله تعالى فى صورة الشمس: ﴿فَقَـالَ لَهم رسولُ اللهِ نَاقَةَ اللهِ وسقْياها(١٣) فَكَذبوه فَعقَروها فَدمـدم علَيهم ربهم بِذَنْبِهم فَسواها﴾. {١٤ الشمس} ..

إن الصبى لم يسأل يومئذ،ولا قيل له بغير سـؤال، مـا ناقة ا ؟وما سقياها؟ ومن هم ثمود الذين قال لهم هذا القول؟ ومن رسول ا الذى قاله؟ ولماذا كذبوه؟ وما الذى فعلته ناقة ا بالقوم حتى ضاقت بها صدورهم فعقروها؟ لا، لم يسـأل الصبى عن شىء من هذا، ولا طاف بباله أن يسأل، وربمـا لو سأل لما جاءه الجواب .

ومضت السنون وأصبح الصبى شـابا طلعـة، يكثـر الأسئلة عما يصادفه من صنوف المعرفة التى أخذت تتكـاثر عليه، وقد كان ذلك الشاب محبا لقراءة القرآن ولبث أعوامـاً يقسم الكتاب الكريم بين أيام الشهر ليقرأ فى كل يوم جـزءاً من أجزائه الثلاثين، ووقف عند سورة الشمس مرة أخـرى، فلم يزل مفتوناً بنغمها كما كان سلفه الصبى مفتوناً، لكنه في

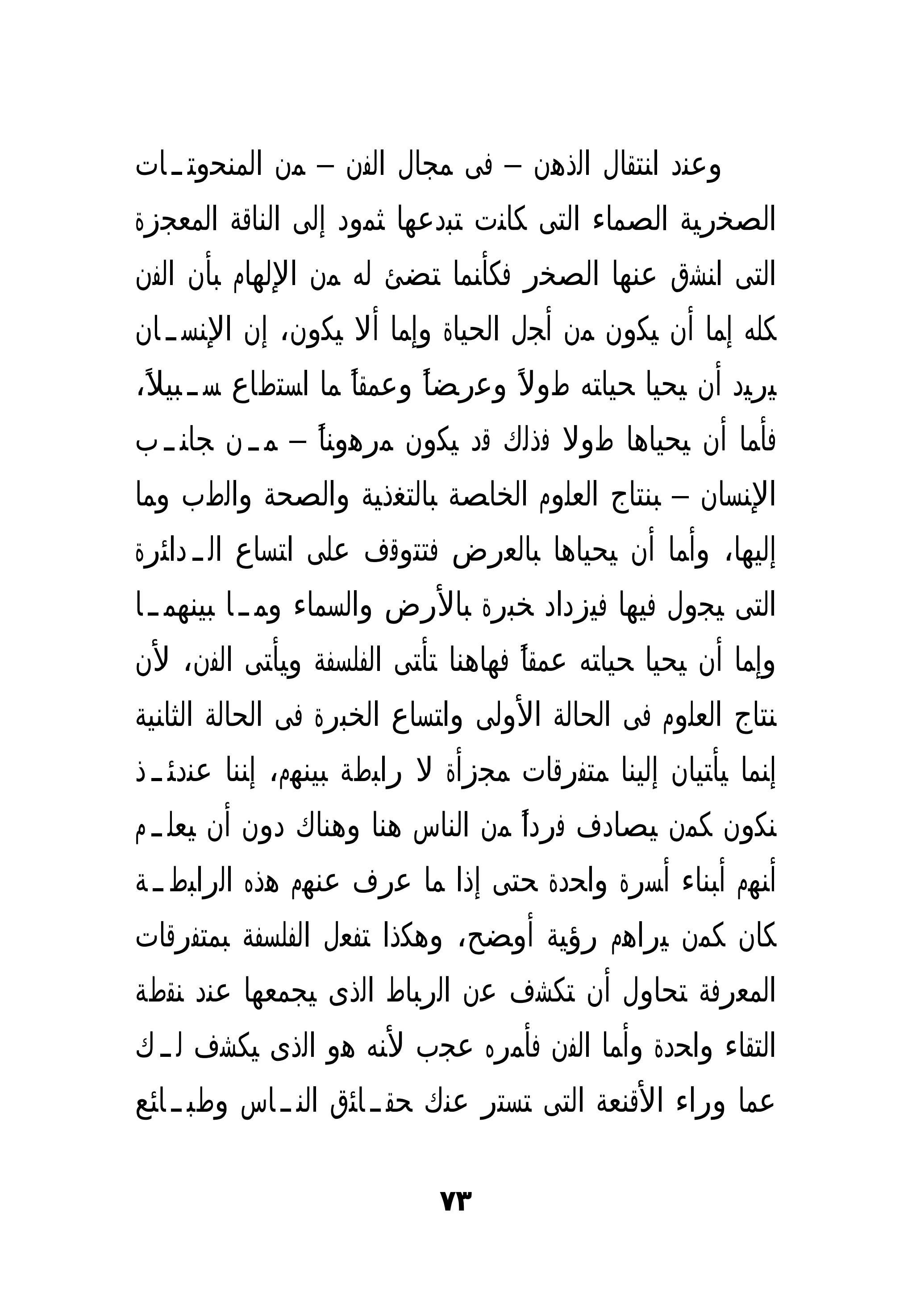
تلك المرحلة الجديدة كان قد فهم من معانيها ما لـم يحـاول الصبي أن يفهمها، لولا أنه هذه المرة قد وقف وقفة متسـائلة ولم يعثر على شئ يرضى فيه تساؤله ذاك طوال الشباب، بل وما بعد الشباب بكثير، وكان مصدر حيرته هو الرابطة التى عساها أن تربط قول رسول ا لقبائل ثمود، ما قاله عن ناقة ا وسقياها، بالآيات الأولى من السورة عن ضـروب مـن القسم، بمشاهد من الطبيعة أولاً، وبجوانب من طبيعة الإنسان ثانياً ﴿والشمسِ وضحاها(١) والْقَمرِ إِذَا تَلاها(٢) والنهـارِ إِذَا جلاها(٣) والليل إِذَا يغْشَاها(٤) والسماءِ وما بنَاها(٥) والأرضِ وما طَحاها﴾. {٦ الشمس}. تلك هى مشاهد الطبيعة التى أقسم بها سبحانه وتعالى، ثم تأتى جوانب مـن فطـرة الإنسـان ﴿ونَفْسٍ وما سواها(٧) فَأَلْهمها فُجورها وتَقْواها(٨) قَد أَفْلَح من زكاها(٩) وقَد خَاب من دساها...﴾. {١٠ الشمس}.. وعند هذه اللحظة تحدث النقلة فجأة، ﴿كَذبتْ ثَمـود﴾ {١١ الشـمس}.. فكان السؤال الذى طرحه الرجل الناضج من بعده سؤالاً يريد أن يفهم الرابطة بين آيات القسم فـى مرحلتيهـا السـابقتين وتكذيب ثمود الذى استدعى من رسول ا أن يوجـه إلـيهم نذيره. ثم دارت دورة السنين مرحلة أخرى، فـإذا الرابطـة


المقنعة تتجلى أمام الشيخ المتأمل، وقد كان يمكن أن تتجلـى له قبل ذلك لو أنه أمعن النظر فى تفصيلات الموقف، فوقـع فيه على الحقيقة المفتاح. وتلك الحقيقة المفتاح هى أن قبائـل ثمود عرفت ببراعتها فى فن النحت، تنحت الصـخر بيوتـاً وتماثيل وما شاءت لها موهبتها الفنية أن "تبدعه"، كان الوادى الذى يسكنونه "فيما هو الآن حـدود الأردن مـع الجزيـرة العربية" صخرى القاع والجدران، فأغرى أهله بأن يتخـذوا من فن النحت متعة ومورد كسب فـى آن معـاً، إذ كـانوا يبيعون التماثيل "أو الأصـنام إذا شـئت". للمسـافرين مـن الجزيرة العربية إلى الشام أو من الشام إلى الجزيرة العربية

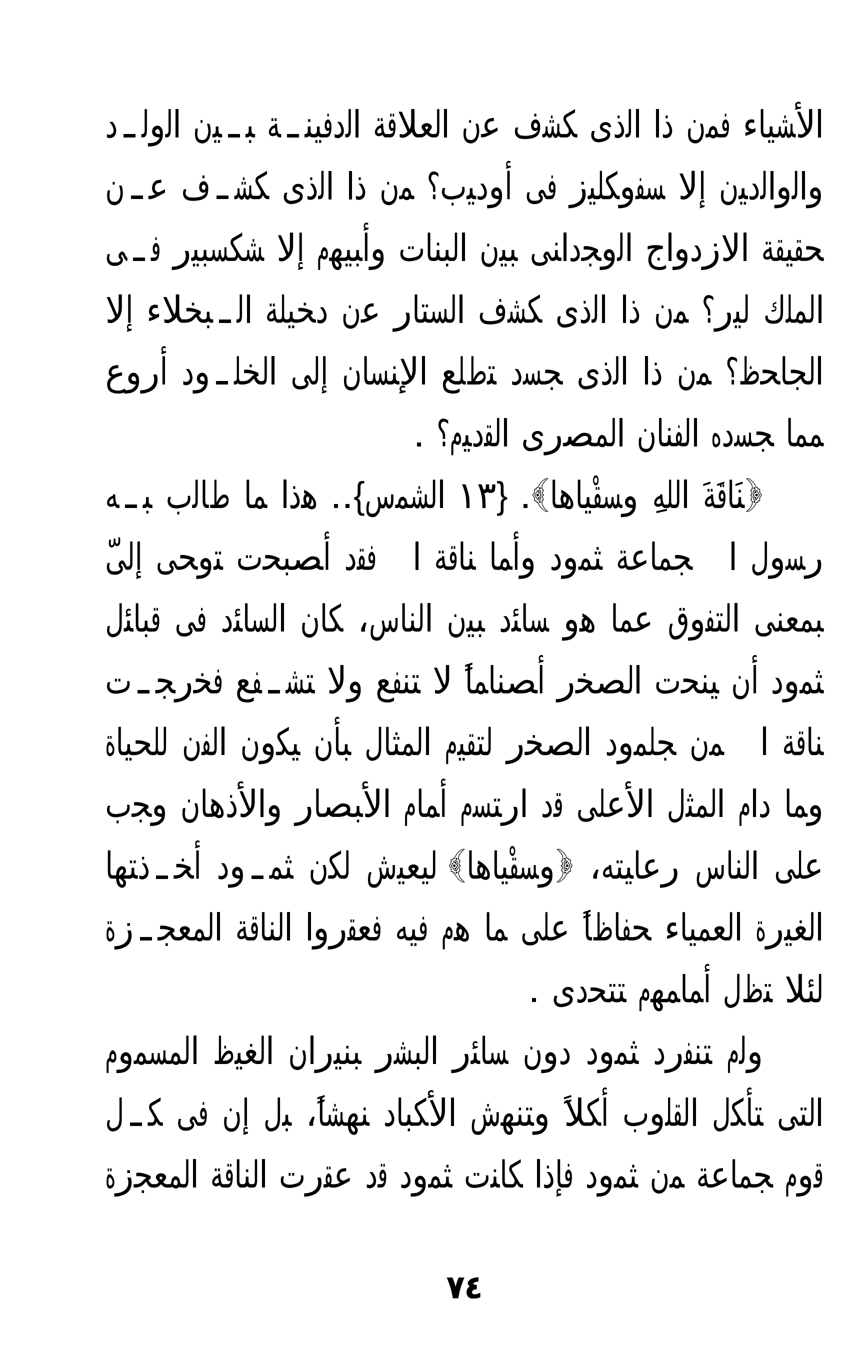
فلما أرسل إليهم "صالح" عليه السلام، كانت معجزته من جنس ما برعوا فيه – وهو الشأن فـى معجـزات الأنبيـاء جميعاً، فإذا كانت براعتهم أن يقدوا مـن الصـخر تماثيـل تحاكى الأحياء، فليخرج لهم رسول ا من الصخر ذاته كائناً حياً، هو الناقة التى انشقّ عنها الصخر فخرجت لهم كاملـة التكوين نابضة الحياة، لم يلدها أبوان، ولم تتدرج فى النماء، فبهت القوم لما يرون ماثلاً أمام أبصارهم، إنها ناقة ا .

وتريد ناقة ا أن تشرب كما يشرب سـائر الأحيـاء، ويطالب لها رسول ا صالح عليه السلام بالسقيا، فلم يكـن من جماعة ثمود إلا أن تشعر بالهزيمة وكان أقسى جوانـب هزيمتهم هو شعورهم بالنكبـة فـى موضـوع إعـزازهم وفخرهم، ألا وهو إخراج الكائنـات المنحوتـة مـن صـم الجلاميد، فأين يكون كل ما أخرجوه من تماثيل إذا قيس إلى هذه الآية المعجزة تنبثق من جوف الصخور؟ لكن العزة قـد أخذتهم بالإثم، فكذبوا الرسول فيما تشهده الأبصار، وعقـروا الناقة غيظاً، ﴿فَدمدم علَيهم ربهـم بِـذَنْبِهم فَسـواها﴾. {١٤ الشمس} ..

وضحت لى الرابطة التى قمت أبحث عنها فى سـورة الشمس فالعقل عند تلاوتها ينتقل انتقالاً مسلسلاً جميلاً، مـن مشاهد الكون الفسيح إلى دخيلة النفس الإنسـانية المنطويـة على فطرة محايدة، تتشكل فجوراً عند الفاجر وتقـوى عنـد التقى ثم ينتقل العقل من هذه النفس فى جملتها إلـى مجـال إبداعها الفنى، هكذا يكون التسلسل: الكون، فالإنسان مجتـزأ من ذلك الكون. فالفن مجتزءاً من ذلك الكون .



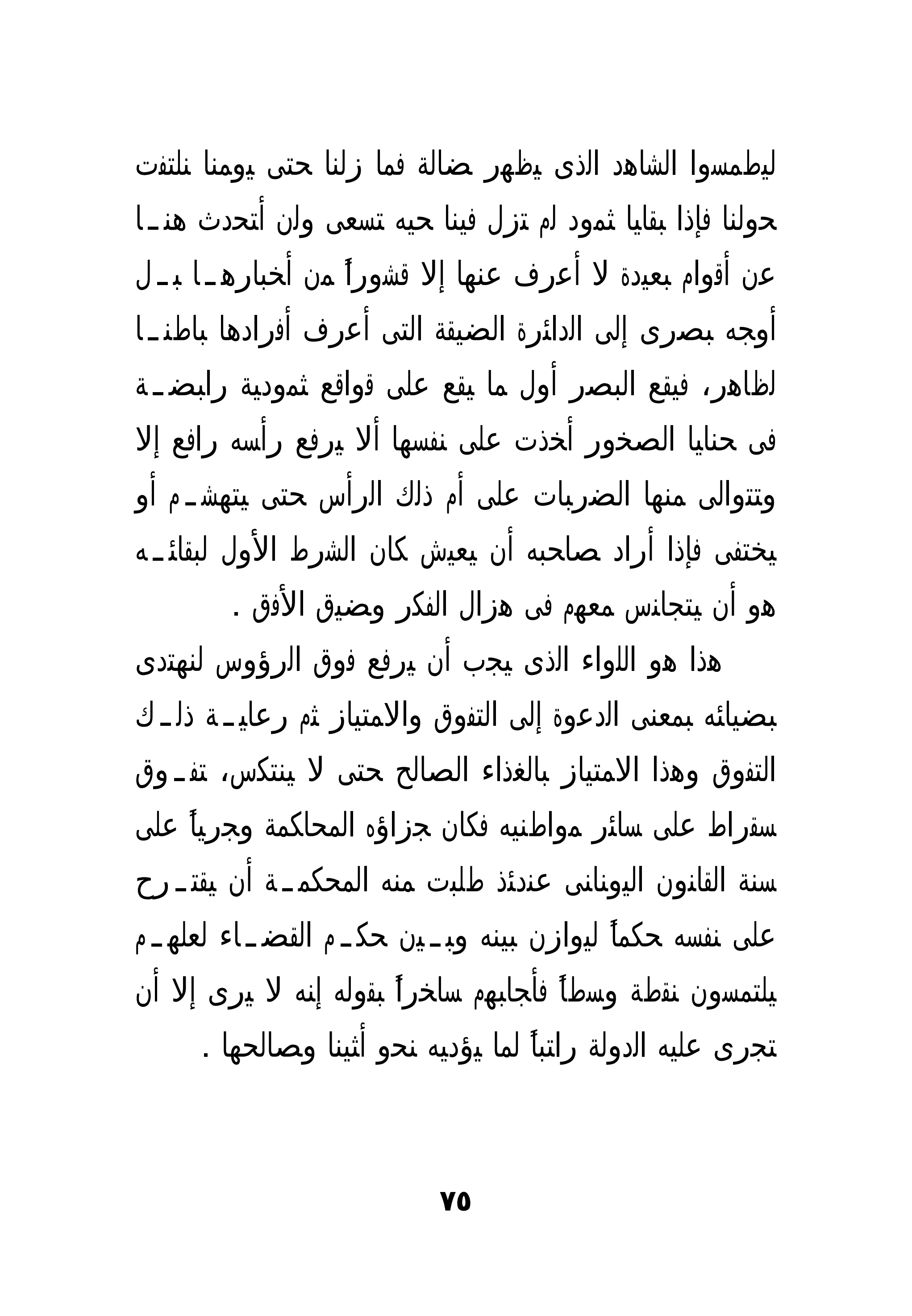
وعند انتقال الذهن – فى مجال الفن – من المنحوتـات الصخرية الصماء التى كانت تبدعها ثمود إلى الناقة المعجزة التى انشق عنها الصخر فكأنما تضئ له من الإلهام بأن الفن كله إما أن يكون من أجل الحياة وإما ألا يكون، إن الإنسـان يريد أن يحيا حياته طولاً وعرضاً وعمقاً ما استطاع سـبيلاً، فأما أن يحياها طولا فذلك قد يكون مرهوناً – مـن جانـب الإنسان – بنتاج العلوم الخاصة بالتغذية والصحة والطب وما إليها، وأما أن يحياها بالعرض فتتوقف على اتساع الـدائرة التى يجول فيها فيزداد خبرة بالأرض والسماء ومـا بينهمـا وإما أن يحيا حياته عمقاً فهاهنا تأتى الفلسفة ويأتى الفن، لأن نتاج العلوم فى الحالة الأولى واتساع الخبرة فى الحالة الثانية إنما يأتيان إلينا متفرقات مجزأة لا رابطة بينهم، إننا عندئـذ نكون كمن يصادف فرداً من الناس هنا وهناك دون أن يعلـم أنهم أبناء أسرة واحدة حتى إذا ما عرف عنهم هذه الرابطـة كان كمن يراهم رؤية أوضح، وهكذا تفعل الفلسفة بمتفرقات المعرفة تحاول أن تكشف عن الرباط الذى يجمعها عند نقطة التقاء واحدة وأما الفن فأمره عجب لأنه هو الذى يكشف لـك عما وراء الأقنعة التى تستر عنك حقـائق النـاس وطبـائع



الأشياء فمن ذا الذى كشف عن العلاقة الدفينـة بـين الولـد والوالدين إلا سفوكليز فى أوديب؟ من ذا الذى كشـف عـن حقيقة الازدواج الوجدانى بين البنات وأبيهم إلا شكسبير فـى الماك لير؟ من ذا الذى كشف الستار عن دخيلة الـبخلاء إلا الجاحظ؟ من ذا الذى جسد تطلع الإنسان إلى الخلـود أروع مما جسده الفنان المصرى القديم؟ .

﴿نَاقَةَ اللهِ وسقْياها﴾. {١٣ الشمس}.. هذا ما طالب بـه رسول ا جماعة ثمود وأما ناقة ا فقد أصبحت توحى إلىّ بمعنى التفوق عما هو سائد بين الناس، كان السائد فى قبائل ثمود أن ينحت الصخر أصناماً لا تنفع ولا تشـفع فخرجـت ناقة ا من جلمود الصخر لتقيم المثال بأن يكون الفن للحياة وما دام المثل الأعلى قد ارتسم أمام الأبصار والأذهان وجب على الناس رعايته، ﴿وسقْياها﴾ ليعيش لكن ثمـود أخـذتها الغيرة العمياء حفاظاً على ما هم فيه فعقروا الناقة المعجـزة لئلا تظل أمامهم تتحدى .

ولم تتفرد ثمود دون سائر البشر بنيران الغيظ المسموم التى تأكل القلوب أكلاً وتنهش الأكباد نهشاً، بل إن فى كـل قوم جماعة من ثمود فإذا كانت ثمود قد عقرت الناقة المعجزة



ليطمسوا الشاهد الذى يظهر ضالة فما زلنا حتى يومنا نلتفت حولنا فإذا بقايا ثمود لم تزل فينا حيه تسعى ولن أتحدث هنـا عن أقوام بعيدة لا أعرف عنها إلا قشوراً من أخبارهـا بـل أوجه بصرى إلى الدائرة الضيقة التى أعرف أفرادها باطنـا لظاهر، فيقع البصر أول ما يقع على قواقع ثمودية رابضـة فى حنايا الصخور أخذت على نفسها ألا يرفع رأسه رافع إلا وتتوالى منها الضربات على أم ذلك الرأس حتى يتهشـم أو يختفى فإذا أراد صاحبه أن يعيش كان الشرط الأول لبقائـه هو أن يتجانس معهم فى هزال الفكر وضيق الأفق .

هذا هو اللواء الذى يجب أن يرفع فوق الرؤوس لنهتدى بضيائه بمعنى الدعوة إلى التفوق والامتياز ثم رعايـة ذلـك التفوق وهذا الامتياز بالغذاء الصالح حتى لا ينتكس، تفـوق سقراط على سائر مواطنيه فكان جزاؤه المحاكمة وجرياً على سنة القانون اليونانى عندئذ طلبت منه المحكمـة أن يقتـرح على نفسه حكماً ليوازن بينه وبـين حكـم القضـاء لعلهـم يلتمسون نقطة وسطاً فأجابهم ساخراً بقوله إنه لا يرى إلا أن تجرى عليه الدولة راتباً لما يؤديه نحو أثينا وصالحها .

هكذا بدأ الصبى الذى كنته عند الخامسة مفتونا بـالنغم بحلو النغم فى قوله تعالى ﴿فَقَالَ لَهم رسولُ اللهِ نَاقَـةَ اللـهِ وسقْياها﴾. {١٣ الشمس}.. وهكذا انتهي الشيخ مرورا بتطلع الشباب ونضج الرجولة إلي ما وراء النغم الجميل من مبـدأ للارتقاء بالناس نحو الأعلى، فإذا كذبت فينا ثمود حقت عليها اللعنة إلي يوم الدين" انتهى .

ففي هذه القطعة نرى كيف يمكـن للثقافـة العريضـة العميقة والحس الفني المرهف أن يقدما "رؤية" جديدة للآيـة تمثل دون ريب إضافة من إضافات استلهام القرآن وغوصـا إلي أعماق الآية وعرضا لمعانيها بطريقة لا يمكن تقـديمها من غير المثقف النابه والذى كانت تلح عليه السـورة مـن الطفولة التي لم تلحظ إلا النغم الحلو حتى الشـيخوخة التـي كشفت عن أعماقها الخافية وربطت ما بينها وبين المجتمـع الإنسانى وما كان لغيره أن يجعل مـن تعبيـر﴿نَاقَـةَ اللـهِ وسقْياها﴾ {١٣ الشمس}.. شعارا ولواء للدعوة إلى التفـوق والامتياز وإحاطة هذا الامتياز بالاعتراف والرعاية .

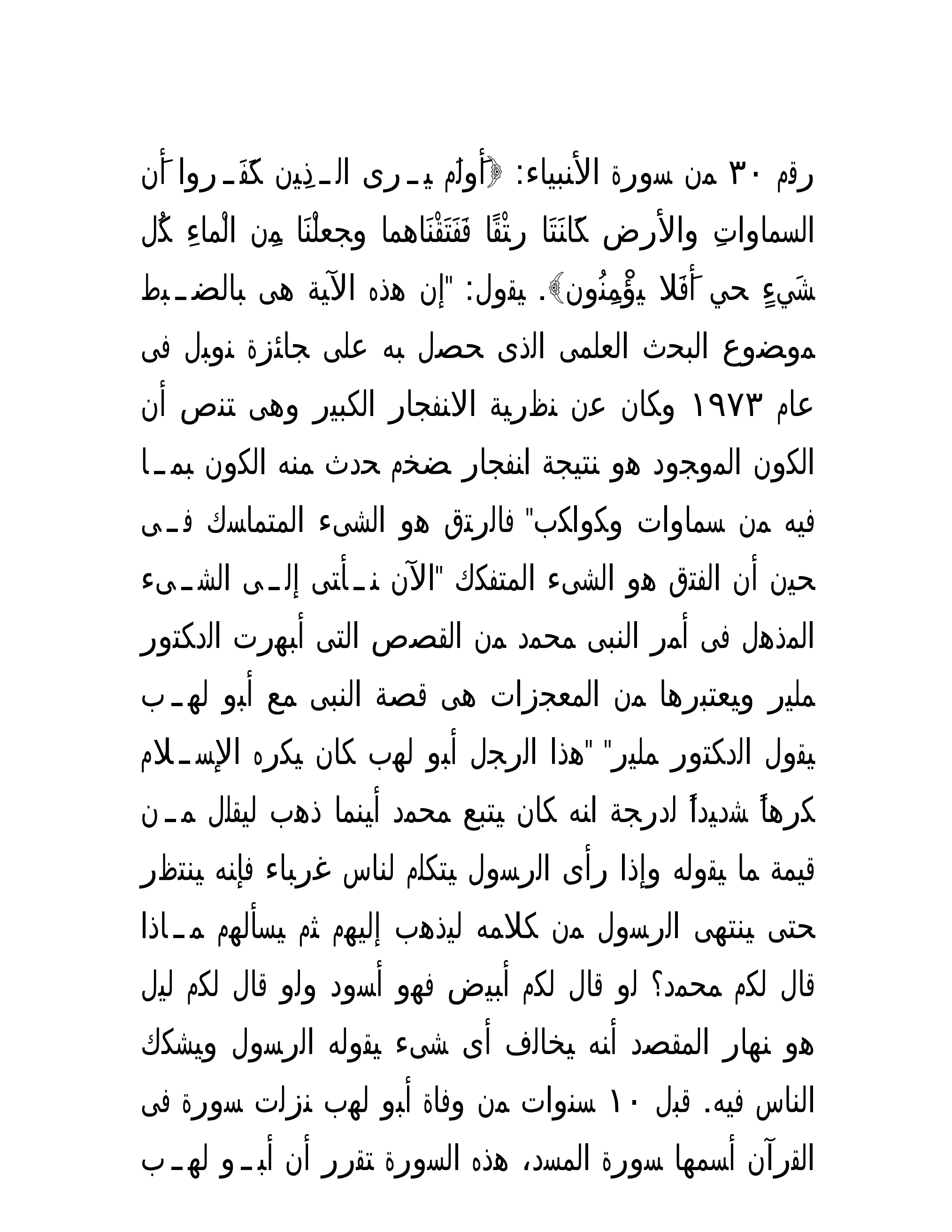
* * *

قس أمريكى يستكشف إعجازاً قرآنيا ..

وها هو ذا مدخل ثان للتعرف على إعجاز القـرآن مـا كان يمكن للأسلاف، ولا حتى للعرب المعاصرين دخولـه، وقد جاء فى خبر نقلته على الإنترنت قناة "إسلام أون لـين" تحت عنوان "نصرانى قرأ القـرآن" وجـاء فيـه بـبعض الاختصار ..

"كان من المبشرين النشطين جداً فى الدعوة النصـرانية وأيضاً هو من الذين لديهم علم غزير بالكتاب المقدس، هـذا الرجل يحب الرياضيات بشكل كبير لذلك يحب المنطـق أو التسلسل المنطقى للأمور فى أحد الأيام أراد أن يقرأ القـرآن بقصد أن يجد فيه بعض الأخطاء التى تعـزز موقفـه عنـد دعوته المسلمين للدين النصرانى كان يتوقع أن يجد القـرآن كتاباً قديماً مكتوباً منذ ١٤ قرن يتكلم عن الصحراء وما إلى ذلك لكنه ذهل مما وجد فيه... بل واكتشف أن هذا الكتـاب يحوى أشياء لا توجد فى أى كتاب آخر فى هذا العالم، كـان يتوقع أن يجد بعض الأحداث العصيبة التى مرت على النبى مثل وفاة زوجته خديجة أو وفاة بناته وأولاده لكنه لـم يجـد شيئاً من ذلك بل الذى جعله فى حيرة من أمره أنه وجـد أن

هناك سورة كاملة فى القرآن تسمى (سورة مـريم) وفيهـا تشريف لمريم عليها السلام لا يوجد مثيـل لـه فـى كتـب النصارى ولا فى أناجيلهم!! ولم يجد سورة باسم عائشـة أو فاطمة وكذلك وجد أن عيسى ذكر بالاسم ٢٥ مرة فى القرآن فى حين أن النبى محمد لم يذكر إلا ٥ مرات فقـط فـزادت حيرة الرجل أخذ يقرأ القرآن بتمعن أكثر لعله يجـد مآخـذا عليه... ولكنه صعق بآية عظيمة وعجيبة ألا وهى الآية رقم ٨٢ فى سورة النساء: ﴿أَفَلا يتَدبرون الْقُرآن ولَو كَان مِن عِنْدِ غَيرِ اللهِ لَوجدوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرا. يقول الدكتور ملير عـن هذه الآية. "من المبادئ العلمية المعروفة فى الوقت الحاضر هو مبدأ إيجاد الأخطاء أو تقصى الأخطاء فى النظريات إلى أن تثبت صحتها **Falsification test** والعجيب أن القرآن يدعو المسلمين وغير المسلمين إلى إيجاد الأخطاء فيه ولـن يجدوا..." يقول أيضاً عن هذه الآية "لا يوجد مؤلف فى العالم يمتلك الجرأة ويؤلف كتاباً ثم يقول هذا الكتاب خـالى مـن الأخطاء ولكن القرآن على العكس تماماً يقول اك لا يوجـد أخطاء بل ويعرض عليك أن تجد فيه أخطاء ولن تجد"، أيضاً من الآيات التى وقف الدكتور ملير عندها طويلا هى الآيـة



رقم ٣٠ من سورة الأنبياء: ﴿أولم يرى الذين كفروا أن السماواتِ والأرض كانتا رتقًا ففتقناهما وجعلنا من الماءِ كُل شيءٍ حي أفلا يؤمنون﴾. يقول: "إن هذه الآية هى بالضبط موضوع البحث العلمى الذى حصل به على جائزة نوبل فى عام ١٩٧٣ وكان عن نظرية الانفجار الكبير وهى تنص أن الكون الموجود هو نتيجة انفجار ضخم حدث منه الكون بما فيه من سماوات وكواكب" فالرتق هو الشىء المتماسك فى حين أن الفتق هو الشىء المتفكك "الآن نأتى إلى الشىء المذهل فى أمر النبى محمد من القصص التى أبهرت الدكتور ملير ويعتبرها من المعجزات هى قصة النبى مع أبو لهب يقول الدكتور ملير" "هذا الرجل أبو لهب كان يكره الإسلام كرهاً شديداً لدرجة انه كان يتبع محمد أينما ذهب ليقلل من قيمة ما يقوله وإذا رأى الرسول يتكلم لناس غرباء فإنه ينتظر حتى ينتهى الرسول من كلامه ليذهب إليهم ثم يسألهم ماذا قال لكم محمد؟ لو قال لكم أبيض فهو أسود ولو قال لكم ليل هو نهار المقصد أنه يخالف أى شىء يقوله الرسول ويشكك الناس فيه. قبل ١٠ سنوات من وفاة أبو لهب نزلت سورة فى القرآن أسمها سورة المسد، هذه السورة تقرر أن أبو لهب

سوف يذهب إلى النار، أى بمعنى آخر أن أبو لهب لن يدخل الإسلام. خلال عشر سنوات، كل ما كان على أبو لهـب أن يفعله هو أن يأتى أمام الناس ويقول "محمد يقول أنى لن أسلم وسوف أدخل النار ولكنى أعلن الآن أنى أريد أن أدخل فـى الإسلام وأصبح مسلماً!! .

عشر سنوات كانت لديه الفرصة أن يهدم الإسلام بدقيقة واحدة! ولكن لأن الكلام هذا ليس كلام محمد ولكنـه وحـى ممن يعلم الغيب ويعلم أن "أبو" لهب لن يسلم .

يقول الدكتور ملير عن آية أبهرته لإعجازها الغيبـى: "من المعجزات الغيبية القرآنية هو التحدى للمستقبل بأشياء لا يمكن أن يتنبأ بها الإنسان وهى خاضـعة لـنفس الاختبـار السابق وهو **Falsification test** مبدأ إيجاد الأخطاء حتى تتبين صحة الشىء المراد اختباره، وهنا سوف نرى ماذا قال القرآن عن علاقة المسلمين مع اليهود والنصـارى. القـرآن يقول إن اليهود هم أشد الناس عداوة للمسلمين وهذا مسـتمر إلى وقتنا الحاضر فأشد الناس عداوة للمسلمين هـم اليهـود" ويكمل الدكتور ملير: "إن هذا يعتبر تحديا عظيمـا ذلـك أن اليهود لديهم الفرصة لهدم الإسلام بـأمر بسـيطاً وهـو أن

يعاملوا المسلمين معاملة طيبة لبضع سنين ويقولون عندها: ها نحن نعاملكم معاملة طيبة والقرآن يقول إننا أشد الناس عداوة لكم، إذن القرآن خطأ!، ولكن هذا لم يحدث خلال ١٤٠٠ سنة!! ولن يحدث لأن هذا الكلام نزل من الذى يعلم الغيب وليس إنسان!!" .

يكمل الدكتور ملير عن أسلوب فريد فى القرآن أذهله لإعجازه" "بدون أدنى شك يوجد فى القرآن توجه فريد ومذهل لا يوجد فى أى مكان آخر، وذلك أن القرآن يعطيك معلومات معينة ويقول لك: لم تكن تعلمها من قبل!! مثل سورة آل عمران .

﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾. {٤٤ آل عمران}.. ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ {٤٩ هود}.. ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾. {١٠٢ يوسف} ..

يكمل الدكتور ملير: "لا يوجد كتاب مما يسمى بالكتـب الدينية المقدسة يتكلم بهذا الأسلوب، كل الكتب الأخرى عبارة عن مجموعة من المعلومات التى تخبرك من أين أتت هـذه المعلومات، على سبيل لمثال الكتاب المقدس عنـدما ينـاقش قصص القدماء فهو يقول لك الملك فلان عاش هنا وهذا القائد قاتل هنا معركة معينة وشخص آخر كان له عدد كـذا مـن الأبناء وأسماءهم فلان وفلان الخ... ولكـن هـذا الكتـاب "الإنجيل المحرف" دائماً يخبرك إذا كنت تريد المزيـد مـن المعلومات يمكنك أن تقرأ الكتاب الفلانى أو الكتاب الفلانـى لأن هذه المعلومات أتت منه" يكمل الدكتور مليـر: "بعكـس القرآن الذى يمدّ القارئ بالمعلومة ثم يقول لك هذه معلومـة جديدة!! بل ويطلب منك أن تتأكد منها إن كنت متردداً فـى صحة القرآن بطريقة لا يمكن أن تكون من عقـل بشـر!!. والمذهل فى الأمر هو أن أهل مكة فى ذلـك الوقـت – أى وقت نزول هذه الآيات – ومرة بعد مرة كـانوا يسـمعونها ويسمعون التحدى بأن هذه معلومات جديدة لم يكن يعلمها ولا قومه، بالرغم من ذلك لم يقولوا: هذا ليس جديداً بـل نحـن نعرفه، أبداً لم يحدث أن قالوا مثل ذلك ولم يقولوا ونحن نعلم

من أين جاء محمد بهذه المعلومات، أيضاً لم يحدث مثل هذا، ولكن أحداً لم يجرؤ على تكذيبه أو الرد عليـه لأنهـا فعـلاً معلومات جديدة كلياً!!! وليست من عقل بشر ولكنها من ا الذى يعلم الغيب فى الماضى والحاضر والمستقبل".

وهكذا فإن القرآن حول هذا الرجل من عدو يبحث فيه ليجد أدلة للطعن عليه.. إلى داعية يسلم ويؤمن به. ويعمل للدفاع عنه ...

الفصل الثانى

مزالق

المفسرين القدامى

لما كان الهدف الرئيسى للقرآن هو دعوة النـاس إلـى الإيمان با   فإن ذلك اقتضى أن تأخذ الصياغة القرآنية إيقاعاً موسيقيا وتصويرا فنيا. حتى يمكن أن يدخل الآذان فالقلوب، ولما كان المعجزة الدائمة الخالدة التى تعود إليهـا الأجيـال جيلا بعد جيل، وعصرا بعد عصر لتجد فيها الحكمة، والهدى والتوجيه السليم بحيث تظل له المكانة التى كانت له بالنسـبة للجيل الأول الذى استنقذه القرآن من الظلمات إلى النور فإن ذلك اقتضى أن يقتصر القرآن على الأصول والكليـات، وأن يهمل الفروع والتفاصيل والجزئيات وأن يستخدم التعبيـرات المرنة التى تتسع للتأويل والتفسير وتأخذ منها الأفهـام قـدر طاقتها ومنشود حاجتها .

ولم يكن من هذا كله بد، لأن ا   تعالى وضـع للكـون سننا لابد أن تتبع، ومعجزة القرآن ليسـت أن يخـرق هـذه السنن، ولكن أن يتلى على الناس ليجدوا فيه الرحمة والذكرى

﴿أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون﴾. {٥١ العنكبوت} ..

ولهذا يستحيل تخيل صورة أخرى يمكن لمعجزة دائمة خالدة.. لكل الناس فى كل العصور وفى كل الأماكن غير أن تكون "كتابا" ويستحيل تخيل صورة أخرى لمثل هذا الكتاب غير ما أخذها القرآن.. ليمكن معها تحقيق هدفه العظيم الهداية الإلهية للبشرية كافة على مدار العصور والأزمان .

وكان الصحابة الذين عاصروا نزول القرآن يجدون فيه رياً لنفوسهم، وشفاء لصدورهم ونهجا لما تكون عليه حياتهم وسلوكهم. ولم يطمحوا – باستثناء قلة – أن يحملوا القرآن كله، وكان حسبهم عدد من السور يتدبرها الواحد منهم فتغنيه، لأنها قد تكون ذات معان واضحة فيفهمها، أو تكون ذات إعجاز لغوى فتخشع لها نفسه، ويمكن أن يكون هذا أو ذاك معا، وفى هذا أو ذاك رضا ومقنع. وكانوا على ما روى إذا تعلموا عشر آيات لم يتجاوزوها حتى يعلموا ما فيها من العلم والعمل، وقد استغرق عمر بن الخطاب ثمان سنوات فى حفظ البقرة، ولما أتمها نحر جزورا، ووقف عند كلمة "أبا"

فى سورة عبس (الآية ٣١) ثم أعلن أن جهله بها لا يضيره، بل إن تقصيها هو التكلف بعينه .

ومما يزيد فى دلالة هذا المسلك ومغزاه أن النبى عليـه الصلاة والسلام كان بين ظهرانيهم، وكان يمكنهم أن يسألوه، خاصة وقد كان كل ما جاء فى القرآن جديدا عليهم، ولكـنهم آثروا أن لا يفعلوا ورأوا فى ذلك نوعا من الفضـول يثقـل عليهم لارتباط العلم بالعمل عندهم. فالقليل الذى يطيقونه خير من الكثير الذى لا يقومون به أولاً يؤدون شكره، ويتنافى مع ما ينبغى للمؤمن من سمت وخلق. ولعلهم تذكروا ضيق النبى صلى ا عليه وسلم بمن يسأل تزيدا وتعنتا أو تفصيلاً دون حاجة ملحة لذلك، "ذرونى ما تركتكم" وما جاء فى القرآن من تحريم السؤال عن أشياء "أن تبد لكم تسؤكم"

بل أعجب من ذلك فى الدلالة أن النبى عليـه الصـلاة والسلام وقد تنزل عليه القرآن لم يخبرهم بتفاصيل عن تفسير أو تأويل ما جاء به إذ لو فعل ذلك لوصل إلينا قطعـا لـيس فحسب من باب الرواية كعشرات الألـوف مـن الأحاديـث الأخرى ولكن من باب الأحكام لأن ما سيقوله سيعد الحكـم الفصل فى الأمر ولكن الذى وصل إلينا من التفسير المرفوع

إلى النبى لا يتعدى ثلاثة عشر صفحة علـى مـا صـوره السيوطى فى كتابه "الإتقان فى علوم القـرآن" أجمـل فيهـا التفاسير المصرح برفعها "صـحيحها وحسـنها وضـعيفها ومرسلها ومعضلها" وإن لـم يعـول علـى "الموضـوعات والأباطيل" كما استبعد ثلاثة أحاديث طويلة مرفوعة لم يثبت له صحتها أحدها حديث موسى مع الخضر.. والثانى حـديث الفتون والثالث حديث الصور (الذى يتنـاول يـوم القيامـة) فسكوت النبى عن تفسير القرآن أو معظمه له دلالته التى لا يمكن إهمالها لما فيها من حكمة ..

ولخص أحد الشيوخ المعاصرين الموقف فى هذه النقطة فقال "إن القرآن الكريم لم يحظ بتفسير مروى عن الرسـول صلى ا عليه وسلم ولا عن صحابته إلا فى آيات قليلة جدا ومتناثرة فلا يمكن أن تكون تفسيراً كاملا بالروايـة يعتمـد عليه"[1] .

وعلى كل حال فقد اختلفت الصورة بعد أن قبض النبى وانقضى جيل الصحابة وجاءت الفتوح بالألوف المؤلفة مـن

---

(١) التفسير والمفسرون بقلم الشيخ عبد المنعم النمر – مجلة العربـى العـدد ١٢٥ محرم ١٣٨٩ أبريل ١٩٦٩ ص٢٥، وسنعاود الإشارة إلى هذه النقطـة عن الحديث عن "التفسير بالمأثور"...

الذين اسلموا مع انتصار الإسلام من يهـود أو نصـارى أو صابئة.. وحملوا معهم بقايا معتقداتهم القديمة التى لم يكن من السهل عليهم التخلص منها ولم تسعفهم معـرفتهم المحـدودة بالعربية فى تفهم القرآن أو إدراك إيجازه ومجازه، استعارته وإشارته، ولم يكن فيهم ذلك الحرص على الجمع بين العلـم والعمل وإنما كان فى معظمهم فضول للتعرف على ما جـاء فى القرآن ومدى اتفاق أو افتراق ذلك عما كـانوا يعتقدونـه وعزز هذا كله أن توسع المجتمع وتشعبت قضاياه وتعـددت مسائله ولم يكن الذين ولوا الأمر بمنزلة النبى المشرع الذى يفصل فى الأمور بما لا يرد فانفتح الباب أمام ما أطلق عليه "علوم القرآن" وعكفت مجموعات من النـاس علـى تأويـل وتحليل وتفسير آيات القرآن كل من زاويتها الخاصة مستعينة فى ذلك بما كان فى الكتب القديمة وبوجه خاص التوراة وما كان بين يدى أهل الكتاب من أقاصيص وروايـات طافحـة بالتفاصيل ولم يجدوا حرجا من ذلك لما رووه من أحاديث لا تحرم ذلك بل لقد رووا "حدثوا عن بنى إسرائيل ولا حـرج" فنقلوا من "علماء اليهود أو من ظنوهم علماء بالتوراة وربما لم يكونوا من العلماء بل من النقلة المحرفين الذين يحرفـون

ويزيدون أو من عوامهم الذين يسمعون وينقلون ويزيـدون. ويستمع منهم المسلمون حتى لتجد كتـب التفسـير محشـوة بتفاصيل لهذه القصص لم يذكرها القرآن ولكنها مأخوذة عن هؤلاء مما اشتهرت تسميته "بالإسـرائيليات" وبعـض هـذه الإسرائيليات تجدها معزوه إلى ابن عبـاس أو غيـره مـن الصحابة والتابعين مما يوهم روايتها عن الرسول صـلى ا عليه وسلم وما هى كذلك وإنما هذا مصدرها الذى أتت منه، اليهود الذين أسلموا ونصبوا من أنفسـهم أو نصـب مـنهم المسلمون معلمين مخبرين، بما لم يذكره القرآن من تفاصيل القصص"[1]. وامتلأت كتب التفسير بهذه الأقاصيص وغيرها كأن ذكر ذلك هو القصد وليس تفسير القرآن بعينه حتى صح على بعضها ما قيل عن تفسير الرازى "فيه كـل شـىء إلا التفسير" .

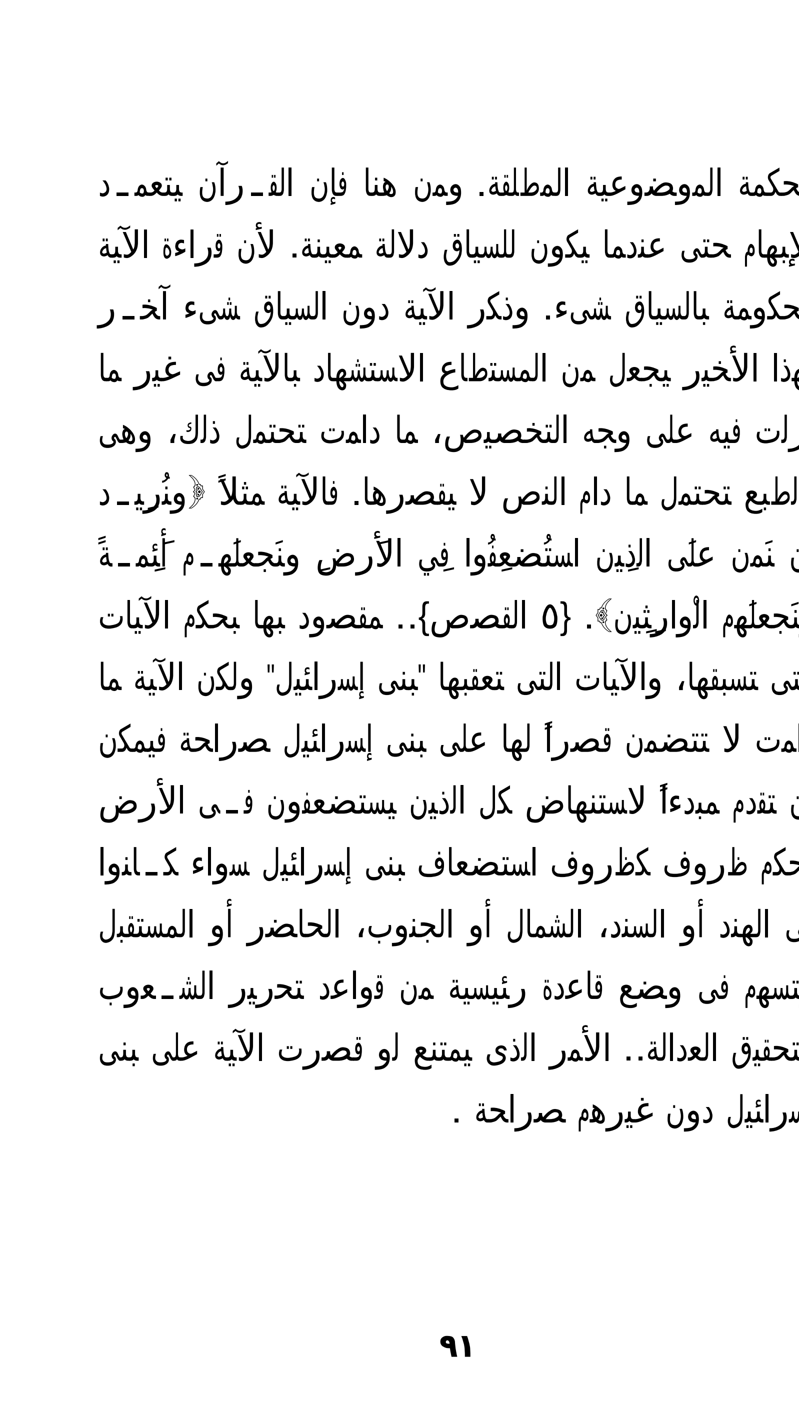
وإذا تصورنا حالة المجتمع الإسـلامى وقتئـذ، وقـد اكتسحه مد متلاحق من الأجناس التى آمنت بالإسـلام، دون أن يتوفر للأغلبية الساحقة الـورع مـن ناحيـة أو العلـم بالأساليب العربية من ناحية أخرى، ودون أن تتخلص تماماً

---

(١) المرجع السابق ص ٢٣ .

من مؤثراتها القديمة ورواسبها وتقاليدها العرقية والحضارية، وإذا وضعنا فى تقديرنا أن هذا المجتمع الذى خرج لتوه من البيئة الصحراوية الساذجة، كان يبنى كل نظمه الاجتماعيـة والاقتصادية والسياسية على الإسلام، أى على القرآن أساسا، لتأكد لنا وجود تناقض بين أمس هذا المجتمع ويومه، وفراغ كبير نتيجة لخروجه من البيئة البسيطة إلى العالم المعقد وكان لابد من ملء هذا الفراغ وتوسيع الأطر الإسلامية ليمكن أن تحيط بأطراف هذا المجتمـع المتمـدد وتفـى باحتياجاتـه المتزايدة. وتحدد الموقف إزاء الفلسفات والنظريات الوافـدة، سواء كان هذا الموقف رفضا أو اتفاقا أو تسوية .

من أجل هذا نقول إن ظهور العلوم الإسـلامية، سـواء كانت فقها أو تفسيراً كان أمر مقضيا تطلبته الظروف المعينة التى مر بها المجتمع الإسلامى وقتئذ، وإن لم يستتبع هذا أن تلك الظروف كانت هى الظروف المثلى أو أن النتيجة كانت موفقة ومبرأة من المآخذ. ذلك لأن ا تعالى أنزل القرآن – على ما هو عليه – لحكمة عظمى وكـان يمكنـه أن يـذكر الأسماء والأرقام والتفاصيل ولكن القرآن ليس كتاباً للسرد – والواقعة عنده ليست إلا سبيلاً لإيراد المضـمون العـام أو



الحكمة الموضوعية المطلقة. ومن هنا فإن القـرآن يتعمـد الإبهام حتى عندما يكون للسياق دلالة معينة. لأن قراءة الآية محكومة بالسياق شىء. وذكر الآية دون السياق شىء آخـر فهذا الأخير يجعل من المستطاع الاستشهاد بالآية فى غير ما نزلت فيه على وجه التخصيص، ما دامت تحتمل ذلك، وهى بالطبع تحتمل ما دام النص لا يقصرها. فالآية مثلاً ﴿ونُرِيـد أَن نَمن علَى الذِين استُضعِفُوا فِي الأَرضِ ونَجعلَهـم أَئِمـةً ونَجعلَهم الْوارِثِين﴾. {٥ القصص}.. مقصود بها بحكم الآيات التى تسبقها، والآيات التى تعقبها "بنى إسرائيل" ولكن الآية ما دامت لا تتضمن قصراً لها على بنى إسرائيل صراحة فيمكن أن تقدم مبدءاً لاستنهاض كل الذين يستضعفون فـى الأرض بحكم ظروف كظروف استضعاف بنى إسرائيل سواء كـانوا فى الهند أو السند، الشمال أو الجنوب، الحاضر أو المستقبل وتسهم فى وضع قاعدة رئيسية من قواعد تحرير الشـعوب وتحقيق العدالة.. الأمر الذى يمتنع لو قصرت الآية على بنى إسرائيل دون غيرهم صراحة .

– ١ –

طريقة المفسرين القدامى ...

سلك المفسرون القدامى طريقة واحدة بصفة عامة فـى التفسير فهم يبدأون بتفسير الفاتحة، ثم يسيرون مـع السـور بترتيب المصحف حتى السورة الأخيرة "الناس" وهم يبـدأون فى تفسير السور بترتيب آياتها فيأخذون الآيات آية فأية تبعا لترتيبها فى السورة وقد يضمون بعض الآيات بعضها لبعض إذا كان هناك ترابط. ولم يكن معدى عن ذلك، وهذا الترتيب قد لا يكون الطريقة المثلى لفهم القرآن، فكما لاحظنـا فـى "تثوير القرآن" أن تفسير السور آية فآية هو نوع من التشريح الذى لا يتأتى إلا لجسم ميت أما إذا كانت الصـياغة حيـة. متوثبة، متلاحمة فإن هذه الطريقة تذهب بحيويتها وفعاليتهـا التى تتجلى عند قراءة السورة – أو على الأقل – عدداً مـن آياتها مرة واحدة دون تجزئه. ولكن – كما قلنا – لم يكن من هذه الطريقة بد ما دام المطلوب هو تفسير القرآن آية فآية ..

ومن المفهوم أن المفسر يجب أن يحكم عدلاً من العلوم حتى يمكن أن يقوم بمهمته فى التفسير. وقد شرحها علمـاء التفسير – كالسيوطى فى الإتقان وغيره – وأولى هذه العلوم

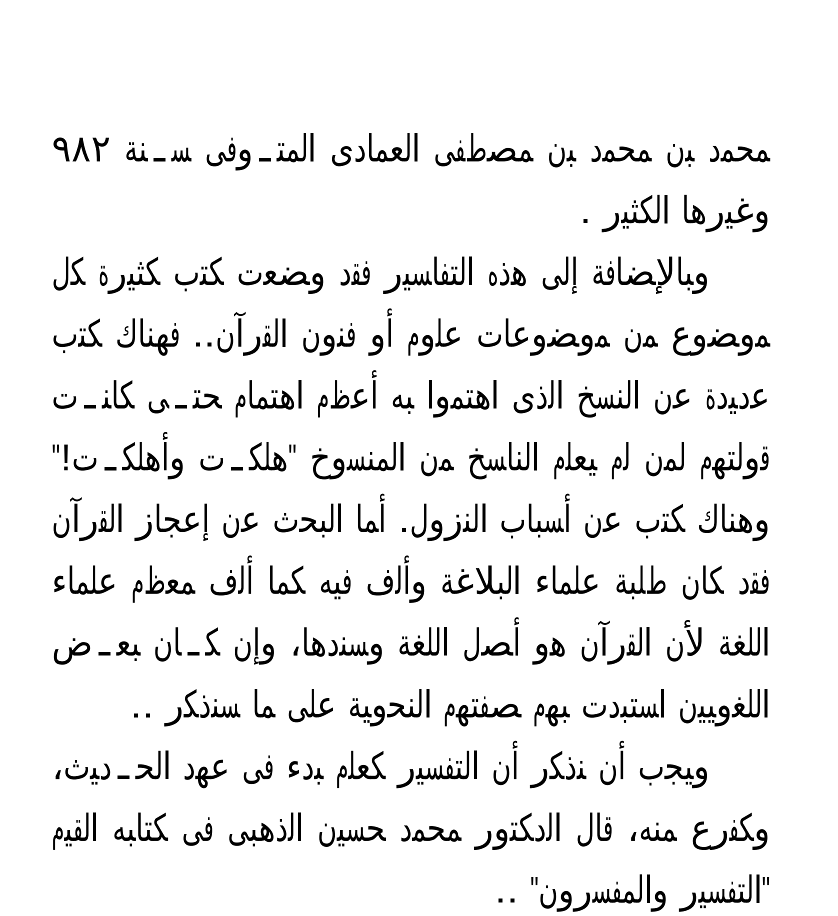
هى علوم اللغة – لأن القرآن كلام – أى لغة ولابد لتفسـيره من إحكام اللغة التى يعبر بها. ويدخل فـى اللغـة النحـو، والصرف، والاشتقاق والمعانى والبيان والبديع، والقـراءات وعلم أصول الدين وأسباب النزول والناسخ والمنسوخ، والفقه ويجب أن يكون ملما بالسنة، وبوجه خاص الأحاديث التـى تبين المجمل والمبهم .

وفى العادة. يبدأ المفسر فيذكر أولاً ما جاء عن الرسول عن هذه الآية إن وجد، فإن لم يجد فإنه يتحـرى مـا قدمـه الصحابة. فإن لم يجد فإنه يتقصى التابعين. وقد يختلفون فى مدى الاعتماد على الرواية، فالذين يفسرون بالمأثور يعتمدون اعتماداً كليا عليه.. أما الذين يأخذون بالرأى. فقد يكون لهـم ملاحظات على أقوال بعض الصـحابة – وإن نـدر – لأن الصحابة جميعاً عدول كما قرر ذلك المحدثون. وقد يأخذون برأى التابعى – أو لا يأخذون ..

ويتجلى عبر التفسير الروح العامة للمفسر، فـإن كـان مذهبيا – معتزلى مثلاً كالزمخشرى فإنه يفسر الآيات طبقـا لمذهبه، وقد يتعسف فى هذا، وإن كان محدثاً، فهـو يأخـذ الحديث بعجره وبجره، صحيحه وضعيفه، وإذا كان متلهفـاً

على معرفة المغيبات، وتعريف المهمات فإنه يعمد إلـى مـا رواه أهل الكتاب فيحشد صفحات طوال من أقوال التوراة أو أهل الكتاب وهم يرون أن كبار المفسرين بالمأثور لا ينجون من هذا المزلق مثل الطبرى فى تفسـيره لأنـه يعـد مـن المفسرين بالمأثور، كما يعدون من المفسرين بالمأثور معالم التنزيل للبقرى (المتوفى سـنة ٥١٦ وتفسـير ابـن كثيـر (المتوفى سنة ٧٧٤). والجواهر الحسان فى تفسير القـرآن لأبى زيد عبد الرحمن بن محمد الثعالبى المتوفى سـنة ٨٧٦ والدر المنثور فى التفسير بالمأثور للسيوطى (المتوفى سـنة ٩١١) .

كما يعدون من مؤلفات التفسير بالرأى تفسـير مفـاتيح الغيب للرازى (المتوفى سنة ٦٠٦) و"أنوار التنزيل وأسرار التأويل" لقاضى القضاة ناصر الـدين عبـد ا بـن محمـد البيضاوى (المتوفى سنة ٦٨٥) و"لباب التأويل فـى معـانى التنزيل" لعلاء الدين على بن محمد بن إبـراهيم المعـروف بالخازن (المتوفى سنة ٧٤١) و"البحر المحيط" لأثير الـدين أبى حيان محمد بن يوسف الأندلسى (المتـوفى سـنة ٧٤٥) و"إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم" لأبى السـعود



محمد بن محمد بن مصطفى العمادى المتوفى سنة ٩٨٢ وغيرها الكثير .

وبالإضافة إلى هذه التفاسير فقد وضعت كتب كثيرة كل موضوع من موضوعات علوم أو فنون القرآن.. فهناك كتب عديدة عن النسخ الذى اهتموا به أعظم اهتمام حتى كانت قولتهم لمن لم يعلم الناسخ من المنسوخ "هلكت وأهلكت!" وهناك كتب عن أسباب النزول. أما البحث عن إعجاز القرآن فقد كان طلبة علماء البلاغة وألف فيه كما ألف معظم علماء اللغة لأن القرآن هو أصل اللغة وسندها، وإن كان بعض اللغويين استبدت بهم صفتهم النحوية على ما سنذكر ..

ويجب أن نذكر أن التفسير كعلم بدء فى عهد الحديث، وكفرع منه، قال الدكتور محمد حسين الذهبى فى كتابه القيم "التفسير والمفسرون" ..

"ثم بعد عصر الصحابة والتابعين، خطا التفسير خطوة ثانية، وذلك حيث ابتدأ التدوين لحديث رسول ا   فكانت أبوابه متنوعة، وكان التفسير باباً من هذه الأبواب التى اشتمل عليها الحديث، فلم يفرد له تأليف خاص يفسر القرآن سورة سورة، وآية آية، من مبدئه إلى منتهاه، بل وجد من

العلماء من طوف فى الأمصار المختلفة فجمع بجوار ذلك ما روى فى الأمصار من تفسير منسوب إلـى النبـى أو إلـى الصحابة، أو إلى التابعين، ومن هؤلاء: يزيد بـن هـارون السلمى (المتوفى سنة ١١٧) وشعبة ابن الحجـاج (المتـوفى سنة ١٦٠) ووكيع بن الجراح (المتوقى سنة ١٩٧) وسـفيان بن عيينة (المتوفى سنة ١٩٨) إلى أن يقول : وهؤلاء جميعاً كانوا من أئمة الحديث، فكان جمعهم للتفسير جمعا لباب مـن أبواب الحديث، ولم يكن جمعاً للتفسير على استقلال وانفراد، وجميع ما نقله هؤلاء الأعلام عن أسلافهم من أئمة التفسـير نقلاوه مسنداً إليهم، غير أن هذه التفاسير لم يصل إلينا شـىء منها، ولذا لا نستطيع أن نحكم عليها[١] .

وينسبون إلى عالم الحديث عبد الملك بن جريج – وهو أحد علماء الحديث فى النصف الأول من القرن الثانى للهجرة أنه أول من اشتغل بكتابة التفسير. فكتب ثلاثة أجزاء عن ابن عباس وفى هذا التفسير نجد القسمات التى سيجدها فى معظم كتب التفسير، أعنى حشد الرواية من صـحيحها وسـقيمها، وكان بن جريج من الموالى روميا كما يدل اسمه الذى هـو

(١) التفسير والمفسرون ج١ ص١٤١ .

تصغير "جورج" وكان أمويا وروى عنه مجاهد، وعطاء بن رباح وميمون ابن مهران وابن شهاب الزهورى والسفيانان ووكيع وعبد الرازق وهو وابن عروبة أول من صنف الكتب فى الحجاز. مع هذه الصفات التى توثقه فإنه كان يدلس وتزوج نحو سبعين امرأة لأنه كان يرى رخصة نكاح المتعة. وقد يلقى أصله الرومى. واتجاهه الأموى وأنه يدلس شيئاً من الظلال أو الشبهات فيما نرى دون أن يمكن القطع بذلك .

ونشأة التفسير فى مهد الحديث وكفرع منه يعطينا إيضاحاً للأهمية التى أعطاها الأسلاف للتفسير بالمأثور فى كتب التفسير .

وبعد بن جريج دخل الحلبة أول اللغويين وهو يحيى بن سلام بن ثعلب البصرى (وتوفى سنة ٢٠٠هـ) وقد روى عن أصحاب الحسن البصرى وحماد بن سلمة وهمام بن يحيى وسعيد بن أبى عروبة .

ثم جاء محمد بن جرير الطبرى الذى يعد أكمل المفسرين ووضع تفسيره "جامع البيان فى تفسير القرآن" الذى فقد حينا من الدهر وقيل إنه لو سافر فرد ما إلى الصين فى طلبه لما كان كثيراً ..

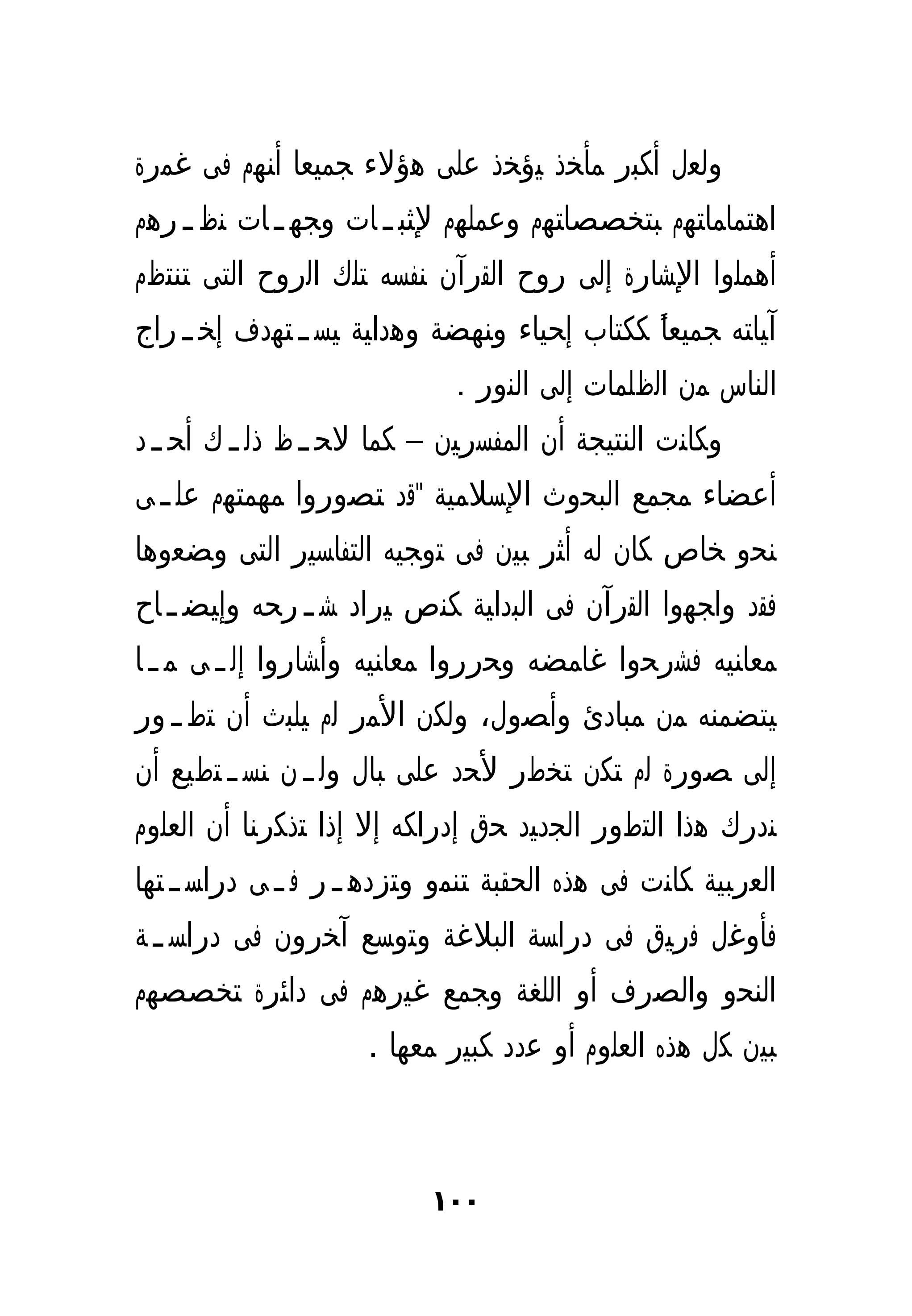
* * *

وعندما أقدم المفسرون علـى تفسـير القـرآن بحكـم الظروف والملابسات التى أشرنا إليهـا.. وجـدوا القـرآن كالبحر هيهات أن يمخروا عبابه أو يسبروا أعماقه أو يدركوا دخائله، ورأوا أمواجا عالية تدفعهم ذات اليمين وذات الشمال، وتيارات عميقة تشدهم من خلف أو أمـام فشـدهوا وسـلم بعضهم، وارتضوا ما جذبته شباكهم مـن أسـماك أو لآلـئ بحسب قدرتهم ومهارتهم لا بحسب ما يضـمه البحـر مـن ذخائر أو يكنه من لآلئ... بينما كابر البعض الآخر أو أدعى أو اختلق ما شاء من أقاويل أو ارتضى من روايـات تحـل مغاليق هذا البحر وتوضح مجاهله ..

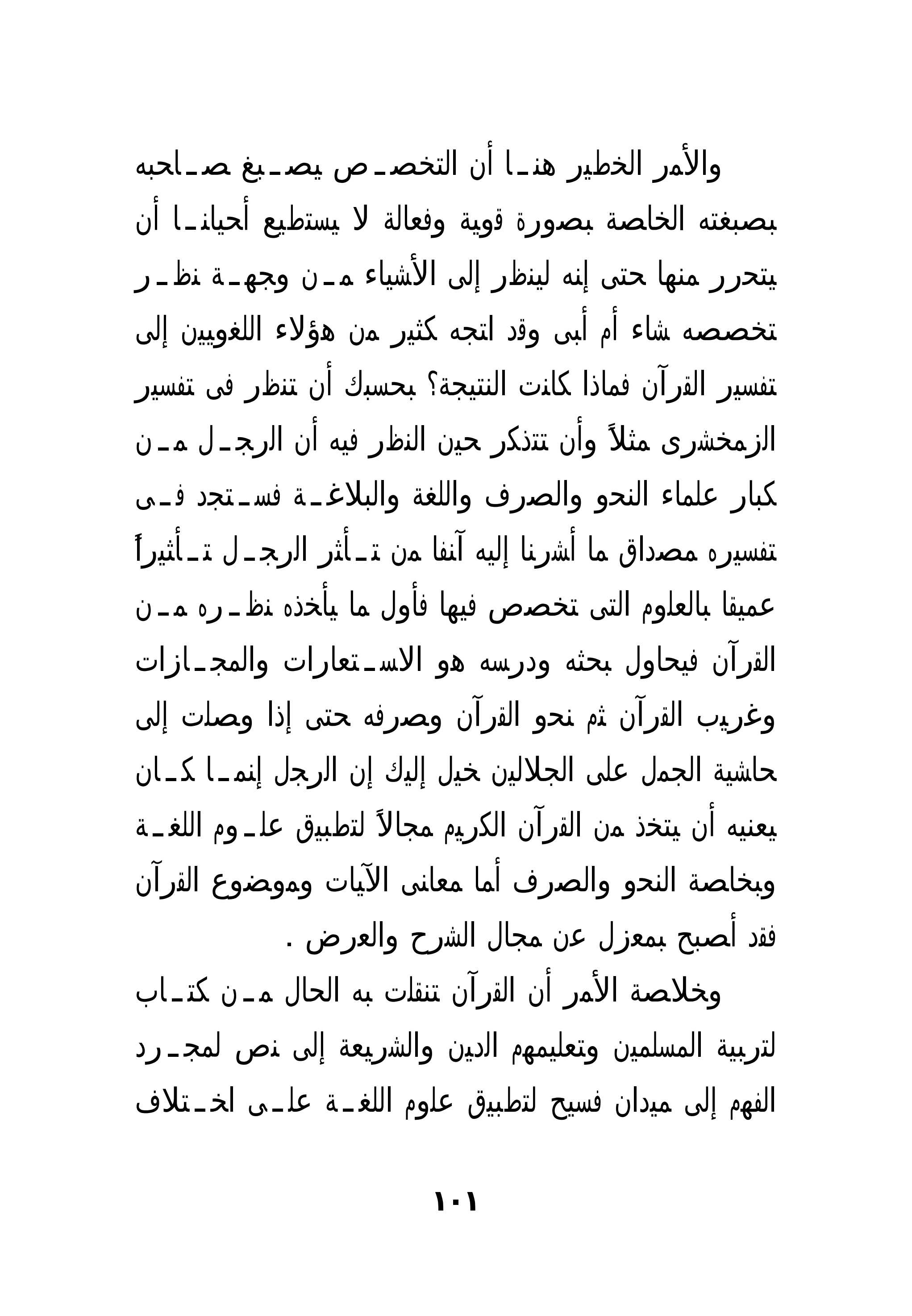
وكانت هناك ثلاث مجموعات أقـدمت علـى التفسـير وعنيت به **فاللغويون** أرادوا أن يصلوا إلى أسرار الإعجـاز اللغوى فى القرآن، وما جاء به من نظم بديع ونسق فريـد، وتطويع فى بنية الكلمات ليحقق وحدة الإيقاع وتنغيم الألفاظ، وليصل بالجملة القرآنية إلى أقصى درجة من إحداث الأثـر وأداء المعنى. **والمذهبيون** حاولوا إثبات مذاهبهم فى جوانب من العقيدة بمختلف الآيات مستغلين مرونة التعبير، وما يمكن

أن يحمله تركيب الجملة القرآنية من معانى، وبوجه خـاص الآيات المتشابهات، **والإخباريون** تتبعوا الوقائع التى ذكـرت فى القرآن من خلق آدم حتى قيام الساعة وما بين ذلك مـن أحداث، وقصص الأمم التى تحدث عنها القرآن، وفى مقدمتها بنو إسرائيل ..

ونحن نفترض فى معظم هؤلاء حسـن النيـة، وأنهـم أقدموا على هذه المهمة لخدمة القرآن والتقرب إلى ا ، كمـا لا ننكر عليهم ما بذلوا من جهد وما تحملوا من مشـقة ومـا توصلوا إليه من نتائج، ولكن هذا لا ينفـى وجـود عوامـل عديدة أثرت عليهم كتمسكهم بالمفاهيم السـابقة. فـاللغويون دخلوا الميدان مسلحين بقواعدهم النحوية، فوجدوا القرآن فى بعض الحالات، يضرب بهـذه القواعـد عـرض الحـائط، والمذهبيون وجدوا أن ظاهر النص قد لا يؤيدهم تمامـا، أو هو أقرب إلى المخالفة، فعمد هؤلاء وأولئك إلى التعسف فى التأويل. أما المؤرخون الذين لم يكن لهم منهج، وغلبت عليهم السذاجة فقد كانوا ضـحايا للوضـاعين وأسـرى الإسـناد، وجازت عليهم نصوص لا حصر لهـا، يمكـن القـول دون مبالغة – أنها مفتريات على الإسلام ومكايد نصبت للنيل منه.


ولعل أكبر مأخذ يؤخذ على هؤلاء جميعا أنهم فى غمرة اهتماماتهم بتخصصاتهم وعملهم لإثبـات وجهـات نظـرهم أهملوا الإشارة إلى روح القرآن نفسه تلك الروح التى تنتظم آياته جميعاً ككتاب إحياء ونهضة وهداية يسـتهدف إخـراج الناس من الظلمات إلى النور .

وكانت النتيجة أن المفسرين – كما لاحـظ ذلـك أحـد أعضاء مجمع البحوث الإسلامية "قد تصوروا مهمتهم علـى نحو خاص كان له أثر بين فى توجيه التفاسير التى وضعوها فقد واجهوا القرآن فى البداية كنص يراد شـرحه وإيضـاح معانيه فشرحوا غامضه وحرروا معانيه وأشاروا إلـى مـا يتضمنه من مبادئ وأصول، ولكن الأمر لم يلبث أن تطـور إلى صورة لم تكن تخطر لأحد على بال ولـن نسـتطيع أن ندرك هذا التطور الجديد حق إدراكه إلا إذا تذكرنا أن العلوم العربية كانت فى هذه الحقبة تنمو وتزدهـر فـى دراسـتها فأوغل فريق فى دراسة البلاغة وتوسع آخرون فى دراسـة النحو والصرف أو اللغة وجمع غيرهم فى دائرة تخصصهم بين كل هذه العلوم أو عدد كبير معها .



والأمر الخطير هنا أن التخصص يصبغ صاحبه بصبغته الخاصة بصورة قوية وفعالة لا يستطيع أحيانا أن يتحرر منها حتى إنه لينظر إلى الأشياء من وجهة نظر تخصصه شاء أم أبى وقد اتجه كثير من هؤلاء اللغويين إلى تفسير القرآن فماذا كانت النتيجة؟ بحسبك أن تنظر فى تفسير الزمخشرى مثلاً وأن تتذكر حين النظر فيه أن الرجل من كبار علماء النحو والصرف واللغة والبلاغة فستجد فى تفسيره مصداق ما أشرنا إليه آنفا من تأثر الرجل تأثيراً عميقا بالعلوم التى تخصص فيها فأول ما يأخذه نظره من القرآن فيحاول بحثه ودرسه هو الاستعارات والمجازات وغريب القرآن ثم نحو القرآن وصرفه حتى إذا وصلت إلى حاشية الجمل على الجلالين خيل إليك إن الرجل إنما كان يعنيه أن يتخذ من القرآن الكريم مجالاً لتطبيق علوم اللغة وبخاصة النحو والصرف أما معانى الآيات وموضوع القرآن فقد أصبح بمعزل عن مجال الشرح والعرض .

وخلاصة الأمر أن القرآن تنقلت به الحال من كتاب لتربية المسلمين وتعليمهم الدين والشريعة إلى نص لمجرد الفهم إلى ميدان فسيح لتطبيق علوم اللغة على اختلاف

أنواعها وبهذا تم عزل القرآن كعامل يعمل لتربية المسـلمين وتكوين عقائدهم وأخلاقهم وشريعتهم وتوجيه سلوكهم"[1] .

– ٢ –

مزالق المفسرين القدامى

أ. اللغوين

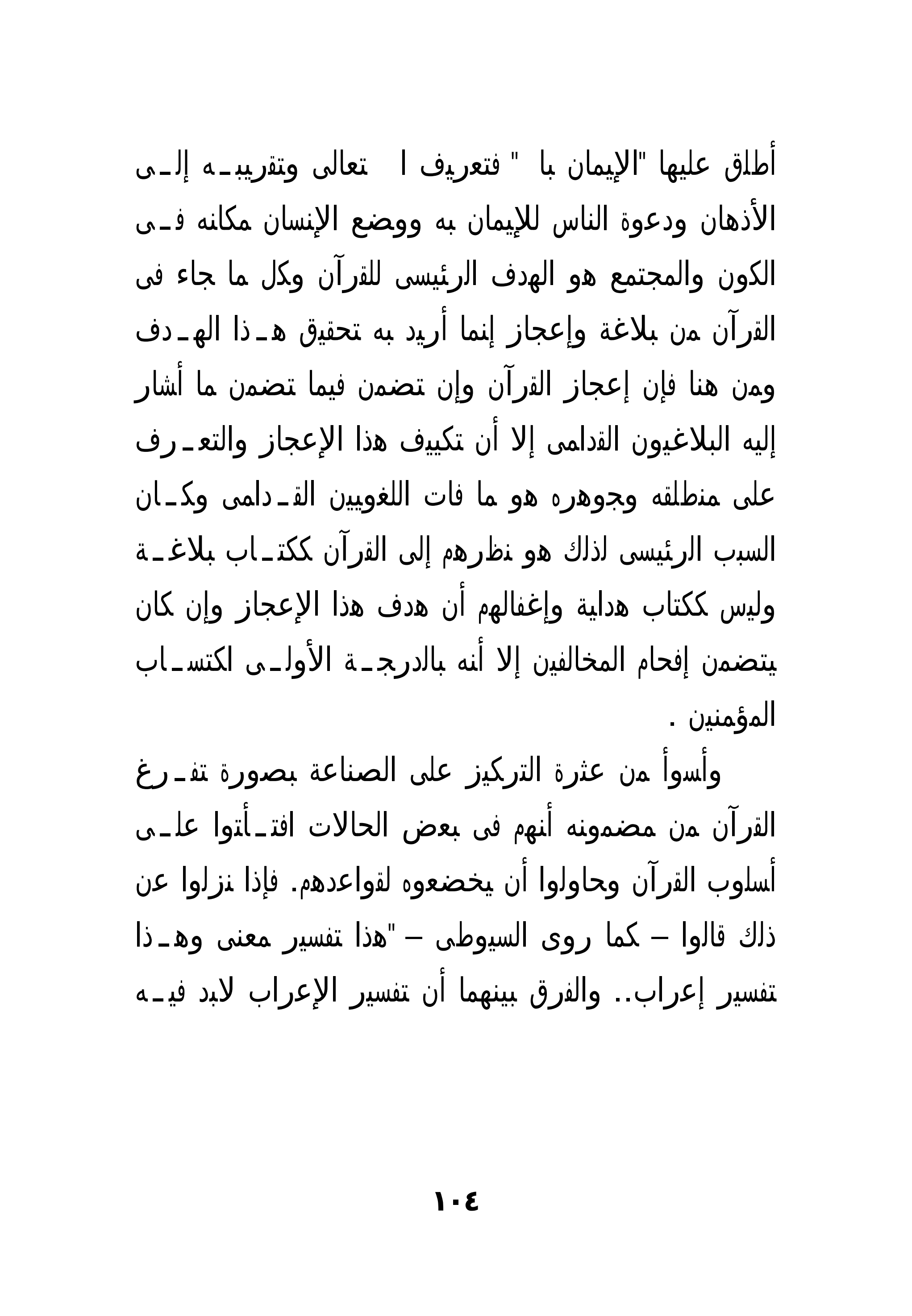
وقع المفسرون القدامى خلال تفسيراتهم العديـدة فـى مزالق نتيجة لاختلاف المنهج الذى نهجه كل فريق وأبـرز هذه المناهج هو ما قام على أساس اللغة، وما تولاه اللغويون وهو أمر يبدو مفهوماً لأن الإعجاز اللغوى أسبق إلـى الأذن وأظهر إلى العين من إعجاز المعانى الذى يتطلـب إعمـال الذهن ومن ثم تركز الاهتمام الأعظم لكثير مـن المفسـرين على اللغة والأسلوب والصياغة والنحو والصرف .

وعثرة اللغويين من المفسرين نشأت من أنهـم ركـزوا العناية على الصناعة اللغويـة والنحويـة بصـورة تفـرغ الأسلوب من المضمون فقالوا إن فى آية: ﴿وَقِيلَ يَـا أَرض

(١) الأستاذ إبراهيم اللبان فى بحثه عن "القرآن وتجديد المجتمع" نشـر فـى "التوجيه الاجتماعى فى الإسلام" من بحـوث ومـؤتمرات مجمـع البحـوث الإسلامية ١٣٩١ – ١٩٧٢ الجزء الثانى ص١٦١ .

ابلَعِي ماءكِ ويا سماء أَقْلِعِي وغِيض الْماء وقُضِي الأمـْر﴾.
{٤٤ هود}. عشرين ضربا من البديع وأن قوله تعالى: ﴿إني جاعِلُك لِلناسِ إماما قَالَ ومِن ذُريتِي قَـالَ لا ينَـالُ عهـدِي الظالِمِين﴾. {١٢٤ البقرة}. قد جمع الخبر والطلب والإثبـات والنفى والتوكيد والحذف والوعد والوعيد.. وفضلوا الآيـة: ﴿ولَكُم فِي الْقِصاصِ حياةٌ﴾. {١٧٩ البقرة}. علـى التعبيـر العربى القديم "القتل أنفى للقتل" وتقصوا ما فى القـرآن مـن تشبيه واستعارة وكناية وتعريض وإيجاز وإطنـاب وخبـر وإنشاء الخ... وألفت كتب كاملة عديدة فى أنواع ذلك .

ولا ريب أن هذه الكتابات ألقت أضواء عديدة على فنون من الإعجاز القرآنى ولكن ا تعالى لم ينزل القرآن ليقـارع اللغويين الذين يتصدون للحكم فى البلاغة. وليلزمهم الحجـة ويحملهم على الاعتراف. إن القرآن أنزل لعامة الناس الذين لا تكون لهم عدة اللغويين ويكون التأثير عليهم بغيـر هـذا التفنن اللغوى، وأهم من هذا وهو ما أغفله اللغويـون وهـم يبحثون فى تفاصيل ومفردات الإعجاز أن القرآن أولا وقبـل كل شىء كتاب دعوة أنزله ا هدى ورحمة ليخرج النـاس من الظلمات إلى النور بأن يحدث فى نفوسهم تلك الثورة التى



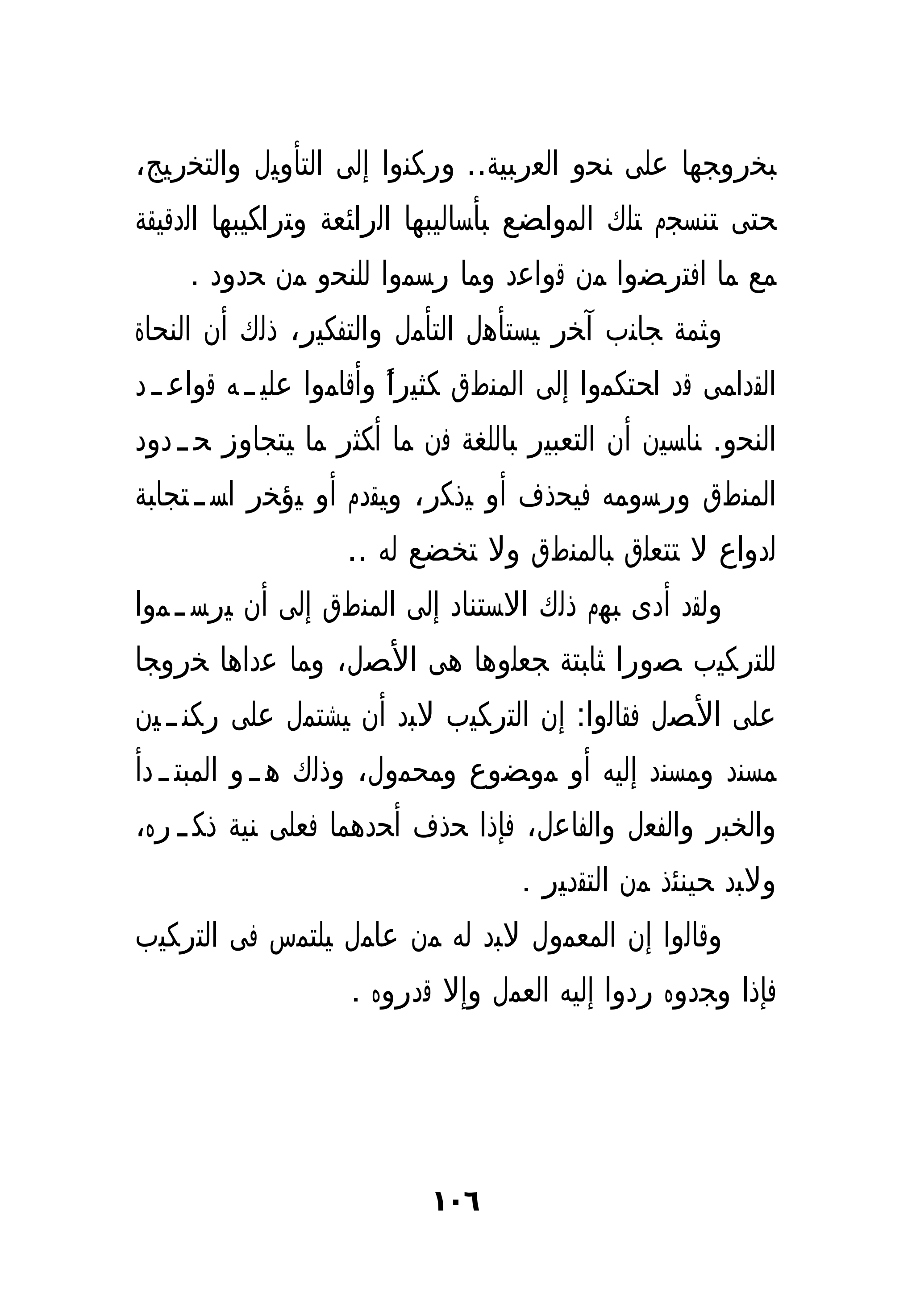
أطلق عليها "الإيمان با " فتعريف ا تعالى وتقريبـه إلـى الأذهان ودعوة الناس للإيمان به ووضع الإنسان مكانه فـى الكون والمجتمع هو الهدف الرئيسى للقرآن وكل ما جاء فى القرآن من بلاغة وإعجاز إنما أريد به تحقيق هـذا الهـدف ومن هنا فإن إعجاز القرآن وإن تضمن فيما تضمن ما أشار إليه البلاغيون القدامى إلا أن تكييف هذا الإعجاز والتعـرف على منطلقه وجوهره هو ما فات اللغويين القـدامى وكـان السبب الرئيسى لذلك هو نظرهم إلى القرآن ككتـاب بلاغـة وليس ككتاب هداية وإغفالهم أن هدف هذا الإعجاز وإن كان يتضمن إفحام المخالفين إلا أنه بالدرجـة الأولـى اكتسـاب المؤمنين .

وأسوأ من عثرة التركيز على الصناعة بصورة تفـرغ القرآن من مضمونه أنهم فى بعض الحالات افتـأتوا علـى أسلوب القرآن وحاولوا أن يخضعوه لقواعدهم. فإذا نزلوا عن ذلك قالوا – كما روى السيوطى – "هذا تفسير معنى وهـذا تفسير إعراب.. والفرق بينهما أن تفسير الإعراب لابد فيـه

من ملاحظة الصناعة النحوية وتفسير المعنى لا تضره مخالفة ذلك"[1] .

وأشار كاتب محقق هو الأستاذ أحمد عبد الستار الجوارى فى كتابه "نحو القرآن" إلى المأزق الذى وقع فيه النحاة واللغويون عندما أرادوا الجمع بين مذاهبهم المقررة وما تشمل عليه الصياغة القرآنية من بلاغة، بدلاً من أن يجعلوا أساليب القرآن المثال الذى يقتدى به وتقتبس منه قواعد اللغة فقال: "ولكن الذى كان ممن وضعوا النحو فى أول الأمر غير ذلك بل عكس ذلك من بعض الوجوه فقد اشتطت بهم السبل وعميت عليهم المسالك فتنكبوا سبل القصد واعتمدوا فى وضع قواعد النحو على ما بلغهم من كلام العرب شعره ورجزه ومثله. أو آثروا جانب المنطق فتصوروا القاعدة قبل استقراء المادة اللغوية وركبوا مركب الشطط فحاولوا أن يجعلوا للقواعد المجردة سلطانا على المروى المأثور يحكمونها فيه ويحسبون أن ذلك هو الصواب وما هو إلا مجانبة الصواب ولقد بلغ بعضهم فى هذا المجال مبلغ الإيغال والغلو فحكموا على مواضع من آي القرآن

(١) الإتقان للسيوطى ص١٨٢ ج٣ (الطبعة الثانية مكتبة محمود توفيق بالأزهر) .



بخروجها على نحو العربية.. وركنوا إلى التأويل والتخريج، حتى تنسجم تلك المواضع بأساليبها الرائعة وتراكيبها الدقيقة مع ما افترضوا من قواعد وما رسموا للنحو من حدود .

وثمة جانب آخر يستأهل التأمل والتفكير، ذلك أن النحاة القدامى قد احتكموا إلى المنطق كثيراً وأقاموا عليـه قواعـد النحو. ناسين أن التعبير باللغة فن ما أكثر ما يتجاوز حـدود المنطق ورسومه فيحذف أو يذكر، ويقدم أو يؤخر اسـتجابة لدواع لا تتعلق بالمنطق ولا تخضع له ..

ولقد أدى بهم ذلك الاستناد إلى المنطق إلى أن يرسـموا للتركيب صورا ثابتة جعلوها هى الأصل، وما عداها خروجا على الأصل فقالوا: إن التركيب لابد أن يشتمل على ركنـين مسند ومسند إليه أو موضوع ومحمول، وذلك هـو المبتـدأ والخبر والفعل والفاعل، فإذا حذف أحدهما فعلى نية ذكـره، ولابد حينئذ من التقدير .

وقالوا إن المعمول لابد له من عامل يلتمس فى التركيب فإذا وجدوه ردوا إليه العمل وإلا قدروه .

وتراهم أحيانا يتلمسون وجه الصواب ويقفـون علـى الحقيقة أو بعض الحقيقة فيقولون: عدم التقـدير أسـلم مـن التقدير.

وتراهم يسلمون بوجوب حذف العمـدة فـى مواضـع استقرءوها أحسن استقراء ولكنهم يوجبون فى الوقت عينـه تقدير المحذوف فيفسدون بذلك معنى الكلام ويضيعون علـى منشئه ما قصد إليه بالحذف أو التقديم والتأخير، وهم بـذلك يعزلون النحو عن المعنى بل يجردونه من فنية التعبير التـى لا يمكن أن ينسلخ عنها لو كان حقا دراسة شاملة للتركيب[1].

وتعقب المؤلف بعض سقطات النحويين وتعسفاتهم وما حاولوه من الحجر على الطلاقة القرآنية بـدعوى مبـادئهم المقدسة .

"مثال ذلك قول الفراء فى إعراب "ويقولـون طاعـة. الرفع على قولك منا طاعة أو أمرك طاعة، وكذلك: "قـل لا تقسموا: طاعة معروفة" معناه، وا أعلم قولوا سمع وطاعة، وكذلك فى سورة محمد صلى ا عليه وسلم .

(١) كتاب نحو القرآن للأستاذ أحمد عد الستار الجوارى – مطبعـة المجمـع العلمى العراقى ١٣٩٤ – ١٩٧٤ بغداد – من ص٧ – ١٠ (بتصرف) .

"فأولى لهم، طاعة وقول معروف". ليست مرتفعة بـ ـ (لهم)، بل هى مرتفعة على الوجه الذى ذكرت لـ ك. وذلـ ك أنهم أنزل الأمر بالقتال فقالوا: سمع وطاعـ ة فـ إذا فـ ارقوا محمدا صلى ا عليه وسلم غيروا قولهم فقـ ال ا تبـ ارك وتعالى:

﴿فَلَو صدقُوا الله لَكَان خَيرا لَهم﴾. {٢١ محمد} ..

وقد يقول بعض النحويين (وذكر فيها القتال) وذكـ رت طاعة وليست فيها واو فيجوز هذا الوجه، ولو وردت الطاعة وجعلت كأنها تفسير للقتال جاز رفعها ونصبها .

أما النصب فعلى. ذكر فيها القتـ ال بالطاعـ ة أو علـ ى الطاعة والرفع على: ذكر فيها القتال ذكر فيها طاعة .

كل هذا السلوك فى الدروب الملتوية لتحقيق القاعدة التى يقوم عليها مذهب الفراء أن المبتدأ مرفوع بالخبر وأن الخبر مرفوع بالمبتدأ (ذلك مذهب أهل الكوفة) .

وأنت ترى أنه لا حاجة إطلاقاً لأى زيادة فى الكـ لام، وهذا اللفظ المفرد المرفوع (طاعة) يغنـ ى عـ ن تركيـ ب، ويستغنى عن كل تقدير يقدم عليه أو يؤخر عنه، فهـ و إمـ ا إخبار يسد مسد تركيب، وإما إنشاء لا يحتاج إلى مزيد .

ومن أمثلة ذلك أيضا قول الزمخشرى فى: ﴿أَفَمن كَـان علَى بينَةٍ مِن ربهِ ويتْلُوه شَاهِد مِنْه﴾. {١٧ هود}.. معناه أمن كان يريد الحياة الدنيا فمن كان على بينة أى لا يعقبونهم فى المنزلة ولا يقاربونهم .

وأى بون بين هذا التأويل ومعنى ما قصدت إليه العبارة فى الآية، وأنى للمعرب أن يضيف إلى العبارة ما ليس منها صراحة ولا ضمنا .

ويضيق النحاة بأسلوب القرآن فى الحذف الذى يخـالف قواعدهم ولم يحيطوا بالاستعمالات الـواردة فـى العبـارة القرآنية .

"ومن ذلك حذف المضاف والاكتفاء بالمضاف إليه، فى أسلوب تفردت به العبارة القرآنية، وقضت قواعد النحـاة أن يهجر فلا يستعمله المنشئون، ويكثـر ذلـك حـين يكـون المحذوف المتصور علة لما قبله، أو بعبارة النحاة مفعولا له أو سببا، من ذلك قوله تعالى فى سورة هود :

﴿فَلَعلَّك تَارِك بعض ما يوحى إِلَيك وضائِقٌ بِهِ صـدرك أَن يقُولُوا لَولا أُنزِلَ علَيـهِ كَنـز أَو جـاء معـه ملَـك﴾. {١٢ هود}..

قال الزمخشرى: أن يقولوا مخافة أن يقولوا .

وقال أيضاً فى قوله تعالى من سورة النحل :

﴿وَأَلْقَــى فِــي الأَرضِ رواسِــي أَن تَمِيــد بِكُــم﴾. {١٥ النحل}.. كراهة أن تميل بكم وتضطرب .

وأدى تمسكهم بقواعدهم بالزمخشرى لأن ينزلق دون أن يشعر فيقول فى تفسير ﴿الذِين يستَحِبون الْحياةَ الـدنْيا علَـى الآخِرةِ ويصدون عن سـبِيل اللـهِ ويبغُونَهـا عِوجـا﴾. {٣ إبراهيم}.. (والأصل!؟). ويبغون لها عوجا فحـذف الجـار وأوصل الفعل" ولم يستشعر الزمخشرى حساسية أو أنه أساء التعبير عندما قال والأصل... الأمر الذى استشعره مؤلـف "نحو القرآن" فوضع لفظة (والأصل) بين قوسـين وأتبعهـا بعلامة تعجب واستفهام لأن الزمخشرى دخل الحلبة كنحوى ولغوى يرى الأصل فيما يراه النحاة واللغويون.. بينمـا رأى الأستاذ الجوارى الأصل فيما يضعه القرآن .

ويستطرد الأستاذ عبد الستار الجوارى .

"ومما يقذف بالنحاة فى لجج الحيرة والتخبط قوله تعالى فى سورة النساء :

﴿ويستَفْتُونَكَ فِي النساءِ قُلْ الله يفْتِيكُم فِيهن ومـا يتْلَـى عليْكُم فِي الْكِتَابِ فِي يتَامى النساءِ اللاتِي لا تُؤْتُونَهن ما كُتِب لَهن وتَرغَبون أَن تَنكِحـُوهن﴾. {١٢٧ النساء}..

لأن الفعل "رغب" يصل إلى المفعول بحرفين يؤديـان معنيين متعاكسين ولابد من ذكر أحدهما إذا أريد معنى بعينه، فإذا قيل "رغب فى" دل على معنى الإيجابية، وإذا قيل "رغب عن" دل على الرغبة السلبية، وحذف الحرف هنا يوقع فـى اللبس على حد ما يزعمون، يقول ابن مالك :

وعد لا زما بحرف جر

فإن حـذف فالنصب للمنجر

نقلاً وفى أن وأن يطرد

مع أمن لبس كعجبت أن يدوا

ولذلك يقول الزمخشرى فى توجيه هذه المسألة: "يحتمل فى أن تنكحوهن لجمالهن وعن أن تنكحوهن لدمامتهن" .

وكان بعض أساتذتنا يذهب فى تأويل هذه الآية مـذهبا آخر فيقول: إن الرغبة ههنا "فى" أو "عن" مستوية، ومن أجل ذاك حذف حرف الجر .

وأحسب أن الأمر هنا أيسر مما يذهبون إليه، لأن معنى الفعل أصلا هو المعول عليه، والحرف هو الذى يحدد علاقته بالمفعول سلبا أو إيجابا، والأصل فى الرغبة هو الذى يحـدد علاقته بالمفعول أى أن تكون رغبة فى الشىء .

أما الرغبة عن الشىء فهى الفرع الـذى لا يعـرف إلا بذكر الحرف "عن" وهذا المعنى هو الـذى يقتضـى إثبـات الحرف أما حذف الحرف فيصرف معنى الفعل إلـى أصـله وهو الرغبة فى الشىء .

وإذن فلا مجال للالتباس على الإطلاق" انتهى[١] .

وأدى تمسك النحاة بما تواضعوا عليـه إلـى الإخـلال بالمعنى القرآنى، فنجد أبا الحسن على بن عيسـى الرمـانى النحوى يقول فى كتاب "معانى الحروف" فى تفسير "ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة" والمعنى "ولا تلقوا أيديكم إلى التهلكة" لأن باء الجر دخلت على المفعول .

وعندما لم يفهموا ضرورة النغم فى التعبير والإيقاع فى السياق وما يؤدى هذه المهمة من حروف أو كلمات، زعموا أن كل شىء يوجد لتحقيق ذلك، ولا يدخل فى اسـتخداماتهم

---

(١) المرجع السابق ص٥٣- ٥٤ .

النحوية، يكون – بتعبيرهم "لغوا" ولم يجدوا حرجا من قـول ذلك بالنسبة لنصوص قرآنية.. فنقرأ فى استخدامات "ما" .

"والثانى أن يكون لغوا وذلك نحو قوله تعـالى ﴿فَبِمـا رحمةٍ مِن اللهِ لِنْتَ لَهم﴾. أى فبرحمة.. ومثل ﴿فَبِما نَقْضِـهم مِيثَاقَهم﴾. أى بنقضهم .

وأما قوله تعالى ﴿إن الله لا يستَحِيي أن يضرب مثَلاً ما بعوضةً﴾. ففيه قولان: أحدهما أن ما لغو، والتقدير إن ا   لا يستحى أن يضرب مثلا بعوضة والثانى أن ما نكرة وبعوضة بدلا منها يسد مسد الوصف ويجوز الرفع فى بعوضـة مـن وجهين أحدهما أن تكون خبر مبتدأ محذوف علـى طريـق الجواب كأن قائلا قال ما هذا المثل فقيل بعوضـة، أى هـى بعوضة .

والثانى أن تكون ما بمعنى الذى وبعوضة خبـر مبتـدأ محذوف والجملة من صلة ما والتقدير إن ا   لا يسـتحى أن يضرب مثلاً الذى هو بعوضة(١) .

وعن الآية ﴿إليهِ يصعد الْكَلِم الطيب والْعمـلُ الصـالِح يرفَعه﴾. قالوا يحتمل عود ضمير الفاعل فى يرفعه إلى مـا

---

(٢) معانى الحروف تأليف أبى الحسن على بن عيسى الرمانى النحوى تحقيق الدكتور عبد الفتاح إسماعيل شلبى دار نهضة مصر ص٩٠ .

عاد عليه ضمير إليه وهو ا ، ويحتمل عوده إلـى العمـل، والمعنى أن العمل الصالح هو الـذى يرفـع الكلـم الطيـب ويحتمل عوده إلى الكلم الطيب وهو التوحيد يرفـع العمـل الصالح.

فانظر إلى هذه الافتياتات والتعسفات والتعبيرات الركيكة والتفسيرات السقيمة على حين يمر التعبير القرآنى بـالنفس مرور النسيم العليل ويدخل الآذان دخول النغم الجميل .

وقد يتلطفون فلا يقولون "لغوا" ولكن زائدة كما قالوا فى "من" فى قوله تعالى "ما لكم من إله غيره" فى حين أن تركيز الجملة القرآنية يكاد يتأتى من حرف "من" الذى اعتبروه زائدا

ولقد لفت إطلاق تعبير "زائدة" على حروف أو كلمـات أوردها القرآن، ومدى لياقة ذلك الإمام السيوطى، فأورد فيما يجب على المفسر.. ".. أن يجتنب إطلاق لفظ الزائـدة فـى كتاب ا ، فإن الزائد قد يفهم منه أنه لا معنى له، وكتاب ا منزه عن ذلك، ولهذا فر بعضهم إلى تعبيـر بدلـه بالتأكيـد والصلة والمقحم، وقال ابن الخشاب اختلفوا فى جواز إطلاق لفظ الزائد فى القرآن، فالأكثرون على جوازه نظرا إلى أنـه نزل بلسان القوم ومتعارفهم، ولأن الزيادة بازاء الحذف، هذا

للاختصار والتخفيف وهذا للتوكيد والتوطئة، ومنهم من أبـى ذلك وقال هذه الألفاظ المحمولة على الزيادة جـاءت لفوائـد ومعان تخصها فلا أقضى عليها بالزيادة قال والتحقيق أنه إن أريد بالزيادة إثبات معنى لا حاجة إليه فباطل، لأنـه عبـث فتعين أن إلينا به حاجة ولكن الحاجة إلى الأشياء قد تختلـف بحسب المقاصد فليست الحاجة إلى اللفظ الذى عـده هـؤلاء زيادة كالحاجة إلى اللفظ المزيد عليه. وأقول بل الحاجة إليه كالحاجة إلى سواه بالنظر إلى مقتضى الفصـاحة والبلاغـة وأنه لو ترك كان الكلام دونه مـع إفادتـه أصـل المعنـى المقصود أبتر خاليا عن الرونق البليغى لا شبهة فـى ذلـك، ومثل هذا يستشهد عليه بالإسناد البيانى الـذى خـالط كـلام الفصحاء وعرف مواقع استعمالهم وذاق حلاوة ألفاظهم، أمـا النحوى الجافى، فعن ذلك بمنقطع الثرى(١) .

وأدت بهم تفريعاتهم إلى تفسيرات باردة، غثـة تفتـات على المعنى. فالمجاز فى التركيب، ويسمى مجـاز الإسـناد والمجاز العقلى وعلاقة الملابسة مثل ﴿وإِذَا تُلِيتْ علَيهم آياتُه زادتْهم إِيماَنًا﴾. نسبت الزيادة وهى فعل ا إلى الآيات وفى

(١) الإتقان فى علوم القرآن للإمام السيوطى – ص١٨٢ الجزء الأول .

تعبير "يذبح أباءهم" و "ياهامان ابن لى"، نسب الذبح – وهـو فعل الأعوان إلى فرعون والبناء وهو فعل العملة إلى هامان، وفى مجاز إطلاق اسم الكل عن الجزء وإذا رأيتهم تعجبـك أجسامهم" أى وجوههم، "فمن شهد منكم الشهر فليصمه" أطلق الشهر وهو اسم الثلاثين ليلة وأراد جزءا منها كذلك أجاب به الإمام فخر الدين عن استشكال أن الجزاء إنما يكون بعد تمام الشرط والشرط أن يشهد الشهر وهو اسم لكله حقيقة فكأنـه أمر بالصوم بعد مضى الشهر وليس كذلك "ومن مثله إطلاق الجزء على الكل "فولوا وجوهكم شـطره" أى ذواتكـم لأن الاستقبال يجب بالصدر الخ... ومـن أسـخف مـا أثـاروه التساؤل عما إذا كان تعبير "يا أيها الناس" يشمل الكافر والعبد "لعموم اللفظ أو لا يشمل الكافر بناء على عدم تكليفه بالفروع ولا العبد لصرف منافعه إلى سيده شرعا" فهل هناك ما هـو أكثر ركاكة ومناقضة لنص القرآن وروح الإسلام من هـذا الكلام .

وأعياهم جميعاً أن يفهموا حكمة كلمة "ليلاً" فى الآية الأولى لسورة الإسراء ﴿سبحان الذِي أَسرى بِعبدِهِ لَيلاً مِـن الْمسجِدِ الْحرامِ إِلى الْمسجِدِ الأقْصى الخ...﴾. لأن السرى لا

يكون إلا ليلاً، ومن ثم فإن تكرارها مـن الناحيـة اللغويـة فحسب يكون لا معنى له، والحق أن القرآن أثبت ليلاً لأن لها ضرورة فى نغم الآية لا يتـأتى إلا بهـا، والقـرآن إيقـاع وموسيقى كما هو نحو ولغة، ومقتضيات الإيقاع والموسيقى أكثر ضرورة من مقتضيات اللغة، لأنها هـى التـى توجـد التأثير الذى يريده القرآن .

على أن مواقفهم تلك كلها تهون أمام موقفهم تجاه "لحن القرآن" كما زعموا أى التعبيـرات مـن نـوع "إن هـذان لساحران" "والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكـاة" "إن الـذين هادوا والصابئون" فهنا حطم القرآن أقدس المقدسات النحوية من رفع أو نصب وكان أهون عليهم أن يمسوا قداسة القرآن من أن يمسوا أوثانهم التى ظلوا لها عابدين فأوردوا أحاديث مؤتفكات فرووا عن عروة أنه سأل عائشة عن ذلك فقالـت: "يا بن أختى هذا عمل الكتاب أخطأوا فى الكتاب" ورووا عن عكرمة قال "لما كتبت المصاحف عرضت على عثمان فوجد فيها حروفا من اللحن فقال لا تغيروها فإن العرب سـتغيرها أو قال ستعربها بألسنتها لو كان الكاتب من ثقيف والمملى من

هذيل لم توجد هذه الحروف"[1]. كما رووا عـن أبـان بـن عثمان يرويه الزبير يقول قلت لأبان بن عثمان كيف صارت ﴿لَكِن الراسِخُون فِي الْعِلْمِ مِنْهم والْمؤْمِنُون يؤْمِنُون بِما أُنزِلَ إِلَيك وما أُنزِلَ مِن قَبلِك والْمقِيمِين الصلاةَ والْمؤْتُون الزكَاةَ﴾ {١٦٢ النساء}.. ما بين يديها وما خلفها رفع وهى نصـب؟ قال من قبل الكُتاب كتب ما قبلها ثم قال ما أكتب؟ قال أكتب "المقيمين الصلاة" فكتب ما قيل له ونسبوا إلى سعيد بن جبير أنه قال فى القـرآن أربعـة أحـرف لحـن "والصـابئون" "والمقيمين" "فأصـدق وأكـن مـن الصـالحين" "إن هـذان لساحران".

ومن هذا أيضاً ما أخرجه ابن جرير وسعيد بن منصور فى سننه عن طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس فى قولـه ﴿حتى تَستَأْنِسوا وتُسلموا﴾. قال إنما هى خطأ مـن الكاتـب حتى تستأذنوا وتسلموا أخرجه ابن أبى حاتم بلفظ هـو فيمـا أحسبه مما أخطأت به الكتاب وما أخرجه ابن الأنبارى عـن طريق عكرمة عن ابن عباس أنه قرأ ﴿أَفَلَم يتبين الَذِين آمنُوا أَن لَو يشَاء الله لَهدى الناس جمِيعا﴾. فقيـل لـه إنهـا فـى

(١) الإتقان فى علوم القرآن ج١ ص١٨٣ .

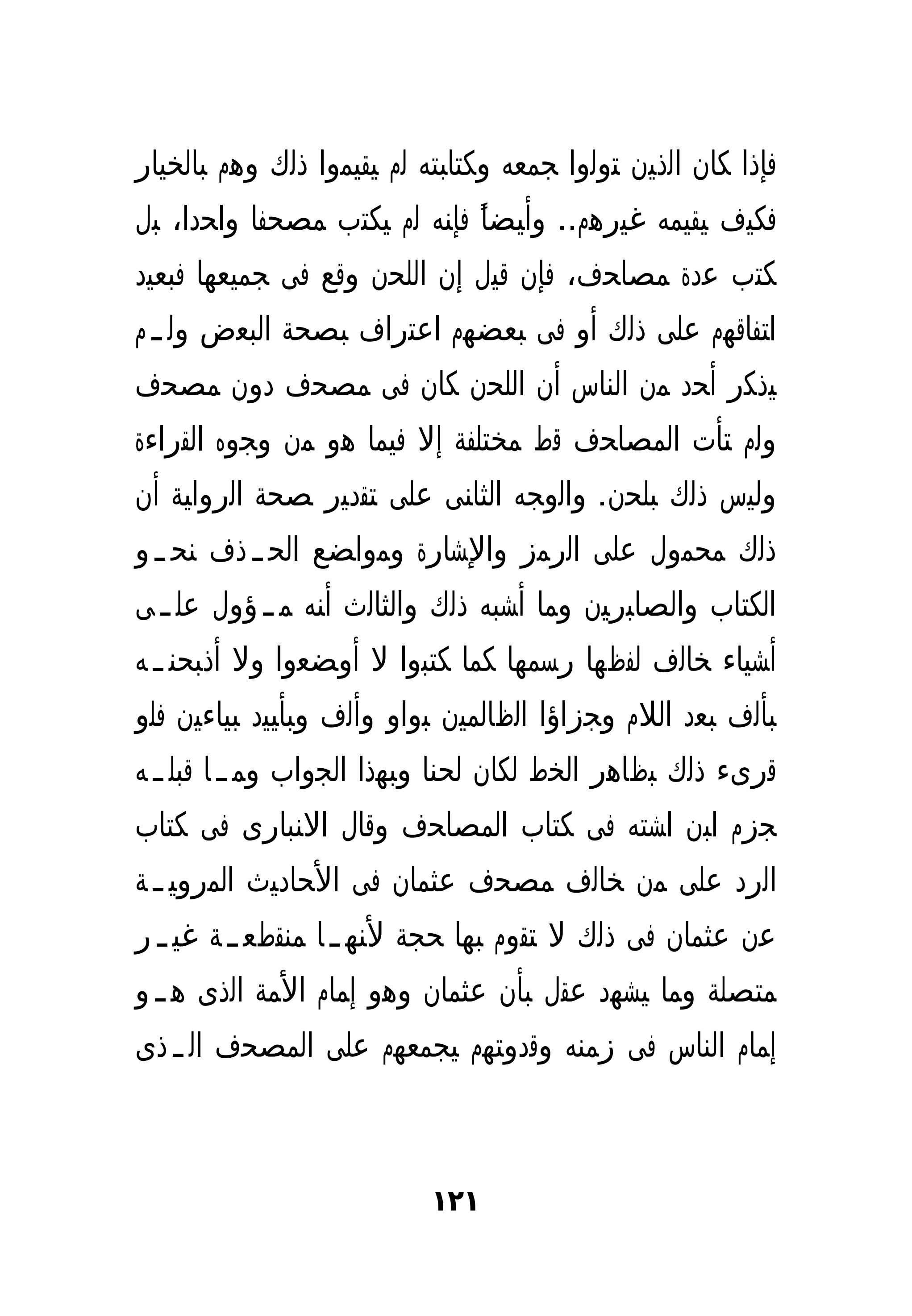
المصحف ﴿أَفَلَمْ يَيْئَسِ﴾. فقال أظن الكاتب كتبها وهو ناعس وما أخرجه سعيد بن منصور عن طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه كان يقول "وقضى ربك" إنما هى ووصى ربك التزقت الواو بالصاد وأخرجه من طريق الضحاك عن ابن عباس أنه كان يقرأ ووصى ربك ويقول أمر ربك إنهما واوان التصقت إحدهما بالصاد وأخرجه عن طريق أخرى عن الضحاك قال كيف تقرأ هذا الحرف وقضى ربك فقال ليس كذلك نقرؤها نحن ولا ابن عباس إنما هى ووصى ربك وكذلك كانت تقرأ وتكتب فاستمد كاتبكم فاحتمل القلم مدادا كثيرا فالتزقت الواو بالصاد"(١). فهذه كلها إما أن تكون روايات متهافتة وإما أن تكون من باب "وكم من عائب قولا صحيحا. وآفته من الفهم السقيم" وهذا واضح عند مقارنة دعاوى القوم بنص التنزيل العظيم تعالى عما يزعمون ولا يخالجنا شك فى أن هذا الكلام بأسره موضوع أو موهوم حتى عندما يحكم المحدثون بأن فيه ما هو صحيح على شرط الشيخين فلا عائشة ولا عثمان ومن باب أولى عروة وعكرمة وغيرهم يمكن أن يقولوا ذلك أو أن يحملوننا على

---

(٢) الإتقان ج١ ص١٨٥ .

قبوله والأسهل علينا أن نقول إن القرآن أراد أن يحطم وثنية هؤلاء النحاة الذين يعبدون القواعد دون المعانى كما أراد أن يحطم وثنية الذين يعبدون الملوك والآباء والشموس والأقمار دون خالقها جميعا .

والعجيب أن الذين رووا هذه الآثار أوردوا ما يفنـدها. فهذا السيوطى الذى نقل كل هذه الروايـات يقـول "وهـذه الآثارات مشكلة جدا وكيف يظن بالصحابة أولا أنهم يلحنون فى الكلام فضلاً عن القرآن وهم الفصحاء اللد ثم كيف يظن بهم ثانيا فى القرآن الذى تلقوه من النبى صلى ا عليه وسلم كما أنزل وحفظوه وضبطوه واتقنوه، ثم كيف يظن بهم ثالثـا اجتماعهم كلهم على الخطأ فى كتابته، ثم كيف يظن بهم رابعا عدم تنبيههم ورجوعهم عنه، ثم كيف يظن بعثمان أنه ينهـى عن تغييره ثم كيف يظن أن القراءة استمرت على مقتضـى ذلك الخطأ وهو مروى بالتواتر خلفا عن سلف، هـذا ممـا يستحيل عقلا وشرعا وعادة، وقد أجاب العلماء عـن ذلـك بثلاثة أجوبة أحدها أن ذلك لا يصح عن عثمان، فإن إسـناده ضعيف مضطرب منقطع، ولأن عثمان جعل للنـاس إمامـا يقتدون به فكيف يرى فيه لحنا وتركه لتقيمه العرب بألسنتها،


فإذا كان الذين تولوا جمعه وكتابته لم يقيموا ذلك وهم بالخيار فكيف يقيمه غيرهم.. وأيضاً فإنه لم يكتب مصحفا واحدا، بل كتب عدة مصاحف، فإن قيل إن اللحن وقع فى جميعها فبعيد اتفاقهم على ذلك أو فى بعضهم اعتراف بصحة البعض ولـم يذكر أحد من الناس أن اللحن كان فى مصحف دون مصحف ولم تأت المصاحف قط مختلفة إلا فيما هو من وجوه القراءة وليس ذلك بلحن. والوجه الثانى على تقدير صحة الرواية أن ذلك محمول على الرمز والإشارة ومواضع الحـذف نحـو الكتاب والصابرين وما أشبه ذلك والثالث أنه مـؤول علـى أشياء خالف لفظها رسمها كما كتبوا لا أوضعوا ولا أذبحنـه بألف بعد اللام وجزاؤا الظالمين بواو وألف وبأييد بياءين فلو قرىء ذلك بظاهر الخط لكان لحنا وبهذا الجواب ومـا قبلـه جزم ابن اشته فى كتاب المصاحف وقال الانبارى فى كتاب الرد على من خالف مصحف عثمان فى الأحاديث المرويـة عن عثمان فى ذلك لا تقوم بها حجة لأنهـا منقطعـة غيـر متصلة وما يشهد عقل بأن عثمان وهو إمام الأمة الذى هـو إمام الناس فى زمنه وقدوتهم يجمعهم على المصحف الـذى

هو الإمام فيتبين فيه خللا ويشاهد فى خطه زللا فلا يصلحه وا ما يتوهم عليه هذا ذو إنصاف وتمييز"[1] .

وقد أشار أحد الكتاب إلى تخريجات الزمخشرى لتعليل هذه الحالات لمخالفة القرآن على قواعد النحاة بأسـس مـن لغات العرب، ولاحظ هذا الكاتب أن عثمان رضى ا عنـه اختار حين كتب مصحفه رجلين هما زيد بن ثابـت وكـان أكتب الناس وسعيد بن العاصى وكان أفصح الناس وأشبههم لهجة برسول ا صلى ا عليه وسلم وقال: "وما كانت تغيب عن عثمان ولا عمن كانوا مع عثمان يـوم شـمروا لكتابـه المصاحف هذه الاختلافات فى الرسم الإملائى التى ظهـرت بعد كتابة المصحف وتمنى عثمان لو لم تكن حين قـال "لـو كان المملى من هذيل والكاتب من ثقيف لم يوجد فيه هذا" .

ثم كيف ترد هذه التى وردت فى الحـديث الأول عـن عثمان وهو الذى كان من وراء من يكتبان يراجع ما يكتبانه حرفا حرفا وكلمة كلمة ويصلح ما فاتهما وما نظن عثمـان ونى فى هذا العبء ولافتر وهو يعلم جده وخطره وهو يعلم

(١) الإتقان ج١ ص١٨٣ .

المتحفزين به من وراء ذلك على عمل حمل عبئه على الرغم منهم

وأما ما جاء منسوبا إلى عائشة فما أظن عائشة تسـكت على خطأ الكتابة فى كتاب ا وترضى به يشيع ويخرج من المدينة إلى الأمصار ولم تكن بعيده عـن عثمـان ولا عـن الصحابة الكاتبين وما أظنها كانت أقل منهم حرصـا علـى سلامة كتاب ا .

وأما عن تلك التى ينسبونها لأبان بن عثمان فـلا أدرى كيف جاءت على لسانه مع العلم بأنه ممن لم يشهدوا عصـر التدوين ولا كان حاضرا ذلك فقد كانت وفاتـه سـنة ١٠٥ وعثمان مات سنة ٣٥ .

وبعد فهذا الذى نسب إلى أبان استنباط لا رواية مأثورة وهذا الاستنباط الذى استنبطه لا يصح إلا عـن مشـاهدة أو سماع عن مشاهدة وكلاهما لم يتوفر لهذا الحكم"[١] .

* * *

(١) الأستاذ إبراهيم الإبيـارى – فـى كتابـه "تـاريخ القـرآن" صـفحات ١٠٤- ١٠٥ / ١١٠- ١١١ بتصرف .

وتحدث مؤلف "نظرية النحو القرآنى – نشأتها وتطورها ومقوماتها الأساسية" الدكتور أحمد مكـى الأنصـارى عـن موقف النحاة من الصياغة النحوية القرآنية فقال :

قسم ارتضاه النحويون ووافقوا عليه لأنـه اتفـق مـع قواعدهم النحوية

وقسم لم يرتضوه لأنه اصطدم بالقواعد النحوية فوقفـوا منه مواقف ثلاثة تتمثل فى الظواهر الآتية .

ظاهرة المعارضة الصريحة .

وظاهرة المعارضة الخفية .

وظاهرة التأويل[1] .

وقال إن العصبية المذهبية دفعت بـبعض النحـاة لأن يصفوا اللغة التى جاءت بها بعض القراءات القرآنية بالرداءة أو لحناً. فعندما لم يجوزوا تحقيق الهمزتين إن لم تكونا عينين وأن الهمزتين – على ما قال ابن جنى "لا تتقيان فـى كلمـة واحدة أن لم تكونا عينين نحو سئال وسـئار، فـإنهم مـدوا حكمهم هذا على كلمة "أئمة" التى تكرر ورودها فى القـرآن،

---

(٢) "نظرية النحو القرآنى نشأتها وتطورها ومقوماتها الأساسية" تأليف الدكتور أحمد مكى الأنصارى – دار الفيلة للثقافة الإسلامية سـنة ٨٤ ص١٥٧ .

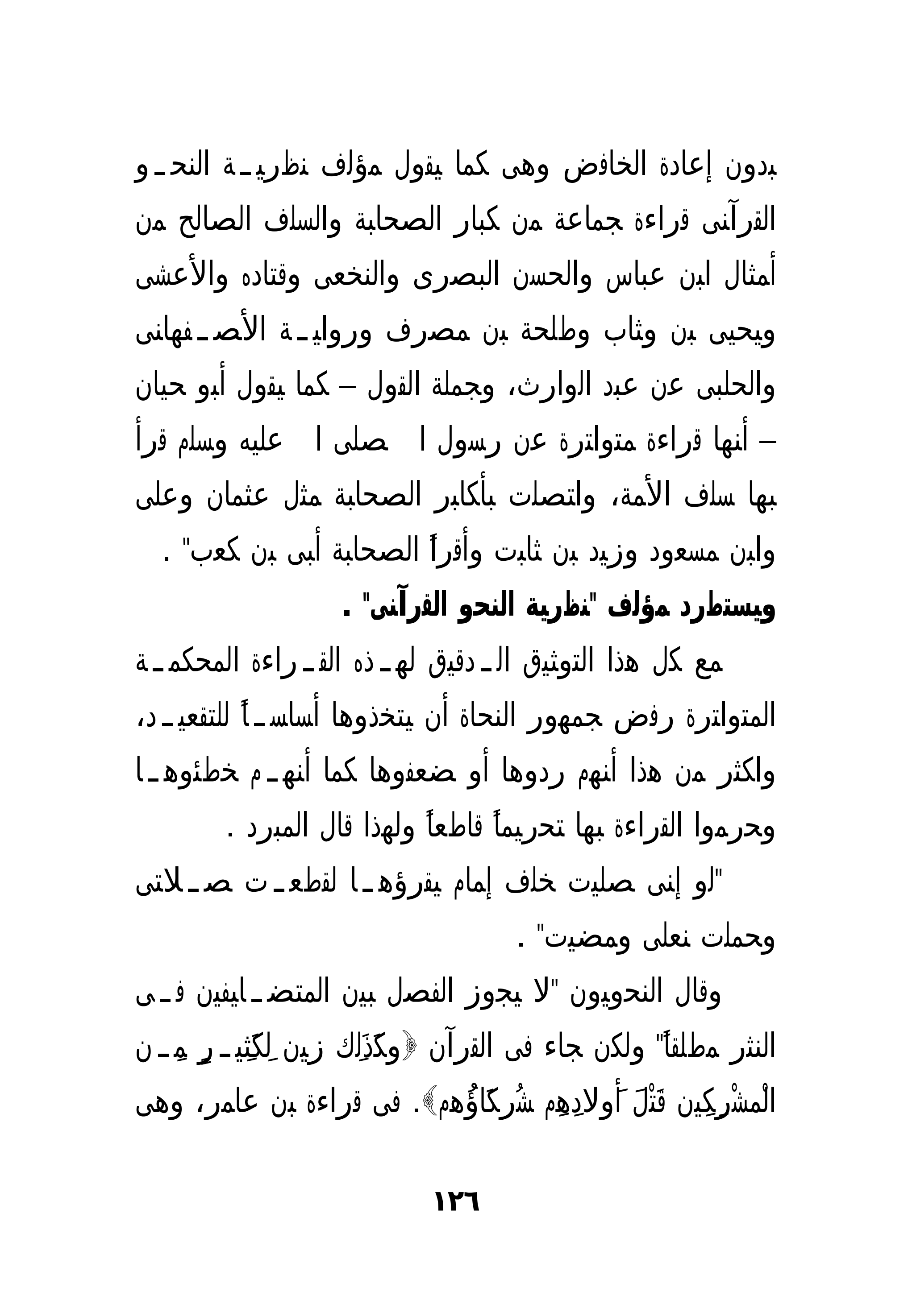
فلما جاءهم الإبدال (أى إبدال الهمزة الثانية ياء فى كلمة أئمة وصفوه باللحن أيضاً وقال الزمخشرى "فأما التصريح باليـاء فليس بقراءة، ولا يجوز أن تكون قراءة، ومن صرح بها فهو لاحن محرف" .

ويقول مؤلف "نظرية النحو القرآنى" .

"وقريب من هذا، أو أشد منه مـوقفهم مـن قـراءتين سبعيتين جاءتا فى قوله تعالى ﴿إن هذَان لَساحِران﴾. حيـث قرئت كلمة "هذَان" بالألف مع تشديد النون من "إن" فى قراءة سبعيه متواترة، بل فى قراءات متعددة، فعارضـها بعـض النحاة معارضة صريحة، بل أنكروها إنكاراً تاماً وقالوا إنها ليست من القرآن لأنها غلط من الكاتب .

فلما جاءتهم قراءة سبعيه أخرى بالياء "هذين" عارضوها أيضا معارضة صريحة.. وقالوا: إنها "غلط مـن الكاتـب" أيضا.

وكان من القواعد التى تمسك بها النحاة أنه "لا يجـوز عطف الاسم الظاهر على الضمير المخفوض إلا بعد إعـادة الخافض" ولكن آية ﴿واتقُـوا اللـه الـذِي تَتَسـاءلُون بِـهِ والأرحام﴾. جرت الأرحام عطفاً على الضمير المخفـوض



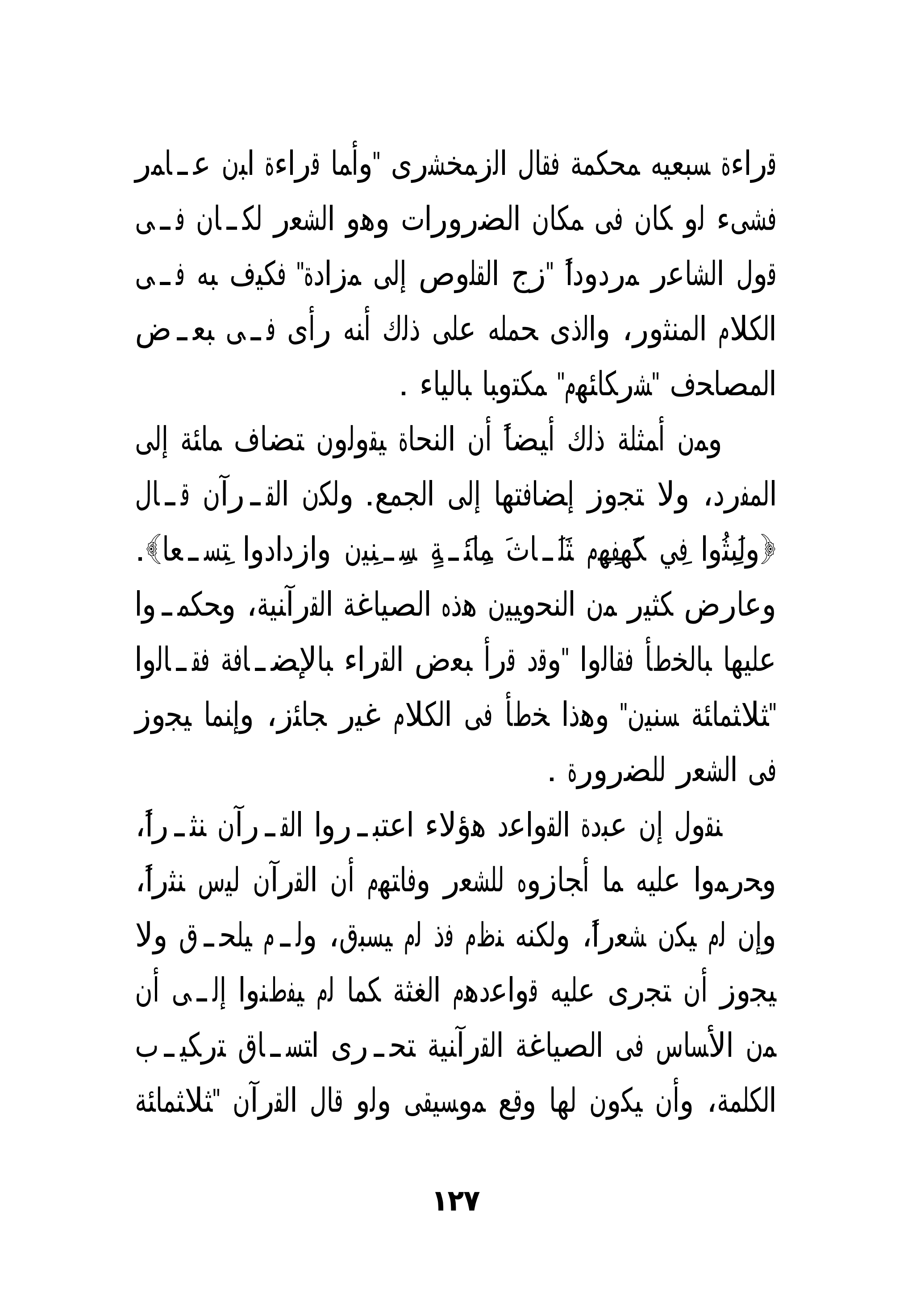
بدون إعادة الخافض وهى كما يقول مؤلف نظرية النحو القرآنى قراءة جماعة من كبار الصحابة والسلف الصالح من أمثال ابن عباس والحسن البصرى والنخعى وقتاده والأعشى ويحيى بن وثاب وطلحة بن مصرف ورواية الأصفهانى والحلبى عن عبد الوارث، وجملة القول – كما يقول أبو حيان – أنها قراءة متواترة عن رسول ا صلى ا عليه وسلم قرأ بها سلف الأمة، واتصلت بأكابر الصحابة مثل عثمان وعلى وابن مسعود وزيد بن ثابت وأقرأ الصحابة أبى بن كعب" .

ويستطرد مؤلف "نظرية النحو القرآنى" .

مع كل هذا التوثيق الدقيق لهذه القراءة المحكمة المتواترة رفض جمهور النحاة أن يتخذوها أساساً للتقعيد، واكثر من هذا أنهم ردوها أو ضعفوها كما أنهم خطئوها وحرموا القراءة بها تحريماً قاطعاً ولهذا قال المبرد .

"لو إنى صليت خلف إمام يقرؤها لقطعت صلاتى وحملت نعلى ومضيت" .

وقال النحويون "لا يجوز الفصل بين المتضايفين فى النثر مطلقاً" ولكن جاء فى القرآن ﴿وكَذَلِك زين لِكَثِيرٍ مِن الْمشْرِكِين قَتْلَ أَولادِهِم شُركَاؤُهم﴾. فى قراءة بن عامر، وهى



قراءة سبعيه محكمة فقال الزمخشرى "وأما قراءة ابن عـامر فشىء لو كان فى مكان الضرورات وهو الشعر لكـان فـى قول الشاعر مردوداً "زج القلوص إلى مزادة" فكيف به فـى الكلام المنثور، والذى حمله على ذلك أنه رأى فـى بعـض المصاحف "شركائهم" مكتوبا بالياء .

ومن أمثلة ذلك أيضاً أن النحاة يقولون تضاف مائة إلى المفرد، ولا تجوز إضافتها إلى الجمع. ولكن القـرآن قـال ﴿ولَبِثُوا فِي كَهفِهِم ثَلَـاثَ مِائَـةٍ سِـنِين وازدادوا تِسـعا﴾. وعارض كثير من النحويين هذه الصياغة القرآنية، وحكمـوا عليها بالخطأ فقالوا "وقد قرأ بعض القراء بالإضـافة فقـالوا "ثلاثمائة سنين" وهذا خطأ فى الكلام غير جائز، وإنما يجوز فى الشعر للضرورة .

نقول إن عبدة القواعد هؤلاء اعتبـروا القـرآن نثـراً، وحرموا عليه ما أجازوه للشعر وفاتهم أن القرآن ليس نثراً، وإن لم يكن شعراً، ولكنه نظم فذ لم يسبق، ولـم يلحـق ولا يجوز أن تجرى عليه قواعدهم الغثة كما لم يفطنوا إلـى أن من الأساس فى الصياغة القرآنية تحـرى اتسـاق تركيـب الكلمة، وأن يكون لها وقع موسيقى ولو قال القرآن "ثلاثمائة

سنة" لما اختلاف عن كتاب حساب يدرس للصبيان... فـأنى يؤفكون ...

وقال النحويون "لا يجوز وقوع الاستثناء المفـرغ بعـد الإيجاب" مع أن فى القرآن الكريم ثمانى عشرة آية وقع فيها الاستثناء المفرغ بعد الإيجاب مثل ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيـرَةٌ إِلا عَلَـى الْخَاشِعِينَ﴾. و ﴿لَتَأْتُونَنِي بِهِ إِلا أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ .

ومن قواعدهم يجب فتح ياء المتكلم ولا يجوز كسـرها فى نحو مصرخى { سورة إبراهيم آيـه ٢٢} وتبعـا لهـذا أنكروها ورموها بالقبح واللحن والـرداءة والغلـط والـوهم والشذوذ وقالوا " إنها رديئة مرذولة " ..

وقال النحاة "يمتنع وقوع "كل" المضافة للنكرة مفعـولاً به، مع أن هذا أمر جاء فى القرآن الكريم ٣٧ مرة.. وجاءت خمس مرات فى سورة الأنعام.. وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها. {٢٥} وسـع ربـى كل شئ علماً. {٨٠} وحشرنا عليهم كل شئ قبلا.{١١١} وخلق كل شئ. {١٠١} وعلـى الـذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر. {١٤٦} .

وضرب المؤلف مثلاً لمعارضة النحاة "مـا جـاء فـى تحقيق الهمزتين فى مثل أئمة فى قراءة سبعيه متواترة.. بل

فى قراءات متعددة متواترة..، ومع ذلك وصـفوها بـاللحن بحجة أنها لا تتفق مع القياس.. ونسوا أن السماع الصـحيح الكثير المتواتر.. فوق كل قياس، لأن اللغة تثبـت بالسـماع الصحيح الكثير قبل أن تثبت بالقياس.. وما أجمل المبدأ القائل : "مقياس الترجيح هو السماع الصحيح" ..

وقد وضع مؤلف "نظرية النحو القرآنى" أربعين تعـديلاً لأربعين قاعدة من قواعد النحاة لتتفق هذه القواعد مع ما جاء به القرآن .

إن الشُقة بعيدة بعيدة بين النحاة الذين يحترفون النحـو ويتشبثون بقواعدهم.. والقرآن العظيم الذى لا ينظر إلى اللغة إلا كأداة لإحداث الأثر أو توصيل المعنى، وعنـدما تضـيق اللغة العربية كلها، أو لا يجد التعبيـرات أو الألفـاظ التـى يريدها بعينها فإنه يستحدث ألفاظاً، أو يستخدم كلمـات لهـا أصول غير عربية وقد كتب الشيخ حمـزة فـتح الله كتيبـاً بعنوان "الأصل والبيان لمعرب[1] القرآن" تضمن أكثر مـن مائة لفظة أعادها إلى أصول غير عربية.

(١) الأصل والبيان المعرب القرآن تأليف فضيلة الأستاذ المرحوم الشيخ حمزة فتح الله علق عليه محمد إبراهيم وراجعه الشيخ محمد عبد المطلب. مطبعـة مصر الحرة بحارة عمر شاه رقم ١٥ بالسيدة زينب بالقاهرة (بدون تاريخ) .

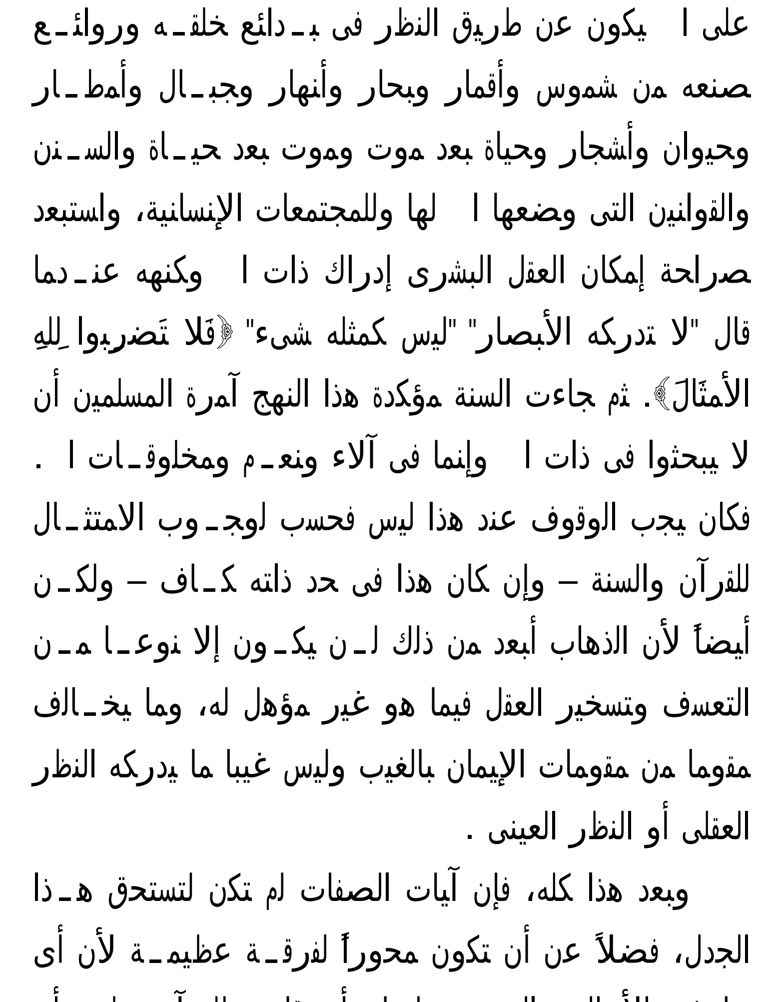
وتجدر الإشارة إلى أن بعض قـدامى النحـاة كالإمـام السكاكى، انتهوا بعد المسيرة النحوية البلاغية الطويلة وتعليل الإعجاز اللغوى للقرآن إلى أن الأفضل هـو عـدم تعليـل الإعجاز لأن الإعجاز يدرك ولا يمكن وصفه ولأن ما يدرك هو الذوق، ومن هنا كان معظم الكتاب والأدبـاء المحـدثين أكثر توفيقا من أسلافهم النحاة فى تعليل الإعجاز القرآنى، إذ أخذوا بما انتهى إليه السكاكى، ولم يكدوا الذهن فى تتبع مـا فى الاستخدام القرآنى الفريد للحروف والكلمات، وما فيه من وجوه البلاغة من استعارة أو تشبيه أو مجاز الخ... وآثـروا إعادة الإعجاز بأسره إلى عامل أكثر أصالة مما تواضع عليه البلاغيون أنفسهم .

– ٣ –

مزالق المفسرين القدامى

ب. لمذهبيون

أما أصحاب المذاهب فى العقائد، وخاصة مـا يتعلـق بذات ا تعالى فقد أخذهم هوس بقضية الصفات ما بين ناف لها ومثبت إياها. وهى قضية كان يفترض أن لا توجد أصلا



بين المفكرين الإسلاميين لأن القرآن قد أوضح أن الاستدلال على ا يكون عن طريق النظر فى بـدائع خلقـه وروائـع صنعه من شموس وأقمار وبحار وأنهار وجبـال وأمطـار وحيوان وأشجار وحياة بعد موت وموت بعد حيـاة والسـنن والقوانين التى وضعها ا لها وللمجتمعات الإنسانية، واستبعد صراحة إمكان العقل البشرى إدراك ذات ا وكنهه عنـدما قال "لا تدركه الأبصار" "ليس كمثله شىء" ﴿فَلا تَضرِبوا لِلهِ الأمثَالَ﴾. ثم جاءت السنة مؤكدة هذا النهج آمرة المسلمين أن لا يبحثوا فى ذات ا وإنما فى آلاء ونعـم ومخلوقـات ا . فكان يجب الوقوف عند هذا ليس فحسب لوجـوب الامتثـال للقرآن والسنة – وإن كان هذا فى حد ذاته كـاف – ولكـن أيضاً لأن الذهاب أبعد من ذلك لـن يكـون إلا نوعـا مـن التعسف وتسخير العقل فيما هو غير مؤهل له، وما يخـالف مقوما من مقومات الإيمان بالغيب وليس غيبا ما يدركه النظر العقلى أو النظر العينى .

وبعد هذا كله، فإن آيات الصفات لم تكن لتستحق هـذا الجدل، فضلاً عن أن تكون محوراً لفرقـة عظيمـة لأن أى عارف بالأساليب العربية، بل إن أى قارئ للقرآن يعلـم أن

القرآن يستخدم.. المجاز والتشبيه والاستعارة الخ... وقد جاءت فيه ﴿واخْفِض لهما جنَاح الذل مِن الرحمةِ﴾. و﴿حتى يتَبين لَكُم الْخَيطُ الأَبيض مِن الْخَيطِ الأَسودِ﴾. و﴿فَما ربِحت تِجارتُهم﴾.و﴿إِن الله اشْتَرى مِن الْمؤْمِنين﴾. و﴿من ذَا الذِي يقْرِض الله قَرضا حسنًا﴾. الخ... وعندما يتضمن القرآن آيات مثل ﴿الرحمان علَى الْعرشِ استَوى﴾. أو ﴿كُل شَيءٍ هالِك إِلا وجهه﴾. أو ﴿ويبقَى وجه ربك ذُو الْجلال والإِكْرامِ﴾. أو ﴿والسماواتُ مطْويات بِيمِينِهِ﴾. ﴿يد الله فَوقَ أَيدِيهم﴾. فمن المفهوم بداهة أنه يستخدم هذه العبارات، كما استخدم العبارات السابقة (جناح الذل – الخيط الأبيض..) لمجرد إعطاء المعنى المطلوب، وأن التشبيه باليد والعين يعود إلى أن اليد هى أداة الفعل والبطش، وأن العين هى أداة النظر. فلما أراد القرآن أن يقرب قوة ا تعالى ومقدرته إلى الأذهان استخدم هذه التشبيهات ليعطينا المعنى بالألفاظ التى نفهمها دون أن تكون الحقيقة الإلهية هى ما نفهمه نحن من تعبيرات اليد والوجه.. لأن ذاته تعالى هى مما تعجز العقول عن تصورها فليس هناك إشكال، ولأن القلب المؤمن، والفطرة العربية السليمة لا تتجاوب فى مضمون كلمة وجه

أو يد بالنسبة تعالى. وإنما هى تتجاوب مع التأثير الـذى أراده القرآن .

وقد ذكر القرآن الكريم اليـد بصـفتها الرمزيـة فـى مواضع عديدة مثل:

ِ﴿إن كفَروا ِبالذكْر لما جاءهم وإنه لَكِتَاب عزيـز(**٤١**) لا يأْتِيهِ الْباطِلُ مِن **بين يديهِ** ولا مِن خَلْفِهِ تَنزيـلٌ مِـن حكِـيمٍ حمِيدٍ﴾. {٤٢ فصلت} ..

﴿وقَالَ الذِين كفَروا لَن نُؤْمِن بِهذَا الْقُرآن ولا بِالذِي **بين يديه** ...ِ﴾. {٣١ سبأ} ..

﴿وهو الذِي أَرسلَ الرياح بشْرا **بين يدي** رحمتِـهِ...﴾. {٤٨ الفرقان}

﴿إن هو إلا نَذِير لَكُم **بين يدي** عـذَابٍ شَـدِيدٍ﴾. {٤٦ سبأ}.

﴿أَأَشْفَقْتُم أَن تُقَدموا **بين يدي** نَجواكُم﴾. {١٣ المجادلة} .

ولكن كما ذكرنا، لم يكن من السهل على محدثى الإسلام أن ينسوا رواسبهم، أو أن يفهموا التعبير العربى بالإضـافة إلى الذين أرادوا أن يكيدوا للإسلام غداة انتصاره واكتساحه للروم والفرس الخ... مع جهالة العامة، وغلبة السفسطة على

الفكر الإسلامى حينا من الدهر. وكانت النتيجة أن أصـبحت قضية الصفات مسألة المسائل ومحـك الاعتقـاد ووجـدت "مجسمة" يؤمنون بأن   يدا وأذنا وعينا.. وأنه يجلس علـى العرش الخ... كما وجدت معتزلة يستبعدون استبعادا تاما كل هذه الصفات بحيث كادوا عندما نفوا رؤيـة ا   تعـالى أن يصلوا إلى مشارف التجريد الفلسفى الذى يجعـل ا   بلـورة للمثل الأعلى.. وما بين ذلك من مذاهب أقرب إلى هـذه أو تلك وظل الخلاف قائما من القـرن الأول الهجـرى حتـى السنوات الأولى للحكم السعودى فى الحجـاز عنـدما كـان السؤال "ماذا تقول فى الاستواء" هو الامتحـان العـام لكـل مرشح لوظيفة وكان الرد المرضى هو مؤهل التعيين سـواء كان مدرسا أو طبيباً أو مهندسا .

وكانت وجهة نظر المعتزلة أن هذه الصـفات ممـا لا يمكن أن تنسب إلى ا   تعالى واضطرهم هذا التعسـف فـى تفسير بعض العبارات التى جاءت فى القرآن. فقـالوا فـى تفسير الآية ﴿وكلم الله موسى تَكْلِيما﴾. أن "كلم" ليست مـن "الكلام" بمعنى الحديث أو الكلام، ولكنها من "الكلـم" بفـتح

الكاف وسكون اللام بمعنى الجرح وقالوا إن المعنى هو جرح ا لموسى بأظفار المحن ومخالب الفتن .

"ومثل هذا ما فعلوه فى قوله تعـالى: ﴿وقَـالُوا قُلُوبنَـا غُلْفٌ﴾. فبدلا من أن يقرأوا كلمة غلف بضم الغين وسـكون اللام قرأوها بضم الغين واللام أى جمع غـلاف أى وعـاء. كأنهم يفتخرون بأن قلبوهم أوعية للعلم، وإنما لجأ المعتزلـة إلى هذا التحرير حتى لا يقال أن طبيعة قلوبهم هى المانع من قبول الإسلام فلا يكون عليهم ذنب فى الكفـر لأنهـم هكـذا خلقهم ا "[1].

وعلق الشريف المرتضى على الآية الكريمـة ﴿ولَقَـد همتْ بِهِ وهم بِها لَولا أَن رأَى برهان ربهِ كَـذَلِك لِنَصـرِفَ عنْه السوء والْفَحشَاء إِنه مِـن عِبادِنَـا الْمخْلَصِـين﴾. {٢٤ يوسف}.. "أنه إذا ثبت بأدلة القبول التى لا يدخلها الاحتمـال والمجاز ووجوه التأويلات أن المعاصـى لا تجـوز علـى الأنبياء عليهم السلام صرفنا كل ما ورد ظاهره بخلاف ذلك من كتاب أو سنة إلى ما يطابق الأدلة ويوافقها، كمـا يفعـل

---

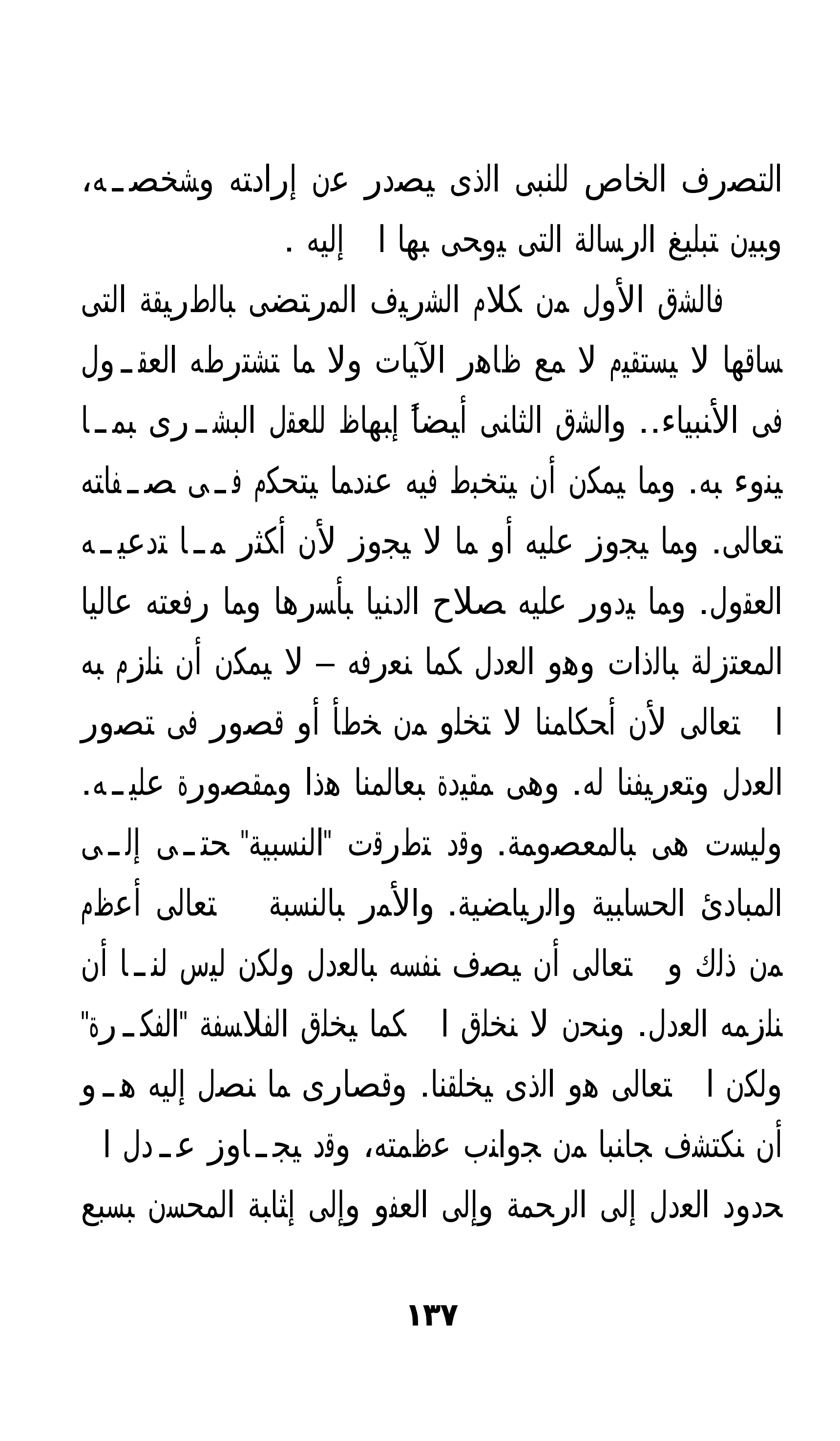
(١) قصة التفسير للشيخ أحمد الشرباصى ص١١٣ .

ذلك فيما يرد بظاهره مخالفا لما تدل عليه العقول من صفاته تعالى وما يجوز وما لا يجوز"[1] .

فهذا النص يتضمن التباسات التبسـت علـى الشـريف المرتضى فى شقى حديثه. فالزج بتعبير "المعاصى" بصـدد الآية ﴿ولَقَد همتْ بِهِ وهم بِها﴾. مما لا ينطبق على مضمون الحدث، فليس هو "معصية" يتوفر لها العمـد والإرادة، كمـا توحى كلمة "معصية" قدر ما هو تراخ فى لحظـة ضـعف، والأنبياء بعد بشر، وقد أكد القرآن بشرية الأنبيـاء وجـوز عليهم فى غير تأديتهم لرسالتهم – الضعف والخطأ وتحـدث عن خطيئات آدم وموسى وسليمان وداود وذى النون الخ... وقال شاملا كل الأنبياء ﴿وما أَرسلْنَا مِن قَبلِك مِن رسولٍ ولا نَبِي إِلا إِذَا تَمنى أَلْقَى الشيطَان فِي أُمنِيتِهِ فَينْسخُ الله ما يلْقِـي الشيطَان ثُم يحكِم الله آياتِهِ والله علِيم حكِيم﴾. {٥٢ الحج} ..

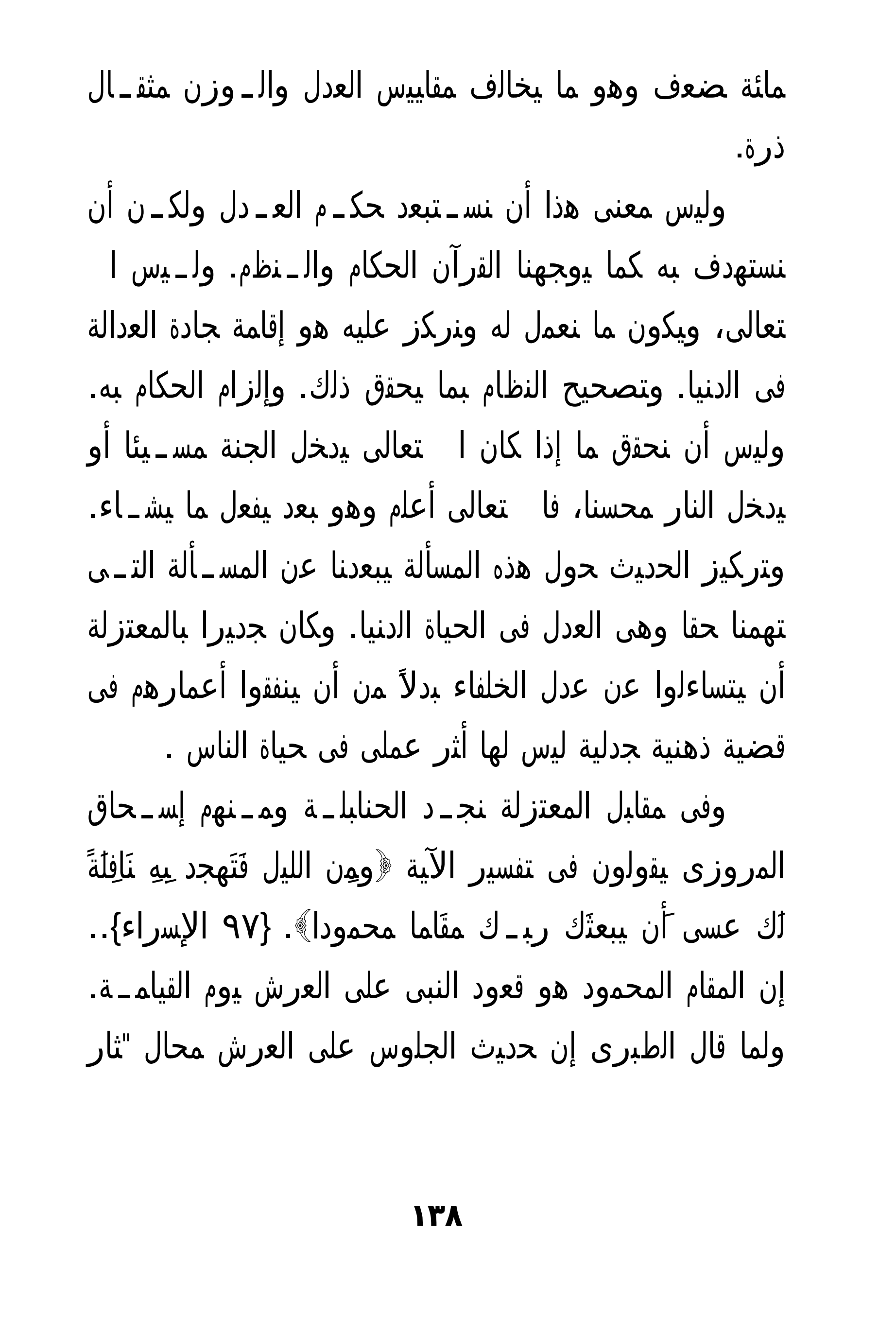
وإذا كان الأنبياء معصومين، فبرحمة ا ورعايته لهـم كما توضح ذلك تعبيرات "لولا أن رأى برهان ربـه" كـذلك "لنصرف عنه السوء والفحشاء" وهنـاك بعـد تفرقـه بـين

(١) أمالى المرتضى ج٢ ص١٢٥ – ١٢٩ .



التصرف الخاص للنبى الذى يصدر عن إرادته وشخصـه، وبين تبليغ الرسالة التى يوحى بها ا إليه .

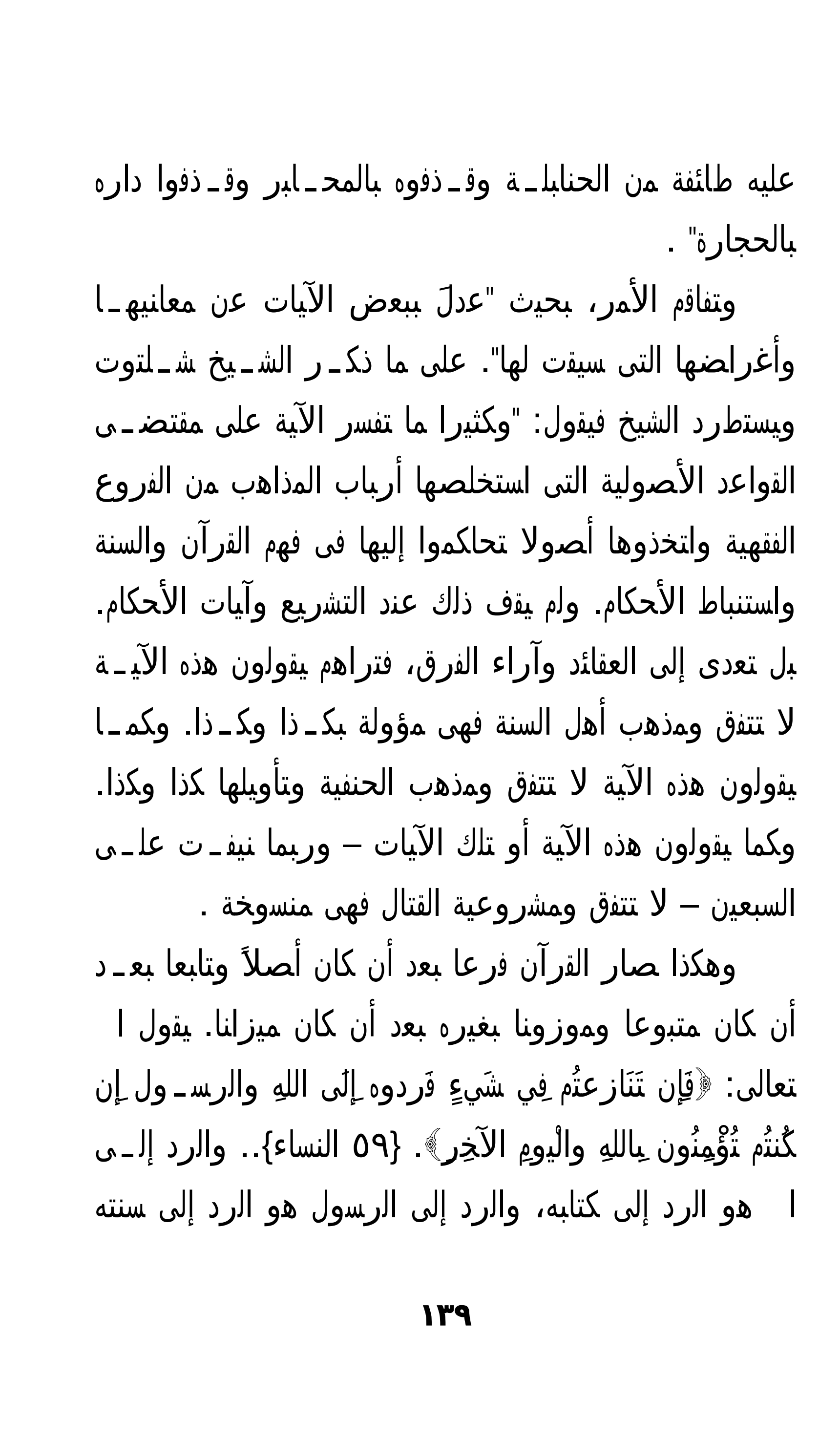
فالشق الأول من كلام الشريف المرتضى بالطريقة التى ساقها لا يستقيم لا مع ظاهر الآيات ولا ما تشترطه العقـول فى الأنبياء.. والشق الثانى أيضاً إبهاظ للعقل البشـرى بمـا ينوء به. وما يمكن أن يتخبط فيه عندما يتحكم فـى صـفاته تعالى. وما يجوز عليه أو ما لا يجوز لأن أكثر مـا تدعيـه العقول. وما يدور عليه صلاح الدنيا بأسرها وما رفعته عاليا المعتزلة بالذات وهو العدل كما نعرفه – لا يمكن أن نلازم به ا تعالى لأن أحكامنا لا تخلو من خطأ أو قصور فى تصور العدل وتعريفنا له. وهى مقيدة بعالمنا هذا ومقصورة عليـه. وليست هى بالمعصومة. وقد تطرقت "النسبية" حتـى إلـى المبادئ الحسابية والرياضية. والأمر بالنسبة تعالى أعظم من ذلك و تعالى أن يصف نفسه بالعدل ولكن ليس لنـا أن نلازمه العدل. ونحن لا نخلق ا كما يخلق الفلاسفة "الفكـرة" ولكن ا تعالى هو الذى يخلقنا. وقصارى ما نصل إليه هـو أن نكتشف جانبا من جوانب عظمته، وقد يجـاوز عـدل ا حدود العدل إلى الرحمة وإلى العفو وإلى إثابة المحسن بسبع



مائة ضعف وهو ما يخالف مقاييس العدل والـوزن مثقـال ذرة.

وليس معنى هذا أن نسـتبعد حكـم العـدل ولكـن أن نستهدف به كما يوجهنا القرآن الحكام والـنظم. ولـيس ا تعالى، ويكون ما نعمل له ونركز عليه هو إقامة جادة العدالة فى الدنيا. وتصحيح النظام بما يحقق ذلك. وإلزام الحكام به. وليس أن نحقق ما إذا كان ا تعالى يدخل الجنة مسـيئا أو يدخل النار محسنا، فا تعالى أعلم وهو بعد يفعل ما يشـاء. وتركيز الحديث حول هذه المسألة يبعدنا عن المسـألة التـى تهمنا حقا وهى العدل فى الحياة الدنيا. وكان جديرا بالمعتزلة أن يتساءلوا عن عدل الخلفاء بدلاً من أن ينفقوا أعمارهم فى قضية ذهنية جدلية ليس لها أثر عملى فى حياة الناس .

وفى مقابل المعتزلة نجـد الحنابلـة ومـنهم إسـحاق المروزى يقولون فى تفسير الآية ﴿وِمِن الليل فَتَهجد بِهِ نَافِلَةً لَك عسى أَن يبعثَك ربـك مقَاما محمودا﴾. {٩٧ الإسراء}.. إن المقام المحمود هو قعود النبى على العرش يوم القيامـة. ولما قال الطبرى إن حديث الجلوس على العرش محال "ثار



عليه طائفة من الحنابلـة وقـذفوه بالمحـابر وقـذفوا داره بالحجارة" .

وتفاقم الأمر، بحيث "عدلَ ببعض الآيات عن معانيهـا وأغراضها التى سيقت لها". على ما ذكـر الشـيخ شـلتوت ويستطرد الشيخ فيقول: "وكثيرا ما تفسر الآية على مقتضـى القواعد الأصولية التى استخلصها أرباب المذاهب من الفروع الفقهية واتخذوها أصولا تحاكموا إليها فى فهم القرآن والسنة واستنباط الأحكام. ولم يقف ذلك عند التشريع وآيات الأحكام. بل تعدى إلى العقائد وآراء الفرق، فتراهم يقولون هذه الآيـة لا تتفق ومذهب أهل السنة فهى مؤولة بكـذا وكـذا. وكمـا يقولون هذه الآية لا تتفق ومذهب الحنفية وتأويلها كذا وكذا. وكما يقولون هذه الآية أو تلك الآيات – وربما نيفـت علـى السبعين – لا تتفق ومشروعية القتال فهى منسوخة .

وهكذا صار القرآن فرعا بعد أن كان أصلاً وتابعا بعـد أن كان متبوعا وموزونا بغيره بعد أن كان ميزانا. يقول ا تعالى: ﴿فَإِن تَنَازعتُم فِي شَيءٍ فَردوه إِلَى اللهِ والرسـول إِن كُنتُم تُؤْمِنُون بِاللهِ والْيومِ الآخِرِ﴾. {٥٩ النساء}.. والرد إلـى ا هو الرد إلى كتابه، والرد إلى الرسول هو الرد إلى سنته

الصحيحة. ولكن هؤلاء عكسوا القضية وقلبوا التشريع وردوا كتاب ا   وسنة رسوله إلى ما لهم من آراء ومـن مـذهب" انتهى .

من أجل هذا، فإن كل ما سود به المفسـرون والعلمـاء صفحاتهم عن آيات الصفات أمر لا داع له، بل هـو إهـدار للجهود والتزام بما لا يلزم، وهو أمر دخيـل علـى قضـية الإيمان، وليس من أركانه كما وهموا. وصرف النظر عـن هذه القضية أجدى حتى من محاولة تفنيد الخطـأ فيهـا لأن التفنيد سيستنزل الفقهاء والمفسـرين إلـى الحـديث بلغـة المخالفين واستخدام أسلحتهم وهو ما لم يوصلهم إلى طائل .

وقد كان هذا هو المأزق الذى وقع فيه المتأخرون مـن سنة أو معتزلة أما المتقدمون فقد عصمهم إيمانهم وجعلهـم ورعهم يرفضون القضية أصلا، وكان للمتـأخرين مندوحـة ويسعهم ما وسع أسلافهم .



ولن نعرض هنا كما يعرض الآخرون، لبعض تفسيرات الشيعة فالشيعة مثلهم كمثل بقية المذاهب لهم اجتهاداتهم. أما ما يروونه من أقاصيص الغلو، فلا يجـوز أن تنسـب إلـى

الشيعة أو تبوء بها، وإنما هى من آثار ما يتورط فيـه كـل كفاح سرى يتعرض لاضطهاد طويل. ثم لما أذن ا   تعـالى بانتصارها على يد الدولة الصفوية. فإن هذه الدولة دخلت فى صراع حياة أو موت مع الدولة العثمانية ونشر حكامها نوعاً من الدعاية السياسية تقوم على تجريح المـذهب الحنفـى – وهو المذهب المقرر للدولة العثمانيـة – واختلقـت أقاويـل وادعاءات لا يمكن أن تفهم إلا فى ضـوء احتـدام العـداوة السياسية بينما هذه كلها لا تحسب على فكر الشـيعة، ولكـن على سياسة الحكام الصفوين الذين انحرفوا بالمذهب .

والشيعة اليوم غير الشيعة الصـفوية وهـم يضـمون مجموعات من أفضل المثقفين الذين يلمون بفكـر العصـر وثقافته ويعملون لتقويم المذهب. ودولتهم هى إحـدى آمـال العالم الإسلامى، فلا داعى لإثارة الأحقاد القديمة، ونحن نريد أن نوحد العالم الإسلامى. نعيش حاضره ونواجه تحدياته.. لا أن نحيى الماضى المندثر .

* * *

وإذا كنا قد أعرضنا عن الإشارة إلى تفسـير الشـيعة للاعتبارات التى قدمناها فإننا نرى أن من المهم أن نشير إلى

ما أحدثه الخوارج من تفسير، لأن هذا التفسير يمكن أن يعد بداية لفكرة التكفير، التى جعلـت شـعارها "لا حكـم إلا " والتى طويت مع الخوارج ثـم عـادت مـرة أخـرى مـع الجماعات الإسلامية الشاردة – أو الرافضة الجديدة – كمـا أطلقنا عليها. فقد ذهب الخوارج إلـى أن مرتكـب الكبيـرة يصبح كافراً. ومثلها سائر الذنوب إن لم يتـب منهـا، إذ لا فرق بين كبيرة وصغيرة، وكذلك اعتبار مخـالفيهم كفـاراً، ومن الشاذ العجيب تفسيرهم قول ﴿ا هو الَّذِي خَلَقَكُم فَمِنْكُم كَافِر ومِنْكُم مؤْمِن﴾. وهذا يقتضى فيما يرون أن من لم يكن مؤمنا فهو كافر. فالناس فريقان لا ثالث لهما، كما فى قولـه تعالى ﴿يوم تَبيض وجوه وتَسود وجوه فَأَما الـذِين اسـودتْ وجـُوههم أَكَفَرتُم بعد إِيمانِكُم فَذُوقـُوا الْعـذَاب بِمـا كُنْـتُم تَكْفـُرون﴾. {١٠٦ آل عمران}.. وفى آية ﴿وجـوه يومئِـذٍ مسفِرةٌ **(٣٨)** ضاحِكَةٌ مستَبشِرةٌ﴾. {٣٩ عبس}.. قسموا الوجوه إلى وجوه مؤمنة، ووجوه كافرة ..

وذهبوا إلى أن قول ا تعالى ﴿ذَلِك جزينَاهم بِما كَفَروا وهلْ نُجازِي إِلا الْكَفُور﴾. يقتضى أن لا يكون جزاء إلا على الكفر.. وقيل مثل ذلك عن ممن ثقلت موازينه ﴿فَمن ثَقُلَـتْ

موازينه فأولئك هم المفلحون(١٠٢) ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون(١٠٣) تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون(١٠٤) ألم تكن آياتي تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون﴾. {١٠٥ المؤمنون} ..

كما أنهم لم يجيزوا ما أضافته السنة من تشريع إلى القرآن. كتحريم جمع المرأة على عمتها أو خالتها، وعلى تنزيل بنت البنت وبنت الابن منزلة البنت، وأن المعاملة فى الأصول والفروع تجرى على هذا النحو .

وفى قوله تعالى ﴿والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة﴾. أوجبوا حد القذف، ورد الشهادة، والحكم بالفسق على قاذف المحصنة فحسب، أما قاذف المحصن فلا حد عليه إذ لم يرد له ذكر فى الآية[١].

وفى قوله سبحانه ﴿كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيرا الوصية للوالدين والأقربين﴾. قرروا أن الوصية واجبة للوالدين مع كونهما وارثين، ولا عبرة عندهم

---

(١) انظر مدخل إلى مناهج المفسرين تأليف الدكتور محمد السيد جبريل – أستاذ بكلية أصول الدين ص١٧١ .

لما تقرر فى حديث: "لا وصية لوارث" فلا يحجب الوالـدان عن الميراث ولا عن الوصية فى كل حال[1]

كما لم يذهبوا إلى رجم الزانى المحصن، إذ لا يذكر لـه فى القرآن وحكموا بتكفير على وعثمان والحكمين وأصحاب الجمل وصفين وكل من رضا بالتحكيم مما يسـتتبع بـالطبع عدم الأخذ بمروياتهم .

وإن كان يذكر لهم بالشكر أنهم رأوا وجوب الخـروج على السلطان الجائر، وأن تكون الخلافة للأكفأ من المسلمين وليس حصرها فى قريش. كما ذهب الجمهور .

وما دمنا قـد ذكرنـا تفسـير بالمعتزلـة، والخـوارج والحنابلة، فلا بأس بأن نقدم مثالاً لتفسـير بعـض فلاسـفة الإسلام وهو تفسير ابن سينا للآيات ﴿الله نُـور السـماواتِ والأرضِ مثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيها مِصباح الْمِصباح فِي زجاجةٍ الزجاجةُ كَأَنها كَوكَب دري يوقَد مِن شَجرةٍ مباركَةٍ زيتُونِةٍ لا شَرقِيةٍ ولا غَربِيةٍ يكَاد زيتُها يضِيء ولَو لَم تَمسسه نَار نُور

(٢) وقد نقل العلماء مثل الشيخ محمد أبو زهرة فى تـاريخ المـذاهب الإسلامية، والدكتور الذهبى فى: التفسير والمفسرون، هذه الأنماط من تفسيرهم للآيات القرآنية، وأكثرها من شرح نهـج البلاغـة لابـن أبى الحديد .

علَى نُورٍ يهدِي الله ِلنُورِهِ من يشَاء ويضرب اللـه الْأمثَـالَ ِللناسِ والله ِبكُل شَيءٍ عِلِيم﴾. {٣٥ النور}..

"... فالنور إما ذاتى أو حقيقى، أو مستعار، والمسـتعار إما الخير وإما السبب الموصل إلى الخير. وفسر السـموات والأرض بأنها الكل. والمشكاة هى العقل الهيولانى ومفتـاح العقل المستعار والزجاجة بالواسطة، وشجرة مباركة بـالقوة الفكرية، والنار بالعقل الكلى المدبر للعالم المشـاهد. وهـو النفس الكلية عند أفلاطون" .

وأدلى الصوفية بدلوهم فى التفسير، ولما كان التصوف يقوم على العاطفة والذوق فإنه عادة يفقـد الضـوابط التـى تضعها الشريعة، وقد يكشف هذا لصاحبه مجـالات جديـدة، ولكن يغلب أن يجمح به إلى بيداء الفكر.. وما يـؤدى إليـه الاجتهاد إلى خروج وشذوذ قد يصل به إلى وحدة الوجـود.. وهذا مذهب فى الفلسفة وليس اجتهاداً فى الدين وقد أُوتيـت الصوفية منه، ومع أن الذين ذهبوا هذا المذهب واعتقدوا "أن ليس فى الجبة إلا ا " على ما قال الحلاج. وابـن عربـى، وابن سبعين أوجدوا تصوفاً يخرج فعلاً عن الحـدود. فقـد يكون لهم جوانب أخرى يمكن أن تصل إلى المثالية كما فـى

أبيات ابن عربى المشهورة عندما يقول "أدين بدين الحب أنى توجهت ركائبه فالحب دينى وإيمانى" كما نجـد فـى تائيـة السلوك لابن الفارض ما يماثلها لكن يظل بعد هذا أن الأديان وإن كانت شرعة تحرير إلا أن نظمها ومنهجها، وضوابطها، هو مما لا يمكن صرف النظر عنه كلية وهذا ما نفتقده فـى انطلاقة الصوفية فى متاهات النفس وتيارات العاطفة .

واعتبر مؤلف "مدخل إلى منـاهج المفسـرين" تفسـير شهاب الدين الألوسى المتوفى سـنة ١٢٧٠ هـ ـ بـالكرخ (بغداد) المسمى روح المعانى فى تفسـير القـرآن العظـيم والسبع مثانى" من التفاسير الصوفية إلى حد ما، وهـو مـن أكبر التفاسير "فى ثلاثين جزءاً" فإن صاحبه تأثر بالطريقـة النقشبندية وتتلمذ على يدى أحد شيوخها هـو الشـيخ خالـد الكردى الذى قال عنه "هو الحائز للحكمتين العلمية والعملية، الفائز بالرئاستين الظاهرية والباطنية، فلا يـرى مكرمـة إلا ومصيرها إليه، ولا منقبة إلا وروافها ممدود وهى مقصورة عليه، وينشد فيه قائلاً :

فلى فيه أستاذ ولى فيه مرشد ولـى فيـه قطـب ذو اتصال ولى ولى

واقتبس مؤلف مناهج المفسرين بعض مقـاطع توضـح التفسير "الإشارى" من ذلك فى تفسير الآية ٣ مـن سـورة المائدة ﴿حرمتْ علَيكُم الْميتَةُ والدم ولَحم الْخِنزيرِ وما أُهِـل لِغَيرِ اللهِ بِهِ والْمنْخَنِقَةُ والْموقُوذَةُ والْمتَرديةُ والنطِيحـةُ ومـا أَكَلَ السبع إِلا ما ذَكيتُم وما ذُبِح علَى النصبِ وأَن تَستَقْسِـموا بِالأزلامِ ذَلِكُم فِسقٌ الْيوم يئِس الذِين كَفَروا مِـن دِيـنِكُم فَلَا تَخْشَوهم واخْشَونِي الْيوم أَكْملْتُ لَكُم دِينَكُم وأَتْممـتُ علَـيكُم نِعمتِي ورضِيتُ لَكُم الْإِسلَام دِينًا فَمن اضطُر فِـي مخْمصـةٍ غَير متَجانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِن الله غَفُور رحِيم﴾ .

قال ...

حرمت عليكم الميتة – وهى خمود الشهوة بالكلية، فإنه رذيلة التفريط المنافية للعفة – والدم – وهو التمتـع بهـوى النفس – ولحم الخنزير – أى سائر وجوه التمتعات بالحرص والشره وقلة الغيرة – وما أهل لغير ا به – من الأعمـال التى فعلت رياءاً وسمعة – والمنخنقة – وهى الأفعال الحسنة صورة مع كمون الهوى فيها – والموقوذة – وهى الأفعـال التى أجبر عليها الهوى – والمتردية – وهى الأفعال المائلـة إلى التفريط والنقصان – والنطيحة – وهى الأفعـال التـى

تصدر خوف الفضيحة وزجر المحتسب مثلا – ومـا أكـل السبع – وهى الأفعال التى من ملائمات القوة الغضبية مـن الأنفة والحمية النفسانية – إلا ما ذكيتم – من الأفعال الحسنة التى تصدر بإرادة قلبية لم يمازجها ما يشينها – ومـا ذبـح على النصب – وهو ما يفعله أبناء العادات لا لغرض عقلـى أو شرعى – وان تستقسموا بالأزلام – بأن تطلبوا السـعادة والكمال بالحظوظ والطوالع وتتركوا العمل، وتقولوا: لو كان مقدراً لنا لعملنا، فإنه ربما كان القدر معلقاً بالسعى – ذلكـم فسق – خروج عن الدين الحق، لأن فيـه الأمـر والنهـى والاتكال على المقدر – اليوم – وهو وقت حصول الكمال – أكملت لكم دينكم – ببيان ما بينت – وأتممت عليكم نعمتى – بذلك أو بالهداية إلى – ورضيت لكـم الإسـلام دينـا – أى الانقياد للإمحاء – فمن اضطر – إلى تناول لذة فى مخمصة، وهى الهيجان الشديد للنفس – غير متجانف لإثـم – غيـر منحرف لرذيلة – فإن ا غفور رحيم – فيستر ذلك ويـرحم بمدد التوفيق"[1] .

(١) روح المعانى ج٦ ص٦٨ .

واستشهد مؤلف "مدخل إلى مناهج المفسـرين" بآيـات أخرى مثل الآيات ﴿وإِذْ جعلْنَا الْبيتَ مثَابـةً لِلنـاسِ وأَمنًـا واتخِذُوا مِن مقَامِ إِبراهِيم مصـلى وعهـدنَا إِلَـى إِبـراهِيم وإِسماعِيلَ أَن طَهرا بيتِـي لِلطـائِفِين والْعـاكِفِين والركَّـعِ السجودِ(١٢٥) وإِذْ قَالَ إِبراهِيم رب اجعلْ هذَا بلَدا آمِنًا وارزقْ أَهلَه مِن الثمراتِ من آمن مِنْهم بِاللهِ والْيومِ الْآخِرِ قَالَ ومـن كَفَر فَأُمتعه قَلِيلاً ثُم أَضـطَره إِلَـى عـذَابِ النـارِ وبِـئْس الْمصِير﴾. {١٢٦ البقرة}.. وقيل الآية ﴿وفِي الأَرضِ قِطَـع متَجاوِراتٌ وجناتٌ مِن أَعنَابٍ وزرع ونَخِيلٌ صِنْوان وغَيـر صِنْوانٍ يسقَى بِماءٍ واحِدٍ ونُفَضلُ بعضها علَى بعـضٍ فِـي الْأُكُلِ إِن فِي ذَلِك لآياتٍ لِقَومٍ يعقِلُون﴾. {٤ الرعـد}.. ممـا يضيق المجال عن إيراده[١] .

وأثر الصوفية بارز بالطبع، وقد اعترف هو نفسه فـى مقدمه تفسيره "وأما كلام السادة الصوفية فى القرآن فهو من باب الإشارات إلى دقائق تنكشف على أرباب السلوك، ويمكن التوفيق بينها وبين الظواهر المرادة، وذلك من كمال الإيمان ومحض العرفان لا أنهم اعتقدوا أن الظاهر غير مراد أصلا،

---

(١) مدخل إلى مناهج المفسرين – مرجع سابق ص٢٢٧ .

وإنما المراد الباطن فقط – فهـو إذ ذاك اعتقـاد الباطنيـة الملاحدة توصلوا به إلى نفى للشريعة بالكلية، وحاشى سادتنا من ذلك"[1] .

وعقب على ذلك الشيخ محمد الفاضل بن عاشور بعد أن ذكر احتياط الآلوسى لنفسه فى إيراده التفسـير الإشـارى.. "ومع ذلك فإن هذا الاحتياط لم ينفعه لأنه فى إيراد الإشارات متجنباً استفادتها من دلالة اللفظ قد فتح خرقاً جديداً يقتضـى أن هنالك طريقاً لاستفادة المراد غير مقتضى الألفاظ، وهـو خروج عن قواعد أهل السنة فى أن الإلهام ليس من أسـباب المعرفة، وإذا كانت تلك المعانى مقصودة فكأن غيرها حائل دونها، وبذلك صح له أن يسمى الفقهاء والعلماء فى كثير من المقامات بأهل الحجاب، وذلك هو مـا أثـار علـى تفسـير الآلوسى الطامة الكبرى من العلمـاء المتمسـكين بالمبـادئ الأصلية المدركين ما فى تلك الخروق من الأخطار" .

وقد يوضح لنا هذا تفسير ابـن عربـى لقولـه تعـالى ﴿فَادخُلِي فِي عِبادِي. وادخُلِي جنتِي﴾. يقول: "... وادخلـى جنتى التى هى سترى، وليست جنتى سواك، فأنت تسـترنى

---

(1) روح المعانى المقدمة ج١ ص٧ .

بذاتك الإنسانية، فلا أعرف إلا بك، كما لا تكون إلا بى فمن عرفك عرفنى، وأنا لا أعرف فأنت لا تعرف. فـإذا دخلـت جنتك دخلت نفسك، فتعرف نفسك معرفة أخرى غير التـى عرفتها حين عرفت ربك بمعرفتك إياها، فتكـون صـاحب معرفتين: معرفة به من حيث أنت، ومعرفة به بك من حيث هو لا من حيث أنت، فأنت عبد رأيت رباً. وأنت رب لمن له فيه أنت عبد، وأنت رب وأنت عبد لمن لـه فـى الخطـاب عهد"[1].

وقد فرق الدكتور الذهبى الذى اقتبسنا منه الفقرة السابقة بين نوعين من التفسير الصوفى نوع أطلق عليـه الصـوفى الإشارى.. ونوع آخر أطلق عليه النظـرى ورأى "أولاً: أن التفسير الصوفى النظرى ينبنى على مقدمات علمية تنقدح فى ذهن الصوفى أولاً، ثم ينزل القرآن عليها بعـد ذلـك، أمـا التفسير الإشارى فلا يرتكز على مقدمات علمية، بل يرتكـز على رياضة روحية يأخذ بها الصوفى نفسه حتى يصل إلـى درجة تنكشف له فيها من كيف العبـارات هـذه الإشـارات

(١) انظر ما نقله عنه الدكتور محمد حسين الذهبى فى التفسير والمفسرون ج٢ ص٣٢٤ .

القدسية، وتنهل على قلبه من سحب الغيب ما تحمله الآيـات من المعارف السبحانية .

واستبعد مؤلف "مناهج المفسـرين" التفسـير الصـوفى النظرى، ورأى فيها جرأة على ا   وقول بغير علم وإلحاد.. فلا يعد من قبيل التفسير، بل هو فكر الحادى .

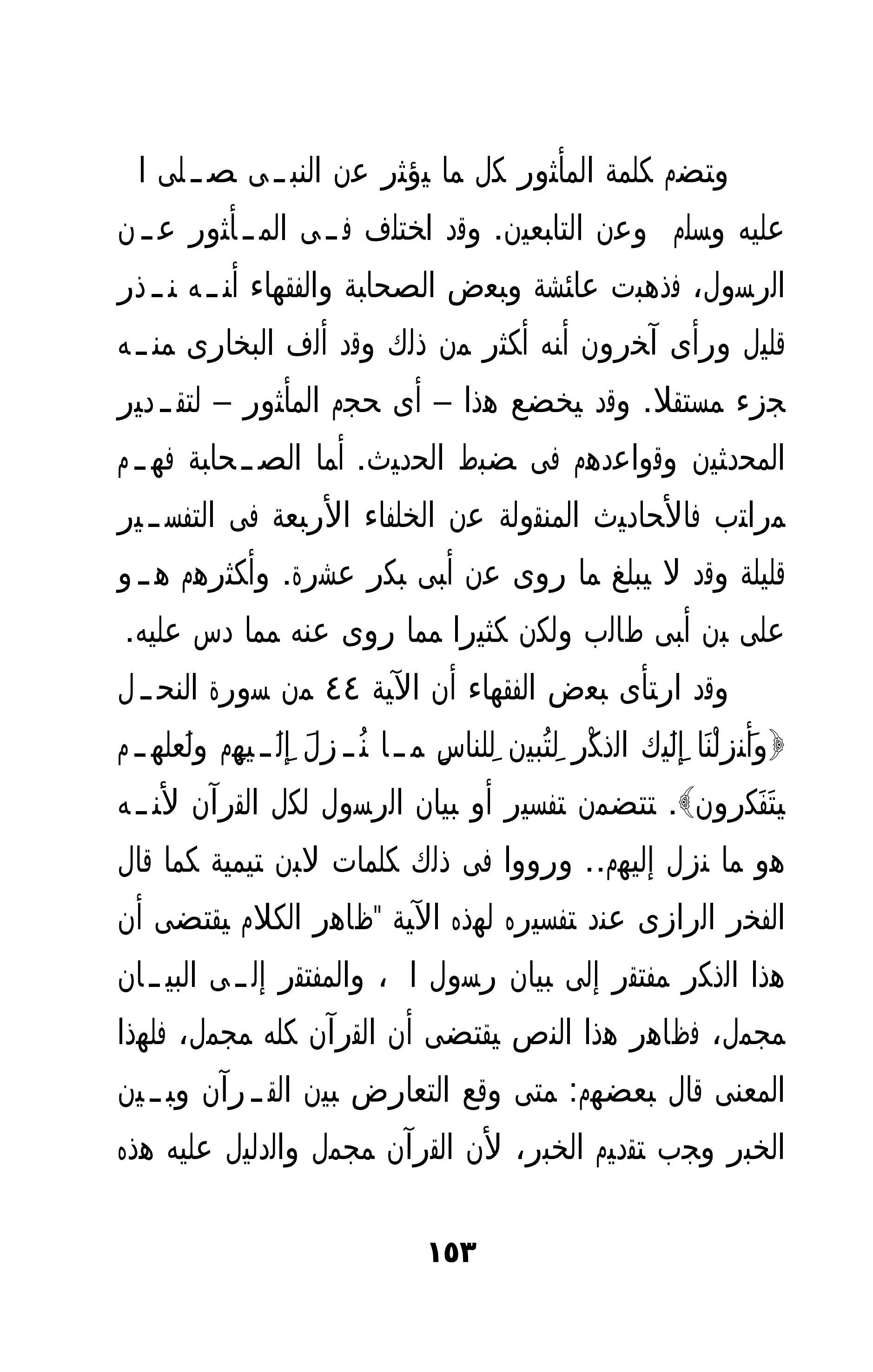
أما النوع الثانى – وهو التفسير الإشارى أو الفيضي فقد تقبل بعضه، وضرب المثل بتفسير روح المعانى الذى سبقت الإشارة إليه .

– ٤ –

مزالق المفسرين القدامى

ج. لأخباريون ورواة المأثور

والمجموعة الثالثة التى عنيت بالتفسير وكتبت عنه هى مجموعة الإخباريين ورواة الآثار الذين عنوا بالأخبار التـى تضمنها القرآن وتتبعها منذ خلق آدم حتى قيام الساعة وجمع الآثار التى تفسر آيات القرآن وهو ما يطلق عليه "التفسـير بالمأثور" .


وتضم كلمة المأثور كل ما يؤثر عن النبـى صـلى ا عليه وسلم وعن التابعين. وقد اختلف فـى المـأثور عـن الرسول، فذهبت عائشة وبعض الصحابة والفقهاء أنـه نـذر قليل ورأى آخرون أنه أكثر من ذلك وقد ألف البخارى منـه جزء مستقلا. وقد يخضع هذا – أى حجم المأثور – لتقـدير المحدثين وقواعدهم فى ضبط الحديث. أما الصـحابة فهـم مراتب فالأحاديث المنقولة عن الخلفاء الأربعة فى التفسـير قليلة وقد لا يبلغ ما روى عن أبى بكر عشرة. وأكثرهم هـو على بن أبى طالب ولكن كثيرا مما روى عنه مما دس عليه.

وقد ارتأى بعض الفقهاء أن الآية ٤٤ من سورة النحـل ﴿وَأنزلْنَا إِلَيْك الذكْر لِتُبين لِلناسِ مـا نُـزلَ إِلَـيهم ولَعلهـم يتَفَكرون﴾. تتضمن تفسير أو بيان الرسول لكل القرآن لأنـه هو ما نزل إليهم.. ورووا فى ذلك كلمات لابن تيمية كما قال الفخر الرازى عند تفسيره لهذه الآية "ظاهر الكلام يقتضى أن هذا الذكر مفتقر إلى بيان رسول ا ، والمفتقر إلـى البيـان مجمل، فظاهر هذا النص يقتضى أن القرآن كله مجمل، فلهذا المعنى قال بعضهم: متى وقع التعارض بين القـرآن وبـين الخبر وجب تقديم الخبر، لأن القرآن مجمل والدليل عليه هذه

الآية، والخبر مبين له بدلالة هذه الآية، والمبين مقدم علـى المجمل والجواب: أن القرآن منـه محكـم ومنـه متشـابه، والمحكم يجب كونه مبينا، فثبت أن القرآن ليس كله مجمـلا، بل فيه ما يكون مجملا، فقوله: ﴿لِتُبين لِلناسِ ما نُزلَ إِلَيهم﴾. محمول على المجملات"[1] .

وهذه هى جناية المنطق المجرد، والأحكام المطلقة دون فكر أو عقل. فلا يمكن لمن لديه ذرة من العقل أن يقول إنـه عندما يحدث التعارض بين الخبر وبين القرآن يقدم الخبر ! .

لأن من الثابت ..

أولاً: أن ا تعالى قال ﴿ولَقَد يسرنَا الْقُرآن لِلذكْرِ فَهـلْ مِن مدكِرٍ﴾. فدل على تيسير القرآن للذكر بما لا يحتـاج – ضرورة – لتبين وأكثر من هذا وضوحاً وصف ا تعـالى للقرآن بأنه "مبين" والمبين لا يحتاج إلى بيان .

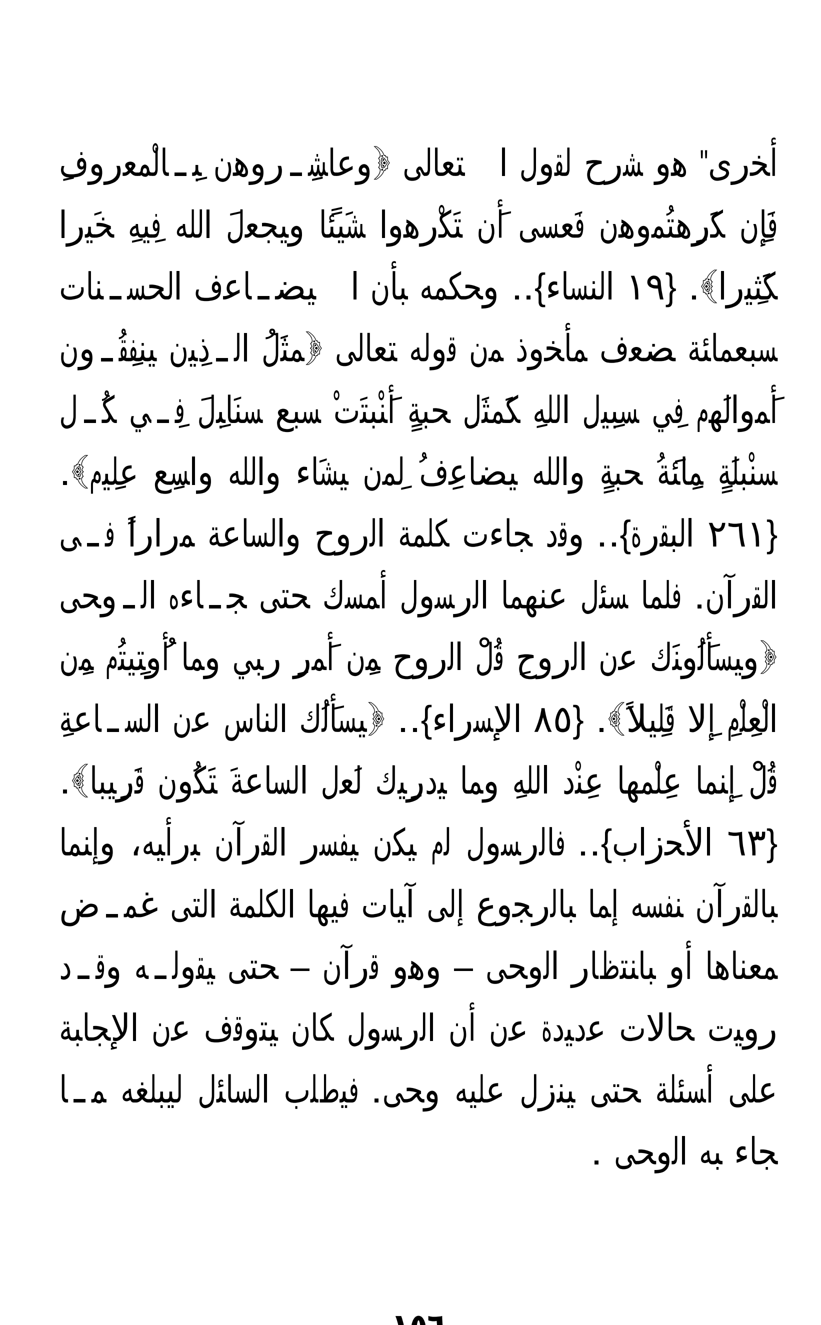
ثانياً: أن الأغلبية العظمى من الآيات واضحة، بينـة لا تحتاج إلى بيان. فقد حدد القرآن نفسه الموقف منهـا ﴿هـو الذِي أَنْزلَ علَيك الْكِتَاب مِنْه آياتٌ محكَماتٌ هـن أُم الْكِتَـابِ وأُخَر متَشَابِهاتٌ فَأَما الذِين فِي قُلُوبِهِم زيغٌ فَيتبِعون ما تَشَابه

---

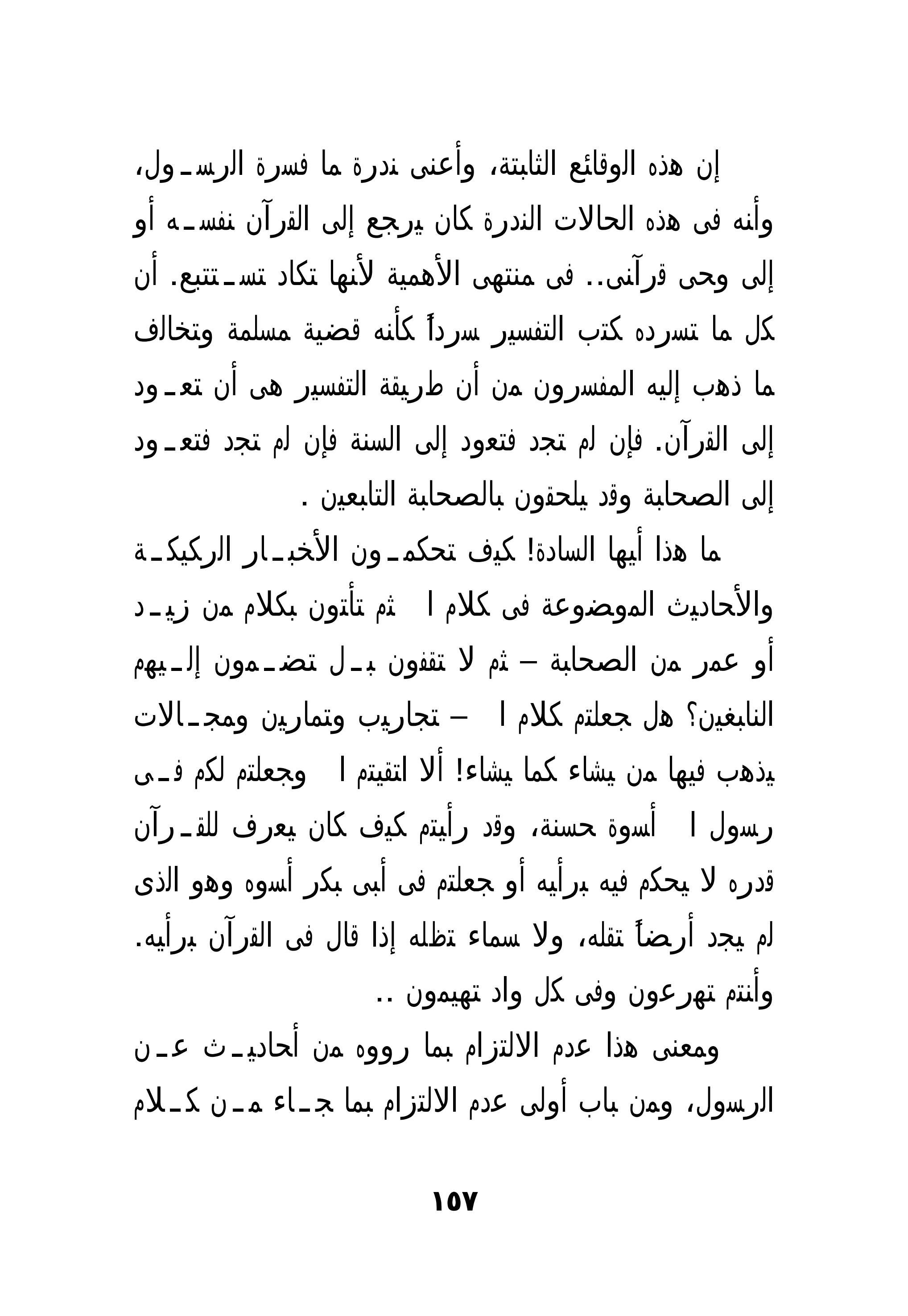
(١) تفسير الفخر الرازى ج٢٠ ص٣٨ .

مِنْه ابتِغَاء الْفِتْنَةِ وابتِغَاء تأْوِيلِهِ وما يعلَـم تأْوِيلَـه إلا اللـه والراسِخُون فِي الْعِلْمِ يقُولُون آمنا بِهِ كُل مِن عِنْدِ ربنَـا ومـا يذكر إلا أُولُوا الألْبابِ﴾. {٧ آل عمران} ..

ثالثاً: إننا إذا استبعدنا مما قيل أن الرسول قـد فسـره الحديث الضعيف والمنحول فلا يبقى إلا النذر الطليق وهـذا هو ما صرح به السيوطى فى الاتقان "والذى صح من ذلـك (أى تفسير الرسول للقرآن) قليل جداً بل أصل المرفوع منـه غلبة القلة (ج٢ ص٢٢٣). ويلحظ فى هذا النـذر القليـل أن الرسول لم يكن يفسر برأيه، وإنما كان يفسر القرآن بالقرآن. كما حدث عندما نزلت الآية ﴿الذِين آمنُوا ولَم يلْبِسوا إيمانَهم بِظُلْمٍ أُولَئِك لَهم الأمن وهم مهتَدون﴾. شق ذلك على المسلمين فقالوا يا رسول ا أبنا لا يظلم نفسه قال ليس الأمـر ذلـك. إنما هو الشرك ألم تسمعوا ما قال لقمان لأبنه وهو يعظه "يا بنى لا تشرك با إن الشرك لظلم عظيم" وقد كانت بعـض أحاديثه شرحاً لما جاء فى الكتاب أى عرض المعنى بأسلوب الحديث – وهو أسلوب السرد العـادى – ولـيس بأسـلوب القرآن الذى قد يشكل مع بعض الناس ممثلاً قوله "لا يفـرك مؤمن مؤمنة إن كره منها خصلة رضى ا منهـا خصـلة



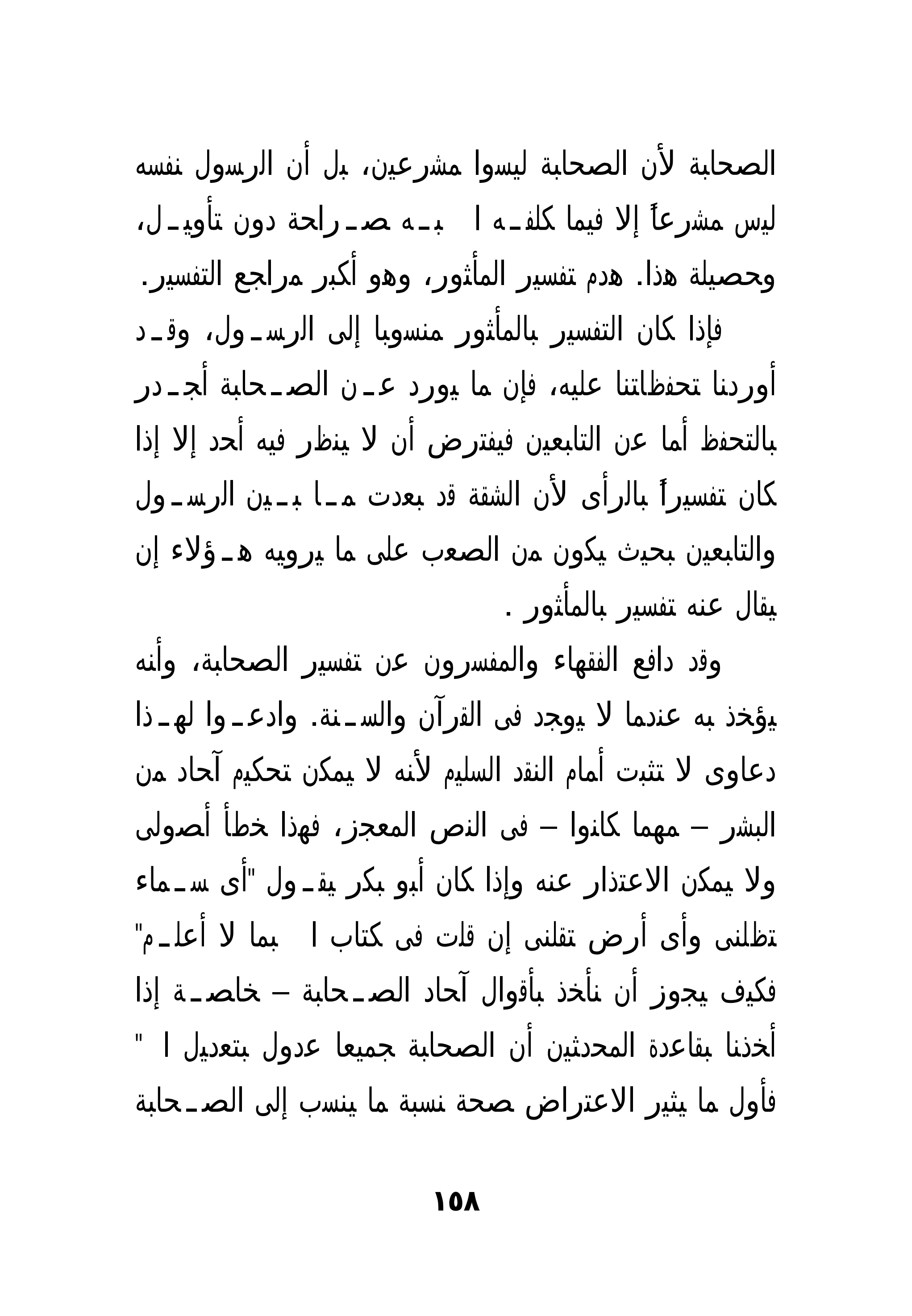
أخرى" هو شرح لقول ا تعالى ﴿وعاشِـروهن بِـالْمعروفِ فَإِن كَرِهتُموهن فَعسى أَن تَكْرهوا شَيئًا ويجعلَ الله فِيهِ خَيرا كَثِيرا﴾. {١٩ النساء}.. وحكمه بأن ا يضـاعف الحسـنات سبعمائة ضعف مأخوذ من قوله تعالى ﴿مثَلُ الـذِين ينفِقُـون أَموالَهم فِي سبِيل اللهِ كَمثَل حبةٍ أَنْبتَتْ سبع سنَابِلَ فِـي كُـل سنْبلَةٍ مِائَةُ حبةٍ والله يضاعِفُ لِمن يشَاء والله واسِع علِيم﴾. {٢٦١ البقرة}.. وقد جاءت كلمة الروح والساعة مراراً فـى القرآن. فلما سئل عنهما الرسول أمسك حتى جـاءه الـوحى ﴿ويسأَلُونَك عن الروحِ قُلْ الروح مِن أَمرِ ربي وما أُوتِيتُم مِن الْعِلْمِ إِلا قَلِيلاً﴾. {٨٥ الإسراء}.. ﴿يسأَلُك الناس عن السـاعةِ قُلْ إِنما عِلْمها عِنْد اللهِ وما يدرِيك لَعل الساعةَ تَكُون قَرِيبا﴾. {٦٣ الأحزاب}.. فالرسول لم يكن يفسر القرآن برأيه، وإنما بالقرآن نفسه إما بالرجوع إلى آيات فيها الكلمة التى غمـض معناها أو بانتظار الوحى – وهو قرآن – حتى يقولـه وقـد رويت حالات عديدة عن أن الرسول كان يتوقف عن الإجابة على أسئلة حتى ينزل عليه وحى. فيطلب السائل ليبلغه مـا جاء به الوحى .



إن هذه الوقائع الثابتة، وأعنى ندرة ما فسرة الرسـول، وأنه فى هذه الحالات الندرة كان يرجع إلى القرآن نفسـه أو إلى وحى قرآنى.. فى منتهى الأهمية لأنها تكاد تسـتتبع. أن كل ما تسرده كتب التفسير سرداً كأنه قضية مسلمة وتخالف ما ذهب إليه المفسرون من أن طريقة التفسير هى أن تعـود إلى القرآن. فإن لم تجد فتعود إلى السنة فإن لم تجد فتعـود إلى الصحابة وقد يلحقون بالصحابة التابعين .

ما هذا أيها السادة! كيف تحكمـون الأخبـار الركيكـة والأحاديث الموضوعة فى كلام ا ثم تأتون بكلام من زيـد أو عمر من الصحابة – ثم لا تقفون بـل تضـمون إلـيهم النابغين؟ هل جعلتم كلام ا – تجاريب وتمارين ومجـالات يذهب فيها من يشاء كما يشاء! ألا اتقيتم ا وجعلتم لكم فـى رسول ا أسوة حسنة، وقد رأيتم كيف كان يعرف للقـرآن قدره لا يحكم فيه برأيه أو جعلتم فى أبى بكر أسوه وهو الذى لم يجد أرضاً تقله، ولا سماء تظله إذا قال فى القرآن برأيه. وأنتم تهرعون وفى كل واد تهيمون ..

ومعنى هذا عدم الالتزام بما رووه من أحاديـث عـن الرسول، ومن باب أولى عدم الالتزام بما جـاء مـن كـلام



الصحابة لأن الصحابة ليسوا مشرعين، بل أن الرسول نفسه ليس مشرعاً إلا فيما كلفه ا به صراحة دون تأويل، وحصيلة هذا. هدم تفسير المأثور، وهو أكبر مراجع التفسير.

فإذا كان التفسير بالمأثور منسوبا إلى الرسول، وقد أوردنا تحفظاتنا عليه، فإن ما يورد عن الصحابة أجدر بالتحفظ أما عن التابعين فيفترض أن لا ينظر فيه أحد إلا إذا كان تفسيراً بالرأى لأن الشقة قد بعدت ما بين الرسول والتابعين بحيث يكون من الصعب على ما يرويه هؤلاء إن يقال عنه تفسير بالمأثور .

وقد دافع الفقهاء والمفسرون عن تفسير الصحابة، وأنه يؤخذ به عندما لا يوجد فى القرآن والسنة. وادعوا لهذا دعاوى لا تثبت أمام النقد السليم لأنه لا يمكن تحكيم آحاد من البشر – مهما كانوا – فى النص المعجز، فهذا خطأ أصولى ولا يمكن الاعتذار عنه وإذا كان أبو بكر يقول "أى سماء تظلنى وأى أرض تقلنى إن قلت فى كتاب ا بما لا أعلم" فكيف يجوز أن نأخذ بأقوال آحاد الصحابة – خاصة إذا أخذنا بقاعدة المحدثين أن الصحابة جميعا عدول بتعديل ا " فأول ما يثير الاعتراض صحة نسبة ما ينسب إلى الصحابة

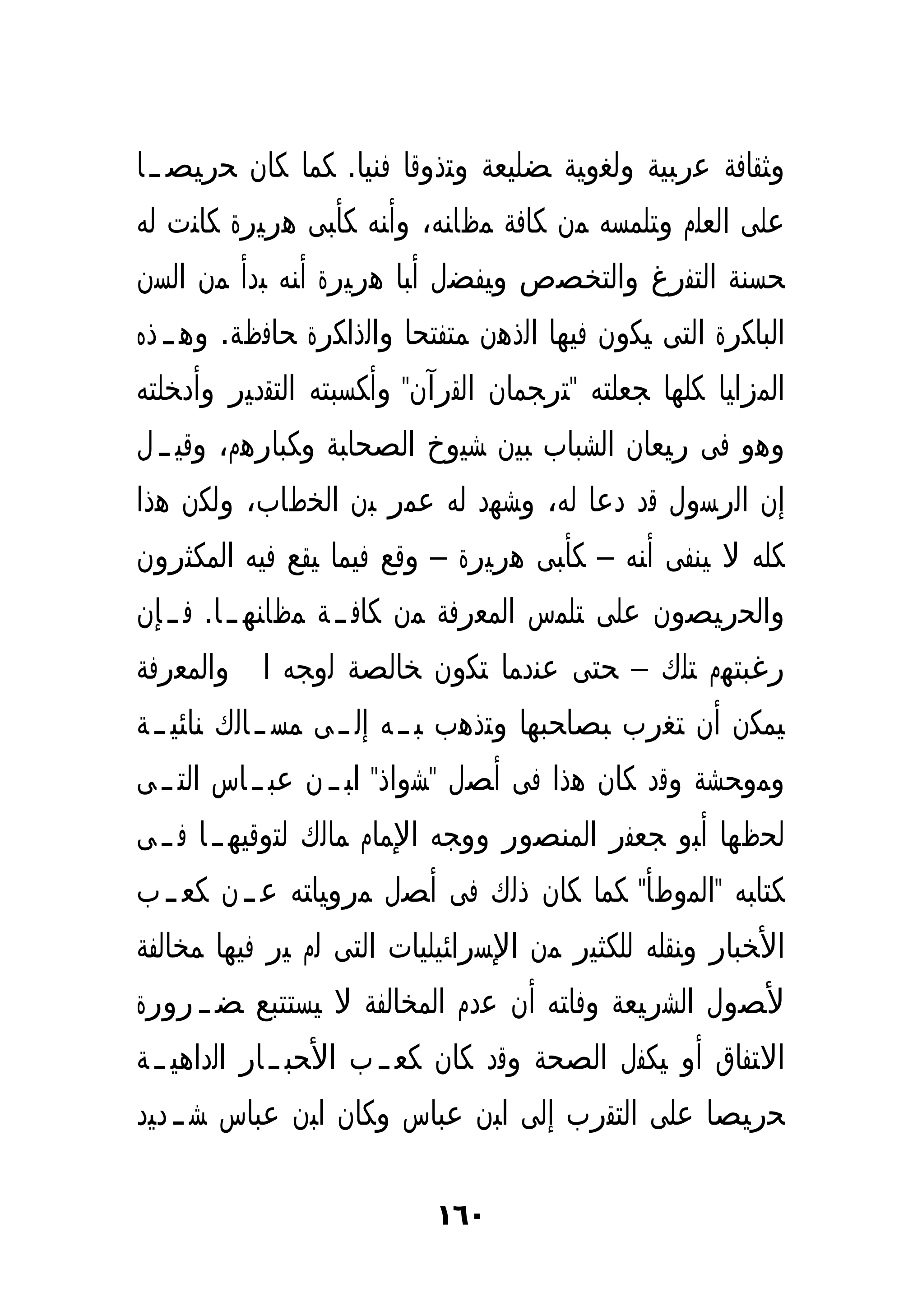
عبر السند الطويل، ثم يأتى ما يقال - أنه ليس للصحابة ولا لغيرهم من آحاد الناس أن يحكموا ويفسروا، فهذا إذا أبـيح لأحد فللرسول وحده، وقد رأينا الرسول يتريث حتى ينـزل عليه وحى، أو يفسر القرآن بالقرآن ثم ما صح عنـه نـذر قليل.

نحن لا ندخل فى صراع فكرى مع الفقهاء فى قبـولهم تفسير الصحابة والتابعين لاختلاف المناهج التى يدور عليها النقاش فنحن نأخذ بمنهج طبائع الأشـياء والأمـر الثابـت القطعى والعقل والمنطق وهم يأخذون بالأقوال فيدافعون عن المرويات بالمرويات، وهذا لا يستقيم ولا يعملون ذهـنهم أو فكرهم أبداً، وإنما هو قيل وقال ..

ولعل أكبر دليل على ما ذهبنا إليه ما يساق من تفسـير عن ابن عباس

والحديث عن بن عباس يجب أن يشمل ابن عباس نفسه. ومن روى عنهم ومن رووا عنه حتى تتكامل الصورة عمـا ينسب إليه من تفسير .

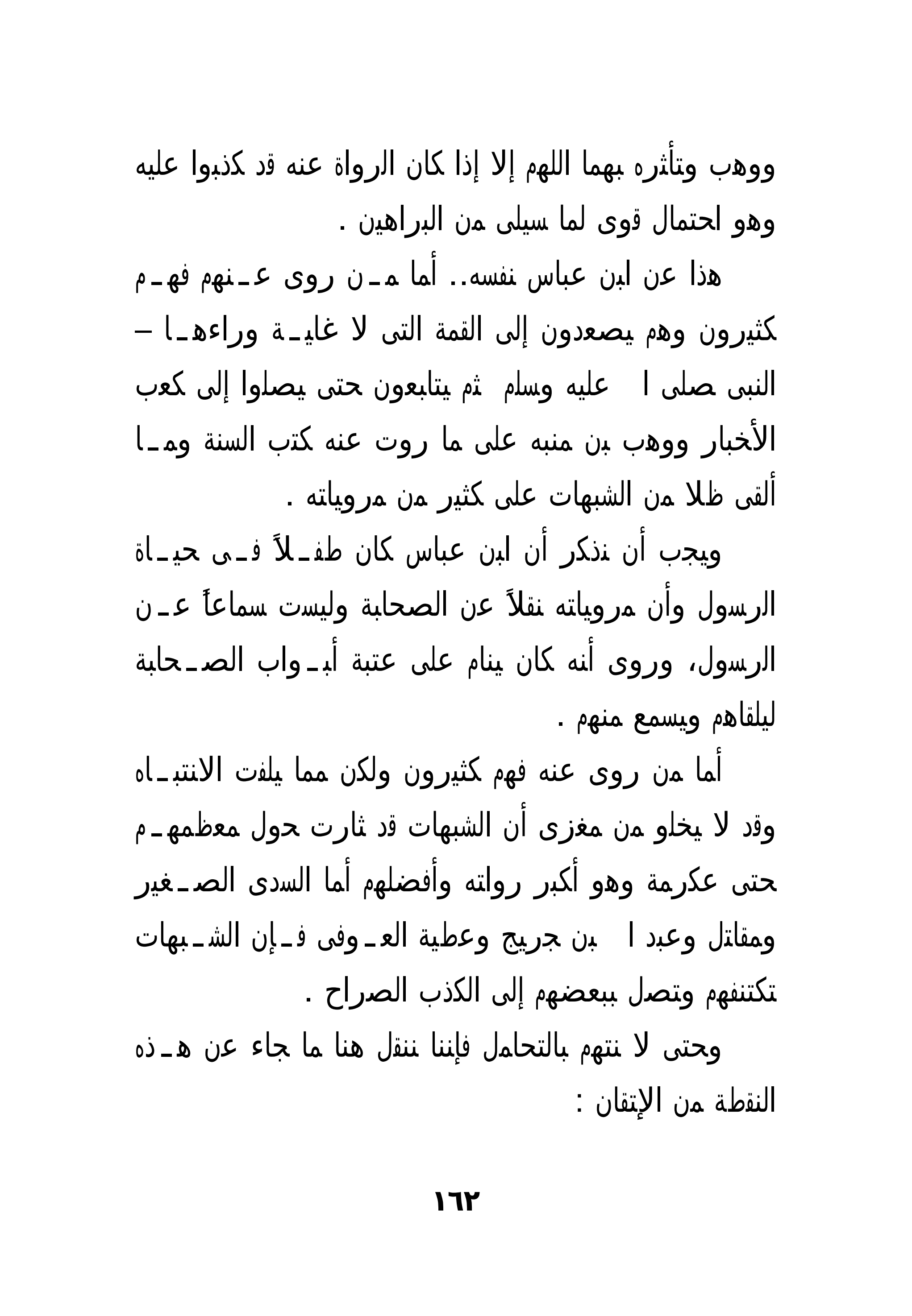
ولا ريب أن ابن عباس - هذا الفـرع الـوارف مـن الدوحة النبوية كان نابغة وقد رزق ذكاء وقادا وذاكرة لاقطة



وثقافة عربية ولغوية ضليعة وتذوقا فنيا. كما كان حريصـا على العلم وتلمسه من كافة مظانه، وأنه كأبى هريرة كانت له حسنة التفرغ والتخصص ويفضل أبا هريرة أنه بدأ من السن الباكرة التى يكون فيها الذهن متفتحا والذاكرة حافظة. وهـذه المزايا كلها جعلته "ترجمان القرآن" وأكسبته التقدير وأدخلته وهو فى ريعان الشباب بين شيوخ الصحابة وكبارهم، وقيـل إن الرسول قد دعا له، وشهد له عمر بن الخطاب، ولكن هذا كله لا ينفى أنه – كأبى هريرة – وقع فيما يقع فيه المكثرون والحريصون على تلمس المعرفة من كافـة مظانهـا. فـإن رغبتهم تلك – حتى عندما تكون خالصة لوجه ا والمعرفة يمكن أن تغرب بصاحبها وتذهب بـه إلـى مسـالك نائيـة وموحشة وقد كان هذا فى أصل "شواذ" ابـن عبـاس التـى لحظها أبو جعفر المنصور ووجه الإمام مالك لتوقيهـا فـى كتابه "الموطأ" كما كان ذلك فى أصل مروياته عـن كعـب الأخبار ونقله للكثير من الإسرائيليات التى لم ير فيها مخالفة لأصول الشريعة وفاته أن عدم المخالفة لا يستتبع ضـرورة الاتفاق أو يكفل الصحة وقد كان كعـب الأحبـار الداهيـة حريصا على التقرب إلى ابن عباس وكان ابن عباس شـديد

التقدير لبعض مسلمة يهود وحسبك أنه فسـر الآيـة "لكـن الراسخون فى العلم" أنهم عبد ا بن سلام وأصحابه، وروى أن ابن عباس كان يرجع إلى أبى الجعد غيلان بمـن يسـأله عن بعض هذه الإسرائيليات وأنه كان يتلقاها منه تلقيا حسنا. وأوجد ذلك صعيدا مشتركا ما بين ابن عباس وكعب الأحبار، على أن هذا لا يعنى أن ابن عباس كان يسلم بكل ما يدعيـه كعب فإن فطنة ابن عباس كانت تأبى هذا وثمة حالات كشف فيها ابن عباس ادعاءات كعب، بل لقد روى عنه النهى عـن سؤال أهل الكتاب فروى البخارى فى كتاب الاعتصام بـاب قول النبى لا تسألوا أهل الكتاب عن شىء أن ابن عباس قال "يا معشر المسلمين تسألون أهل الكتاب وكتابكم الذى أنـزل على نبيكم أحدث الأخبار با تقرأونه محضا ولم يشَـب[1] وقد حدثكم أن أهل الكتاب قد بدلوا من كتـب ا وغيـروا وكتبوا بأيديهم الكتب فقالوا ﴿هذَا مِن عِنْدِ اللهِ لِيشْتَروا بِهِ ثَمنًا قَلِيلاً﴾. ولا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم فـلا وا ما رأينا رجلا منهم يسألكم عن الذى أنـزل علـيكم" ومـن العسير أن يتفق هذا القول مع ما قيل عن أخذه عـن كعـب

(١) أى يُخْلَط بغيره .

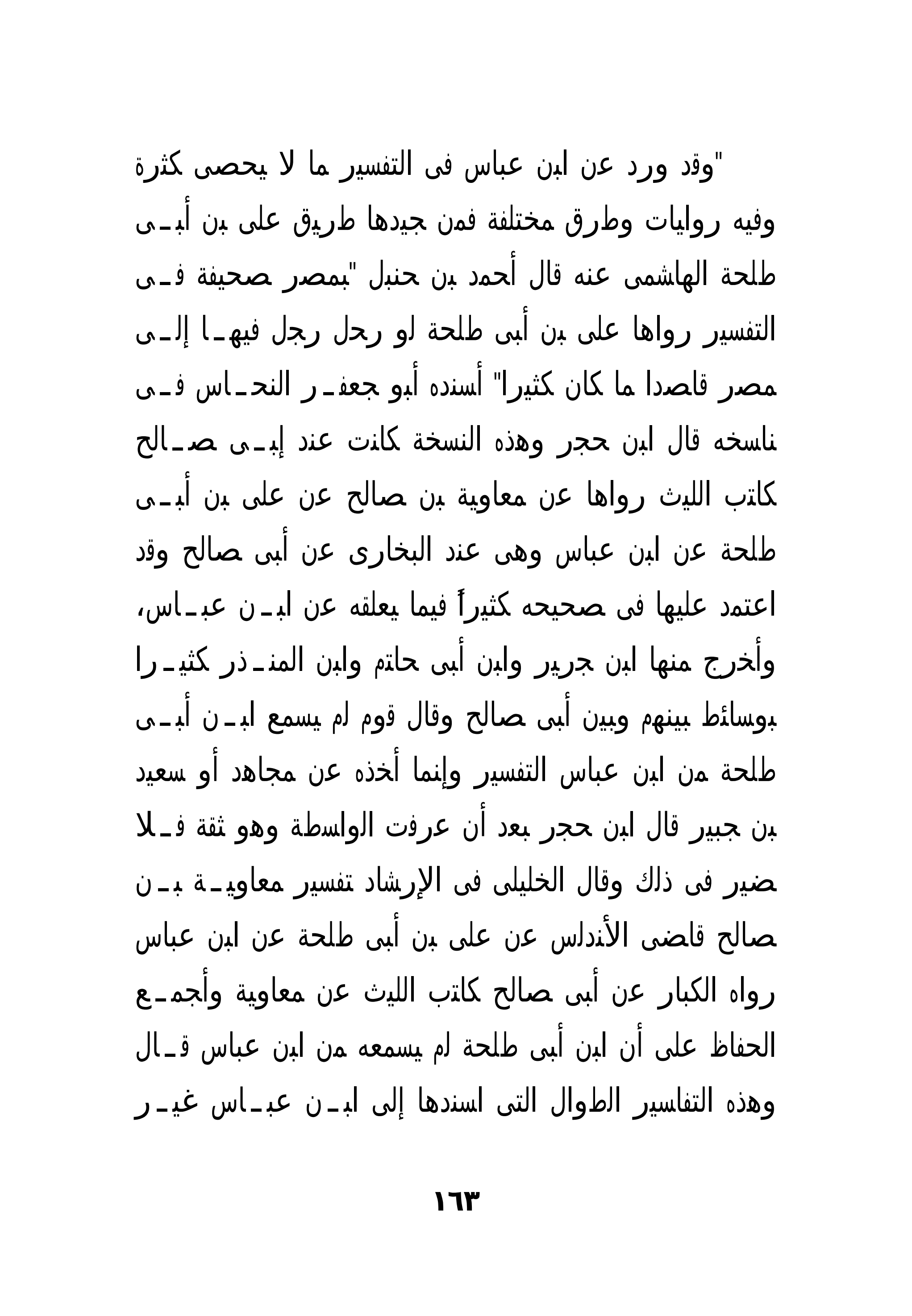

ووهب وتأثره بهما اللهم إلا إذا كان الرواة عنه قد كذبوا عليه وهو احتمال قوى لما سيلى من البراهين .

هذا عن ابن عباس نفسه.. أما مـن روى عـنهم فهـم كثيرون وهم يصعدون إلى القمة التى لا غايـة وراءهـا – النبى صلى ا عليه وسلم ثم يتابعون حتى يصلوا إلى كعب الأخبار ووهب بن منبه على ما روت عنه كتب السنة ومـا ألقى ظلا من الشبهات على كثير من مروياته .

ويجب أن نذكر أن ابن عباس كان طفـلاً فـى حيـاة الرسول وأن مروياته نقلاً عن الصحابة وليست سماعاً عـن الرسول، وروى أنه كان ينام على عتبة أبـواب الصـحابة ليلقاهم ويسمع منهم .

أما من روى عنه فهم كثيرون ولكن مما يلفت الانتبـاه وقد لا يخلو من مغزى أن الشبهات قد ثارت حول معظمهـم حتى عكرمة وهو أكبر رواته وأفضلهم أما السدى الصـغير ومقاتل وعبد ا بن جريج وعطية العـوفى فـإن الشـبهات تكتنفهم وتصل ببعضهم إلى الكذب الصراح .

وحتى لا نتهم بالتحامل فإننا ننقل هنا ما جاء عن هـذه النقطة من الإتقان :



"وقد ورد عن ابن عباس فى التفسير ما لا يحصى كثرة وفيه روايات وطرق مختلفة فمن جيدها طريق على بن أبـى طلحة الهاشمى عنه قال أحمد بن حنبل "بمصر صحيفة فـى التفسير رواها على بن أبى طلحة لو رحل رجل فيهـا إلـى مصر قاصدا ما كان كثيرا" أسنده أبو جعفـر النحـاس فـى ناسخه قال ابن حجر وهذه النسخة كانت عند إبـى صـالح كاتب الليث رواها عن معاوية بن صالح عن على بن أبـى طلحة عن ابن عباس وهى عند البخارى عن أبى صالح وقد اعتمد عليها فى صحيحه كثيراً فيما يعلقه عن ابـن عبـاس، وأخرج منها ابن جرير وابن أبى حاتم وابن المنـذر كثيـرا بوسائط بينهم وبين أبى صالح وقال قوم لم يسمع ابـن أبـى طلحة من ابن عباس التفسير وإنما أخذه عن مجاهد أو سعيد بن جبير قال ابن حجر بعد أن عرفت الواسطة وهو ثقة فـلا ضير فى ذلك وقال الخليلى فى الإرشاد تفسير معاويـة بـن صالح قاضى الأندلس عن على بن أبى طلحة عن ابن عباس رواه الكبار عن أبى صالح كاتب الليث عن معاوية وأجمـع الحفاظ على أن ابن أبى طلحة لم يسمعه من ابن عباس قـال وهذه التفاسير الطوال التى اسندها إلى ابـن عبـاس غيـر

مرضية ورواتها مجاهيل كتفسير جويبر عن الضحاك عـن ابن عباس وعن ابن جريج فى التفسير جماعـة رووا عنـه وأطولها ما يرويه بكر بن سهل الدمياطى عن عبد الغنى بن سعيد عن موسى بن محمد عن بن جريج وفيه نظر. وروى محمد بن ثور عن ابن جريج نحو ثلاثة أجزاء كبار وذلـك صححه وروى الحجاج بن محمد عن ابن جريج نحو جـزء وذلك صحيح متفق عليه وتفسير شبل بن عباد المكى عن أبى نجيح عن مجاهد عن ابن عباس قريب إلى الصحة وتفسـير عطاء بن دينار يكتب ويحتج به وتفسير أبى روق نحو جزء صححوه وتفسير إسماعيل السدى يورده بأسانيد إلـى ابـن مسعود وابن عباس. وروى عن السدى الأئمة مثل الثـورى وشعبه لكن التفسير الذى جمعه رواه أسـباط بـن نصـر، وأسباط لم يتفقوا عليه غير أن أمثل التفاسير تفسير السـدى فأما ابن جريج فإنه لم يقصد الصحة وإنما روى ما ذكره فى كل آية من الصحيح والسقيم وتفسير مقاتل بن سليمان فمقاتل فى نفسه ضعفوه وقد أدرك الكبار من التـابعين والشـافعى أشار إلى أن تفسيره صالح انتهى كلام الإرشـاد، وتفسـير السدى أشار إليه يورد منه جرير كثيرا من طريق السدى عن

أبى مالك عن أبى صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابـن مسعود وناس من الصحابة هكذا ولم يورد منه ابن أبى حاتم شيئاً لأنه التزم أن يخرج أصح ما ورد والحاكم يخرج منـه فى مستدركه أشياء ويصححه لكن من طريق مرة عن ابـن مسعود وناس فقط دون الطريق الأول وقد قال ابن كثيـر إن هذا الإسناد يروى به السدى أشياء فيها غرابة ومـن جيـد الطرق عن ابن عباس طريق قيس عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عنه وهذه الطـرق صـحيحة علـى شـرط الشيخين وكثيرا ما يخرج منها الفريابى والحاكم فى مستدركه ومن ذلك طريق ابن إسحاق عن محمد بن أبى محمد مـولى آل زيد بن ثابت عن عكرمة أو سعيد بن جبير عنـه هكـذا بالترديد وهى طريق جيدة وإسنادها حسن وقد أخرج منها ابن جرير وابن أبى حاتم كثيراً وفى معجم الطبرانى الكبير منها أشياء وأوهى طرقه طريق الكلبى عن ابن صالح عـن ابـن عباس فإن انضم إلى ذلك رواية محمد بن مـروان السـدى الصغير فهى سلسلة الكذب وكثيراً ما يخرج منهـا الثعلبـى والواحدى لكن ابن عدى فى الكامل للكلبى أحاديث صـالحة وخاصة عن أبى صالح وهو معروف بالتفسير وليس لأحـد

تفسير أطول منه ولا أشبع وبعده مقاتل بـن سـليمان إلا أن الكلبى يفضل عليه لما فى مقاتل من المذاهب الردية وطريق الضحاك بن مزاحم عن ابن عباس منقطعة فإن الضحاك لـم يلقه فإن انضم رواية بشر بن عمارة عن أبـى روق عنـه فضعيفة لضعف بشر وقد أخرج من هذه النسخة كثيرا ابـن جرير وابن أبى حاتم وإن كان مـن روايـة جـويبر عـن الضحاك فأشد ضعفا لأن جويبر شديد الضعف متروك ولـم يخرج ابن جرير ولا ابن أبى حاتم من هذا الطريق شيئاً إنما خرجها ابن مردويه وأبو الشيخ ابن حبان وطريـق العـوفى عن ابن عباس وأخرج منها ابن جرير وابن أبى حاتم كثيـرا والعوفى ضعيف ليس بواه وربما حسن له الترمذى، ورأيت فى فضائل الإمام الشافعى لأبى عبد ا بن أحمد بن شـاكر القطان أنه أخرج بسنده من طريق ابن عبد الحكم قال سمعت الشافعى يقول لم يثبت عن ابن عباس فى التفسير إلا شـبيه بمائة حديث"[١] .

وقال السيد رشيد رضا رحمه ا عـن تفسـير ابـن عباس ..

---

(١) الإتقان للسيوطى ص١٨٨-١٨٩ الجزء الثانى .

وأما ما روى عن ابن عباس فى تفسيره فأكثره موضوع لا يصح لأنه مروى من طريق الكذابين الوضاعين كـالكلبى والسدى ومقاتل بن سليمان. وذكر ذلك الحـافظ الســيوطى وسبقه إليه شيخ الإسلام بن تيميـة بـل إن روايـة هـؤلاء وأضرابهم التفسير عنه وعن غيره هى المقصودة من قـول الإمام أحمد رحمه الله تعالى "ثلاث كتب لا اصل لها المغازى والملاحم والتفسير" قالوا إنه أراد كتبا مخصوصة فـى هـذه المعانى الثلاثة غير معتمد عليها لعدم عدالة ناقليها ولزيـادة القصاص فيها وذكروا منها تفسير هؤلاء بل نقلوا عن الإمام أنه قال فى تفسير الكلبى "من أوله إلى آخره كـذب لا يحـل النظر فيه" وقالوا إن كل من ينقل فى تفسيره من الأحاديـث الموضوعة لا يوثق بتفسيره بالمأثور ومن هـؤلاء الثعلبـى والواحدى والزمخشرى والبيضاوى"[1] .

"وهذه الكتب التى يسميها كثير من الناس التفسير فيهـا كثير من التفسير منقولات عن السلف مكذوبة عليهم وقـول على الله ورسوله بالرأى بل بمجرد شبهة قياسـية أو شـبهة أدبية .

---

(١) السيد محمد رشيد رضا رحمه الله فى "الوحدة الإسلامية والأخوة الدينيـة" (نشرت فى المجلد الثالث والرابع والسادس من المنار) ص١١ .

وأما كونه ثابتا عن ابن عباس أو غيره فهذا مما لم يثبت ومعلوم أن فى كتب التفسير من النقل عن ابن عبـاس مـن الكذب شىء كثير من رواية الكلبى عن أبى صالح وغيـره فلابد من تصحيح النقل لتقوم الحجة"[1] .

وهذه الكلمات صريحة فى أن كثيرا من المنقولات عن السلف مكذوبة عليهم وقول على ا ورسوله بالرأى المجرد بشبهة قياسية أو شبهة أدبية ومن يطالع كتب التفسـير يجـد الكثير مما يصدق عليه إطلاق الآراء، أو الاجتهادات الركيكة أو الاستشهادات الباطلة بأبيات من الشعر ما انزل ا بها من سلطان .

ومن المحتمل أن يصور موقف ابن عباس والصـادقين من رواته إزاء هذه الإسرائيليات ما أورده مؤلف "الحـديث والمحدثون" إذ قال :

"وفى تفسير كبار الأئمة كثير من الإسرائيليات المنسوبة إلى كعب ووهب وغيرهما كما تراه فى تفسير ابـن جريـر وغيره ولا ينبغى أن يذم هؤلاء الأئمة بذكرها فى كتبهم لأنهم رووها على أنها إسرائيليات توزن بميزان الشرع. ولأنهم قد

---

(٢) تفسير سورة النور لابن تيمية حققه وخرج أحاديثه محمد إبـراهيم زايـد وعبد المعطى (دار الوعى – حلب) ص١٩٠-١٩١ .

ذكروا أسانيدها إلى قائليها تاركين تمييز صحيحها من باطلها لمن يأتى بعدهم كما فعل المحدثون عند تدوين الحديث ولأنهم بذكر الإسناد قد برئوا من عهدتها لأن أحوال الرجال كانـت معروفة لمعاصريهم على خلاف ما نحن عليه اليوم .

هذا وليس كل ما ينسب إلى كعب ووهب وأضـرابهما صحيحا فقد اختلق عليهم الوضاعون كثيرا ليروجوا بـاطلهم بنسبته إليهم وتناقل هذه الأخبار المكذوبة بعـض القصـاص والمؤرخين والأدباء وبعض القاصرين من المفسرين علـى أنها حقائق من غير أن يتثبتوا من صحة نسبتها إلـى مـن عزيت له وبدون أن يفطنوا إلى أنهم كانوا يرونها على أنهـا إسرائيليات بتقدير صحتها عنهم فضلوا وأضلوا والذنب ليس ذنب كعب ووهب ولكنه ذنب القصور والتقصير"[1] .

فهذه الفقرة تمثل أصدق تمثيل الملابسات التـى دفعـت بكبار الأئمة إلى إدراج الإسرائيليات بصدد تفسير القـرآن، كما تصور نفسية السلفيين إزاء ذلك والورع والحرج الـذى حملهم على الدفاع عن هذا المذهب وعدم المساس بـه. وأن الذنب ليس ذنب كعب ووهب ولكنه ذنب القصور والتقصير

---

(١) الحديث والمحدثون للشيخ محمد أبو زهو ص١٩١ .

رغم أن كعب ووهب هما اللذان زجا بهذه الأقاويل المـدعاة وكان لهما عن هذا مندوحـة فضـلاً عـن أن اختصـاص الوضاعين بهذين وما حاط بهما يثير الشبهات القويـة التـى تجعل حسن الظن بهما أقرب إلى الغفلة منه إلـى الفطنـة، والمؤمن كيس فطن وليس كما صـحفوا – وفعلـوا "كـيس قطن"..

وقد رفض مؤلف "الحديث والمحدثون" بقوة من زعم أن كعب ووهب من اليهود الذين تظاهروا بالإسلام ليكيدوا لـه وأن هذا انطلى على المحدثين وقال "وهذا الزعم بنوعيـه لا يصدر إلا عن جاهل قد ملأه الغرور أو مجنون لا يدرى ما يقول. ولو أنه كلف نفسه النظر فى أسانيد هذه الروايات التى تنسب إليهما ليتبين أصحيحة هى عنهما أم هى باطلـة، ثـم تأمل بعد ذلك إلى أنهما كان يرويانها على أنها إسرائيليات ما رمى الصحابة والتابعين ومن بعدهما من حذاق الناقدين بهذا البهتان المبين" وهذا العنف – أو القـذف – يوضـح مـدى حساسية المحدثين المعاصرين لما يوجه من نقد أو تمحـيص حتى عندما يراد منه الدفاع عن الإسلام والحفاظ على نقـاء الحديث .

وفى حياة ابن عباس حدث تاريخى وقـع عنـدما ولاه الإمام على بن أبى طالب ولاية البصرة، ولم يرسـل ابـن عباس "ميزانية" هذا المصر الهام فاستحثه الإمام على فتثاقل فدارت بينهما مراسلات مؤثرة انتهت بان استحوز ابن عباس على ما فى بيت المال وأخذه ثم ذهب إلى مكة فابتنى قصراً، واشترى جوارى الخ... إن هذا الحدث يلقى ظلالاً كثيفة على شخصية ابن عباس وعلى المرويات التى تكون قد صـدرت عنه فعلاً (وليست مكذوبة عليه) لأن لهذا الحدث، بل السقطة الجسيمة، دلالاتها السيئة، ولا ينجيه منه أى تأويل، ولا نرى ذكراً لهذا الحدث فى تراجم ابن عباس لدى المحـدثين، إمـا جهلاً منهم وإما تستراً، وإذا كانوا يرفضون المساس بكعـب ووهب، فما بالك بابن عباس والحق أحـق أن يتبـع، وهـو يقضى على الرجال كائنا ما كانوا

* * *

وقد ولع الإخباريون ورواة الآثار بثلاثة مجالات ملأوا بها التفسير بالمأثور.. هى أولا: الأخبار عـن آدم وحـواء والأنبياء، وبوجه خاص بنى إسرائيل والفتن والملاحم ويـوم القيامة والجنة والنار مما يمكن أن يطلق عليه الإسـرائيليات

لأن معظمه – إن لم يكن كله – هو من روايات أهل الكتاب.
ثانيا: تعيين المبهمات التى أبهمها القرآن عن عمـد بـالطبع وذكر من أريد بها.. ثالثا: أسباب النزول .

ولا يتسع المجال لإيراد، ولو نماذج من الإسـرائيليات لأن هذا يتطلب كتاباً مستقلاً، وقد لفتت الظاهرة ابن تيميـة وابن خلدون. ففند ابن تيمية الاستشهاد بحديث استشـفاع آدم بالنبى وقال أنه "إنما نقل عن مثل كعب ووهب وابن إسحاق ونحوهم ممن أخذوا ذلك عن مسلمة أهل الكتاب"

وشرح ابن خلدون فى مقدمته أسباب نقل المفسرين هذه الإسرائيليات فقال "والسبب هو أن العرب لم يكونـوا أهـل كتاب ولا علم، وإنما غلبت علـيهم البـداوة والأميـة، وإذا تشوقوا إلى معرفة شئ مما تتشوق إليه النفوس البشرية فـى أسباب المكونات وبدء الخليقة وأسرار الوجـود فإنما يسألون أهل الكتاب قبلهم، ويستفيدونه منهم، وهم أهل التـوراة مـن اليهود ومن تبع دينهم من النصارى، وأهل الكتاب الذين بين العرب يومئذ بادية مثلهم ولا يعرفون من ذلك إلا ما تعرفـه العامة من أهل الكتاب، ومعظمهم من حمير الذين أخذوا بدين اليهودية، فلما أسلموا بقوا على ما كان عندهم مما لا تعلق له

بالأحكام الشرعية التى يحتاطون لها – مثـل أخبـار بـدء الخليقة، وما يرجع إلى الحدثان، والملاحم، وأمثـال ذلـك، وهؤلاء مثل: كعب الأحبار ووهب بن منبه، وعبـد ا بـن سلام، وأمثالهم فامتلأت التفاسير من المنقولات عنهم، وفـى أمثال هذه الأغراض أخبار موقوفة عليهم وليست مما يرجع إلى الأحكام، فتتحرى فيها الصحة التى يجـب بهـا العمـل وتساهل المفسرون فى مثل ذلك، وملأوا كتب التفسير بهـذه المنقولات وأصلها، كما قلنا عن أهل التوراة الذين يسـكنون البادية، ولا تحقيق عندهم بمعرفة ما ينقلونه من ذلك، إلا أنه بعد صيتهم، وعظمت أقدارهم لما كانوا عليه من المقامات فى الدين والملة، فتلقيت بالقبول من يومئذ"[١] .

وفى كتب التفسير من الإسرائيليات "طامات وظلمات" لا يتسع المجال لذكر نماذج منها وقد يكفـى لإعطـاء الفكـرة المطلوبة أن نستشهد هنا ببعض ما جاء فى فهـرس كتـاب "الإسرائيليات والموضوعات فى كتـب التفسـير" للأسـتاذ الدكتور محمد بن محمد أبو شهبة .

(١) مقدمة ابن خلدون ص٤٠٤ طبعة كتاب الشعب .

"الإسرائيليات فى قصـة أصـحاب أهـل الكهـف – الإسرائيليات فى قصه ذى القرنيين – الإسرائيليات فى قصة يأجوج ومأجوج – الإسرائيليات فى قصة بلقيس ملكة سبأ - الإسرائيليات فى قصة الذبيح وأنه إسحاق ولـيس إسـماعيل عليه السلام – الإسرائيليات فى قصة إلياس عليه السـلام - الإسرائيليات فى قصة داود – الإسرائيليات فى قصة سليمان – الإسرائيليات فى قصة أيوب – الإسرائيليات فى قصة إرم ذات العماد – الإسرائيليات فيما يتعلق بعمر الدنيا وبدء الخلق الخ.. – ما يتعلق بعمر الدنيا – ما يتعلق بخلق الشمس – ما يتعلق بتعليل بعض الظواهر الكونية – ما ذكره المفسـرون فى الرعد والبرق – جبل ق المزعوم وحدوث الـزلازل – الإسرائيليات فى تفسير (ن والقلم) الخ ..." .

ومن باب الأهم قبل المهم، من هذا الركام المتعالى يكفى أن نشير إلى حديث "خلق ا   آدم على صورته" وحـديث أن المرأة خلقت من ضلع الرجل وأن الذبيح هو اسحق ولـيس إسماعيل مع أن أدنى صورة للتوحيد تستبعد خلقـه مخلـوق على مثال ا ، ولأن الآية ﴿يا أيها الناس اتقُوا ربكُـم الـذِي خلَقَكُم مِن نَفْسٍ واحِدةٍ وخلَقَ مِنْها زوجهـا﴾. تـرفض هـذا

التفسير التوراتى، لأن النفس تختلف عن الجسد أو البدن وما فيه من عظام.. ولأن آيات القرآن تذكر أن إسـماعيل هـو الابن البكر لإبراهيم الذى كان محل تجربة واختبار إبراهيـم وأن ا تعالى كافأه على ذلك بتبشيره أولا أسحـ ـاق ثـ ـم يعقـوب ﴿وبشرنَاه بِإسحاقَ نَبِيـا مِـن الصـالِحِين﴾. {١١٢ الصافات}.. ولكن قوة وأثر الإسرائيليات جعلت الزمخشرى يذهب إلى ما ذهب إليه الإسرائيليون لأنه روى خطاباً "مـن يعقوب إسرائيل ا ابن اسحق ذبيح ا بن إبـراهيم خليـل ا ".

* * *

والقرآن لا يلجأ إلـى الإبهـام إلا لحكمـة. ولـو أراد التصريح والإعلان لما أعجزه وكان يجب على المفسرين أن يدركوا هذا وأن يتفهموا هذه الحكمة ويقفوا عندها. وحكمـة القرآن أنه يريد بهذا الإضمار للمعانى التـى تتعلـق بهـذه المبهمات أن تكون عامة وأن يتعظ الناس بها جميعا دون أن تكون مخصوصة بصاحبها ولكـن المفسـرين سـامحهم ا افتاتوا على القرآن وغلبتهم الطلعة والفضول أو فاتهم المعنى المقصود واعتقدوا أنهم يحسنون صنعا بالتعيين. وألفوا فـى

ذلك الكتب ككتاب التعريف والأعلام فيما أبهم فى القرآن من الأسماء والأعلام – لعبد الرحمن بن على عبد ا السـهيلى الأندلسى وكتاب "الإقران فى مبهمات القرآن" ولـولا حسـن نيتهم وفضل ا ورحمته لدخلوا فيمن قال ا فـيهم ﴿قُـلْ أَتُعلمون الله بِدِينِكُم والله يعلَم ما فِي السـماواتِ ومـا فِـي الأرضِ والله بِكُل شَيءٍ علِيم﴾. {١٦ الحجرات} ..

ولم يفُتْ بعض المفسرين أن يذكر القرآن أن هذا الأمر من الأمور مما استأثر ا بعلمه. فقد قـال الزركشـى فـى البرهان "لا يبحث عن مبهم أخبر ا استئثاره بعلمه كقولـه ﴿وآخَرِين مِن دونِهِم لا تَعلَمونَهم الله يعلَمهم﴾. وقال "والعجب ممن تجرأ وقال إنهم قريظة أو من الجن" ولكـن السـيوطى عقب على ذلك فقال "ليس فى الآية ما يدل على أن جنسهم لا يعلم وإنما المنفى على أعيانهم ولا ينافيه العلم بكـونهم مـن قريظة أو من الجن وهو نظير قوله فى المنـافقين ﴿ومِمـن حولَكُم مِن الأعرابِ منَافِقُون ومِن أَهل الْمدِينَةِ مردوا علَـى النفَاقِ لا تَعلَمهم نَحن نَعلَمهم﴾. فإن المنفى علم أعيـانهم ثـم القول فى أولئك أنهم قريظة أخرجه ابن أبى حاتم عن مجاهد والقول بأنهم من الجن أخرجه ابن أبى حاتم من حديث عبـد

ا بن غريب عن أبيه مرفوعا عن النبى صـلى ا عليـه وسلم فلا جراءة"[1] .

فانظر كيف يحدث التحايل والمماحكة، والعجب كيف لم تثر ريبة السيوطى أن يروى شخص واحد (ابن أبى حـاتم) روايتين متعارضتين عن واقعة واحدة. الأمر الذى يصـور مدى هيمنة الإسناد على النفوس .

وقطع المفسرون أن آية ما تخص شخصا بعينه اعتمادا على بعض القواعد النحوية ثم تطرقـوا إلـى تعيـين هـذا الشخص، فالآية ﴿وسيجنبها الأَتْقَى. الذِي يؤْتِي مالَه يتَزكى﴾. قالوا إنها نزلت فى أبى بكر رضى ا عنه وأنهـا "تقصـر عليه قطعا" وقالوا "ووهم من ظن أن الآية عامة فى كل مـن عمل عمله إجراء له على القاعدة وهذا غلط فإن هذه الآيـة ليس فيها صيغة عموم إذ الألف واللام تفيد العموم إذا كانـت موصولة أو معرفة فى جمع زاد قوم أو مفرد بشـرط أن لا يكون هناك عهد واللام فى الأتقى ليست موصولة لأنهـا لا توصل بأفعل التفضيل إجماعا و"الأتقى" ليست جمعا بل هـو مفرد والعهد موجود خصوصا مع ما يفيده صيغة أفعل مـن

(١) الإتقان للسيوطى ص١٤٥ ج٢ .

التمييز وقطع المشاركة فبطل القول بالعموم وتعـين القطـع بالخصوص والقصر على من نزلت فيه رضى ا عنه" .

فهذا الكفاح المرير مع الحروف وقواعد النحو لقصـر المعنى على شخص بعينه دون أن يكون لديهم دليل قطعـى ويقينى أنه أبو بكر بصرف النظر عن مدى التوفيق والنجاح فيه يمكن أن يوقف دفع الآية واستحثاثها على العمـل مـن تدفعه العاقبة الجميلة والثواب الموعود. فضلاً عن أن سـياق السورة يأباه لأن الآيات السابقة تتحدث عن الأشقى بالصيغة نفسها التى تحدثت بها عن "الأتقى" فوجب أن يعين الأشـقى أيضاً كما عينوا الأتقى وقد اختلفوا فيه فقيل وقيل. وكان لهم عن هذا وذاك مندوحة لولا أنهم حكموا قواعد نحـوهم فـى القرآن والقرآن أعظم منها .

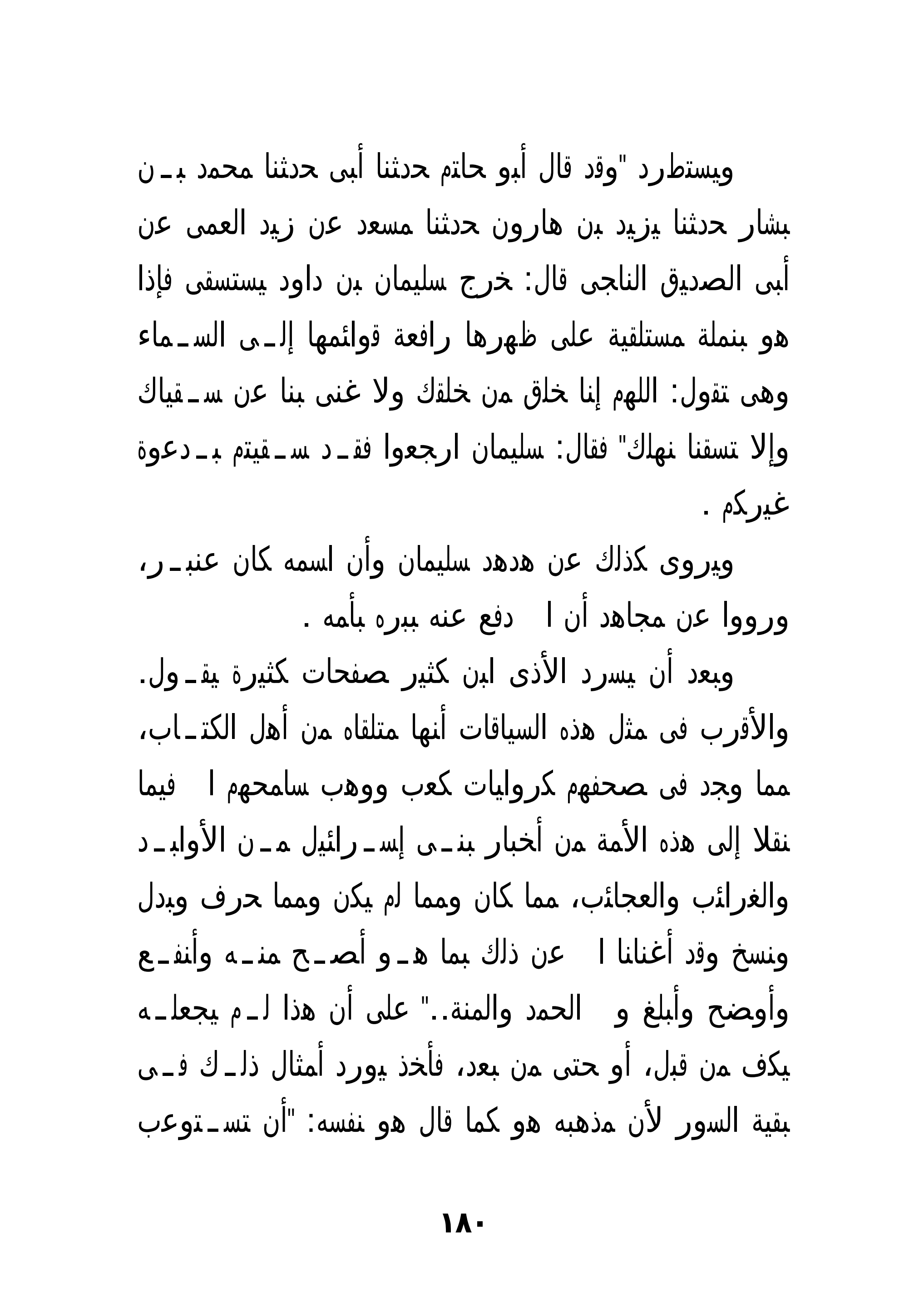
وبالطبع، فإن هذه ليست إلا أمثلة عارضـة وإلا فـإن علماء التفسير لم يدعوا مبهما فى القرآن إلا وعينـوه، بـل وحددوا اسمه. وقد خصص السيوطى ست صـفحات كبـار لإيضاح المبهمات .

ولم يقتصر الإبهام على الأشـخاص عنـدما لا يـذكر القرآن الاسم، فإن بعض المفسرين يرى أن مـن واجبـه أن

"يعرف" أى واقعة لم يعينها أو يحددها القرآن تحديداً تامـا، وهم لا يعدمون أقوالاً يستندون عليها فى أداء هذا الواجـب! هى فى الأغلب من مصادر إسرائيلية .

وقد يغربون مع وضوح اللفظ وانعـدام الحاجـة إلـى الأغراب. فيفسرون "ويل للمطففين" بأن ويل واد فى جهنم ثم يصفونه، وكذلك عند تفسير "أعوذ برب الفلق" الفلق واد فـى جهنم، كأنهم مولعون بأودية جهنم وقد يقطعون الكلمة إلـى كلمات نفى آية "عينا فيها تسمى سلسبيلاً" يقولون اخطأ مـن وصل هذه الكلمة "سلسبيلاً" وإنما هى "سل سبيلاً يا محمد".. وقالوا فى "كانوا يأكلون الطعام" كناية عن الغـائط، وكـذلك "وقالوا لجلودهم" أى لفروجهم

وقد يطنبون إلى مدى واضح الزيف والسخف إلى درجة يسلمون هم أنفسهم بها.. كما جاء فى ابن كثير عن سعيد عن قتادة عن الحسن (وهم من أعلام المحدثين ويفترض أن تقبل روايتهم) أن اسم النملة التى قالت ﴿يا أَيهـا النمـلُ ادخُلُـوا مساكِنَكُم لا يحطِمنكُم سلَيمان وجنُوده وهم لا يشْعرون﴾. هو "حرس" وأنها من قبيلة يقال لها: بنو الشيطان وأنهـا كانـت عرجاء! وكانت بقدر الذئب !! .



ويستطرد "وقد قال أبو حاتم حدثنا أبى حدثنا محمد بـن بشار حدثنا يزيد بن هارون حدثنا مسعد عن زيد العمى عن أبى الصديق الناجى قال: خرج سليمان بن داود يستسقى فإذا هو بنملة مستلقية على ظهرها رافعة قوائمها إلـى السـماء وهى تقول: اللهم إنا خلق من خلقك ولا غنى بنا عن سـقياك وإلا تسقنا نهلك" فقال: سليمان ارجعوا فقـد سـقيتم بـدعوة غيركم .

ويروى كذلك عن هدهد سليمان وأن اسمه كان عنبـر، ورووا عن مجاهد أن ا دفع عنه ببره بأمه .

وبعد أن يسرد الأذى ابن كثير صفحات كثيرة يقـول. والأقرب فى مثل هذه السياقات أنها متلقاه من أهل الكتـاب، مما وجد فى صحفهم كروايات كعب ووهب سامحهم ا فيما نقلا إلى هذه الأمة من أخبار بنـى إسـرائيل مـن الأوابـد والغرائب والعجائب، مما كان ومما لم يكن ومما حرف وبدل ونسخ وقد أغنانا ا عن ذلك بما هـو أصـح منـه وأنفـع وأوضح وأبلغ و الحمد والمنة.." على أن هذا لـم يجعلـه يكف من قبل، أو حتى من بعد، فأخذ يورد أمثال ذلـك فـى بقية السور لأن مذهبه هو كما قال هو نفسه: "أن تسـتوعب

الأقوال فى ذلك المقام. وأن ننبه على الصحيح منها ونبطـل الباطل وتذكر فائدة الخلاف وثمرتـه". وتحـدث مفسـرون آخرون عن الدابة التى جاء ذكرها فى الآية ﴿وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم أن الناس كـانوا بآياتنا لا يوقنون﴾. فيقولون أن رأسها رأس الثـور وعينهـا عين الخنزير وأذنها فيل وقرناها قرن أيل وصدرها صـدر أسد ولونها لون نمر وخاصرتها خاصرة هرة الخ ...

وهذه الفقرات تصور المناخ الذى سيطر على المفسرين وجعلهم يوردون هذه الخرافات فى حين أن ذلـك يمكـن أن يغرس الشك فى صحة ما يرويه هؤلاء الرواة وبعضهم مـن كبار وثقاة الرواة – خاصة، وأن ما أوردناه ليس إلا مثـالاً عارضاً، وإلا فإن معظم كتب التفسير حافلـة بأمثـال هـذه المنكرات.. حتى كاد هذا المسلك يكون تقليدا. وقـد تحـدث الأستاذ الشيخ متولى الشعراوى عن "الفرس" التى كان يركبها فرعون وتقحمت به البحر حديثا يعيد إلى الذهن ما أورده ابن كثير عن نملة سليمان[1].

---

(١) جاء فى التفسير الذى تنشره مجلة لواء الإسلام للشيخ الشعراوى "وأوحى ا لموسى أن يضرب العصا على الفرق العظيم فانشقت فى كل فرقة كـوة يمكن لكل جماعة أن ترى الأخرى منها ويقال إن فرعون كـان قـد ركـب

* * *

أما المجال الثالث فهو أسباب النزول.. وقد كتب عنـه كثيرون من أشهر هذه الكتابات كتاب (لباب النقول فى أسباب النزول) للسيوطى الذى جمع فيه أفضل ما وجده فـى كتـب أسباب النزول فضلاً عن اجتهاده الخاص. ومـع هـذا فقـد تضمن الأمثلة الآتية .

﴿وإن امرأة خافت من بعلها نشوزا أو إعراضا فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحا والصلح خيـر وأحضـرت الأنفس الشح وإن تحسنوا وتتقوا فإن الله كان بمـا تعملـون خبيرا﴾. {١٢٨ النساء} ..

روى أبو داود والحاكم عن عائشة قالت فرقت سوده أن يفارقها رسول ا حين أسنت فقالت يومى لعائشـة فنزلـت الآية .

وروى الترمذى مثله عن ابن عباس .

"فرسة" أتاها الشبق وهى تمخر فى البحر. كانت الفرس قـد ملأهـا الهيـاج الخ... ص١٣ مجلة اللواء الإسلامى – ٦ ربيع ثان ١٤٠٣هـ - ٢٠ ينـاير ١٩٨٣ م .

ونقول إن هذا سبب لا يمكن أن ينسب إلى النبى صـلى ا عليه وسلم ولا إلى أم المؤمنين سـوده وصـياغة الآيـة تستبعد أن يقصد بها الرسول وأم المؤمنين .

﴿ولَقَد عِلمنَا الْمستَقْدِمِين مِنْكُم ولَقَد عِلمنَا الْمستأْخِرِين﴾. {٢٤ الحجر} ..

روى الترمذى والنسائى والحاكم وغيـرهم عـن ابـن عباس قال كانت امرأة تصلى خلف رسول ا صلى ا عليه وسلم حسناء من أحسن الناس – فكان بعض القوم يتقدم حتى يكون فى الصف الأول لئلا يراها ويستأخر بعضـهم حتـى يكون فى الصف المؤخر فإذا ركع نظر من تحـت أبطيـة فأنزل ا ولقد علمنا المستقدمين الآية .

وأخرج ابن مردويه عن داوود بن صالح أنه سأل سهل بن حنيف الأنصارى "ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين" أنزلت فى سبيل ا قال لا، ولكنها فى صفوف الصلاة .

ونقول أن ذلك يخالف الوقائع. ويناقض السياق وقد فسر السيوطى نفسه فى تفسير الجلالين الشق الأول من الآية "أى

من تقدم من الخلق من لدن آدم" والشق الثانى "المتأخرين إلى يوم القيامة" ..

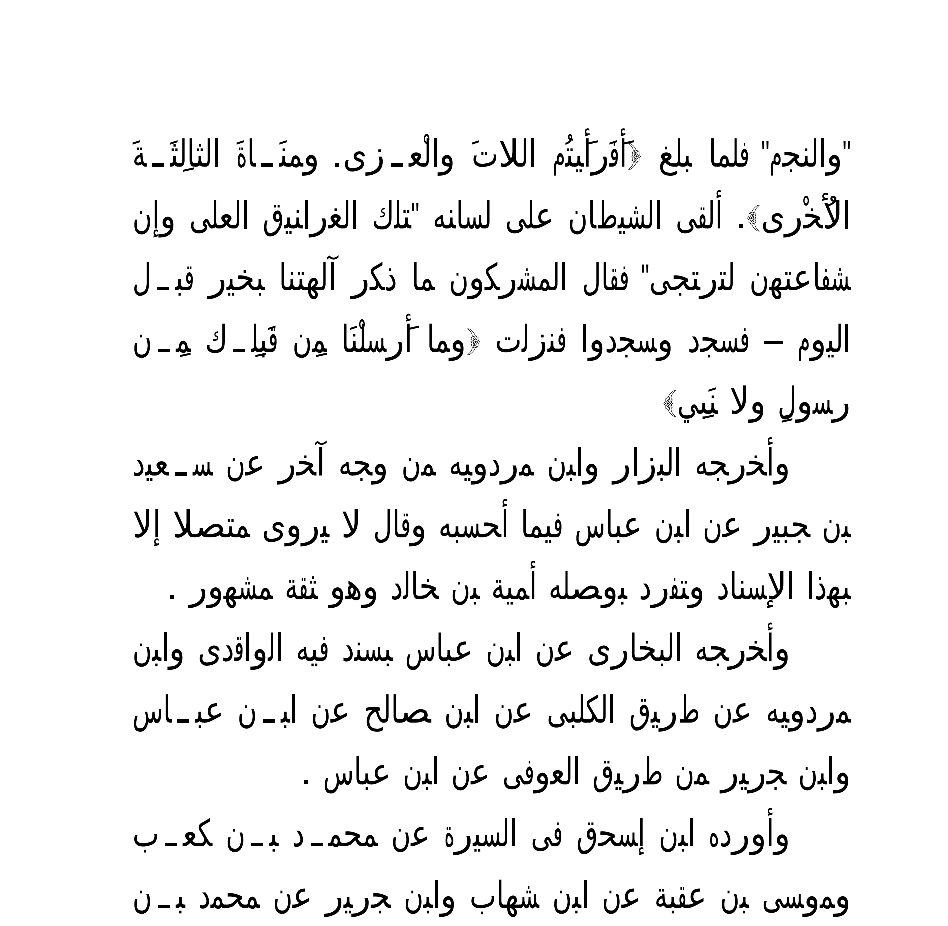
﴿ولا تَكُونُوا كَالتِي نَقَضتْ غَزلَها مِن بعدِ قُـوةٍ أَنكَاثًـا تَتخِذُون أَيمانَكُم دخَلاً بينَكُم أَن تَكُون أُمةٌ هِي أَربى مِن أُمـةٍ إِنما يبلُوكُم الله بِهِ ولَيبيننَ لَكُم يوم الْقِيامـةِ مـا كُنْـتُم فِيـهِ تَخْتَلِفُون﴾. {٩٢ النحل} ..

أخرج ابن أبى حاتم عن أبى بكر بن أبى حفـص قـال كانت سيدة الأسدية مجنونة تجمع الشعر والليف فنـزلت ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها!! ..

﴿ولَبِثُوا فِي كَهفِهم ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِين وازدادوا تِسعا﴾. {٢٥ الكهف}.. أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قالـت أنزلـت "ولبثوا فى كهفهم ثلاث مائة" فقالوا يا رسـول ا سـنين أو شهوراً فانزل ا "سنين وازدادوا تسعا" .

﴿وما أَرسلْنَا مِن قَبلِك مِن رسولٍ ولا نَبِي إِلا إِذَا تَمنـى أَلْقَى الشيطَان فِي أُمنِيتِهِ فَينْسخُ الله ما يلْقِي الشيطَان ثُم يحكِم الله آياتِهِ والله علِيم حكِيم﴾. {٥٢ الحج} ..

أخرج ابن أبى حاتم وابن المنذر من طريق بسند صحيح عن سعيد ابن جبير قال: قرأ النبى صلى ا عليه وسلم بمكة



"والنجم" فلما بلغ ﴿أَفَرَأَيتُم اللاتَ والْعـزى. ومنَـاةَ الثالِثَـةَ الْأُخْرى﴾. ألقى الشيطان على لسانه "تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى" فقال المشركون ما ذكر آلهتنا بخير قبـل اليوم – فسجد وسجدوا فنزلت ﴿وما أَرسلْنَا مِن قَبلِـك مِـن رسولٍ ولا نَبِي﴾

وأخرجه البزار وابن مردويه من وجه آخر عن سـعيد بن جبير عن ابن عباس فيما أحسبه وقال لا يروى متصلا إلا بهذا الإسناد وتفرد بوصله أمية بن خالد وهو ثقة مشهور .

وأخرجه البخارى عن ابن عباس بسند فيه الواقدى وابن مردويه عن طريق الكلبى عن ابن صالح عن ابـن عبـاس وابن جرير من طريق العوفى عن ابن عباس .

وأورده ابن إسحق فى السيرة عن محمـد بـن كعـب وموسى بن عقبة عن ابن شهاب وابن جرير عن محمد بـن قيس وابن أبى حاتم عن السدى كلهم بمعنى واحد .

وكلها إما ضعيفة أو منقطعة سوى طريق سعيد بن جبير الأولى .

قال الحافظ بن حجر ولكن كثرة الطرق تدل علـى أن للقصة أصلا، على أن لهـا طـريقين صـحيحين مرسـلين

أخرجهما ابن جرير أحدهما من طريق الزهرى عن أبى بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام والآخر عـن طريـق داود عن هند عن أبى العالية ولا عبرة بقول ابـن العربـى وعياض إن هذه الروايات باطلة ولا أصل لها .

ونقول إن هذا الكلام يوضح لنا مـرة أخـرى هيمنـة الإسناد، فمع أن بعض الروايـات اعتبـرت باطلـة، إلا أن الطرق الأخرى التى ظاهرها رواة أخرون أقوى (رغم أنهما كانا مرسلين) كانا سببا لاستبعاد كل ما وجه لها من نقد، مع أن الأمر يتعلق بشخص النبى وأدائه للرسالة، وليس هناك ما هو أخطر من هذا وأدعى لدفع مثل هـذه المفتريـات، وإذا كانت الحدود تدرأ بالشبهات، أفما كان واجبا أن تستبعد هـذه الشبهات المتكاثفة ما جاءت به الرواية من ادعاءات بعيدة فى حد ذاتها عن الحقيقة. وقد علـق مصـحح لبـاب المنقـول "المطبوع على هامش تفسير الجلالين بمطبعة البابى الحلبـى سنة ١٣٤٢ هـ" .

"العقيدة تعتمد اليقين أو ما يقاربه فى السند لأنها يقـين فى موضعها وإذن الحق مع عياض وابن العربى وغيـرهم

من المحققين، بل العقل فى هذا الموضوع ينفر كل النفور من صحة هذه الرواية" .

﴿وما كان لكم أن تؤذوا رسـول الـله ولا أن تنكحـوا أزواجه من بعده أبدا﴾. {٥٣ الأحزاب} ..

عن السدى قال بلغنا أن طلحه بن عبيد ا قال أيحجبنا محمد عن بنات عمنا ويتزوج نساءنا لئن حدث بـه حـدث لنتزوجن نساءه من بعده فأنزلت الآية .

وأخرج ابن سعد عن أبى بكر بن محمد بن عمرو بـن حزم نزلت فى طلحه بن عبيد ا لأنه قال إذا توفى رسـول ا تزوجت عائشة .

وهذا كلام لا يقبل وطلحه بن عبيد من السـابقين إلـى الإيمان، ومن العشرة المشهود لهم بالجنة، ومعاذ ا أن يقول ما افتراه عليه الرواه، وما لا يقوله إلا عربى جاف مشـرك، كما جاء فى بعض الروايات الأخرى .

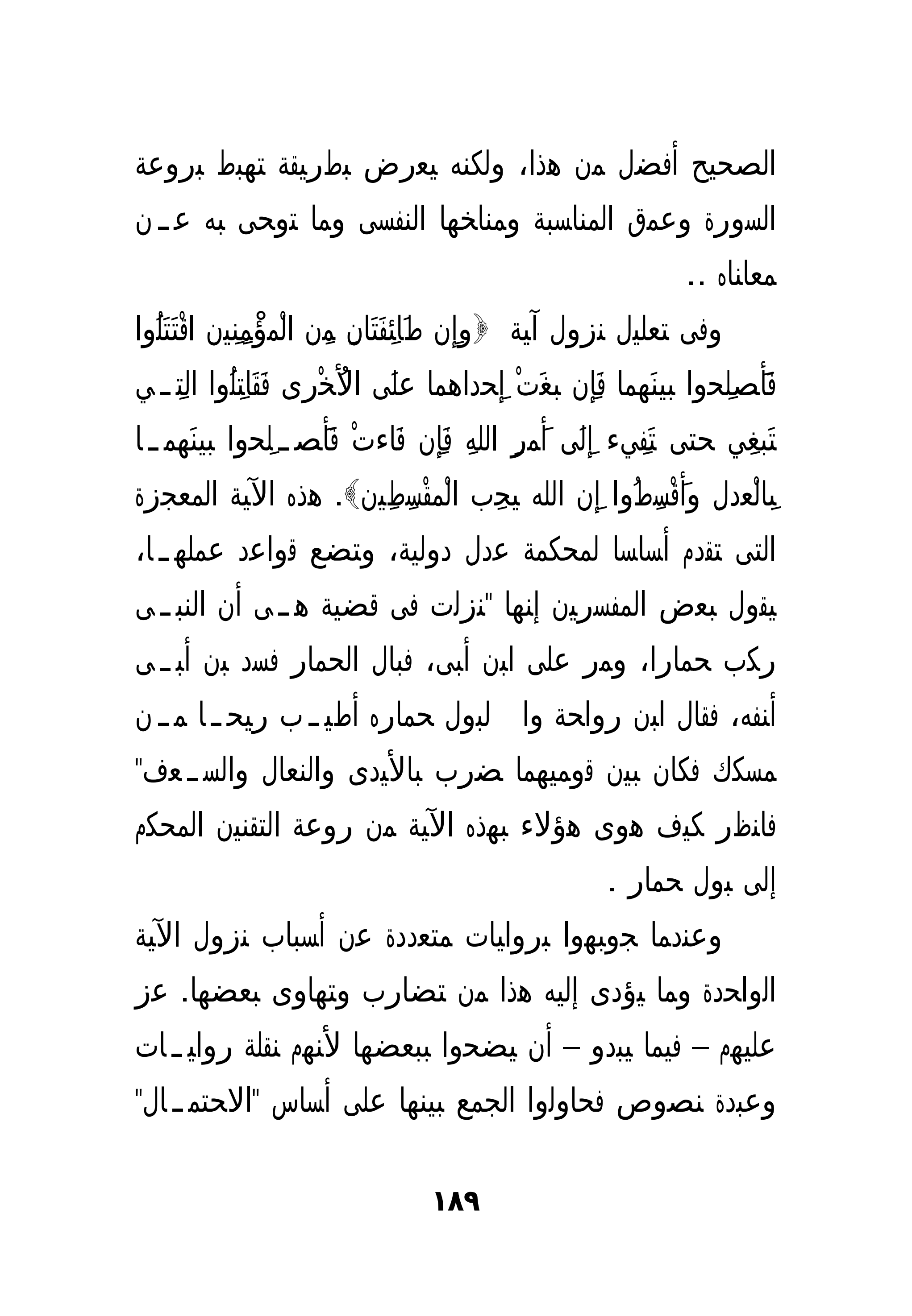
﴿والذي قال لوالديه أف لكما أتعدانني أن أخـرج وقـد خلت القرون من قبلي وهما يستغيثان الله ويلك آمن إن وعد الله حق فيقول ما هذا إلا أساطير الأولين﴾. {١٧ الأحقاف} .

أخرج ابن أبى حاتم عن السدى أنها نزلت فى عبد الرحمن ابن أبى بكر قال لأبويه وكانا قد اسلما وأبى هو أن يسلم فكانا يأمرانه بالإسلام فيرد عليهما ويكذبهما ويقول فأين فلان وفلان يعنى مشايخ قريش ممن قد مات، ثم أسلم بعد فحسن إسلامه فنزلت توبته فى هذه الآية ﴿لِيوفيهم أُجورهم ويزيدهم مِن فَضلِهِ إِنه غَفُور شَكُور﴾ .

وأخرج ابن جرير عن طريق العوفى عن ابن عباس مثله .

ونقول إن وقائع التاريخ وسياق الآية يكذبان هذا الزعم، وقد كذبت عائشة هذه الدعوى وقال الحافظ بن حجر ونفى عائشة أصح إسناداً وأولى بالقبول .

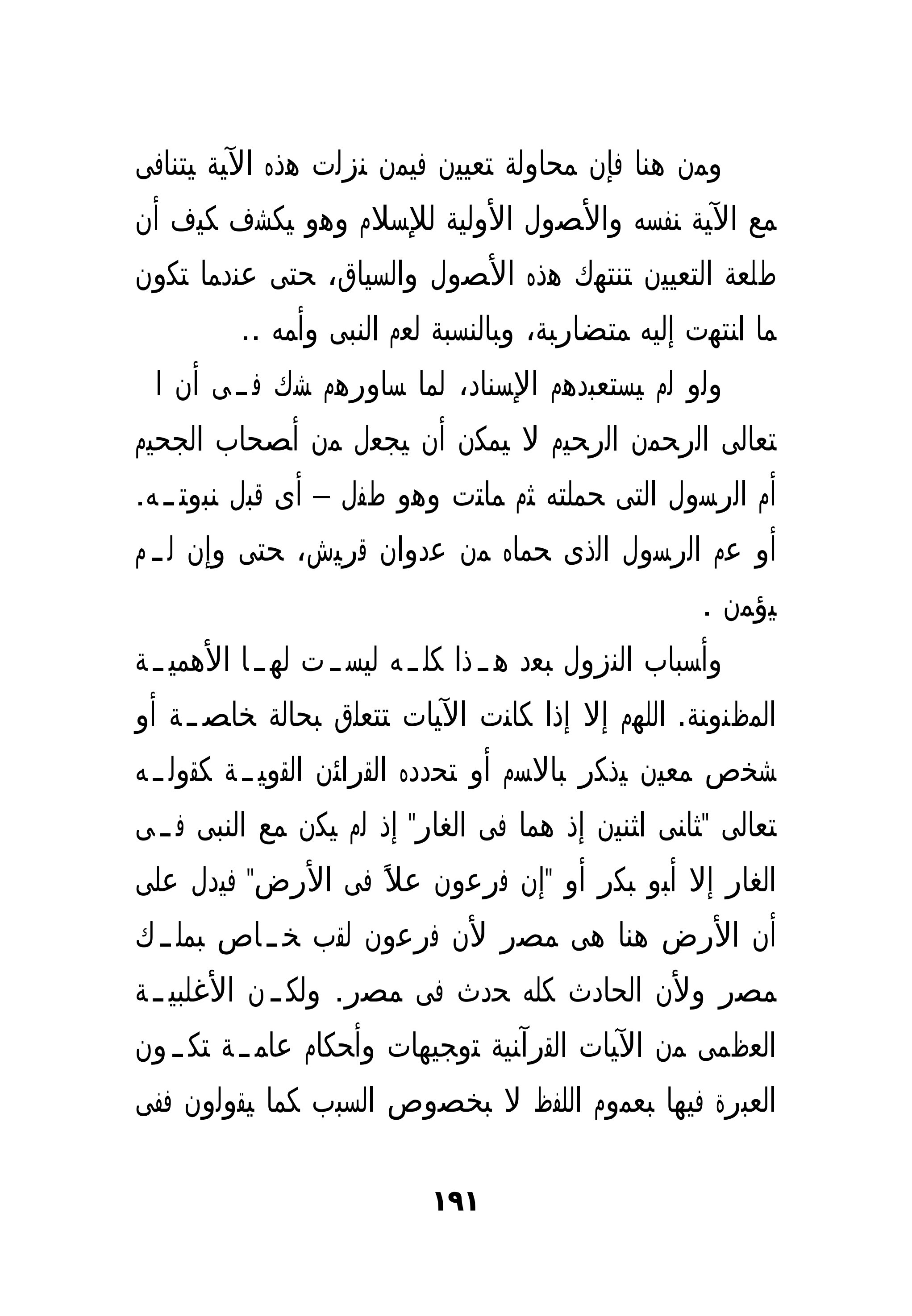
وعمد هؤلاء إلى سورة من أجمل سور القرآن وأشدها تأثيرا وتعبيرا عن إحدى الفترات النفسية التى تعتور الأنبياء والمفكرين وأضفى ا تعالى على نبيه فيها من كرمه ورعايته ما يعيد إليه الأمل هى سورة الضحى.. فجعلوا سببها وجود جرو تحت سرير النبى: قال الحافظ ابن حجر "قصة إبطاء جبريل بسبب الجرو مشهورة لكن كونها سبب نزول الآية غريب، بل شاذ مردود بما فى الصحيح" وما فى


الصحيح أفضل من هذا، ولكنه يعرض بطريقة تهبط بروعة السورة وعمق المناسبة ومناخها النفسى وما توحى به عـن معاناه ..

وفى تعليل نزول آية ﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين﴾. هذه الآية المعجزة التى تقدم أساسا لمحكمة عدل دولية، وتضع قواعد عملها، يقول بعض المفسرين إنها "نزلت فى قضية هى أن النبى ركب حمارا، ومر على ابن أبى، فبال الحمار فسد بن أبى أنفه، فقال ابن رواحة وا لبول حماره أطيب ريحا من مسكك فكان بين قوميهما ضرب بالأيدى والنعال والسعف" فانظر كيف هوى هؤلاء بهذه الآية من روعة التقنين المحكم إلى بول حمار .

وعندما جوبهوا بروايات متعددة عن أسباب نزول الآية الواحدة وما يؤدى إليه هذا من تضارب وتهاوى بعضها. عز عليهم – فيما يبدو – أن يضحوا ببعضها لأنهم نقلة روايات وعبدة نصوص فحاولوا الجمع بينها على أساس "الاحتمال"

وباب الاحتمال يمكن أن يحمل كل شىء. فعنـدما تعـددت الروايات عن أسباب نزول الآية ﴿ما كان لِلنبِي والذِين آمنُوا أَن يستَغْفِروا لِلْمشْرِكِين ولَو كانُوا أُولِي قُربى مِن بعدِ ما تَبين لَهم أَنهم أَصحاب الْجحِيمِ﴾. فقيل إنها نزلت فى أبى طالب عم النبى وحامى الدعوة الأول وقيل إنها نزلت فى أمـه (أى أم الرسول). وقيل إنها نزلت فى رجل استغفر لأبويه المشركين – قال الحافظ ابن حجر "يحتمل أن يكون لنزول الآية سـبب متقدم وهو أمر أبى طالب ومتأخر وهو أمر آمنـة وقصـة على" مع أن نص الآية لا يتفق مع هذه الروايات لأنها أسست عدم الاستغفار على ظرف معين هو "من بعد ما تبـين لهـم أنهم أصحاب الجحيم" وهذا لا يمكن القطع بأنه ينطبق علـى عم الرسول. أو أمه. أو الأبوين المشركين فى الرواية الثالثة. ولو فرضنا أن النبى صلى ا عليه وسلم أنبىء عن مصـير عمه أو أمه – فإن الآية لا تقتصر على النبى ولكنها تضـم الذين آمنوا وهم لا يعلمون من هم أصحاب النار ومـن هـم أصحاب الجنة على وجه اليقين – وبالنسبة لأفـراد بعيـنهم حتى يستغفروا لهم .


ومن هنا فإن محاولة تعيين فيمن نزلت هذه الآية يتنافى مع الآية نفسه والأصول الأولية للإسلام وهو يكشف كيف أن طلعة التعيين تنتهك هذه الأصول والسياق، حتى عندما تكون ما انتهت إليه متضاربة، وبالنسبة لعم النبى وأمه ..

ولو لم يستعبدهم الإسناد، لما ساورهم شك فـى أن ا تعالى الرحمن الرحيم لا يمكن أن يجعل من أصحاب الجحيم أم الرسول التى حملته ثم ماتت وهو طفل – أى قبل نبوتـه. أو عم الرسول الذى حماه من عدوان قريش، حتى وإن لـم يؤمن .

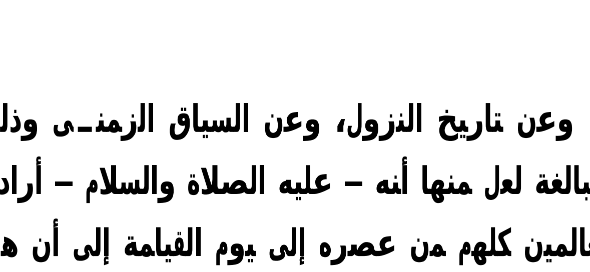
وأسباب النزول بعد هـذا كلـه ليسـت لهـا الأهميـة المظنونة. اللهم إلا إذا كانت الآيات تتعلق بحالة خاصـة أو شخص معين يذكر بالاسم أو تحدده القرائن القويـة كقولـه تعالى "ثانى اثنين إذ هما فى الغار" إذ لم يكن مع النبى فـى الغار إلا أبو بكر أو "إن فرعون علاً فى الأرض" فيدل على أن الأرض هنا هى مصر لأن فرعون لقب خـاص بملـك مصر ولأن الحادث كله حدث فى مصر. ولكـن الأغلبيـة العظمى من الآيات القرآنية توجيهات وأحكام عامـة تكـون العبرة فيها بعموم اللفظ لا بخصوص السبب كما يقولون ففى

هذه الحالة لا يكون لأسباب النزول أهمية إلا إشباع الفضول. بل يمكن أن يؤدى ذكر سبب النزول إلى جعل الحكم العـام محل المساءلة وتحميل عموم اللفظ بخصوص السبب وهـو أمر غير مطلوب فإن القرآن الكريم لم يضع أحكام الظهـار واللعان والقذف والسرقة والزنا الخ... كأحكام لحالات فردية ولكنه وضعها كأحكام عامة ووضع القرآن نفسـه أو تولـت السنة النبوية تعيين الحدود والتفاصيل دون أن تشـير إلـى الحالة التى قيل إن الآيات نزلت فيها .

وظل تأثير "أسباب النزول" قوياً حتى لدى عدد كبير من خيرة الكتاب الإسلاميين وممن لا ينقصـهم التجديـد فقـال بعضهم "إن أسباب النزول من الأحكام هى بمثابـة المـذكرة التفسيرية التى تلحق بالقوانين ويعاد إليهـا لفهـم ملابسـات صدور القانون". والأمر هنا يختلف تماماً وقياس غير دقيـق ومعاملة للقرآن كما لو كان أحد المراجع القانونية العاديـة. وقد فات هؤلاء نقطة هامة أشار إليها الـدكتور طـه جـابر العلوانى[1]. **هى أن الرسول قام قبل وفاته توقيفـا بإعـادة ترتيب آيات الكتاب الكريم وسوره، فقطعه بذلك عن أسباب**

---

(١) بحث الاجتهاد وهاجس التأصيل وتحدى التحرير "مجلة رؤى الحضـارية بباريس" ص١٠ السنة الرابعة العدد ١٧ – ٢٠٠٣ .



النزول، وعن تاريخ النزول، وعن السياق الزمنـى وذلـك لحكمة بالغة لعل منها أنه – عليه الصلاة والسلام – أراد أن ينبه العالمين كلهم من عصره إلى يوم القيامة إلى أن هـذا الكتاب الكريم كتاب مطلق عام وشامل لكل البشرية ولكل ما تحتاجه البشرية، وهو قادر بإطلاقيته هذه علـى اسـتيعاب وتجاوز كل ما يأتى ويستجد من القضايا بعد عصر النبـوة التى ختمت بكريم عطائه المتجـدد وبقـدرات الاسـتيعاب المودعة فيه" .

فأسباب النزول، بناء على قيام الرسول بإعادة ترتيـب آيات الكتاب توقيفاً فقدت الأهمية المظنونة، **وكذلك ما يظـن بعض الكتاب المحدثين من أن إعادة ترتيـب السـور تبعـا لوقت نزولها يلقى الضوء على ملابسات النزول** ويعين فـى فهمها فهذا كله قياس للقرآن على الكتب العادية. والقرآن ليس كتاباً عادياً. ومجرد معاملته ككتاب ككل الكتب يجعل الأحكام عن ذلك باطلة. وهذا هو الـنقص الرئيسـى فـى كتابـات المستشرقين لأن ألف باء القرآن أنه كتاب ا . وكل مـن لا يؤمن بذلك فلا يوثق بما ينتهى إليه لأن المقدمة بنيت باطلـة وما بنى على الباطل باطل ...

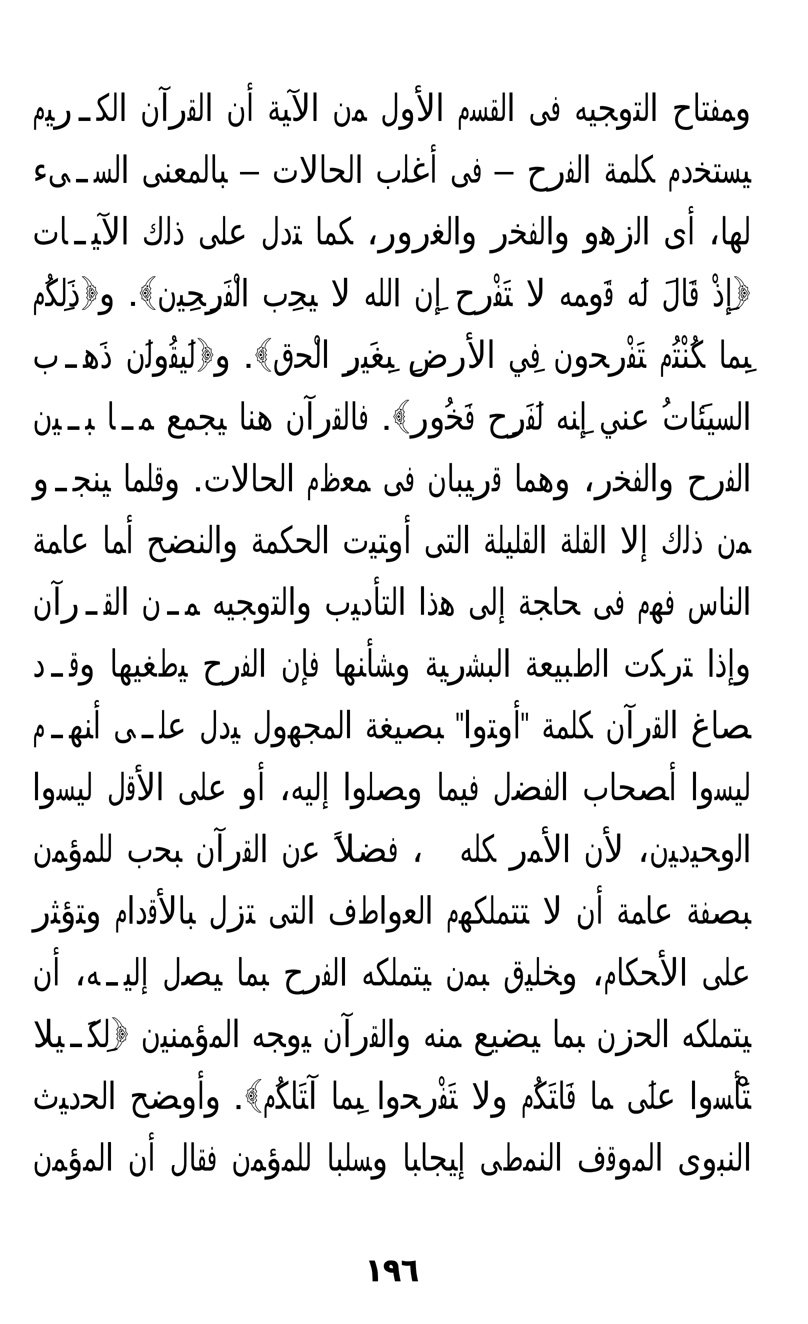
وقد ادعو أن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب وهـذا تلاعب بالألفاظ. ونحن نؤمن أن ا تعالى لا يصدر أحكامـاً إلا لعلة أو سبب أو حكم له من السـلامة الموضـوعية مـا يجعله أصلاً لإصدار هذا الحكم ويكون علينا تعـرف هـذه الحكمة (أو السبب) وقـد تسـتبعد التطـورات الاقتصـادية والاجتماعية الحكمة التى أنزلت من أجلها الأحكام وعندئـذ فإن الحكم ينتفى تلقائيا لأن الحكم يسير مـع العلـة وجـوداً وعدما. وهذا هو ما ينطبق على أحكام الرق والغنائم والجزية وغيرها من الأوضاع الاجتماعية أو الاقتصادية التى جاوزها التطور وليس هناك غضاضة مطلقا فى القول إن العلـة قـد انتفت من هذا الحكم، فانتفى وجوبـه لأن ا تعـالى جعـل الأحكام حلاً لعلل معينة فإذا جاوزها التطور انتفت الأحكـام بالتبعية وقد أمرنا القرآن الكريم بأن نتـدبر الآيـات وأن لا نقف أمامها صماً عمياناً. وهذا هو ما فعله عمر بن الخطاب فى اجتهاداته المشهورة .

أما قولهم إن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب فحسبك فى فساده المثل الذى ضربوه هم أنفسهم ظناً منهم أنه يؤيدهم فقد قالوا أشكل على مروان بن الحكم معنى قوله تعـالى ﴿لا

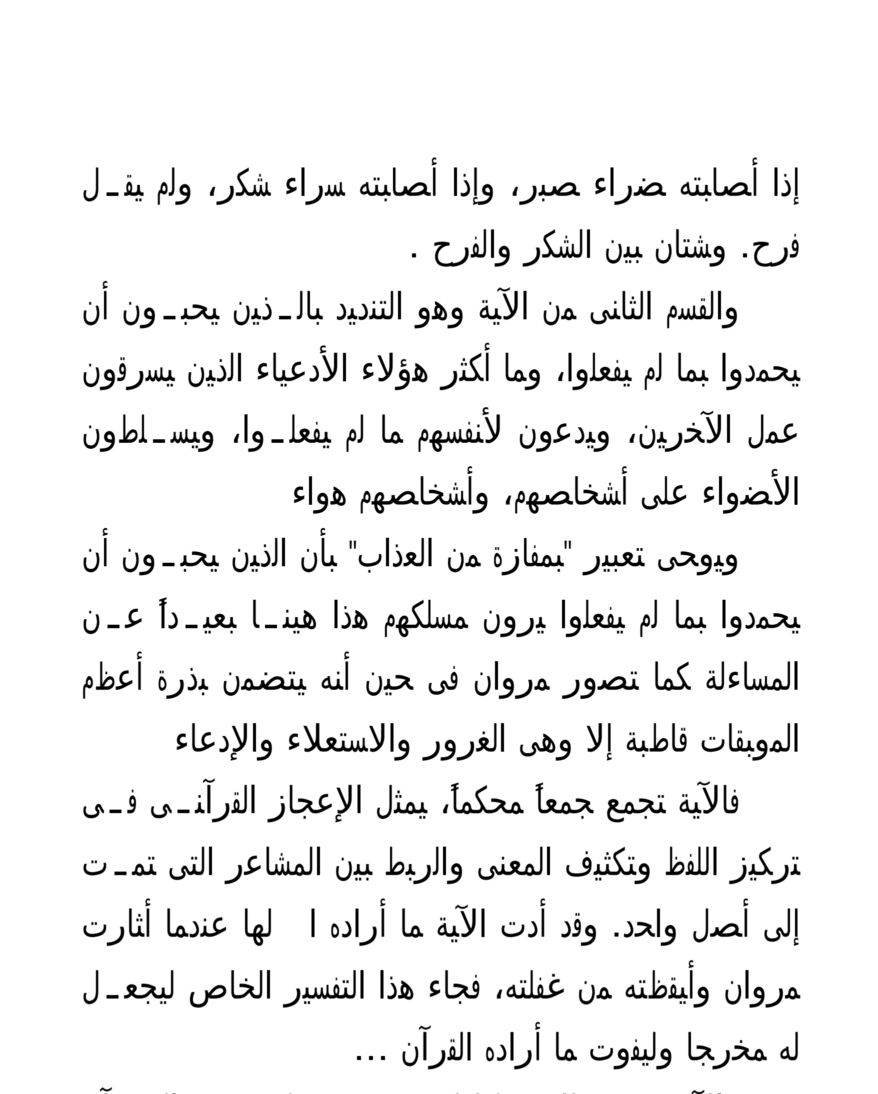
تَحسبن الذِين يفْرحون بِما أَتَوا ويحِبون أَن يحمدوا بِمـا لَـم يفْعلُوا فَلا تَحسبنهم بِمفَازةٍ مِن الْعذَابِ ولَهم عـذَاب أَلِـيم﴾.
وقال لئن كان كل امرئ فرح بما أوتى وأحب أن يحمد بما لم يفعل لنعذبن أجمعون حتى بين له ابن عباس أن الآية نزلـت فى أهل الكتاب. حين سألهم النبى عن شىء فكتموه وأخبروه بغيره وأروه أنهم أخبروه بما سألهم عنه واسـتحمدوا بـذلك (أخرجه الشيخان)[1].

فتفسير الآية طبقاً لما أورده ابن عباس يقصرها علـى واقعة معينة، خاصة إذا أخذنا بما أوردته روايات أخرى عن أن ابن عباس قال فى صدر كلامه "ما لكم ولهذه الآيـة..." ويفرغها من محتواها ومضـمونها، بحيـث يجعـل الـذين يفرحون بما أوتو ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا بمفازة من العذاب – أى على نقيض ما أرادت الآية. فى حين أن الآيـة جزء ثمين من التوجيه الخُلقُى الدائم للقرآن. الذى ينطبق على كل من يفرح وأن يحمد بما لم يعمل ويظن أنه بمفـازة مـن العذاب والآية تضم قسمين: الأول التنديد بالذين يفرحون بما أوتوا،والثانى التنديد بالذين يحبون أن يحمدوا بما لم يفعلـوا.

(١) الإتقان للسيوطى ص٢٨ ج١ .



ومفتاح التوجيه فى القسم الأول من الآية أن القرآن الكـريم يستخدم كلمة الفرح – فى أغلب الحالات – بالمعنى السـىء لها، أى الزهو والفخر والغرور، كما تدل على ذلك الآيـات ﴿إِذْ قَالَ لَه قَومه لا تَفْرح إِن الله لا يحِب الْفَرِحِين﴾. و﴿ذَلِكُم بِما كُنْتُم تَفْرحون فِي الأرض بِغَيرِ الْحق﴾. و﴿لَيقُولَن ذَهـب السيئَاتُ عني إِنه لَفَرِح فَخُور﴾. فالقرآن هنا يجمع مـا بـين الفرح والفخر، وهما قريبان فى معظم الحالات. وقلما ينجـو من ذلك إلا القلة القليلة التى أوتيت الحكمة والنضج أما عامة الناس فهم فى حاجة إلى هذا التأديب والتوجيه مـن القـرآن وإذا تركت الطبيعة البشرية وشأنها فإن الفرح يطغيها وقـد صاغ القرآن كلمة "أوتوا" بصيغة المجهول يدل علـى أنهـم ليسوا أصحاب الفضل فيما وصلوا إليه، أو على الأقل ليسوا الوحيدين، لأن الأمر كله ، فضلاً عن القرآن بحب للمؤمن بصفة عامة أن لا تتملكهم العواطف التى تزل بالأقدام وتؤثر على الأحكام، وخليق بمن يتملكه الفرح بما يصل إليـه، أن يتملكه الحزن بما يضيع منه والقرآن يوجه المؤمنين ﴿لِكَـيلا تَأْسوا علَى ما فَاتَكُم ولا تَفْرحوا بِما آتَاكُم﴾. وأوضح الحديث النبوى الموقف النمطى إيجابا وسلبا للمؤمن فقال أن المؤمن



إذا أصابته ضراء صبر، وإذا أصابته سراء شكر، ولم يقـل فرح. وشتان بين الشكر والفرح .

والقسم الثانى من الآية وهو التنديد بالـذين يحبـون أن يحمدوا بما لم يفعلوا، وما أكثر هؤلاء الأدعياء الذين يسرقون عمل الآخرين، ويدعون لأنفسهم ما لم يفعلـوا، ويسـلطون الأضواء على أشخاصهم، وأشخاصهم هواء

ويوحى تعبير "بمفازة من العذاب" بأن الذين يحبـون أن يحمدوا بما لم يفعلوا يرون مسلكهم هذا هينـا بعيـداً عـن المساءلة كما تصور مروان فى حين أنه يتضمن بذرة أعظم الموبقات قاطبة إلا وهى الغرور والاستعلاء والإدعاء

فالآية تجمع جمعاً محكماً، يمثل الإعجاز القرآنـى فـى تركيز اللفظ وتكثيف المعنى والربط بين المشاعر التى تمـت إلى أصل واحد. وقد أدت الآية ما أراده ا لها عندما أثارت مروان وأيقظته من غفلته، فجاء هذا التفسير الخاص ليجعـل له مخرجا وليفوت ما أراده القرآن ...

والآية تقدم مثالا نمطيا لتفسير يقوم على فهـم القـرآن وتفسير آخر يقوم على روايات وكيف أن الأول يجعل مـن القرآن كتاب هداية مطلقة عامة، والثانى يجعل منـه كتـاب

رواية مقيدة خاصة كما أن استشـهاد الكتـاب المعاصـرين وأساتذة الجامعات بهذه الواقعة نقـلاً عـن الكتـب القديمـة وعرضها كما عرضها القدماء فى كتـبهم المقـررة لطلبـة الجامعات دون أن يخطر لواحد منهم أن يعمل ذهنـه وهـم أساتذة يعلمون الجيل أو يوجهون الجماهير، يوضح جريـرة العقلية النقلية ومدى شلها لبواعث التفكير حتى لدى أسـاتذة الجامعة فضلاً عن طلبتها أو عامة الناس .

من ذلك أيضاً ما نقلوه عن أبى يوسف فى قوله تعـالى ﴿ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا﴾ إن ذلك فـى الشـرك "لأنهم كانوا حديثى عهد بكفر فيريد أحـدهم التوحيـد فـيهم فيخطئ بالكفر فعفا لهم عن ذلك كما عفا لهـم عـن النطـق بالكفر عند الإكراه قال فهذا على الشرك ليس على الأيمـان فى الطلاق والعتاق والبيع والشراء (حيث) لم تكن الأيمـان والعتاق زمانهم"(1). فهل فات هذا العـالم العلامـة – إمـام الحنفية وهم سادة القياس أن ما يسرى علـى هـذا الأمـر الخطير أمر الإيمان والشرك يسرى على ما هـو أقـل.. أو كيف غفل عن أن الآية مدنية واحتمالات حداثة العهد بالكفر

(1) أصول الفقه للشيخ الخضرى ص211 .

هى آخر ما يمكن أن يحتج به فى الآيات المدنية وهذا القول المنقول عن أبى يوسف وما رتبوه عليه من أحكام يذهب بهذه الآية الجميلة والابتهال الذى يصدر من أعماق قلـوب كـل المؤمنين كما يفتات على السياق المحكم لها وما يضعه مـن مبدأ أصولى عام .

هذه أمثلة عارضة فحسب تبين أن تفسير القرآن طبقـا لأسباب النزول يمكن أن يغير المعنى أو يذهب به فإذا كـان المعول والعمل هو بعموم اللفظ لا بخصوص السـبب فـإن أسباب النزول تكون فضولا ولا معنى لها وككل فضول فإنها تكون على حساب الهدف المطلوب على وجه التحديد بحيث تميعه، وإذا كانت أسباب النزول تجعل العبـرة بخصـوص السبب وهو فى حقيقة الحال ما يوحى به أو يؤدى إليه ذكـر السبب كما يتضح ذلك من أن ابن عباس عندما قـدم سـبب نزول "لا تحسبن الذين يفرحون بما أوتوا.. الآية" قـال أولا "ما لكم ولهذه الآية" إنما دعا النبى يهود فسألهم الخ... نقـول إذا كانت أسباب النزول ستقتصر العمـل علـى "خصـوص السبب" فإنها ستذهب بالقرآن ككتاب هداية للناس كافة إلـى يوم يبعثون وتجعله كتاب قصص وحكايات .

ومما يوضح لنا شيئاً من هذا الإسفاف أن المفسرين ارتضوا قول الصحابى فى الحديث عن أسباب النزول واعتبروا أن قول الصحابى الذى شهد الوحى والتنزيل عن آية من القرآن أنها نزلت فى كذا.. حديثا مسندا، كما أنهم اعتبروا المرسل من كلام التابعين مرفوعا. وقد يقبل إذا صح المسند إليه وكان من أئمة التفسير الآخذين عن الصحابة كمجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير أو اعتضد بمرسل آخر وبهذا انفتح الباب أمام روايات لا تمثل إلا نقولا من الكتب السابقة اعتقدوا صحتها باعتبارها من علم أهل الكتاب، وهناك رخصة بروايتها، ومعظم الذين رووا عن مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير مطعون فيهم، فضلاً عن أن مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير أنفسهم لم يسلموا من المآخذ التى تلقى ظللا من الشبهة على روايتهم .

* * *

على أن أسوأ ما وقع فيه المفسرون القدامى هو القول بالنسخ واعتبارهم هذا النسخ أهم علوم القرآن المدعاة بحيث كانوا يقولون لمن جهله "هلكت وأهلكت!" .

وما من مفارقة تثير الذهول كهـذه، فبـدعوى خدمـة القرآن أعمل هؤلاء المفسرون سكين النسخ قطعاً وبتراً فـى مئات الآيات.. فهل يختلف عملهم هذا عـن عمـل "جـزار اليهود بالبقر.." كما رأى شـوقى "برأهـا مـن العيـوب.. وعقر!!"..

لا أدرى كيف واتت هؤلاء المفسرين الجرأة على هـذا الجرم العظيم.. وأغرب من ذلك وأعجـب أنهـم رأوا فـى المفسر الوحيد الذى أنكر النسخ – أبو مسلم الأصفهانى – أنه "جاهل بهذه الشريعة جهلاً فظيعاً كما قال الشوكانى فى إرشاد الفحول "أو أن قوله ضعيف مردود مرذول" كما قـال ابـن كثير.

وجاء فى "فواتح الرحموت شرح مسلم الثبوت "وأجمـع أهل الشرائع على وقوعه سمعا خلافا لأبى مسلم الأصفهانى الجاحظ من شياطين المعتزلة وهو لا يصـح ممـن يـدعى إسلامه إلا بتأويل" .

وقال السيوطى "والناس فى هذا بين طرفى نقيض فمـن قائل لا يقبل فى النسخ أخبار الآحاد العدول ومـن متسـاهل يكتفى فيه بقول مفسر أو مجتهد والصواب خلافهما " .

فأنظر كيف أصبح النسخ لعبة "المتساهلين" ..

ودفع النسخ أحد الشيوخ المعاصرين لأن يقول "فالنسـخ يتمشى مع العقل البشرى وأنه لا معارضة بينهما أصلا **فـإن الشرائع السماوية ما هى إلا كالقوانين التى يضعها النـاس لأنفسهم لتحقيق المصلحة العامة والخاصة بالناس** وأن هذه القوانين تعدل وتغير حسب مقتضيات الزم من التقدم البشرى" وقد جاءت هذه الفقرة فى كتاب له صدر سنة ١٩٧٨ وأعادها بعلاتها فى كتاب آخر له سنة ١٩٨٠ [١].

هل قوانين ا من القوانين التى يضمها الناس لأنفسـهم وقيم الحاجة أذن إلى كتاب ا !! .

وجاء فى كلام أحد المدافعين – أو قل المتشنجين – عن النسخ عند تفسيره للآية ﴿ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها ألم تعلم أن ا على كل شئ قدير﴾ .

"ووجه الدلالة أن الآية صريحة فى جواز النسخ علـى ا تعالى" .

والعجب أن الذين يصدرون هـذه التعبيـرات الفجـة يعيرون من ينكر النسخ بإساءة الأدب! لأنه – كما اتهموا أبا

---

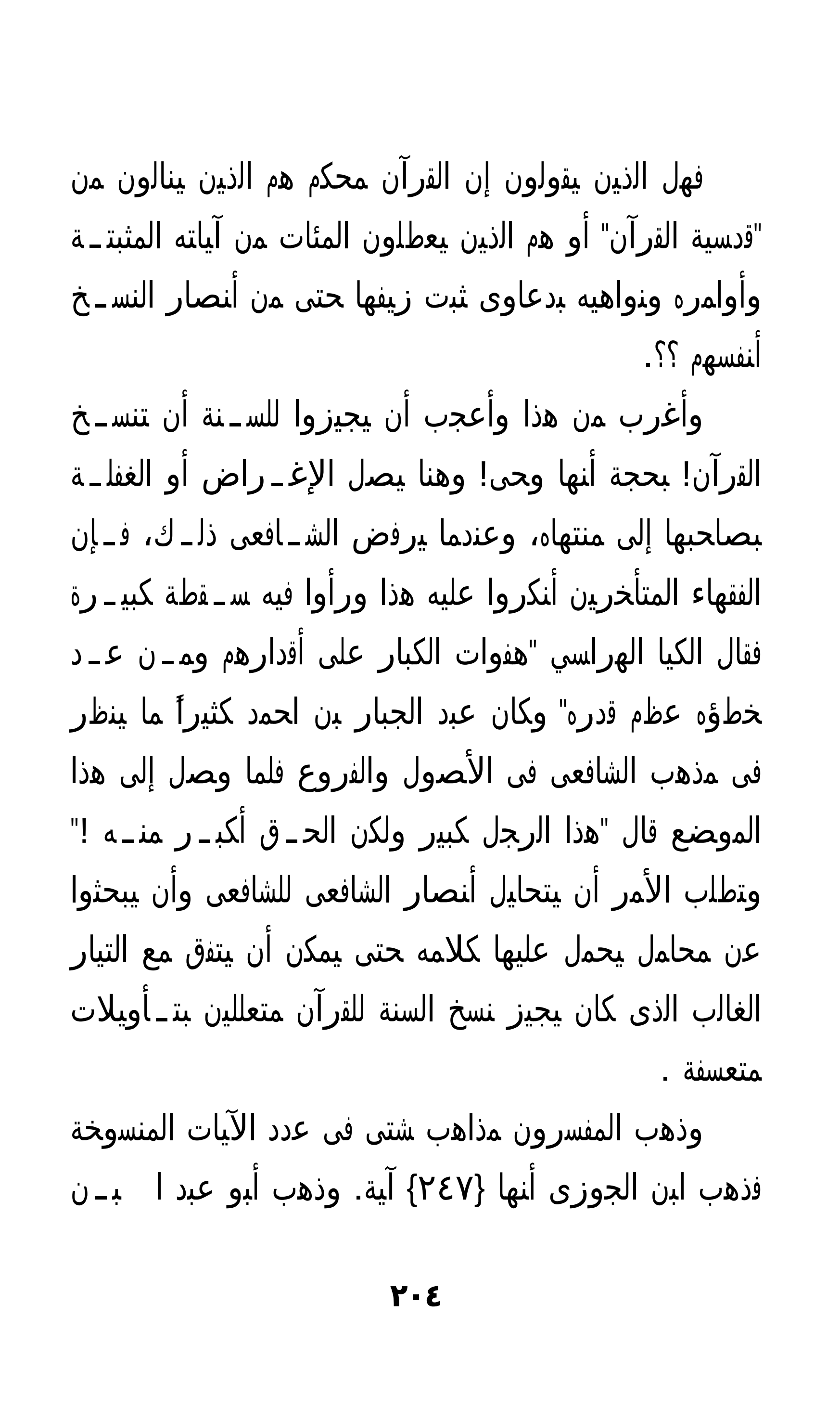
(١) الدكتور شعبان محمد إسماعيل "مع القرآن" ص ٥١٠ (١٩٧٨) و "المدخل لدراسة القرآن" ص ٤٦٠ (١٩٨٠) .

مسلم "أساء الأدب مع ا   فى تحمسه لرأى قائم على تحاشى لفظ اختاره جلت قدرته ودافع عن معناه بمثل قوله "ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها.. وهل بعد اختيـار ا   اختيار وهل بعد تعبير القرآن تعبير ﴿سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم﴾. وهـذا معنـى ذكـره بالنص تقريبا عدد مـن المناصـرين لقضـية النسـخ مـن المعاصرين الذين ينقلون بعضهم عن بعض، ويتلقف المتأخر ما ذكره المتقدم .

ويماثل ذلك ادعاء بعض العلماء المعاصرين " إن أعداء الإسلام من ملاحدة ومبشرين ومستشرقين اتخذوا من النسخ فى الشريعة الإسلامية أسلحة مسمومة طعنوا بها فى صـدر الدين الحنيف ونالوا من قدسية القرآن الكريم وقـد أحكمـوا شراك شبهاتهم واجتهدوا فى ترويج مطاعنهم حتى سـحروا عقول بعض المنتسبين إلى العلم والدين من المسلمين فجحدوا وقوع النسخ وهو واقع وأمعنوا فى هذا الجحود الذى ركبـوا له أخشن المراكب من تمحلات سـاقطة وتـأويلات غيـر سائغة"(1) .

---

(1) مناهل العرفان للشيخ محمد عبد العظيم الزرقانى ج2 ص 70 .


فهل الذين يقولون إن القرآن محكم هم الذين ينالون من "قدسية القرآن" أو هم الذين يعطلون المئات من آياته المثبتـة وأوامره ونواهيه بدعاوى ثبت زيفها حتى من أنصار النسـخ أنفسهم ؟؟.

وأغرب من هذا وأعجب أن يجيزوا للسـنة أن تنسـخ القرآن! بحجة أنها وحى! وهنا يصل الإغـراض أو الغفلـة بصاحبها إلى منتهاه، وعندما يرفض الشـافعى ذلـك، فـإن الفقهاء المتأخرين أنكروا عليه هذا ورأوا فيه سـقطة كبيـرة فقال الكيا الهراسي "هفوات الكبار على أقدارهم ومـن عـد خطؤه عظم قدره" وكان عبد الجبار بن احمد كثيراً ما ينظر فى مذهب الشافعى فى الأصول والفروع فلما وصل إلى هذا الموضع قال "هذا الرجل كبير ولكن الحـق أكبـر منـه !" وتطلب الأمر أن يتحايل أنصار الشافعى للشافعى وأن يبحثوا عن محامل يحمل عليها كلامه حتى يمكن أن يتفق مع التيار الغالب الذى كان يجيز نسخ السنة للقرآن متعللين بتـأويلات متعسفة .

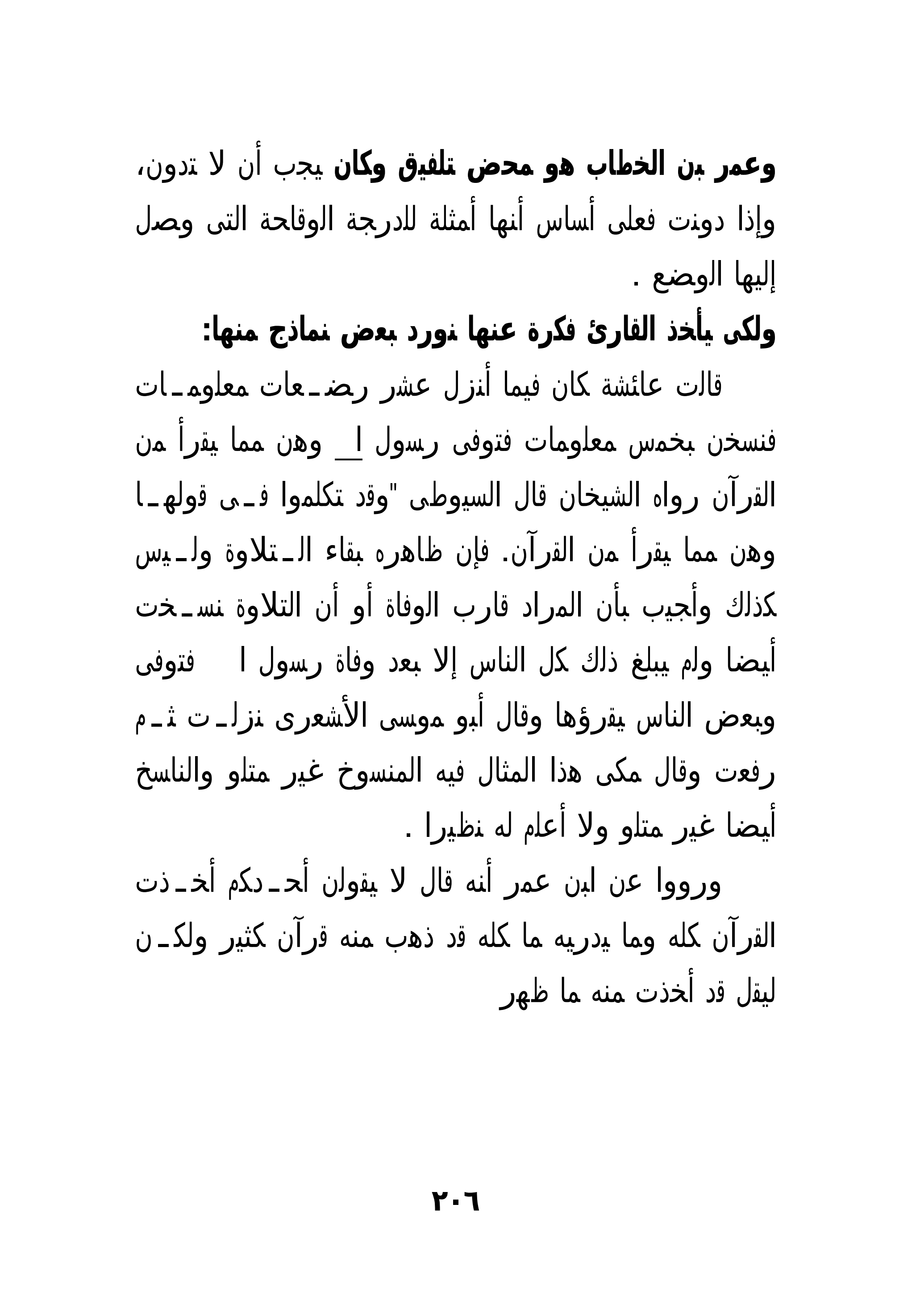
وذهب المفسرون مذاهب شتى فى عدد الآيات المنسوخة فذهب ابن الجوزى أنها {٢٤٧} آية. وذهب أبو عبد ا   بـن

حزم "وهو غير أبو محمد بن حـزم الأندلسـى الظـاهرى المشهور" إلى أنها {٢٠٨} آية. وعند أبى القاسم هبة ا بـن سلامة {٢١٢} آية. وعند أبى جعفر النحـاس {١٣٤} آيـة. وعند عبد القادر البغدادى {٦٦} آية .

وقد عالجنا موضوع النسخ فى سبعين صفحة من كتابنا " الأصلان العظيمان الكتاب والسنة " **وأثبتنا أن القـرآن لا يستخدم كلمة آية** كما نستخدمها نحن بمعنى "نـص" ولكـن بمعنى قرينة أو معجزة أو دلالة وأوردنا كل المواضع التـى جاءت فيها كلمة آية فى القرآن "٨٢ موضـعا" وكلهـا بـلا استثناء بهذا المعنى، ومن هنا فإن بناءهم النسخ على ما جاء فى سورة البقرة ﴿ما ننسخ من آية أو ننسها الخ...﴾ لا يجوز الاستدلال به فضلاً عن أن القرآن استخدم كلمة نسخ بمعنـى إثبات أو كتابة فالدعوى ساقطة تماماً ..

* * *

ولا تقف جريرة دعوى النسخ على أنها تنسخ كل آيات الحكمة والسماحة والحرية الخ... بل إنها فتحت بابا نعوذ با منه، ولا يخالجنا أنه كله من كيد شياطين الأنس من اليهود أو أعداء الإسلام **وأن كل ما تضمنه من إسناد يصل إلى عائشة**



وعمر بن الخطاب هو محض تلفيق وكان يجب أن لا تدون، وإذا دونت فعلى أساس أنها أمثلة للدرجة الوقاحة التى وصل إليها الوضع .

ولكى يأخذ القارئ فكرة عنها نورد بعض نماذج منها:

قالت عائشة كان فيما أنزل عشر رضـعات معلومـات فنسخن بخمس معلومات فتوفى رسول ا__ وهن مما يقرأ من القرآن رواه الشيخان قال السيوطى "وقد تكلموا فـى قولهـا وهن مما يقرأ من القرآن. فإن ظاهره بقاء الـتلاوة ولـيس كذلك وأجيب بأن المراد قارب الوفاة أو أن التلاوة نسـخت أيضا ولم يبلغ ذلك كل الناس إلا بعد وفاة رسول ا فتوفى وبعض الناس يقرؤها وقال أبو موسى الأشعرى نزلـت ثـم رفعت وقال مكى هذا المثال فيه المنسوخ غير متلو والناسخ أيضا غير متلو ولا أعلم له نظيرا .

ورووا عن ابن عمر أنه قال لا يقولن أحـدكم أخـذت القرآن كله وما يدريه ما كله قد ذهب منه قرآن كثير ولكـن ليقل قد أخذت منه ما ظهر

وعن عائشة قالت كانت سورة الأحزاب تقرأ فى زمـن النبى مائتى آية فلما كتب عثمان المصاحف لم نقدر منها إلا ما هو الآن .

وعن ذر بن حبيش قال لى أبى بن كعب كم تعد سـورة الأحزاب قلت اثنتين وسبعين آية أو ثلاثة وسبعين آية قال إن كانت لتعدل سورة البقرة وان كنا لنقرأ فيها آية الرجم قلـت وما آية الرجم قال إذا زنا الشيخ والشيخة فارجموهما البتـة نكالا من ا وا عزيز حكيم .

وعن حميدة بنت أبى يونس قالت قرأ علىّ أبى وهو أبن ثمانين سنة فى مصحف عائشة أن ا وملائكته يصلون على النبى يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسـليما وعلـى الذين يصلون الصفوف الأولى قالت قبل أن يغيـر عثمـان المصاحف .

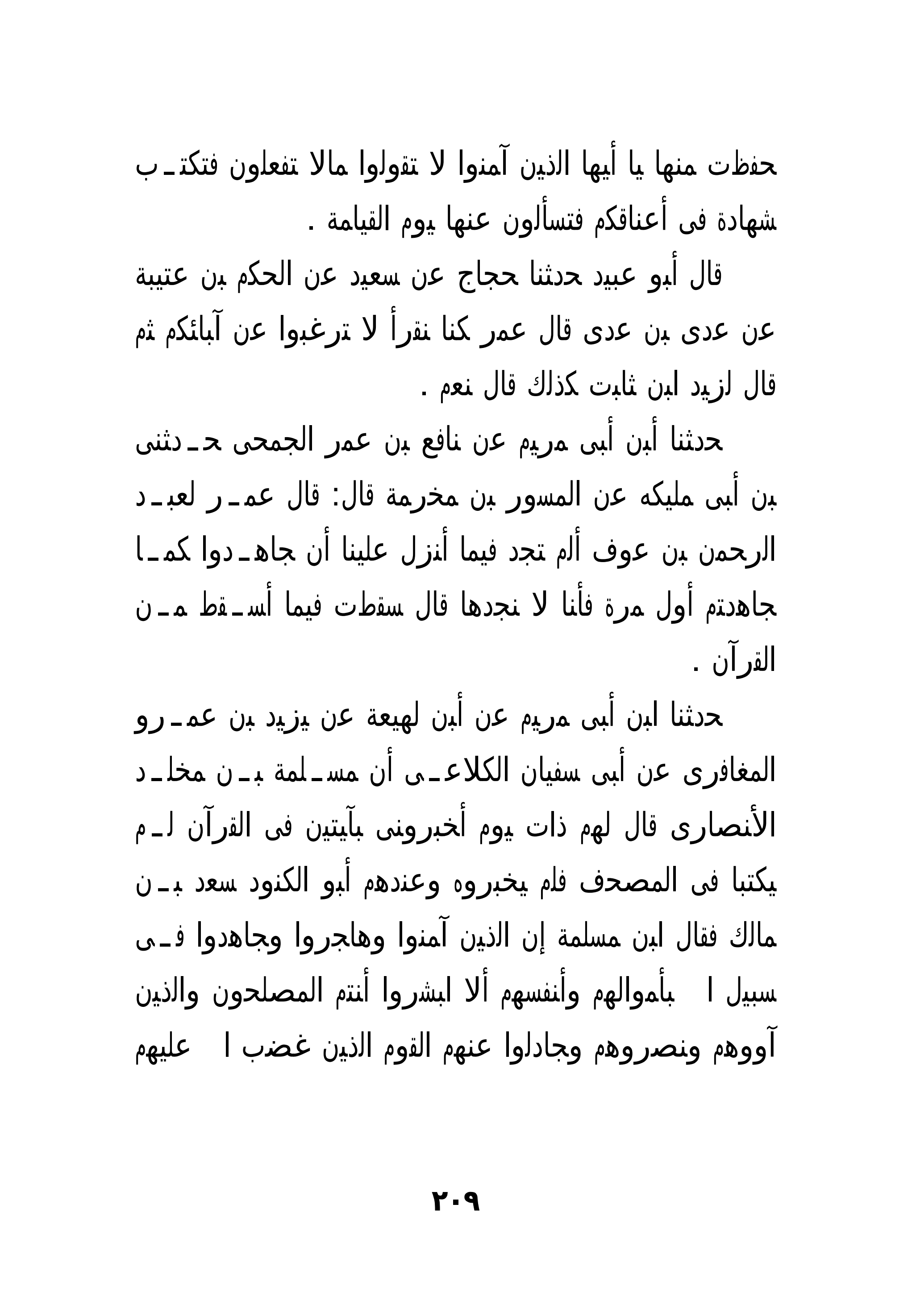
وعن عطاء بن يسار عن أبى واقد الليثـى قـال كـان رسول ا إذا أوحى إليه أتيناه فعلمنا مما أوحى إليـه قـال فجئت ذات يوم فقال أن ا يقول إنا أنزلنـا المـال لإقامـة الصلاة وإيتاء الزكاة ولو أن لابن آدم واديا من ذهب لأحـب أن يكون إليه الثانى ولو كان إليه الثانى لأحـب أن يكـون

الثـالث ولا يملأ جوف بن آدم إلا التراب ويتوب ا على من تاب .

وأخرج الحاكم فى المستدرك عن أبى بن كعب قال: قال رسول ا أن ا يأمرنى أن أقرأ عليك القرآن فقرأ لم يكـن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين ومن بقيتها لـو أن ابن آدم سأل واديا من مال فأعطيه سأل ثانيا وأن سأل ثانيـا فأعطيه سأل ثالثا ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ويتـوب ا على من تاب وأن ذات الدين عنـد ا الحنيفيـة غيـر اليهودية ولا النصرانية ومن يعمل فلن يكفره .

قال أبو عبيد حدثنا حجاج عن حماد بن سلمة عن على بن زيد عن أبى حرب بن أبى الأسود عـن أبـى موسـى الاشعرى قال نزلت سورة نحو براءة ثم رفعت وحفظت منها أن ا سيؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم ولو أن لإبن آدم واديين من مال لتمنى واديا ثالثا ولا يملأ جوف بـن آدم إلا التراب ويتوب ا على من تاب .

وأخرج بن أبى حاتم عن أبى موسى الاشعرى قال كنـا نقرأ سورة نشبهها بإحدى المسبحات ما نسيناها غيـر أنـى


حفظت منها يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا مالا تفعلون فتكتـب شهادة فى أعناقكم فتسألون عنها يوم القيامة .

قال أبو عبيد حدثنا حجاج عن سعيد عن الحكم بن عتيبة عن عدى بن عدى قال عمر كنا نقرأ لا ترغبوا عن آبائكم ثم قال لزيد ابن ثابت كذلك قال نعم .

حدثنا أبن أبى مريم عن نافع بن عمر الجمحى حـدثنى بن أبى مليكه عن المسور بن مخرمة قال: قال عمـر لعبـد الرحمن بن عوف ألم تجد فيما أنزل علينا أن جاهـدوا كمـا جاهدتم أول مرة فأنا لا نجدها قال سقطت فيما أسـقط مـن القرآن .

حدثنا ابن أبى مريم عن أبن لهيعة عن يزيد بن عمـرو المغافرى عن أبى سفيان الكلاعـى أن مسـلمة بـن مخلـد الأنصارى قال لهم ذات يوم أخبرونى بآيتين فى القرآن لـم يكتبا فى المصحف فلم يخبروه وعندهم أبو الكنود سعد بـن مالك فقال ابن مسلمة إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فـى سبيل ا بأموالهم وأنفسهم ألا ابشروا أنتم المصلحون والذين آووهم ونصروهم وجادلوا عنهم القوم الذين غضب ا عليهم

أولئك لا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون .

وأخرج الطبرانى فى الكبير عن ابن عمـر قـال قـرأ رجلان سورة اقرأهما رسول ا فكانا يقرآن بها فقامـا ذات ليلة يصليان فلم يقدرا منها على حرف فأصبحا غاديين على رسول ا فذكرا ذلك له فقال أنها مما نسخ فألهوا عنها .

وفى الصحيحين عن أنس فى قصة أصحاب بئر معونة الذين قتلوا وقنت يدعو على قاتليهم قال أنس نزل فيهم قرآن قرأناه حتى رفع أن بلغوا عنا قومنا أنا لقينا ربنا فرضى عنا وأرضانا .

وفى المستدرك عن حذيفة قال ما تقرأون ربعها يعنـى براءة .

ورووا عن عبد ا بن زرير الغافقى أنه قال لعبد الملك بن مروان عن على بن أبى طالب " لقد علمنـى سـورتين علمهما إياه رسول ا ما علمتهما أنت ولا أبوك اللهـم أنـا نستعينك ونثنى عليك ولا نكفرك ونخلع ونترك من يفجـرك اللهم إياك نعبد ولك نصلى ونسجد وإليك نسعى ونحفد نرجئو رحمتك ونخشى عذابك بالكفار .

وأخرج البيهقى عن طريق سفيان الثورى عن جـريج عن عطاء عن عبيد بن عمير أن عمر بن الخطاب قنت بعد الركوع فقال بسـم ا   الـرحمن الـرحيم اللهـم نسـتعينك ونستغفرك ونثنى عليك ولا نكفرك ونخلع ونترك من يفجرك اللهم إياك نعبد ولك نصلى ونسجد وإليـك نسـعى ونحفـد ونرجو رحمتك ونخشى نقمتك إن عذابك بالكافرين .

وتطلق بعض المصادر على هذا النص سورتى الحفـد والخلع وتزعم أنهما كانا فى مصحف بعض الصحابة .

نقول للذين جاءوا بهذه المؤتفكات تبـت أيـديكم! ألـم تسمعوا قول ا   ﴿إنا نَحن نَزلْنَا الذكْر وإِنا لَـه لَحـافِظُون﴾ فكيف تتأتى هذه التخرصات مع حفظ ا ؟ إنكم بأكاذيبكم تلك قدمتم لأعداء الإسلام أقصى الأسلحة للطعن فى القرآن وفى الإسلام وتحسبون أنكم تحسنون صنعا !!! .

* * *

كيف إذن جازت دعوى النسخ على الأئمـة الأعـلام ؟ جازت لأنهم تصوروا أنه لا يصح أن يتضمن القرآن أحكاماً متفاوتة فى الحالة الواحدة. لأنهم يريدون أن يأخذوا النـاس بحكم واحد، ولو استطاعوا أن يضعوهم على مثل حد السيف

لفعلوا، ولكن القرآن لا يقبل هذا وهو لم ينزل للعرب وحدهم وإنما نزل للبشرية جميعاً، وهو لم ينزل لعصر واحد، ولكن نزل لكل العصور. فكان لابد أن يوجد التفـاوت والتعـدد، والبدائل فما يصلح لشعب وعهد قد لا يصلح لشعب وعهـد آخر والمسلم ما دام يأخذ بآية فإنه يأوى إلى ركـن حصـين ويمسك بدليل مكين أما الرد عليه بالنسخ فمردود، لأن القرآن لا يضرب بعضه بعضاً، فالقرآن كما قال الرسول "القـرآن ذلول ذو وجوه فاحملوه على أحسن وجوهـه" وكمـا قـال الرسول فى حديث آخر "أن القرآن لم ينزل ليكـذب بعضـه بعضا. فما عرفتم فاعملوا به، وما تشابه فآمنوا به" .

وقد نزلت آيات تحريم الخمر بتدريج لأن العرب ما كان يمكن أن يقلعوا مرة واحدة عن الخمر ولم تنسخ الآية الأخيرة الآيات الأولى **لأن من الممكن أن تتكرر التجربـة فيطبـق التدريج لا التحريم، وقد حدث هذا بالفعل** عندما أراد القيصر الوثنى فلاديمير قيصر روسيا سنة ٩٨٧ أن يختار لشعبه ديناً سماوياً فاستقدم ثلاثة من علماء الإسلام والمسيحية واليهودية، وكان ميالاً للإسلام ولكن ما أن قيل له إن الإسـلام يحـرم الخمر حتى قال "أسف إن شعبى لا يطيـق الاسـتغناء عـن

الفودكا " فلو طبق فى روسيا ما طبق فى العرب، بمعنى أن لا يصدم الروس بالتحريم، وإنما يستخدم التدريج حتى يتأصل الإسلام فى قلوبهم ويمكن التحريم لكسب الإسلام شعب روسيا بأسره ولتغير التاريخ[1] .

* * *

من هذا العرض لمعالجة المفسرين يتضح لنا أن اللغويين منهم افتاتوا على لغة القرآن وأسلوبه، وأساءوا فهمه، وأرادوا تحكيم صناعتهم وما وضعوه من قواعد، وأن الأخباريين سودوا صفحات كتبهم بالإسرائيليات وبكل ما جاء من "لغو" فى القرآن وأعملوا سكين النسخ دون أن تأخذهم رأفة ..

وبمثل هذا الخطأ فى المعالجة أنهم عمدوا إلى تقطيع أوصال القرآن كل آية على حدة فى حين أن القرآن لا يحدث أثره أو يحقق رسالته إلا نتيجة لتلاحم آياته بعضها ببعض، وتقطيع أوصال القرآن كان يعنى قتله، ثم العكوف على دراسة كل شلو من أشلائه.. وهو ما يمكن أن يقدم لنا مادة

---

(١) نوجه الأنظار إلى أن موضوع النسخ سيعالج بالتفصيل فى كتاب مستقل تكون مادته الرئيسية ما جاء فى كتابنا الأصلان العظيمان: الكتاب والسنة" .

أو معاومة، ولكنه لا يقدم حياة، ولا يثير عاطفة ولا يبعـث على عمل، ولا يؤدى إلى هداية ...

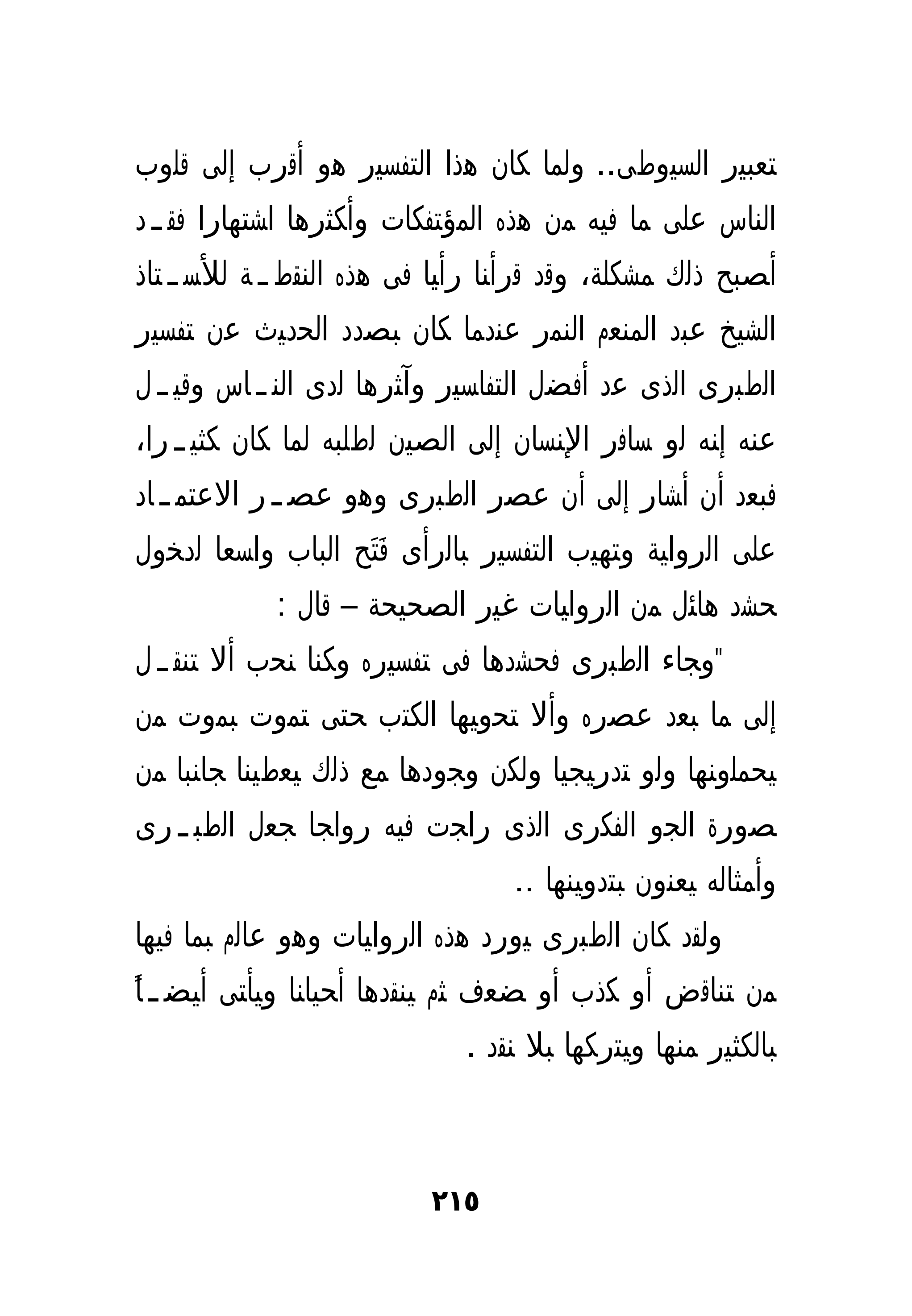
وهذا هو المضمون الحقيقى لتفريغ القرآن من ثوريته ..

وعندما يفكر الإنسان مليا فيما فعلـه المفسـرون ومـا عكفوا عليه القرون الطوال فإن الحيرة تتملكه كيـف هـان عليهم القرآن حتى يقحموا هذه النقـول الركيكـة والأقـوال السقيمة والمزاعم المسفة.. وكيف لم تتوقف أيـديهم وهـى تعمل سكين النسخ بتراً وتقطيعاً، وكيف يتفق ذلك مـع مـا روى عن هؤلاء المفسرين من تقوى وإخلاص فإذا لم يكن قد تحرك فى نفوسهم أو حاك فى قلوبهم شئ فإن هـذا يكـون دليلاً فذاً على أن قوة روح عصرهم المغلق جعلـت هـؤلاء الأسلاف يرتكبون جريمة شنعاء فـى حـق القـرآن وهـم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً، وقدموا شواهد لأعداء القـرآن وهم يحسبون أنهم يدافعون عن القرآن .

— ٥ —

قيمة التفاسير السلفية

رأينا أن كتب التفسير بالمأثور قد حشيت بالإسرائيليات والروايات المدسوسة حتى التبس الصحيح بالعليل على حـد


تعبير السيوطى.. ولما كان هذا التفسير هو أقرب إلى قلوب الناس على ما فيه من هذه المؤتفكات وأكثرها اشتهارا فقـد أصبح ذلك مشكلة، وقد قرأنا رأيا فى هذه النقطـة للأسـتاذ الشيخ عبد المنعم النمر عندما كان بصدد الحديث عن تفسير الطبرى الذى عد أفضل التفاسير وآثرها لدى النـاس وقيـل عنه إنه لو سافر الإنسان إلى الصين لطلبه لما كان كثيـرا، فبعد أن أشار إلى أن عصر الطبرى وهو عصـر الاعتمـاد على الرواية وتهيب التفسير بالرأى فَتَح الباب واسعا لدخول حشد هائل من الروايات غير الصحيحة – قال :

"وجاء الطبرى فحشدها فى تفسيره وكنا نحب ألا تنتقـل إلى ما بعد عصره وألا تحويها الكتب حتى تموت بموت من يحملونها ولو تدريجيا ولكن وجودها مع ذلك يعطينا جانبا من صورة الجو الفكرى الذى راجت فيه رواجا جعل الطبـرى وأمثاله يعنون بتدوينها ..

ولقد كان الطبرى يورد هذه الروايات وهو عالم بما فيها من تناقض أو كذب أو ضعف ثم ينقدها أحيانا ويأتى أيضـاً بالكثير منها ويتركها بلا نقد .

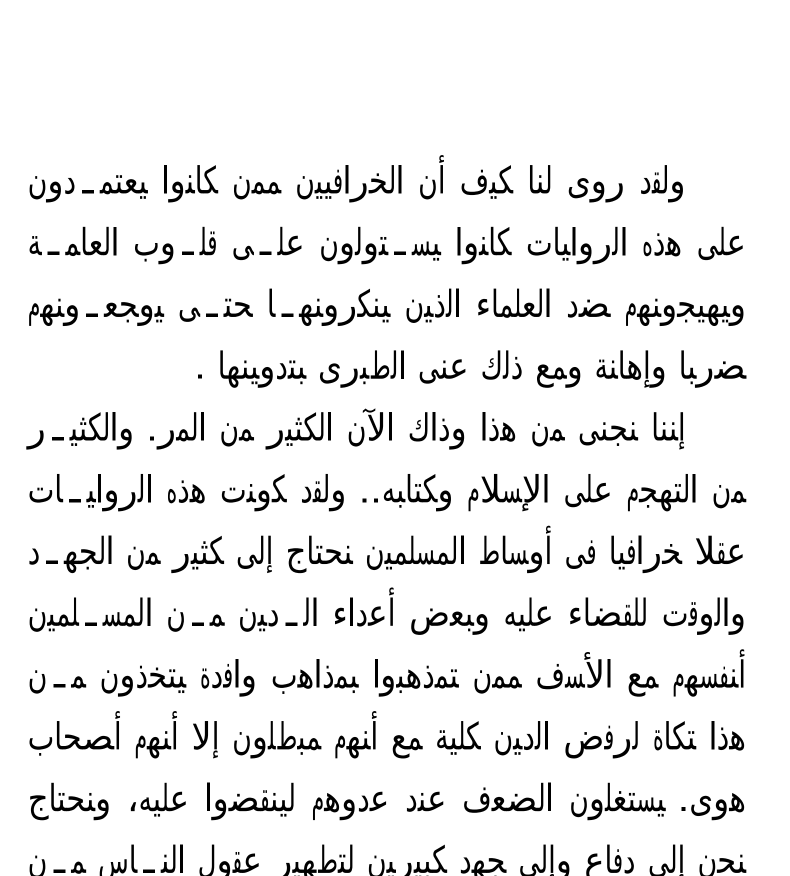
وبعض النقاد يميلون إلى تبرئة ساحة أبى جعفـر مـن النقد لسياقه هذه الروايات دون نقدها. قائلين إنه ذكـر لـك السند وعليك أنت أن تبحث عن صحته أو كذبه أو ضـعفه. راوين العبارة المشهورة بين علماء الحديث (من أسند لك فقد حّملك) يعنون من ذكر لك سند الرواية فقـد برئـت ذمتـه وحملك أنت مسئولية البحث عن صحته .

ومع أن هذا الكلام صحيح فى حد ذاتـه وربمـا كـان محتملاً للخاصة أو خاصتهم، إلا أنه يحمّل القراء أمانة فوق طاقتهم. فليس كل قارئ عارفا بالرجال أو بأساليب النقد حتى يستطيع التمييز بين المقبول وغير المقبول وليس كل قـارئ عنده الرغبة أو الأمانة التى تحمله على التوقف حتى يتبين .

على أن هذا إن كان ممكنا فى زمن كثرت فيه الكتـب المطبوعة المتداولة التى عنيت بالرواة ونقدهم وبيان غـثهم من سمينهم فإنه لم يكن متيسراً من قبل شيوع هـذه الكتـب ومن أجل هذا كان الارتفاع بهذه الروايات التى كانت متداولة فى أيامه – ومعروف بين العلمـاء أنهـا كانـت بضـاعة القصاص للتكسب والرواج عند العامة – أقول كـان رفعهـا إلى مقام التدوين ووضعها بجانب كلام ا   على أنها تفسير له

مما ساعد كثيرا على إشاعة الخرافات والأضاليل فى نفـوس المسلمين ملصقة بتفسير كلام ا فقد جاء بعض المفسـرين بعد الطبرى ونقلوا هذه الروايات فى كتبهم فأتاحوا لها جـوا أوسع من الذيوع والانتشار والسيطرة على الأفكار .

بل إنى أقول أكثر من هذا فيما يتصل بالروايات التـى نقدها وهى أمنية تمنيت أن لو كانت قد تحققت فى ذلك الزمن المبكر فيمن وضع التفسير. كنـت أتمنـى أن لـو اقتصـر الطبرى وأمثاله على الروايات الصـحيحة فـى تفاسـيرهم وجردوها من الروايات الباطلة التى كروا عليها بالنقد. لأنها كانت ستموت فى زمنها أما بعد أن دونت ووضعت بجانـب التفسير فقد فتحوا الباب للقصـاص وأصـحاب الهـوى أن يطلعوا عليها ويستندوا إليها فى حكايـاتهم للعـوام لجـذب انتباههم وكسب إعجابهم. وابتزاز أموالهم كما نرى الكثيـر فى أيامنا ممن يدورون فى الأرياف وبين العوام أو متخلفـى الثقافة يتحدثون فى التفسير أو الدين ويستولون على ألبـابهم بهذه الروايات الخيالية الخرافية دون خوف من ا ولا حرج من أصحاب العقل والفهم. ولا مراعاة لما يجـب أن يكـون عليه تكوين الأمة العقلى والفكرى .



ولقد روى لنا كيف أن الخرافيين ممن كانوا يعتمدون على هذه الروايات كانوا يستولون على قلوب العامة ويهيجونهم ضد العلماء الذين ينكرونها حتى يوجعونهم ضربا وإهانة ومع ذلك عنى الطبرى بتدوينها .

إننا نجنى من هذا وذاك الآن الكثير من المر. والكثير من التهجم على الإسلام وكتابه.. ولقد كونت هذه الروايات عقلا خرافيا فى أوساط المسلمين نحتاج إلى كثير من الجهد والوقت للقضاء عليه وبعض أعداء الدين من المسلمين أنفسهم مع الأسف ممن تمذهبوا بمذاهب وافدة يتخذون من هذا تكأة لرفض الدين كلية مع أنهم مبطلون إلا أنهم أصحاب هوى. يستغلون الضعف عند عدوهم لينقضوا عليه، ونحتاج نحن إلى دفاع وإلى جهد كبيرين لتطهير عقول الناس من هذه الخرافات والروايات الإسرائيلية المضللة .

أفما كان من الأولى لهؤلاء السلف الطيبين أن يكونوا بعيدى النظر، فيريحوا أنفسهم والأجيال التى بعدهم من هذه الخرافات والأضاليل ويذكروا لنا ما صح فى سنده وما رأوه بعقولهم الناضجة ؟.. نعم كان من الأولى ولكن ماذا نفعل الآن وهذا هو الذى كان ولعل لهم عذرا ؟ ..

إن هذا يحملنا الآن مسئولية ضخمة وإن لم تكن عسيرة أو صعبة ولكنها تحتاج إلى همة وغيرة وجهد يتكاتف فيه العلماء مع الحكومات التى تعنى بهذه الناحية .

هذه المسئولية هى تجريد هذا التفسير وأمثاله من كل رواية غير صحيحة. سواء أكانت إسرائيلية أو موضوعة.. وإخراج الكتاب بعد ذلك للناس بريئا من هذه العيوب.. ثم جمع كل النسخ الأصلية من الأسواق ووضع ما أمكن منها فى المكتبات العامة ويحظر الإطلاع عليها لغير الخاصة كما يحظر نقل ما لم ينقل منها فى التجريد .

بذلك نقضى على هذه الخرافات والإسرائيليات من العقول ولابد بجوار ذلك من جهد آخر هو عدم السماح بطبع أى كتاب آخر فيه شىء من هذه الأضاليل[1]. فقد تسربت من كتب التفسير وكتب التاريخ كذلك إلى كتب أخرى بعناوين أخرى وتحتاج إلى المتابعة المستمرة وإذا كانت هناك رقابة على المطابع فى الأمور السياسية، فمن الواجب

---

(١) مع اتفاقنا فى الفكرة العامة التى ذهب إليها الكاتب ورغبته فى التجريد، إلا أننا لا نتفق مع إشارته إلى الحظر وتقييد الطباعة لما قد يستتبعه من اعتماد على تقنين مقيد لحرية الفكر. إن إظهار الحق هو أكثر الأساليب فعالية فى تفنيد الباطل. وستموت هذه الأباطيل من تلقاء نفسها مع ارتفاع المستوى الفكرى للمسلمين لأنها إنما تعيش على مناخ الجهالة والتخلف .

أن تفرض هذه الرقابة فى مثل هذه الأمور التى تتدخل قويـا فى تكوين عقلية المسلمين وإلى أجيال.. وتفسد تصـوراتهم عن القرآن والحياة، وهذا شىء ليس بالقليل. بـل هـو مـن الخطورة بمكان كما سبق أن أشرنا إليه .

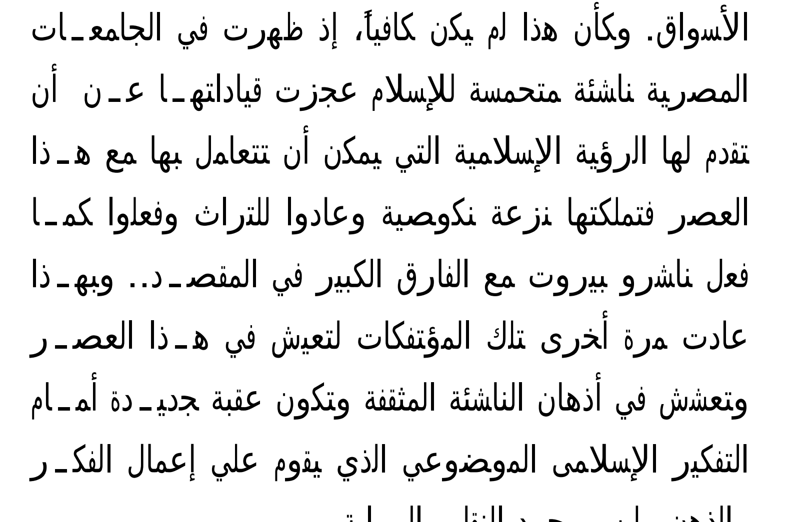
ولا أظن أن فينا من يعارض مثل هذا المشروع بحجـة صيانة التراث أو بحجج أخرى .فالتراث سيظل لمـن يريـد الاطلاع عليه على إننا سوف نقدم التراث الفعلى حقيقـة ولا نحرم المطلعين من شيء له فائدة بل نحول بينهم وبين سموم هذه الخرافات ونقيهم أضـاليلها ونشـجع المطلعـين علـى الاطلاع ونقدم الكتاب في حجم أقل كثيراً من حجمه الحـالي وبثمن أقل من ثمنه مما يغري بالشراء والاطلاع ..."[1]

أوردنا هذه الفقرات علي طولها لأنها تعرض القضـية أفضل عرض ولما تضمنته من إشارة ذات مغزى بعيد . فقد تمنى الكاتب عندما كان يكتب هذه الكلمات عـام ١٩٦٩. أن نجرد التفاسير من تلك الحواشي الخرافية ولكن بعد أكثر من عشرة أعوام من ذلك التاريخ أن عددا من دور النشر خاصة

---

(١) الشيخ عبد المنعم النمر . التفسير والمفسرون مجلة العربي العـدد ١٢١ أكتوبر ١٩٦٩ ص ٢٠-٢٤ .

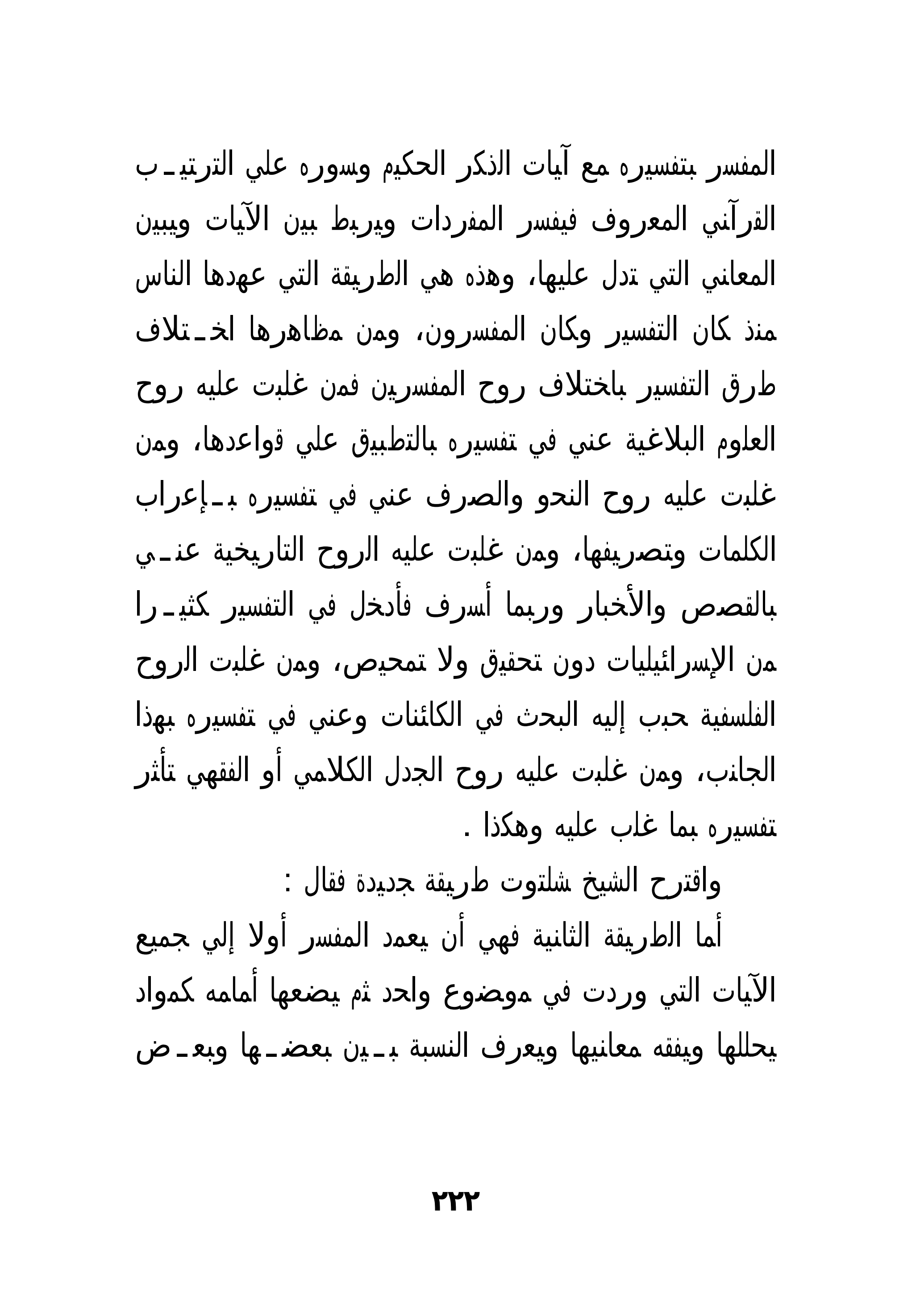
فى بيروت يشرف عليها تجار لا يفقهون من شـئون الـ دين شيئاً ولا يفرقون بين التفسير وألف ليلة وليلة. ولا وقت لديهم لتنقيح أو حتى مراجعة.. وهدفهم الوحيد هو الكسب السـ ريع .. قد سطوا على مجلدات التـ راث وصـ وروها كمـ ا هـ ي



بعجرها وبجرها وأخطائها المطبعية "بالأوفست" ونشروها في الأسواق. وكأن هذا لم يكن كافياً، إذ ظهرت في الجامعـ ات المصرية ناشئة متحمسة للإسلام عجزت قياداتهـ ا عـ ن أن تقدم لها الرؤية الإسلامية التي يمكن أن تتعامل بها مع هـ ذا العصر فتملكتها نزعة نكوصية وعادوا للتراث وفعلوا كمـ ا فعل ناشرو بيروت مع الفارق الكبير في المقصـ د.. وبهـ ذا عادت مرة أخرى تلك المؤتفكات لتعيش في هـ ذا العصـ ر وتعشش في أذهان الناشئة المثقفة وتكون عقبة جديـ دة أمـ ام التفكير الإسلامى الموضوعي الذي يقوم علي إعمال الفكـ ر والذهن وليس مجرد النقل والرواية .

* * *

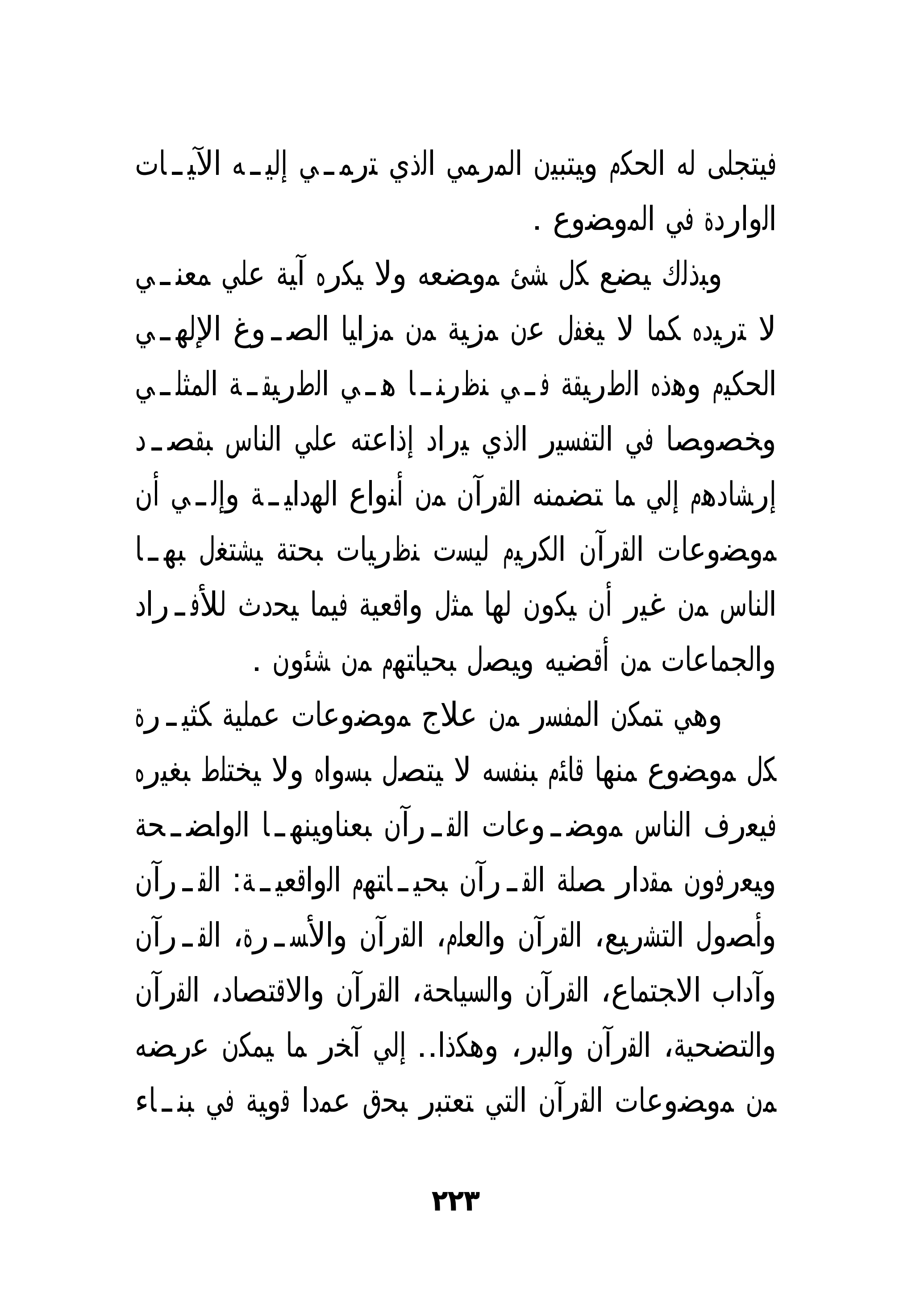
على أن الشيخ المجتهد محمود شلتوت لم يـ ر تجريـ د التفاسير التقليدية من خرافاتها، لأنه انتقد طريقة المفسـ رين القدامى فقال: "لتفسير القرآن الكريم طريقتان إحداها أن يسير



المفسر بتفسيره مع آيات الذكر الحكيم وسوره علي الترتيب القرآني المعروف فيفسر المفردات ويربط بين الآيات ويبين المعاني التي تدل عليها، وهذه هي الطريقة التي عهدها الناس منذ كان التفسير وكان المفسرون، ومن مظاهرها اختلاف طرق التفسير باختلاف روح المفسرين فمن غلبت عليه روح العلوم البلاغية عني في تفسيره بالتطبيق علي قواعدها، ومن غلبت عليه روح النحو والصرف عني في تفسيره بإعراب الكلمات وتصريفها، ومن غلبت عليه الروح التاريخية عني بالقصص والأخبار وربما أسرف فأدخل في التفسير كثيرا من الإسرائيليات دون تحقيق ولا تمحيص، ومن غلبت الروح الفلسفية حبب إليه البحث في الكائنات وعني في تفسيره بهذا الجانب، ومن غلبت عليه روح الجدل الكلامي أو الفقهي تأثر تفسيره بما غلب عليه وهكذا .

واقترح الشيخ شلتوت طريقة جديدة فقال :

أما الطريقة الثانية فهي أن يعمد المفسر أولا إلي جميع الآيات التي وردت في موضوع واحد ثم يضعها أمامه كمواد يحللها ويفقه معانيها ويعرف النسبة بين بعضها وبعض


فيتجلى له الحكم ويتبين المرمي الذي ترمـي إليـه الآيـات الواردة في الموضوع .

وبذلك يضع كل شئ موضعه ولا يكره آية علي معنـي لا تريده كما لا يغفل عن مزية من مزايا الصـوغ الإلهـي الحكيم وهذه الطريقة فـي نظرنـا هـي الطريقـة المثلـي وخصوصا في التفسير الذي يراد إذاعته علي الناس بقصـد إرشادهم إلي ما تضمنه القرآن من أنواع الهدايـة وإلـي أن موضوعات القرآن الكريم ليست نظريات بحتة يشتغل بهـا الناس من غير أن يكون لها مثل واقعية فيما يحدث للأفـراد والجماعات من أقضيه ويصل بحياتهم من شئون .

وهي تمكن المفسر من علاج موضوعات عملية كثيـرة كل موضوع منها قائم بنفسه لا يتصل بسواه ولا يختلط بغيره فيعرف الناس موضـوعات القـرآن بعناوينهـا الواضـحة ويعرفون مقدار صلة القـرآن بحيـاتهم الواقعيـة: القـرآن وأصول التشريع، القرآن والعلم، القرآن والأسـرة، القـرآن وآداب الاجتماع، القرآن والسياحة، القرآن والاقتصاد، القرآن والتضحية، القرآن والبر، وهكذا.. إلي آخر ما يمكن عرضه من موضوعات القرآن التي تعتبر بحق عمدا قوية في بنـاء

الأمة ونهضتها وبهذا يطمئن الناس بطريقة عملية واضـحة إلي أن القرآن ليس بعيدا عن حياتهم ولا عن نواحي تفكيرهم ولا عن مشكلاتهم التي تعرض لهم في كل حين يطمئنون إلي أن القرآن ليس كتابا روحيا فقط مهمتـه أن يشـرح طـرق القربى إلي ا من غير أن يعني بشيء من وسائل الحياة[1].

ورأينا الخاص أن التفاسير التقليدية ليست ضرورية، بل إنها تسئ أكثر مما تفيد إن القرآن آية فى النسق والصـياغة والمضمون إنه «سكر معقود» وسبيكة محكمة لا شائبة فيهـا وإعجاز فنى وأدبى. والإنسان لا يلتمس للإعجاز تفسيراً. إذ لو حدث لما كان إعجازاً. وشأن القرآن فى هذا هو الشأن فى الجمال يفتن به الإنسان بمجرد أن يـراه، ولا يحتـاج إلـى تفسيرات، لأنه يؤخذ به ويخشع له ويستزيد منه.. وبقدر مـا يحدث هذا، بقدر ما يتحقق الأثر المطلوب. فإذا ما يدخل بين القارئ وهذه العاطفة فإنه يفسده لأنه يميعه ويذهب بترابطـه وإحكامه ويفرض عليه فهم أصحابه وهو دون مستوى القرآن ويستدل عليه بشعر زيد أو عمرو. وربمـا مجاهيـل مـن الأعراب أو أحاديث مرسلة أو منكرة فضلاً عـن أن الفهـم

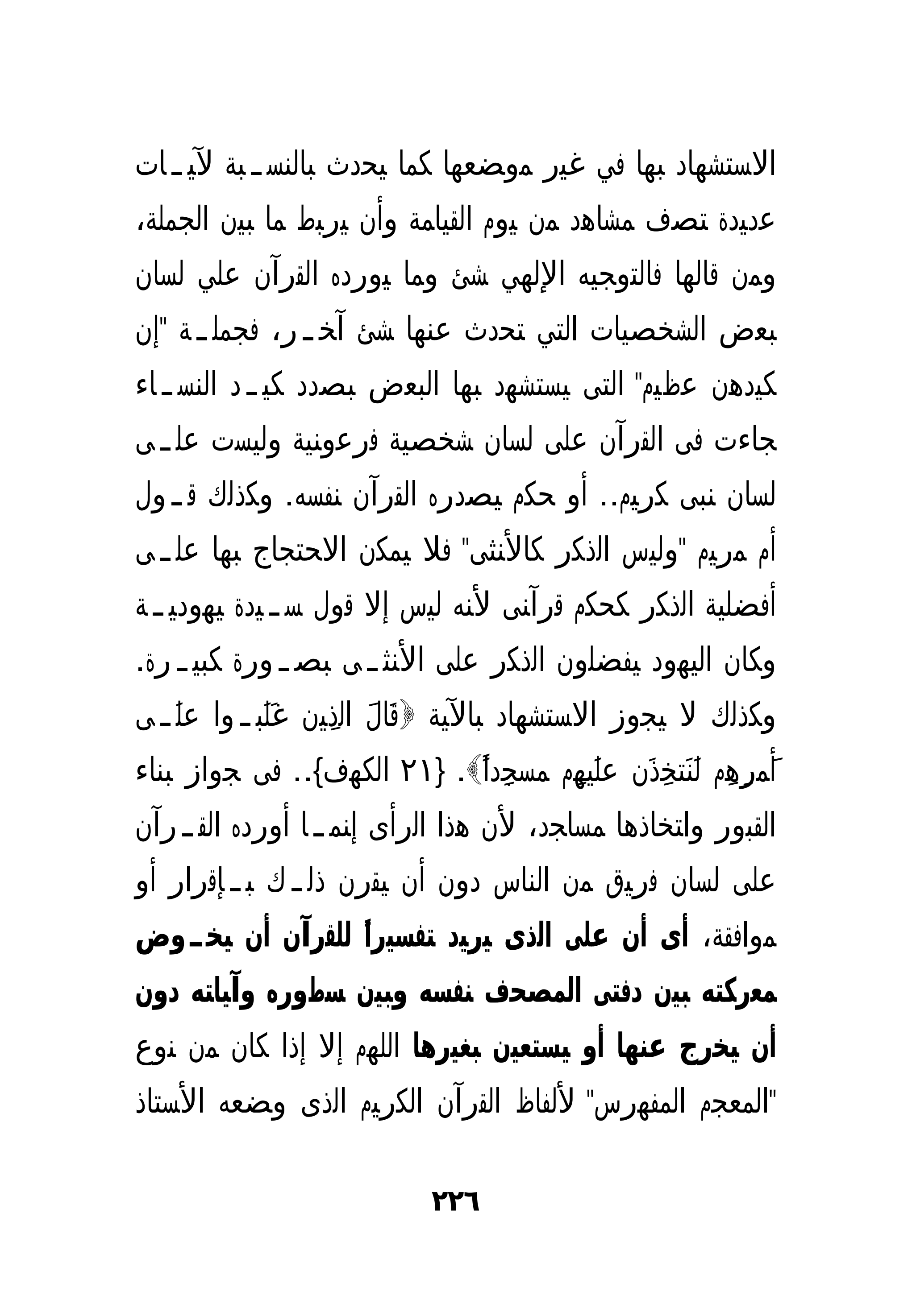
---

(١) كتاب قصة التفسير للشيخ أحمد الشرباصى من ص ١٥٩ إلى ص ١٦٤.

والمناخ والعصر الذى وضعت فيه معظم هذه التفاسير كـان فهماً سقيماً ومناخاً وبيلاً أثر على "نفسية" وذهنية أعظم الأئمة الذين عاشوا فيه كالغزالى والطبرى وابن تيمية فهؤلاء الأئمة الذين لا يشك فى ذكائهم وفهمهـم وإخلاصـهم ومعـرفتهم الموسوعية لم يستطيعوا أبداً التخلص من روح العصر وأملى عليهم أحكاماً لا يمكن تبريرها أو الاعتذار عنها إلا بأنه كان من العسير إن لم يكن من المستحيل أن يتخلص الإنسان من محوطاته ومن المناخ الذى يعيش فيه .

ومطالعة الأجيال المعاصرة لهذه التفاسير يسئ إسـاءة مضاعفة إساءة تتعلق بفهم القرآن، وإساءة تتعلق بإبعاد الجيل عن عالمه وعصره الذي يعيش فيه. والذي لا يمكنه تجاهلـه أو الفرار منه. وستكون نتيجة مثل هذه المطالعة والتعقيد أو الانحراف أو النكوص ..

وإذا كان لابد من تفسير فلا يمكن أن يتصدى لتفسـير القرآن إلا القرآن نفسه فالتلاوة المتكررة للقرآن والتفكير فيه يفتح آفاقه ويجلي معانيه ويستكمل بعضه بعضا مع ملاحظة فهم الآيات في السياق أي ملاحظة ما قبلها وما بعدها وعـدم بترها بحيث يتغير معناهـا ويصـبح "ويـل للمصـلين" أو



الاستشهاد بها في غير موضعها كما يحدث بالنسـبة لآيـات عديدة تصف مشاهد من يوم القيامة وأن يربط ما بين الجملة، ومن قالها فالتوجيه الإلهي شئ وما يورده القرآن علي لسان بعض الشخصيات التي تحدث عنها شئ آخـر، فجملـة "إن كيدهن عظيم" التى يستشهد بها البعض بصدد كيـد النسـاء جاءت فى القرآن على لسان شخصية فرعونية وليست علـى لسان نبى كريم.. أو حكم يصدره القرآن نفسه. وكذلك قـول أم مريم "وليس الذكر كالأنثى" فلا يمكن الاحتجاج بها علـى أفضلية الذكر كحكم قرآنى لأنه ليس إلا قول سـيدة يهوديـة وكان اليهود يفضلون الذكر على الأنثـى بصـورة كبيـرة. وكذلك لا يجوز الاستشهاد بالآية ﴿قَالَ الذِين غَلَبـوا علَـى أَمرِهِم لَنَتخِذَن علَيهم مسجِداً﴾. {٢١ الكهف}.. فى جواز بناء القبور واتخاذها مساجد، لأن هذا الرأى إنمـا أورده القـرآن على لسان فريق من الناس دون أن يقرن ذلـك بـإقرار أو موافقة، **أى أن على الذى يريد تفسيراً للقرآن أن يخـوض معركته بين دفتى المصحف نفسه وبين سطوره وآياته دون أن يخرج عنها أو يستعين بغيرها** اللهم إلا إذا كان من نوع "المعجم المفهرس" لألفاظ القرآن الكريم الذى وضعه الأستاذ

محمد فؤاد عبد الباقى، فخدم القرآن خدمة المسلم الغيور، ومكن من الإفادة منه أضعاف ما يمكن أن يفيده أى تفسير آخر. رحمه ا رحمة واسعة .

والحق أن أى تخصيص للقرآن – سواء كان بطريق أسباب النزول أو لتعريف ما أبهمه القرآن ولم يحدده – بأخبار آحاد (كما هو الحال بالفعل) غير جائز، كما ذهب إلى ذلك داود الظاهرى والخوارج لما ذكروه من أسباب منها :

أن خبر الواحد ظنى الدلالة. والقرآن قطعى الدلالة ولا يجوز ترجيح الظنى على القطعى واتباع الظن مذموم فى القرآن .

لو كان القرآن يحتاج لخبر من أخبار الآحاد لتخصيص عمومه لوجب أن يتواتر ذلك الخبر حتى لا يفوت أحداً من المسلمين العمل به، ولا يكون العامل به عاملاً بالظن. وهو الأمر المذموم فى القرآن الكريم كما تقدم، وحيث أنه لم يتواتر دل ذلك على أن ا لا يريد اتباعه ولا يوجب العمل بمقتضاه على المسلمين .

تحريم ما دل القرآن على حِلّه مخالفه للقرآن الشريف. فيجب رد الحديث، كما يشهد به كل ذى عقل صحيح .

نقول إن هذا هو أقوى ما ينسـف تفسـير المفسـرين القدامى وما أبدعوه من فنون افتاتوا بها على القـرآن ومـن أبرزها تخصيص العموم والنسخ أو أسباب النزول وهى تكاد أن تكون لحمة التفسير وسداه ...

* * *

على أن هذا ليس معناه أن تُمتنع الكتابة عـن القـرآن. فهيهات. فالقرآن هو البحر الذى يحـوى أسـرار الإسـلام وشريعته، ولالئيها الثمينة. ولكن أن تكون الكتابة إلهاماً منـه وتأثراً به فالكاتب هنا يكتب عما فهمه وتأثر به ولكنه لا يقول هذا تفسير القرآن كأنه صاحبه، وا تعـالى هـو صـاحب القرآن. فمن هذا الناحية فإن البحر لا يرفض صيد صـائد، ولا يضن على أحد.. ولا يحول دون النظر إليه والتأمل فيه وملاحظة رياحه، وأمواجه، وامتداده الجميل الرهيب ...

الباب الثانى

تفسير القرآن لدى المحدثين

الفصل الثالث

بعض المفسرين المحدثين

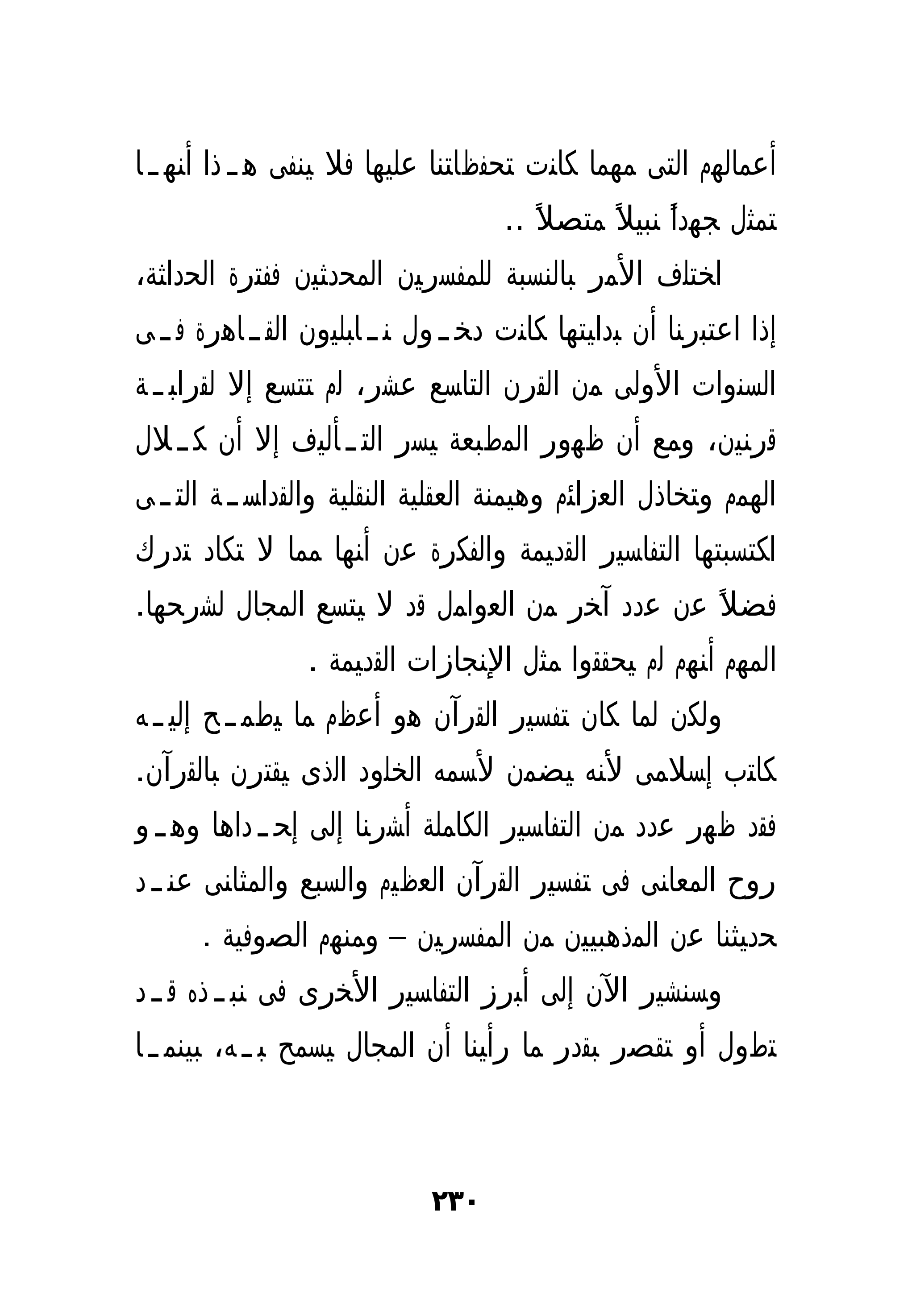
اتسع الوقت طوال الألف سنة التى أعقبت الهجرة وشاهدت ازدهار وتدهور الفكر الإسلامى أمام أئمة التفسير ليؤلفوا مجلداتهم الضخمة. ورغم ضآلة المادة وصعوبة العدة، فقد وجدوا فى الإسرائيليات وفى الأحاديث المنحولة وفى الشعر العربى ما مكنهم من تسويد عشرات الألوف من الصفحات. كما يجب أن نعلم أن المكتبة الإسلامية كانت زاخرة بآلاف الكتب والمراجع عند تدمير بغداد على يد التتار وعند سيطرة الأسبان على الأندلس. ولعلهم استفادوا منها قبل أن تغرق فى نهر دجلة أو تحرق فى أسواق الأندلس. وكان هؤلاء الأئمة رغم كل الصعوبات التى جابهوها ورغم أن عصرهم كان عصراً مغلقاً، يندفعون بقوة الإبداع والإنشاء ونشوة المعرفة والإيمان وأنهم يضعون فنوناً جديدة أمام الناس ويتقربون بها إلى ا . لهذا استطاعوا أن ينجزوا

أعمالهم التى مهما كانت تحفظاتنا عليها فلا ينفى هـذا أنهـا تمثل جهداً نبيلاً متصلاً ..

اختلف الأمر بالنسبة للمفسرين المحدثين ففترة الحداثة، إذا اعتبرنا أن بدايتها كانت دخـول نـابليون القـاهرة فـى السنوات الأولى من القرن التاسع عشر، لم تتسع إلا لقرابـة قرنين، ومع أن ظهور المطبعة يسر التـأليف إلا أن كـلال الهمم وتخاذل العزائم وهيمنة العقلية النقلية والقداسـة التـى اكتسبتها التفاسير القديمة والفكرة عن أنها مما لا تكاد تدرك فضلاً عن عدد آخر من العوامل قد لا يتسع المجال لشرحها. المهم أنهم لم يحققوا مثل الإنجازات القديمة .

ولكن لما كان تفسير القرآن هو أعظم ما يطمـح إليـه كاتب إسلامى لأنه يضمن لأسمه الخلود الذى يقترن بالقرآن. فقد ظهر عدد من التفاسير الكاملة أشرنا إلى إحـداها وهـو روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع والمثانى عنـد حديثنا عن المذهبيين من المفسرين – ومنهم الصوفية .

وسنشير الآن إلى أبرز التفاسير الأخرى فى نبـذه قـد تطول أو تقصر بقدر ما رأينا أن المجال يسمح بـه، بينمـا



ستخصص فقرات كل واحدة فى بضع صفحات لثلاث مـن التفسيرات رأينا أنها تستحق أهمية خاصة ..

فمن التفاسير التى رزقت شهرة خاصـة "فـى ظـلال القرآن" للكاتب الشهيد سيد قطب وقد بدأه فى الخمسينات من القرن العشرين ونشر بعضه فى مجلة "المسلمون" التى كـان يصدرها الدكتور سعيد رمضان من القـاهرة ثـم دمشـق، وأخيراً جنيف ولعل أولى طبعاته هى التى طبعتهـا مطبعـة الباب الحلبى فى ثلاثين جزء صغيراً حسب أجزاء القـرآن الكريم ثم تتابعت طبعاته لما أحاط بقضية الشهيد سيد قطـب من شهرة كللت بتاج الشهادة .

ويغلب الأسلوب الأدبى المميز للشهيد سيد قطب، وهـو بالطبع بعيد عن الإسرائيليات والمؤتفكات ولكن يسرى فيـه من أوله إلى آخره "عِرق" مذهبى هو "الحاكمية الإلهية" التى آمن بها ودافع عنها وضحى بحياته فى سبيلها. ومن المؤسف أن صيحة الحاكمية الإلهية كانت شئوما عندما ارتفعت علـى أفواه الخوارج أول مرة فى عهد الإمام على بن أبى طالـب. وكانت شؤما عندما بعثها قلم سيد قطب فى العصر الحـديث وإيذانا بتحول سيئ فى الدعوة الإسلامية .

تفسير الشيخ عبد الحميد بن باديس الذى حفظ للجزائر عروبتها وإسلامها بفضل القرآن الذى عكف على تفسيره قرابة ٢٥ عاماً. وتفسير الشيخ محمد حسين فضل ا الزعيم الشيعى اللبنانى الذى عرف بدرجة كبيرة من الاستقلالية والإبداع .

ومن المؤسف أن السياسة التى وضعها الاستعمار فى عزل البلاد الإسلاميين بعضها والحيلولة دون تواصلها وبوجه خاص فى المجال الثقافى لا تزال متبعة بعد أن رحل المستعمر وترك لنا عصاته المسحورة التى تلمس أثرها فى كل مجال. فلم تقم النظم التى ادعت الاستقلال بدعم الأواصر مع بعضها بعضا. ونتيجة لعدم التواصل فإن هذه الكتب القيمة لم تعرف بشكل واسع فى مصر. ولا يتيسر الحصول عليها بسهولة .

ووضع العلماء المصريون عديداً من التفاسير من أبرزهم الشيخ محمود شلتوت والشيخ مصطفى المراغى والشيخ محمد أبو زهرة والأستاذ عبد الكريم الخطيب "تفسير القرآن بالقرآن" كما أن الكاتب الموسوعى القديم الأستاذ

محمد فريد وجدى وضع تعليقات موجزه على كل سورة من سور القرآن .

وعنى الشيخ محمد الغزالى السقا، وهـو مـن الكتـاب الأزهريين النابغين الذين التحقوا بدعوة الإخوان المسلمين من سنواتها الأولى فاستفاد منها وكتب فى صفحتها الأولـى ثـم أفادها بعد ذلك .

وعنى الشيخ محمد الغزالى بالقرآن الكريم وأصدر فـى ذلك عدداً من الكتب منها: "نظرات فى القرآن" (١٩٦١) فى ٨٠ صفحة من القطع الكبير. و"المحاور الخمسـة" للقـرآن الكريم فى ٢٤٦ صفحة من القطع الكبير وهو أشـبه شـىء بتفسير موضوعى لموضوعات خمس ارتأى أنهـا محـاور القرآن: المحور الأول ا تعالى – المحور الثانى الكون الدال على خالقة المحور الثالث القصص القرآنى المحور الرابـع البعث والجزاء المحور الخامس التربية والتشريع، وأخيـراً أصدر "نحو تفسـير موضـوعى لسـور القـرآن الكـريم والموضوعية فيه ليست لموضوعات القرآن ولكن فى سـور القرآن سورة سورة .

ويمكن القول أنه ما من عالم إسلامى نابه إلا وحاول أن يصل أسبابه بالقرآن الكريم ليحظى ببركته وينتابه حظ من شهرته.. وقد نشرنا فى موضوع سابق من هذا الكتاب بعض ما جاء فى كتاب "النبأ العظيم" للشيخ محمد عبد ا دراز تفسير سورة أو سور أو جزء أو أجزاء .

ويستحق التنوية بشكل خاص تفسير سورة الكهف فى ثلاث مقالات كتبها السيد أبو الحسن الندوى فى ثلاثة أعداد من مجلة "المسلمون فى سنتها السادسة" وهذه كان يصدرها الدكتور سعيد رمضان من جنيف وأراد بها السير على غرار مجلة الشهاب التى أصدرها الإمام الشهيد حسن البنا وكان سعيد رمضان هو سكرتير تحريرها .

ونحن نعتذر لأننا لا نستطيع أن نتقصى كل ما كتب عن القرآن. فضلاً عن أن هذا يضيق به المجال، ولكننا سنفصل القول شيئاً ما عن تفسير الشيخ محمد عبده والسيد رشيد رضا (تفسير المنار) وتفسير التحرير والتنوير للعلامة تونسى الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، وأخيراً طريقة التفسير التى انتهجها الشيخ محمد متولى الشعراوى فى العقود الأخيرة من القرن. واكتسبت شعبيه وشهرة مدوية ..

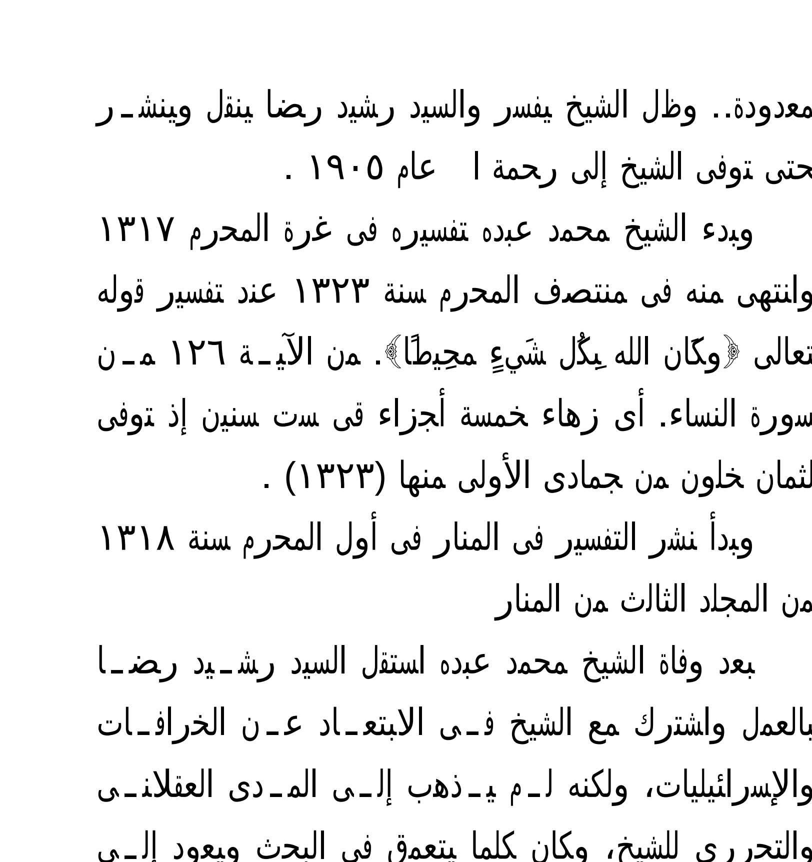
– ١ –

تفسير المنار

(الشيخ محمد عبده والسيد رشيد رضا)

كان الشيخ محمد عبده هو رائد النهضة فى مجال الفكر الإسلامى قدر ما كان الأفغانى هو الرائد فى مجال اليقظـة السياسية .

وكان من توفيق ا أن قيض للشيخ محمد عبده وهو فى قمة النضج مريداً مخلصاً نابغاً هو السيد محمد رشيد رضـا الذى هاجر من لبنان إلى القاهرة وأملاً فى أن يصدر صحيفة إسلامية حرة "هى المنار" وقد تحقق هذا بفضل توجيه ودعم الشيخ. ثم نشأت فى ذهن السيد رشيد رضا فكرة كتابة تفسير الشيخ الذى كان يلقيه ونشره فى المنار، وكان الشيخ محمـد عبده زاهداً أول الأمر فى ذلك ولكنه رضخ لإلحاح مريـده الأثير. وبدأ الشيخ رشيد رضا ينقل ما يقوله الشيخ إما بعبارة الشيخ نفسه، أو بما يقرب منها من وضع السيد رشيد رضا، وكان يطلعه أولاً بأول، وكان يتقبله ولم يغيـر إلا كلمـات



معدودة.. وظل الشيخ يفسر والسيد رشيد رضا ينقل وينشـر حتى توفى الشيخ إلى رحمة ا   عام ١٩٠٥ .

وبدء الشيخ محمد عبده تفسيره فى غرة المحرم ١٣١٧ وانتهى منه فى منتصف المحرم سنة ١٣٢٣ عند تفسير قوله تعالى ﴿وكَان الله بِكُل شَيءٍ محِيطًا﴾. من الآيـة ١٢٦ مـن سورة النساء. أى زهاء خمسة أجزاء قى ست سنين إذ توفى لثمان خلون من جمادى الأولى منها (١٣٢٣) .

وبدأ نشر التفسير فى المنار فى أول المحرم سنة ١٣١٨ من المجلد الثالث من المنار

بعد وفاة الشيخ محمد عبده استقل السيد رشـيد رضـا بالعمل واشترك مع الشيخ فـى الابتعـاد عـن الخرافـات والإسرائيليات، ولكنه لـم يـذهب إلـى المـدى العقلانـى والتحررى للشيخ، وكان كلما يتعمق فى البحث ويعود إلـى مراجعة كلما أوغل فى بحار السلفية وأجوائها وأخذته إليها.. على أنه أبرز بجلاء عدداً من القضايا الهامة التى عنى بهـا القرآن كيسر الإسلام ومرونة أحكامه وتكيفه مع الأوضـاع والتطورات، كما ابرز الأصول الاجتماعيـة التـى تحكـم

المجتمعات وعنى بوجه خاص بمقاومة الاسـتبداد وإبـراز الشورى ..

وعلى هذا فإن الحكم على تفسير المنار يجب أن ينقسم إلى قسمين

الأول ما ينطبق على تفسير الشيخ محمد عبده، وتتركز أهمية هذا القسم فى أمور منها: أنه وإن سار علـى طريقـة المفسرين في تفسيرهم القرآن سورة سورة فإن طريقة تفسيره اختلفت اختلافاً كبيراً. فاستبعدت كل الإسرائيليات ولم يعـد التركيز علي "المأثور" "والمنقول" ولكن المعاني وما تدل عليه الكلمات والسياق. مع الإفادة في ذلك بثقافة العصر الحـديث التي ألم بها الشيخ فتفسير محمد عبده كان الخطـوة الأولـي علي طريق المحدثين وربما كانت أفضلها في تفسير القرآن .

ومنها أنه بحكم ثقافته وروح العصر رفـض التسـليم بكثير من الثوابت فى التفسير كرفض المعجزة فى تصـوير "الطير الأبابيل وحجارة من سجيل" مع أن هذا لم يكن لضيره كمفكر عقلانى مسلم لأن من المسلم به أن وقوع المعجـزات لا يخل بالنواميس المقررة، لأن المعجزات ليست إلا استثناء وكان لابد منها فى ظروفها ووقوعها لا يخل بالأسـس لأن

الاستثناء لا حكم له ولا يخل بعقلانية مفكر مسـلم التسـليم بالمعجزات كمعجزات وطوارئ، وقد يكون هناك ما جعـل الشيخ يأخذ هذا المسلك الذى انتقده طه حسين نفسه[1]. وقـد انكر الشيخ ما حفلت به التفاسير عن سحر يهودى للرسـول وقد كان فى هذا أدنى إلى الصواب من معارضيه (وقد كـان منهم الشيخ رشيد رضا نفسه) .

إن هذا الاتجاه الذى أقدم عليه الشيخ غيـر هيـاب ولا وجل هو ما يستحق التقدير وبصـرف النظـر عـن مـدى الصواب والخطأ فيه، ولو فاته الصواب فلن يخطئـه أجـر الاجتهاد ويكفيه فخراً أنه أزال تلك الأحجار والعوائق التـى كانت تسد طريق الفكر الجديد .

وأخيراً فإن أثر الشيخ وتفسيره عم العـالم الإسـلامي بفضل زياراته للشمال الأفريقي والدول الأوربية فضلا عـن مصر ولبنان. وبفضل انتشار المنار فى العالم الإسلامى وقد اعتبر كتاب "الإمام محمد عبده ومنهجـه فـي التفسـير" أن مدرسة الشيخ محمد عبده في التفسير ضـمت الشـيخ عبـد القادر المغربي والشيخ محمد مصطفي المراغـي والشـيخ

(١) لعل هذا الانفعال كان رداً على تفسير يقول أن كل حجارة من حجـارات السجيل كانت تحمل اسم من تقع عليه بالذات وتهلكه .

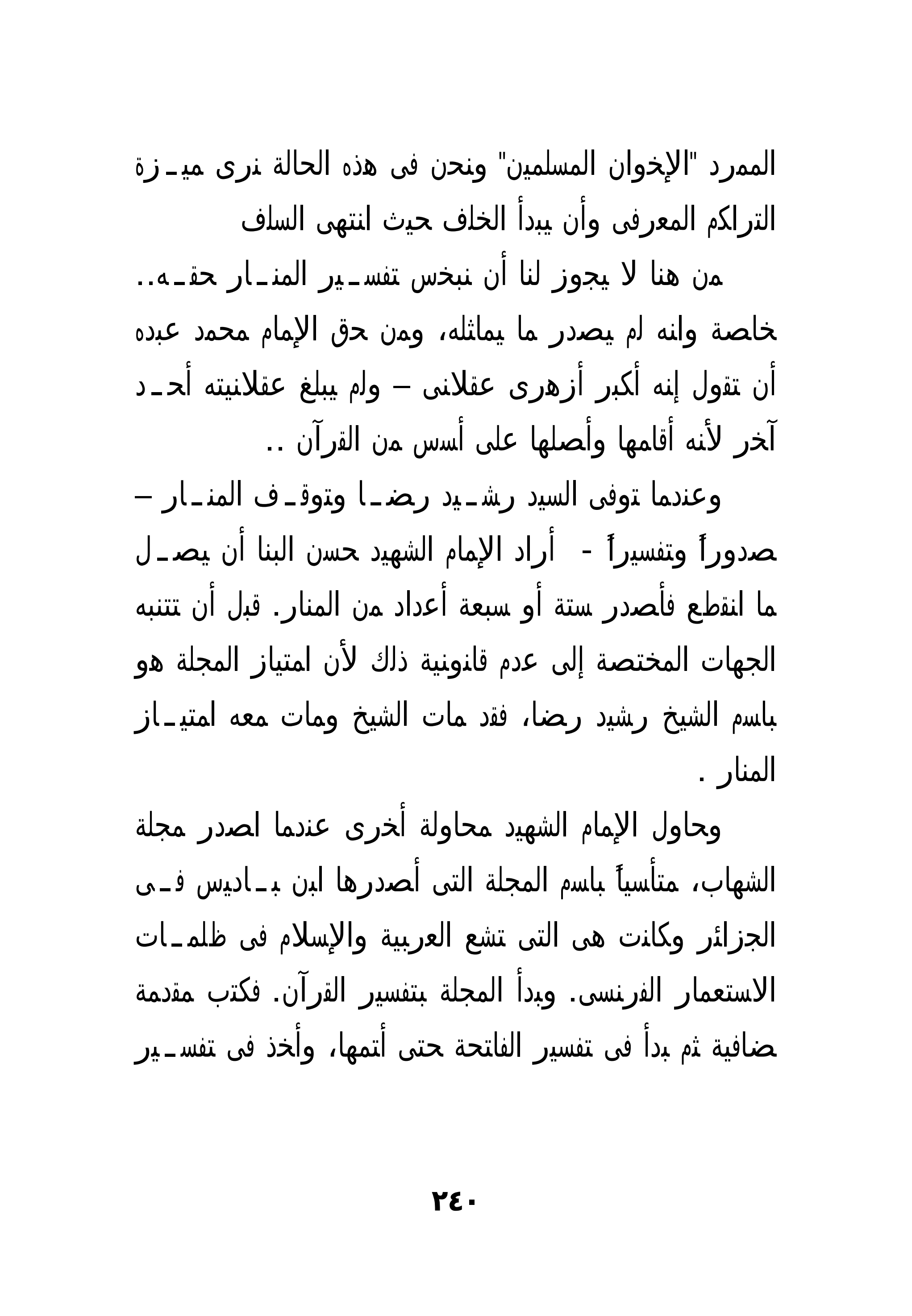
جمال الدين القاسمى (صاحب محاسن التأويل) والشيخ عبـد الحميد بن باريس علامة الجزائر ومؤسس جمعيـة العلمـاء والذي ظل ٢٥ عاماً يلقي دروسه عن التفسير والشيخ الطاهر بن عاشور علامة تونس وصاحب (التحوير والتنـوير) فـي ١٢ مجلد. والشيخ محمود شلتوت وبقية التـابعين كالشـيخ المدني والشيخ محمد عبد ا دراز وغيرهم[1]. ويمكـن أن يضاف إلى هؤلاء جيل، بل أجيال جاءت بعده .

أما القسم الثانى من التفسير وهو الذى تولاه السيد رشيد رضا فقد أشرنا إليه فى النبذة السابقة وقد انسأ ا تعالى لـه فى العمر حتى أمضى أكثر من ثلاثين عاماً فى تفسيره .

وقد قلنا فى إحدى المناسبات أن تفسير المنار قدم للإمام الشهيد حسن البنا قاعدة للفكر الإسلامى تبـرأ مـن لوثـات عصور الانحلال ويمكن أن تكون نقطة بداية له يسـتطيع أن يسير بها إلى ما يشاء من التقدم، ولولا تفسيره – وما قدمـه المنار من مراجع – لكان على الإمام الشهيد أن يقوم بـذلك بنفسه وليضحى بثلاثين عاماً.. فى حين أن ا تعالى قدر له أن يستشهد فى أربعينات العمر، بعد أن شيد هـذا الصـرح

---

2) الأمام محمد عبده ومنهجه في التفسير للدكتور عبد الغفار عبد الرحيم دار – القاهرة من ص ٣١٩-٤٠٩ .



الممرد "الإخوان المسلمين" ونحن فى هذه الحالة نرى ميـزة التراكم المعرفى وأن يبدأ الخلف حيث انتهى السلف

من هنا لا يجوز لنا أن نبخس تفسـير المنـار حقـه.. خاصة وانه لم يصدر ما يماثله، ومن حق الإمام محمد عبده أن تقول إنه أكبر أزهرى عقلانى – ولم يبلغ عقلانيته أحـد آخر لأنه أقامها وأصلها على أسس من القرآن ..

وعندما توفى السيد رشـيد رضـا وتوقـف المنـار – صدوراً وتفسيراً - أراد الإمام الشهيد حسن البنا أن يصـل ما انقطع فأصدر ستة أو سبعة أعداد من المنار. قبل أن تتنبه الجهات المختصة إلى عدم قانونية ذلك لأن امتياز المجلة هو باسم الشيخ رشيد رضا، فقد مات الشيخ ومات معه امتيـاز المنار .

وحاول الإمام الشهيد محاولة أخرى عندما اصدر مجلة الشهاب، متأسياً باسم المجلة التى أصدرها ابن بـاديس فـى الجزائر وكانت هى التى تشع العربية والإسلام فى ظلمـات الاستعمار الفرنسى. وبدأ المجلة بتفسير القرآن. فكتب مقدمة ضافية ثم بدأ فى تفسير الفاتحة حتى أتمها، وأخذ فى تفسـير

آيات من سورة البقرة عندما وافاه المصير المحتوم. وقد قمنا بجمع هذا التفسير فى كتاب مستقل ..

وكان يمكن لهذا التفسير لو استمر أن يقدم إضافة مميزة فى هذا المجال لما عرف به الإمام الشهيد من ذكاءه ولماحية واستيعاب، وإطلاع مما كان يجعل تفسيره نسقاً وجده ..

– ٢ –

تفسير الشيخ الطاهر بن عاشور

يتميز هذا التفسير بمقدمات عشر قدم بها مؤلفة تفسـيره حتى يكون لدى قارئه فكرة عامة عن أساسـيات التفسـير، وكيف يتعامل مع ألفاظه ومعانية وصباغته ونظمه. وقد كتب هذه المقدمات بلغة سهلة، سائغة، رغم أنه فى بعض الحالات يؤثر أساليب البلاغة القديمة، كما أنه سـلك منهجـاً وسـطا واعتقد أن هذه المقدمات هى خير ما يقدم ليس بـين يـدى التفسير – بل بديلاً عن التفسير. وأنها فى التفسير كمقدمـة ابن خلدون فى التاريخ .

المقدمة الأولى عن "التفسير والتأويل وكـون التفسـير علماً – مع بعض التسامح – كما قال. وإنما عده المتقـدمون علما لوجوه ستة أشار إليها بما لا يتسع له المجال، وأبرز أن

التفسير هو أول العلوم الإسلامية، وتحـدث عـن أول مـن صنف فيه وهو عبد الملك بن جريج (ولد سنة ٨٠ وتـوفى سنة ١٤٩) وأشار إلى أن أكثر رواياته عن ابن عباس ولـم يفته رغم توثيق بعضها أن يقول والحاصل أن الرواية عـن ابن عباس قد اتخذها الوضاعون والمدلسون ملجأ لتصحيح ما يروونه كدأب الناس فى نسبة كل أمر مجهول من الأخبـار والنوادر لأشهر الناس فى ذلك المقصد كما عالج الفرق بـين التفسير والتأويل .

وتعنى المقدمة الثانية "باستمداد علم التفسير" وهو يعنى باستمداد العلم توقفه على معلومات سابق وجودها على ذلـك العلم، فتكون عونا لهم على إتقان تدوين ذلك العلم وسمى ذلك فى الاصطلاح بالاستمداد تشبها بطلب المدد. وأهم مادة فـى هذا العربية متن اللغة والتصريف والنحو والمعانى والبـديع الخ... وأبرز الدور الكبير للمجاز، ولكنه اتبع سنة المتقدمين فى العودة إلى أشعار العرب للتعرف على بعض ألفاظ القرآن وهو أمر يحتمل الجدل، كما أنه أخذ بما ذهب إليه السلف من اعتبار "الآثار" واستبعد أن يكون الفقه وأصوله ممـا يلـزم للمفسر، لأن علم الفقه فرع من التفسـير ومتوقـف عليـه.

واستمداد التفسير من هذه العلوم لا ينفى أنـه رأس العلـوم الإسلامية .

وعالجت المقدمة الثالثة صحة التفسير بغيـر المـأثور ومعنى التفسير بالرأى ونحوه: فاستبعد من التفسير بـالرأى الذى نهى عنه الحديث وتعوذ منه أبو بكر استلهام المعـانى القرآنية – وأورد قول الغزالى والقرطبى "لا يصح أن يكون كل ما قاله الصحابة فى التفسير مسموعاً من النبـى عليـه الصلاة والسلام. وهو يقول أن استنباط الأحكام الشرعية من القرآن خلال القرون الثلاثة الأولى من قرون الإسلام لم يكن إلا من قبيل التفسير لآيات القرآن بما لـم يسـبق تفسـيرها واستشهد بما قاله شرف الدين الطيبى فى شرح الكشاف فـى سورة الشعراء "شرط التفسير الصحيح أن يكون مطابقاً للفظ من حيث الاستعمال سليما من التكلف!! وما جاء على خلاف ذلك فهو "بدع التفاسير"

وفى رأى الطيب بن عاشور أن الرأى المذموم هـو أن يكون مجرد خاطر دون استناد إلى أدلة العربية أو يكون ميلاً أو نزعة مذهبية .

وفى الوقت نفسه فإنه انتقد الـذين يقولـون إن تفسـير القرآن يجب أن لا يعدو ما هو مأثور فتساءل مأثور عن من إذا كان من الرسول قال ذلك سيضيق من سعة معانى القرآن وينابيعه وحتى لو كان المأثور عن الصحابة فإنه لن يعنى إلا قليلاً لأن أكثر الصحابة لا يؤثر عنهم فى التفسير إلا شـىء قليل ..

وأشار إلى أن فريقاً من غلاة الشيعة من الإسـماعيلية أولوا الآيات بما يخرج عن معناها كما انتقد ما يتكلم به أهل الإشارات الصوفية وقال أنهم لا يعنون بذلك تفسير القـرآن ولكنهم يستدلون بها فى الغرض المتكلم فيه .

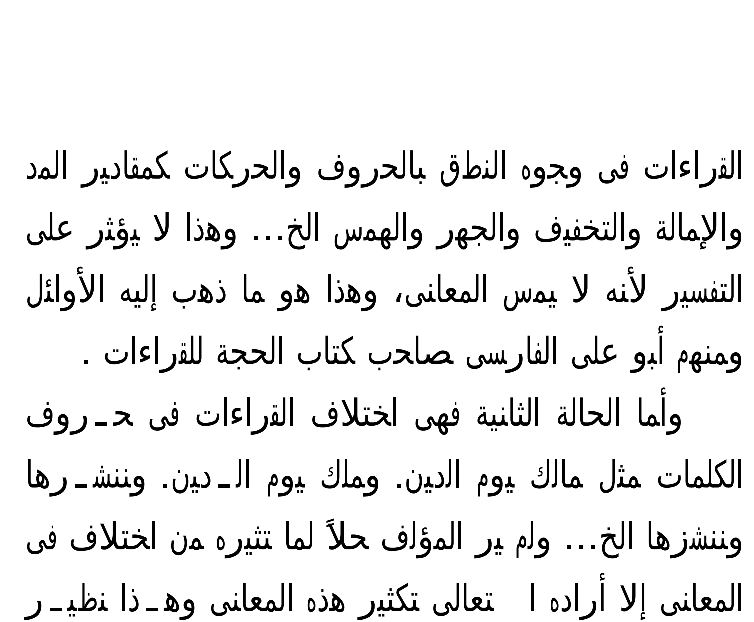
والمقدمة الرابعة فيما يحق أن يكون غرض المفسر وهو يوضح فيه – بعد ما قال رأيه فى التفسير بالرأى والمـأثور الخ... فيما يحق للمفسر أن يتطرق إليه فوضح أن ا   أنـزل القرآن لصلاح أمر الناس كافة، سواء فـى ذلـك الفـرد أو الجماعة ومن هنا فيجب على المفسـر أن يلـم بالعناصـر المكونة لهذا الإصلاح وأولها إصلاح الاعتقاد وثانيها تهذيب الأخلاق وثالثها التشريع أى الأحكام والرابع سياسة الأمة الخ ...

وانتقل إلى وصف طرق المفسرين ما بـين الاقتصـار على الظاهر واستنباط معان وراء الظاهر وهى الطريقة التى مكنت الأوائل من تفصيل الأحكام، كما حدد علاقـة القـرآن الكريم بالعلوم .

وخصص المصنف المقدمة الخامسة لأسـباب النـزول فانتقد ولع بعض المفسرين بأسباب النزول وأوضح أن إرسال حبله على غاربة خطر جسيم وأورد خمسة وجوه لأسـباب النزول منها ما تثيره الآية نفسها مثل ﴿قَد سمِع الله قَولَ التِي تُجادِلُك فِي زوجِها. الخ...﴾.

والثانى حوادث نسبت إليها تشريعات، وكذلك حـوادث تكثر أمثالها تختص بشخص منهم والرابع هو حوادث حدثت وفى القرآن آيات تناسب معانيها سابقة أو لاحقة فيقـع فـى بعض عبارات السلف ما أن تلك الحوادث هـى المقصـودة والقسم الخامس يبين مجملات ويدفع متشابهات. وختم الفقرة بأن القرآن كتاب هداية، والهداية هى المطلب دون غيرها ..

وكانت "القراءات" هى موضوع المقدمة السادسة: وقـد رأى أن للقراءات حالتين إحداهما لا تتعلق بالتفسير والثانيـة لها تعلق من جهات فالحالة الأولى هى ما يتعلـق بـاختلاف



القراءات فى وجوه النطق بالحروف والحركات كمقادير المد والإمالة والتخفيف والجهر والهمس الخ... وهذا لا يؤثر على التفسير لأنه لا يمس المعانى، وهذا هو ما ذهب إليه الأوائل ومنهم أبو على الفارسى صاحب كتاب الحجة للقراءات .

وأما الحالة الثانية فهى اختلاف القراءات فى حروف الكلمات مثل مالك يوم الدين. وملك يوم الدين. ونتشرها وننشزها الخ... ولم ير المؤلف حلاً لما تثيره من اختلاف فى المعانى إلا أراده ا تعالى تكثير هذه المعانى وهذا نظير التضمين فى علم المعانى وهو من زيادة ملاءمة بلاغة القرآن. واستشهد بالحديث المعروف عن عمر بن الخطاب الذى سمع هشام بن حكيم بن حزام يقرأ سورة الفرقان بحروف غير التى كان يقرأ بها عمر بن الخطاب فأخذه بعد الصلاة إلى الرسول فقال الرسول أقرأ يا هشام فقرأ كما قرأ أول مرة فقال الرسول كذلك أنزلت ثم قال لعمر أقرأ يا عمر فقرأها فقال الرسول كذلك أنزلت ثم قال أن هذا القرآن قد انزل على سبعة أحرف فأقرءوا ما تيسر منه. وقال أن فى الحديث أشكال يرجع إلى اعتبارين أحدهما باعتباره منسوخاً والآخر باعتباره محكماً. وبالاعتبار الأول مثل أن هذا كان

رخصة أيام الرسول ثم نسخ بعد ذلك نحمل الناس على لغة قريش لأن بها نزل القرآن أما من ذهبوا إلى أن الحديث محكم فأفضل الأقوال أن المراد من الأحرف لهجات العرب فى كيفيات النطق كالفتح والإطالة الخ... مع المحافظة على كلمات القرآن ..

وهذه المقدمة من أفضل المعالجات لموضوع القراءات ولكن لا يتسع المجال للأسف لمزيد من التفصيل فيها .

<u>وتحدثت المقدمة السابقة عن "قصص القرآن"</u> ورأت أن القرآن لا يذكر القصص لمعرفة المعلومة ولكنه يأخذ من كل قصة أشرف مواضيعها ويعرض عما عداه لأن غرضه ليس التفكه لا المسامرة، ولكن التعليم والهداية، ولهذا ابتعدت عن السرد والتفصيل وركزت على المغزى والدرس والعظة والاعتبار. ومن الواضح أن هذا عندما يساق فى مضمون قصصى يكون أكثر تأثيراً على أن المقدمة استطردت إلى ما تتوصل إليه القصة من إفادة ومن أطرف ما يسوقه أن ذلك ينشئ فى المسلمين همة السعى إلى سيادة العالم وأن يكونوا سادته وهم فى خمول وفرقة، وكذلك معرفة أن قوة ا فوق كل قوة الخ ...

والمقدمة الثامنة فى اسم القرآن، وآياته وسورة وترتيبها وأسمائها، فتحدثت عن "القرآن" و"الفرقان" و"الكتاب" و"الذكر" و"الوحى". كما تحدثت عن الآيات والفواصل ما بينها التـى تؤذن كل فاصلة بنهاية الآية وإن حدث خلاف ذلك فى بعض الحالات .

وذهبت المقدمة إلى أن أطول الآيات قوله تعالى ﴿هـم الذِين كفَروا وصدوكُم عن الْمسجِدِ الْحرامِ والْهدي معكُوفًا أَن يبلُغَ محِله ولَولا رِجالٌ مؤْمِنُون ونِساء مؤْمِنَاتٌ لَم تَعلَمـوهم أَن تَطَئُوهم فَتُصِيبكُم مِنْهم معرةٌ بِغَيرِ عِلْمٍ لِيدخِلَ اللـه فِـي رحمتِهِ من يشَاء لَو تَزيلُوا لَعذبنَا الذِين كفَروا مِـنْهم عـذَابا أَلِيما﴾ {٢٥ الفتح}.. وقوله ﴿واتبعوا ما تَتْلُو الشياطِين علَـى ملْكِ سلَيمان. إلى قوله لو كـانوا يعلمـون.. {١٠٢ سـورة البقرة}.. وهذا غريب لأن المعروف أن أطول آية فى القرآن هى آية الدين فى سورة البقرة ٢٨١ أما مجموع آيات القرآن فقد قال أبو عمرو الدانى فى كتاب العدد أن عدد آيات القرآن يبلغ ستة آلاف آية واختلفوا. فمنهم من لم يزد ومنهم من قال ومائتين وأربع وقيل مائتين وأربع عشرة وقيل تسـع عشـر وقيل خمسة وعشرين وقيل ستة وثلاثين وقيل ستمائة وسـتة

عشرة ويعود جزء من الخلاف إلى عد، أو عدم عد البسـملة آية فى السور .

ولعل أهم نقطة فى هذه المقدمة هى ترتيب الآيات وقال المؤلف إنها بتوقيف من الرسول حسب نزول الوحى ومـن المعلوم أن القرآن نزل منجما آيات وربما نزلت عدة آيـات متتابعة أو سورة كاملة، وذلك الترتيب مما يدخل فى وجـوه إعجازه من بداعة أسلوبه كما سيأتى فى المقدمـة العاشـرة، فلذلك كان ترتيب آيات السورة الواحدة على ما بلغتْنا عليـه متعينا بحيث لو غُير عنه إلى ترتيب آخر لنزل علـى حـد الإعجاز الذى امتاز به، فلم تختلف قراءة الرسول فى ترتيب آى السور على نحو ما هو فـى المصـحف الـذى بأيـدى المسلمين اليوم، وهو ما استقرت عليه رواية الحفـاظ مـن الصحابة عن العرضات الأخيرة التى كان يقرأ بها الرسـول فى أواخر سنى حياته الشريفة، وحسبك أن زيد بن ثابت حين كتب المصحف لأبى بكر لم يخالف فى ترتيب أى القـرآن. وعلى ترتيب قراءة الرسول فى الصلوات الجهرية وفى عديد المناسبات حفظ القرآن كل من حفظه كلا أو بعضا، ولـيس لهم معتمد فى ذلك إلا ما عرفوا به من قوة الحـوافظ، ولـم

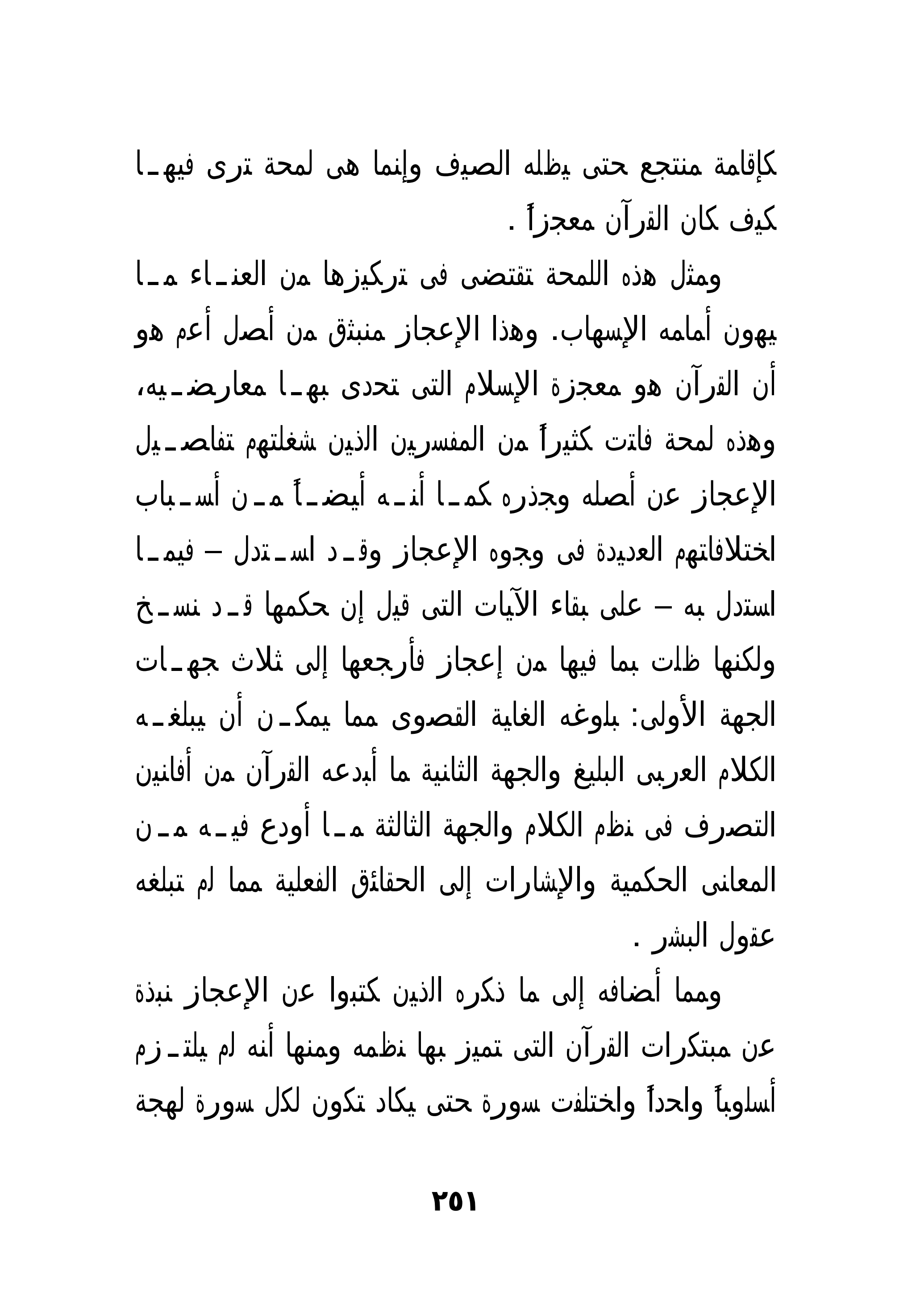
يكونوا يعتمدون على الكتابة، وإنما كان كتاب الوحى يكتبون ما أنزل من القرآن بأمر النبى، وذلك بتوقيت إلهـى. ولعـل حكمة الأمر بالكتابة أن يرجع إليها المسلمون عندما يحـدث لهم شك أو نسيان ولكن ذلك لم يقع .

ولما جمع القرآن فى عهد أبى بكر لم يؤثر عنهم أنهـم ترددوا فى ترتيب آيات من إحدى السور ولا أثر عنهم إنكار أو اختلاف فيما جمع من القرآن فكان موافقـا لمـا حفظتـه حوافظهم، قال ابن وهب: سمعت مالكا يقول إنما ألف القرآن على ما كانوا يسمعونه من رسول ا . وقال ابـن الأنبـارى كانت الآية تنزل جوابا لمستخبر يسأل ويوقف جبريل رسول ا على موضوع الآية .

واتساقُ الحروف واتساقُ الآيات واتساقُ السـور كلـه عن رسول ا صلى ا عليه وسلم .

<u>وعنيت المقدمة التاسعة بالمعانى التى تتحملهـا جمـل القرآن</u> وتعتبر مرادة كبعض قضايا العلاقة ما بين الأسـلوب والمعنى وبعض القضايا اللغوية كسريان "المشترك" الخ ...

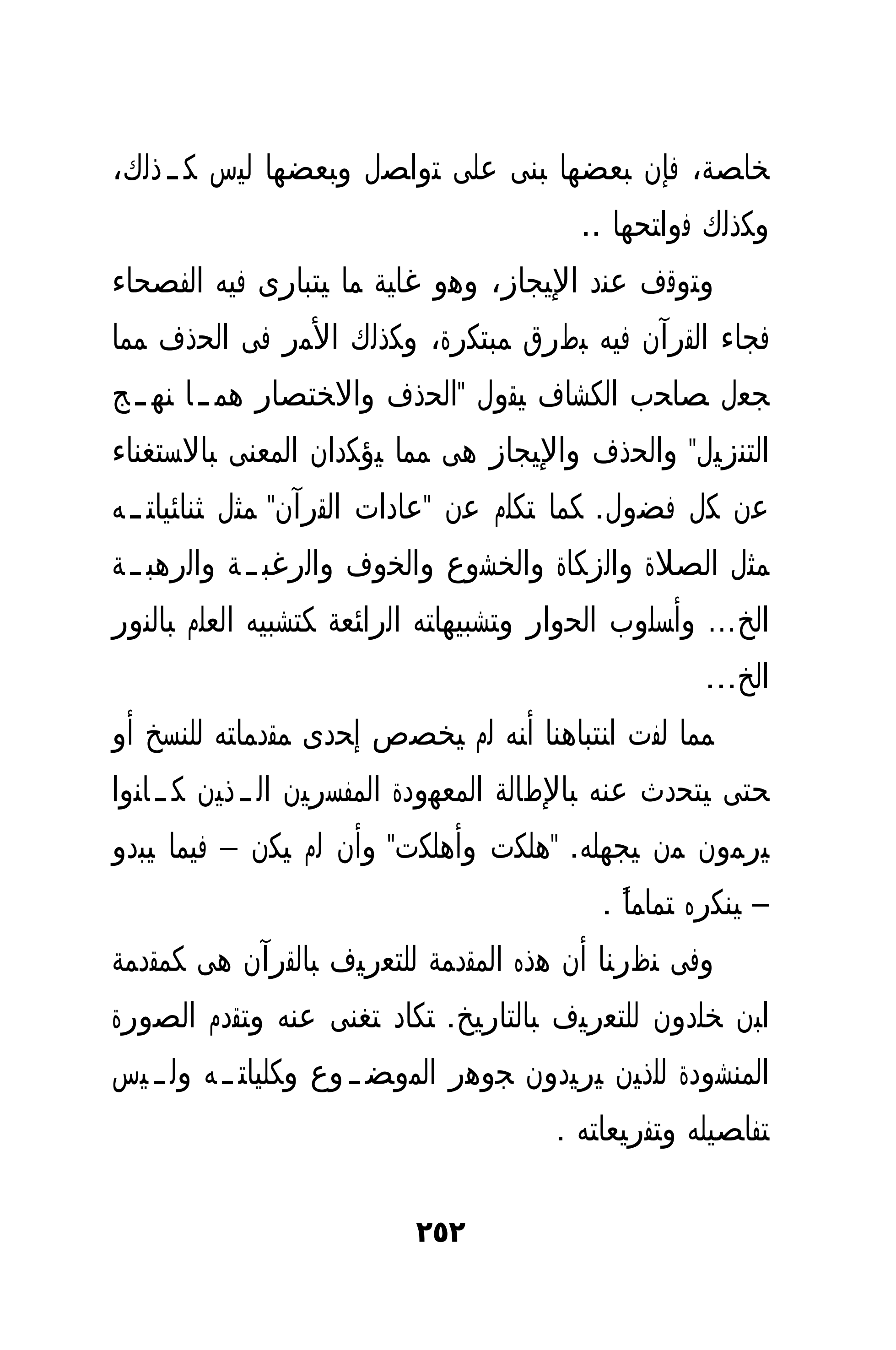
<u>وتختم المقدمات بالمقدمة العاشرة عن إعجاز القرآن</u> وقد أراد أن يعطى القارئ إلمامه ليست كخطرة طيف ولا هـى



كإقامة منتجع حتى يظله الصيف وإنما هى لمحة ترى فيها كيف كان القرآن معجزاً .

ومثل هذه اللمحة تقتضى فى تركيزها من العناء ما يهون أمامه الإسهاب. وهذا الإعجاز منبثق من أصل أعم هو أن القرآن هو معجزة الإسلام التى تحدى بها معارضيه، وهذه لمحة فاتت كثيراً من المفسرين الذين شغلتهم تفاصيل الإعجاز عن أصله وجذره كما أنه أيضاً من أسباب اختلافاتهم العديدة فى وجوه الإعجاز وقد استدل – فيما استدل به – على بقاء الآيات التى قيل إن حكمها قد نسخ ولكنها ظلت بما فيها من إعجاز فأرجعها إلى ثلاث جهات الجهة الأولى: بلوغه الغاية القصوى مما يمكن أن يبلغه الكلام العربى البليغ والجهة الثانية ما أبدعه القرآن من أفانين التصرف فى نظم الكلام والجهة الثالثة ما أودع فيه من المعانى الحكمية والإشارات إلى الحقائق الفعلية مما لم تبلغه عقول البشر .

ومما أضافه إلى ما ذكره الذين كتبوا عن الإعجاز نبذة عن مبتكرات القرآن التى تميز بها نظمه ومنها أنه لم يلتزم أسلوباً واحداً واختلفت سورة حتى يكاد تكون لكل سورة لهجة



خاصة، فإن بعضها بنى على تواصل وبعضها ليس كـذلك، وكذلك فواتحها ..

وتوقف عند الإيجاز، وهو غاية ما يتبارى فيه الفصحاء فجاء القرآن فيه بطرق مبتكرة، وكذلك الأمر فى الحذف مما جعل صاحب الكشاف يقول "الحذف والاختصار همـا نهـج التنزيل" والحذف والإيجاز هى مما يؤكدان المعنى بالاستغناء عن كل فضول. كما تكلم عن "عادات القرآن" مثل ثنائياتـه مثل الصلاة والزكاة والخشوع والخوف والرغبـة والرهبـة الخ... وأسلوب الحوار وتشبيهاته الرائعة كتشبيه العلم بالنور الخ...

مما لفت انتباهنا أنه لم يخصص إحدى مقدماته للنسخ أو حتى يتحدث عنه بالإطالة المعهودة المفسرين الـذين كـانوا يرمون من يجهله. "هلكت وأهلكت" وأن لم يكن – فيما يبدو – ينكره تماماً .

وفى نظرنا أن هذه المقدمة للتعريف بالقرآن هى كمقدمة ابن خلدون للتعريف بالتاريخ. تكاد تغنى عنه وتقدم الصورة المنشودة للذين يريدون جوهر الموضـوع وكلياتـه ولـيس تفاصيله وتفريعاته .

– 3 –

تفسير الشيخ محمد متولى الشعراوى

ليس الشيخ الشعراوى من فرسان التأليف والكتابة ولكنه من فرسان الكلمة "والحكى"، ولم يعرف عنه تأليف وما فـى أيدى الناس من ذلك سواء كان تفسيراً أو فتاوى الخ... هـو مما نقله أتباعه ومريدوه وما أكثرهم ..

بدأت شهرة الشيخ مع برنامج نور على نـور وأحـس مقدمه الأستاذ أحمد فراج أنه وقع علـى نجـم فأفسـح لـه المجال.. وفهم الشيخ من جانبه أنه وقع على كنـز فاهتبـل الفرصة وتدفق "واختلب القول إختلابا[(١)]" وزادت شهرته شيئاً فشيئاً حتى أصبح "إمام الدعاة" وشـيخ المفسـرين وأصـبح معجبوه بالملايين لا فى مصر وحدها بل فـى كـل الـدول الإسلامية، وأصبحت إذاعاته في رمضان قبيل الغروب تنسى الناس الجوع والعطش .

---

(١) هذا التعبير من قصيدة شوقى إلى العمال فى ثلاثينات القـرن الماضـى وجاءت خلال توجيههم أن لا يخدعوا عند اختيار المرشحين لمجلس النـواب بالخطباء فقال:

ليس بالأمر جديراً	كل من ألقى خطابـاً
أو رأى أميـ ـ ـة	فاختلب القول اختلابا

ولا جدال أن هذه الشهرة لا يمكن أن تأتى من فراغ أو تقوم على باطل. فالشيخ لا ينقصه الذكاء. وقد أوتى معرفة دقيقة بنفسية الجماهير وهو يقدم دروسه القرآنية باللغة العامية رغم معرفته الدقيقة باللغة العربية وأسرارها ولا يكتفى بالحديث بل أن كل جسمه يتحدث مذراعه ورأسه وجسمه يميل بحيث تسهم هذه الحركات والسكنات فى التأثير على سامعية، كما يؤثر الممثل على متفرجيه. وقد أصدر أحد من الشانئين له كتيباً باسم "الشيخ الشعراوى وعدوية" نسب فيه نجاح مقولاته بنسبة ٩٠% إلى التمثيل فى الشرح والأداء، وأنه لو كف عن ذلك كما يفعل كل الوعاظ لما واظب أحد على سماعه وقد يكون فى هذا شىء من التجنى، كما قد يكون فيه الشىء الكثير من الحقيقة[1] .

---

(١) أظهرت البحوث والدراسات حول تأثير الكلمة المنطوقة أن قيمة الدلالة أو المعنى، لا تمثل إلا ٧% (فى بعض التقديرات) وأن البقية العظمى من التأثير تعود إلى الصوت والحركات والسكنات. وأن من الممكن أن يتعاظم الأثر نتيجة لارتفاع أثر أو الدعم بحركات مؤيدة. والعكس بالعكس وقد لاحظنا أنفسنا فى الستينات عندما كانوا يقدمون إلينا كمحاضرين "المعينات السمعية والبصرية" والوسائل العديدة لها، أن نبرة الصدق فى صوت المحاضر هى أعظم ما يؤثر فى السامعين، إن الصوت يرتبط بالقلب كما يرتبط باللسان. وعندما يصدر من القلب فإنه يصل للقلب وفى حالة الشيخ الشعراوى فلا جدال فى أنه يؤمن بصدق ما يقوله، وهذا هو سر قوته، بالإضافة إلى فطنته الفطرية "واندماجه" وأنه يشرك الجمهور معه لا على سبيل الامتحان، ولكن لاكتساب الاهتمام .

إن إلقاء الشيخ الشعراوى أحاديثه باللهجة العالية أمر له دلالته. ذلك لأنه كان ضليعاً فى العربية بوجه خاص. وقـد تعرف على الإمام الشهيد حسن البنا أول العهـد بـالإخوان عندما كان البنا يعلم الشباب كيف يرتجلـون الخطـاب دون على أو جعفر أو لحن أو قصـور، وكـان يمكـن للشـيخ الشعراوى لو بقى بالإخوان أن يصبح كالشيخ محمد الغزالى أو الشيخ يوسف القرضاوى، وربما فاقهما. ولكنه انفصل عن الإخوان والوفد. إذ كانت حاسته الوفدية أقوى مـن حاسـته الإخوانية. وهذه أيضا لها دلالتها خاصة عندما تـأتى مـن أزهرى، فيفضل الحزب العلمانى على الـدعوة الإسـلامية. وكان لابد أن يسير إلى قدوة وعندما أتيحت لـه الجمـاهير العريضة التى تمثل الشعب المصرى بما فيـه مـن أميـين وأنصاف متعلمين وغيرهم. فإنه لجأ إلى العاميـة حتـى لا يكون بينه وبينهم حائل "الفصحى" وليمكن أن "يختاب القـول اختلاباً" ولإيجاد المشاركة الوجدانية بينه وبيـنهم، وبصـفة عامة فإن هذا لا يعاب على المتحدث وأن كان ينم عن رغبة فى استكثار الاتباع واكتساب إعجابهم أو انبهارهم بما يروج من تعبيرات دارجة على حساب اللغة الفصيحة، وكذلك على

حساب المستوى الفكرى الذى تعجز العامية عن تصويره فإذا أضفنا إلى العامية الحركات والسكنات والإشارات ودرجـات الصوت، فإنها فى النهاية تثمـر "الديماجوجيـة" أى كسـب الجماهير العريضة بالدق على الأوتـار الحساسـة ولـيس بمخاطبة العقل أو هداية النفس .

وكان من المحتمل أن لا ننكر على الشيخ طريقته التـى يكسب بها الجمهور لولا أن الشيخ يأخذ مستمعيه إلى متاهات من التخريجات اللغوية لا تمثل فائدة حتى لو صحت. وهناك طرائف ونوادر تستهوى الجماهير وهى تنال إعجابهم ولكنها تنتهى إلى نتائج تخالف فيمـا نـرى روح الإسـلام ويقـدم توجيهات لا تقدم ولكنها تؤخر منها مثلاً ما قاله إن على كل واحد ممن سمع إقامة الصلاة أن يدع كل شىء فى يده ولـو كان طبيباً يجرى عملية جراحية، ويبادر فوراً إلى الصـلاة وأثار هذا القول أحد الأطباء هو الدكتور محمد فياض فكتب تعليقاً فى بريد الأهـرام يـوم ٩٤/٤/٢٨ – ١٨ رمضـان ١٤١٤ ص٩ تحت عنوان "استفت قلبك" وفى كتابنا "نحو فقه جديد" (الجزء الأول ص٦٧) رأينا فى هذا دعوة إلى "تـوثين الصلاة" ومن الفتاوى التى خالف فيها الشيخ روح الإسـلام

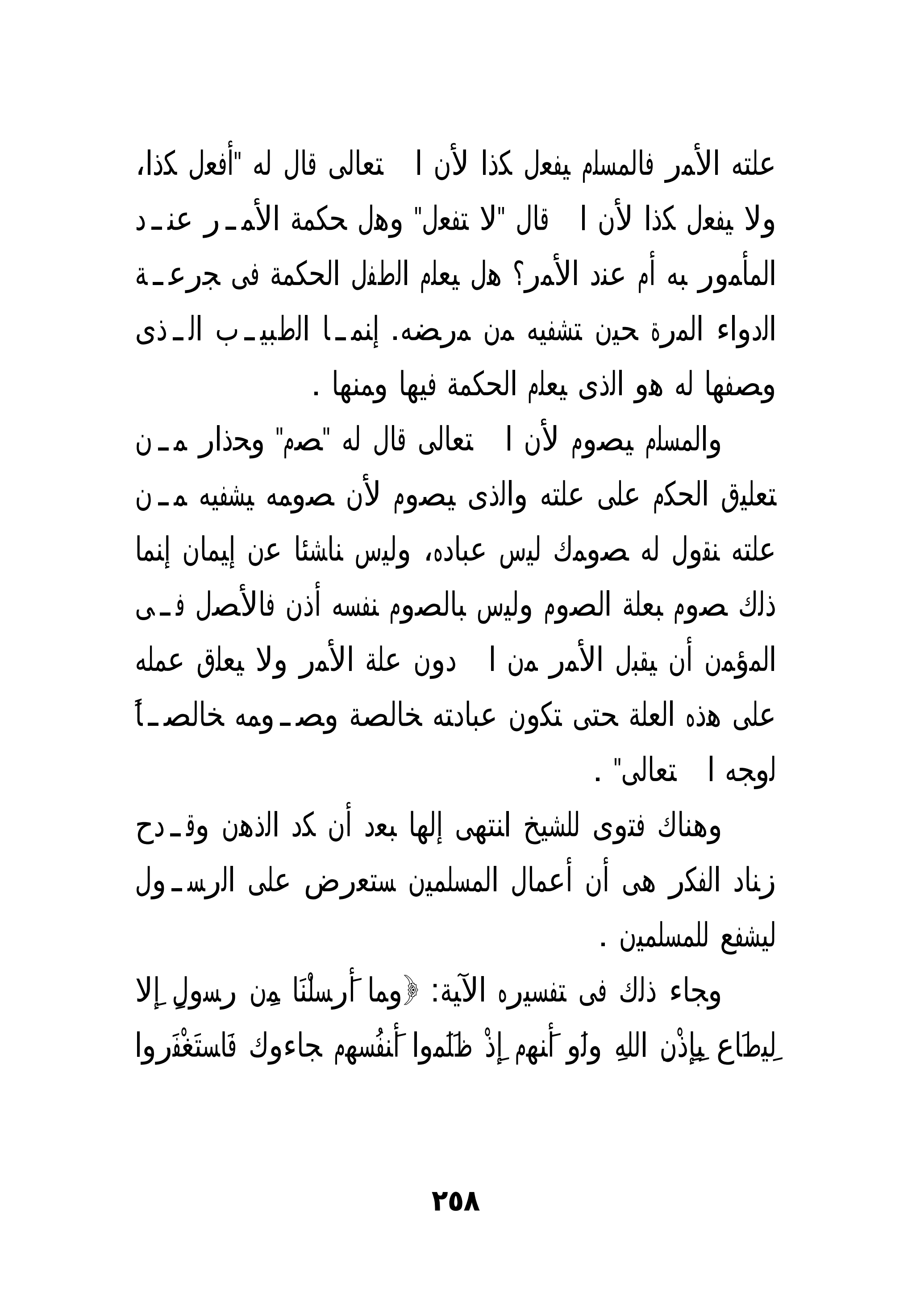
ومقاصده فتواه بعدم إباحة التوصـية بأعضـاء مـن جسـم الإنسان بعد وفاته – أو خلال حياته – ليفيد بها آخرين كنقل كلية إلى مريض مصاب بفشل كلوى أو بالتبرع بالعينين بعد الموت الخ... وبنى الشيخ فتواه تلك على أسـاس أن جسـم الإنسان ليس ملكه، وبالتالى ليس من حقه التصـرف فيـه.. فهل فاته أن ا تعالى هو خالق كل شئ ومالك كل شـئ، ولكن هذا لا يعنى عدم التصرف فيما خلق ا لأنه من خلق ا . وأين هذا من أبى بكر الذى أوصى بأن يكفن فى البـالى من الثوب لأن الحى أحق بالجديد.. وللشيخ كـذلك فتـاوى مذهلة كأن الأرض لا تدور على "عهده" ما نشرته الأخبـار يوم ١٩٩٧/٣/١٤ وهذا قول يماثل قوله إنه لم يقـرأ كتابـاً طوال أربعين عاماً إلا القرآن[١] .

وجاء فى كلام للشيخ عن أن حواء خلقت من أب فقـط دون أم، خلقت من أحد أضلاع آدم، وهى قصـة توارتيـة ودست فى الأحاديث والمرويات .

ووقف الشيخ فى قضية "تعليل الأحكام" موقفـا سـلفيا متشدداً فهو يقول "الحكمة فى كل أمر تكليفى لمن آمـن بـه

---

(١) وأنظر أيضاً ما جاء فى هامش ص   من هذا الكتاب.



علته الأمر فالمسلم يفعل كذا لأن الله تعالى قال له "أفعل كذا، ولا يفعل كذا لأن الله قال "لا تفعل" وهل حكمة الأمـر عنـد المأمور به أم عند الآمر؟ هل يعلم الطفل الحكمة فى جرعـة الدواء المرة حين تشفيه من مرضه. إنمـا الطبيـب الـذى وصفها له هو الذى يعلم الحكمة فيها ومنها .

والمسلم يصوم لأن الله تعالى قال له "صم" وحذار مـن تعليق الحكم على علته والذى يصوم لأن صومه يشفيه مـن علته نقول له صومك ليس عباده، وليس ناشئا عن إيمان إنما ذلك صوم بعلة الصوم وليس بالصوم نفسه أذن فالأصل فـى المؤمن أن يقبل الأمر من الله دون علة الأمر ولا يعلق عمله على هذه العلة حتى تكون عبادته خالصة وصـومه خالصـاً لوجه الله تعالى" .

وهناك فتوى للشيخ انتهى إلها بعد أن كد الذهن وقـدح زناد الفكر هى أن أعمال المسلمين ستعرض على الرسـول ليشفع للمسلمين .

وجاء ذلك فى تفسيره الآية: ﴿وما أرسلْنَا مِن رسولٍ إلا لِيطَاع بِإِذْنِ اللهِ ولَو أَنهم إِذْ ظَلَموا أَنفُسهم جاءوك فَاستَغْفَروا

الله واستَغْفَر لَهم الرسولُ لَوجدوا الله تَوابـا رحِيمـا﴾. {٦٤ النساء} ..

وإليك نص ما قاله الشيخ بلغته كما هى مسـجلة.. [إذن وجدان ا تواباً رحيما مشروط بكم حاجة؟ المسألة الأولنيـة أنتم أعرضتم عن الرسول تروحوا له... تستغفروا ا لأن ما أرسل ا رسولاً إلا ليطاع بإذن ا .. يبقى لما تقعد تختلـف وياه متقلش إنى اختلفت مع الرسول... لا... أنت اختلفت مع ا ، تقوم تستغفر مين؟.. ا .. لكنك لو استغفرت ا ، ولـم يقبل منك الرسول ذاك ولم يستغفر لك يبقى لا مجيئـك ولا استغفارك نافع... مفيش حد أبدا حيصطلح على ربنا مـن ورا محمد عليه الصلاة والسلام.. أبدا... مش ممكن حد كده يعمل باب صلح كده ويروح يصطلح مـع ربنـا مـن ورا محمد.. يبقى ثلاث أشياء: وجدان ا تواباً، ووجـدان ا رحيما مشروط بثلاث حاجات: **١.** يجيئونك. **٢.** يستغفرون ا . **٣.** ويستغفر لهم الرسول حينئذ يجدون ا تواباً رحيما".

ثم قال فضيلته :

"لا أبالغ إذا قلت إنها، يقصد الآية المشار إليها سـابقا، شغلتنى أكثر من عشر سنين نعم، هذه الوقفة حول قول ا :

"ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا ا واستغفر لهم الرسول لوجدوا ا توابا رحيما". ذلك يا ربى تمحيص مـن عاصر رسولك فما بال الذين لم يعاصروه؟ أيـن الممحـص الذى يقابل هذا لمن لم يعاصر حضرة النبى.. والرسول إنما جاء للناس جميعا يوجد ممحص لقوم عاصروا رسول ا ثم يحرم من جاءوا بعد رسول ا من التمحيص؟ هـذه مسـألة ظلت فى ذهنى ولم أجد لها جوابا إلا أنى قلـت: لقـد ثبـت عندى وعند بعض أهل العلم أن رسول ا قال: حياتى خير لكم ومماتى خير لكم.. شوف التطمين.. تعرض على أعمالكم فإن رأيت خيرا حمدت ا وإن رأيت غير ذلك عملت إيـه؟ استغفرت لكم. آه كان حتة استغفار الرسول دى بيسـتغفرها، يبقى ما بقى منها إلا أن نستغفر ا ... وما بقـى منهـا إلا جاءوك... طيب يجيئون لسنتك يجيئون لما تركت... إذا كان هو قال: تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدى، فكما أن الأحياء يجيئونه نحن نجئ إلى حكمه نجئ علـى سـنته، نجئ إلى تشريعه... وهو يستغفر جـاهز... بيسـتغفر لنـا

كلنا... يبقى دى حتة وانتهت، يبقى بقى نعمل إيه، نستغفر ا] انتهى[1] .

ولا جدال فى أن الشيخ قد شط بعيداً وخالف أصول الإسلام التى تجعل العمل هو مبرر الحساب والعقاب، والتى تجعل التوبة والحسنات تجب الأثم والسيئات والتى لا تعلق ذلك فى العديد من الآيات على شفاعة الرسول

ولما كان للشيخ نفوذ على الجماهير (نسبه أحد الكتاب إلى أن الأمية هى ما بين ٦٠ و٧٠ وأن المتعلمين أنفسهم ليس لديهم سوى ثقافة سطحية) فإن من شأن هذه الفتاوى أن تحول دون تقدم المجتمع، ودون استخدام العقول، فكأنه يوحى الناس السير عميانا، لأن العقل هو النور الذى يهدى السبيل .

وقد أدى نفوذه الشعبى بكوكبه من ألمع بطلات التمثيل والغناء ومختلف الفنون، بأن يعتزلن وأن ينزوين فى بيوتهن أو يجتمعن للصلاة فى المساجد وإلقاء الدروس أو الاستماع إليها. ولو رزق الشيخ سعة الأفق وصحة النظر لوجههم لخدمة المجتمع وللإفادة من حب الجمهور لهن وإعجابه بهم

---

(١) من كتاب "إشكاليات الخطاب الدينى – الأستاذ محمد السعيد ص١٠٩، ١١٠ .

فى تقبل ما يقمن به من خدمة وإصـلاح ولأصـبحن خيـر سفيرات للإصلاح والخدمة الاجتماعية والتوعية والرعاية ..

وقد كان رأينا أن لكل واحد طريقته التى هو ميسر لها. ومن حقه أن يتبعها. وأن الجمهور لدينا كبير ولكل سـاقطة لاقطة أو كما يقال "كل فوله ولها كيـال" **وأن الحكـم فـى النهاية لا يعود إلى الشخص ولا إلى الطريقة، ولكـن إلـى المقولة التى ينطق بها** ويدعو إليها فإذا كانت سـليمة فإنـه يقدم إضافة والمجال يتسع لكل إضافة ويحتاج لكل إضـافة، ولكن إذا كانت المقولة خاطئة، مضللة، فهنا يحق لنا أن ننقده على أساس موضوعى نزيه يعالج الحجة بالحجة والبرهـان بالبرهان ..

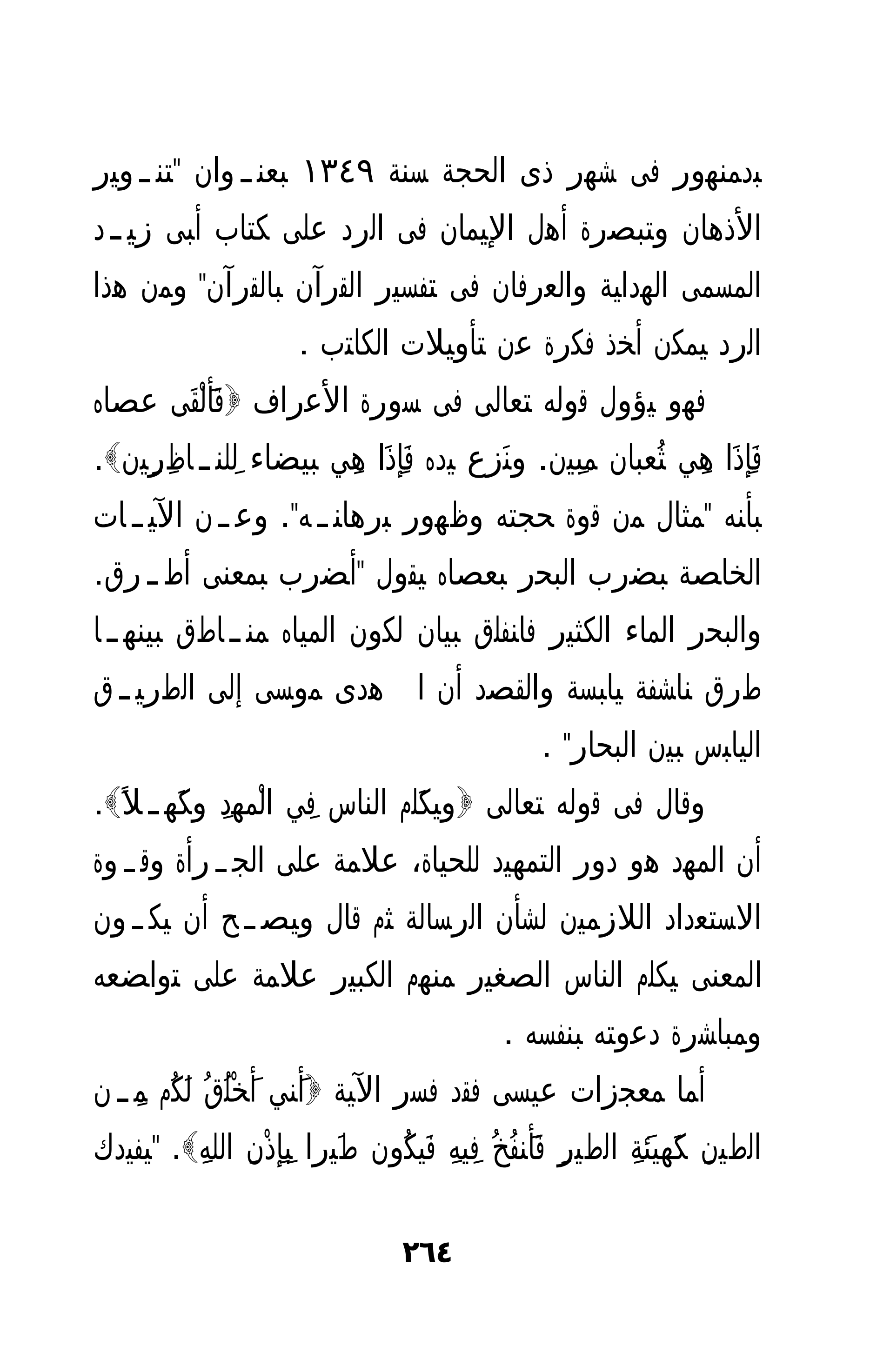
— ٤ —

تفاسير تطويع الآيات لتحقيق الغايات

لئن كان الشيخ شعراوى قد أوتى براعـة كبـرى فـى تطويع الآيات لما ينتهى إليه اجتهاده للتقرب إلى ا .. فقـد ظهر قبله، وبعده.. كتاب يفسرون القرآن تبعا لفكرة معينـة سبقت إلى أذهانهم وسيطرت علـيهم وجعلـتهم يـرون أن

القضية الحقيقية هى تطويع الآيات بحيث تحقق لهم فكـرتهم ...

وقد لا يعرف هذا الجيل أن أحد الشيوخ أصدر من ثلثى قرن تفسيرا يمكن أن يعد الأول والأخير من نوعه فى هـذا العصر لأنه ذهب فيه إلى أبعد ما يتصور فى التأويل الـذى يقسر أو يخالف ظاهر النص. الأمر الذى أثار ثائرة المجتمع ودفع السلطات لمصادرة الكتاب، كما رفعت دعـوى علـى الرجل أمام إحدى المحاكم فحكمت ابتدائيا بكفره وارتـداده، وإن تغير الحكم النهائى بعد ذلك عندما أعلن توبته وإنابتـه. ذلكم هو الشيخ محمد أبو زيد الذى التحق مدة بالأزهر، ومدة أخرى بدار الدعوة والإرشاد التى كان قد أسسـها بالقـاهرة الشيخ رشيد رضا وأصدر عددا من الأبحاث اتسمت بالجرأة سواء كانت هذه الجرأة طلبـا للشـهرة أو انعكاسـا لفكـره واجتهاده. فأصدر كتيبا باسم "الزواج المـدنى" أنكـر فيـه التسرى وملك اليمين وأخيراً وفى الفتـرة مـا بـين ١٣٤٧ و١٣٤٩ (١٩٣٠-١٩٣١) أصدر كتابه "الهداية والعرفان فى تفسير القرآن بالقرآن" والكتاب ليس لدينا لأنه صودر وأعدم فى حينه ولكن لدينا كتابا أصدرته جمعيـة حيـاة الإسـلام



بدمنهور فى شهر ذى الحجة سنة ١٣٤٩ بعنـوان "تنـوير الأذهان وتبصرة أهل الإيمان فى الرد على كتاب أبى زيـد المسمى الهداية والعرفان فى تفسير القرآن بالقرآن" ومن هذا الرد يمكن أخذ فكرة عن تأويلات الكاتب .

فهو يؤول قوله تعالى فى سورة الأعراف ﴿فَأَلْقَى عصاه فَإِذَا هِي ثُعبان مِبين. ونَزع يده فَإِذَا هِي بيضاء لِلنـاظِرين﴾. بأنه "مثال من قوة حجته وظهور برهانـه". وعـن الآيـات الخاصة بضرب البحر بعصاه يقول "أضرب بمعنى أطـرق. والبحر الماء الكثير فانفلاق بيان لكون المياه منـاطق بينهـا طرق ناشفة يابسة والقصد أن ا هدى موسى إلى الطريـق اليابس بين البحار" .

وقال فى قوله تعالى ﴿ويكلم الناس فِي الْمهدِ وكَهـلاً﴾. أن المهد هو دور التمهيد للحياة، علامة على الجـرأة وقـوة الاستعداد اللازمين لشأن الرسالة ثم قال ويصـح أن يكـون المعنى يكلم الناس الصغير منهم الكبير علامة على تواضعه ومباشرة دعوته بنفسه .

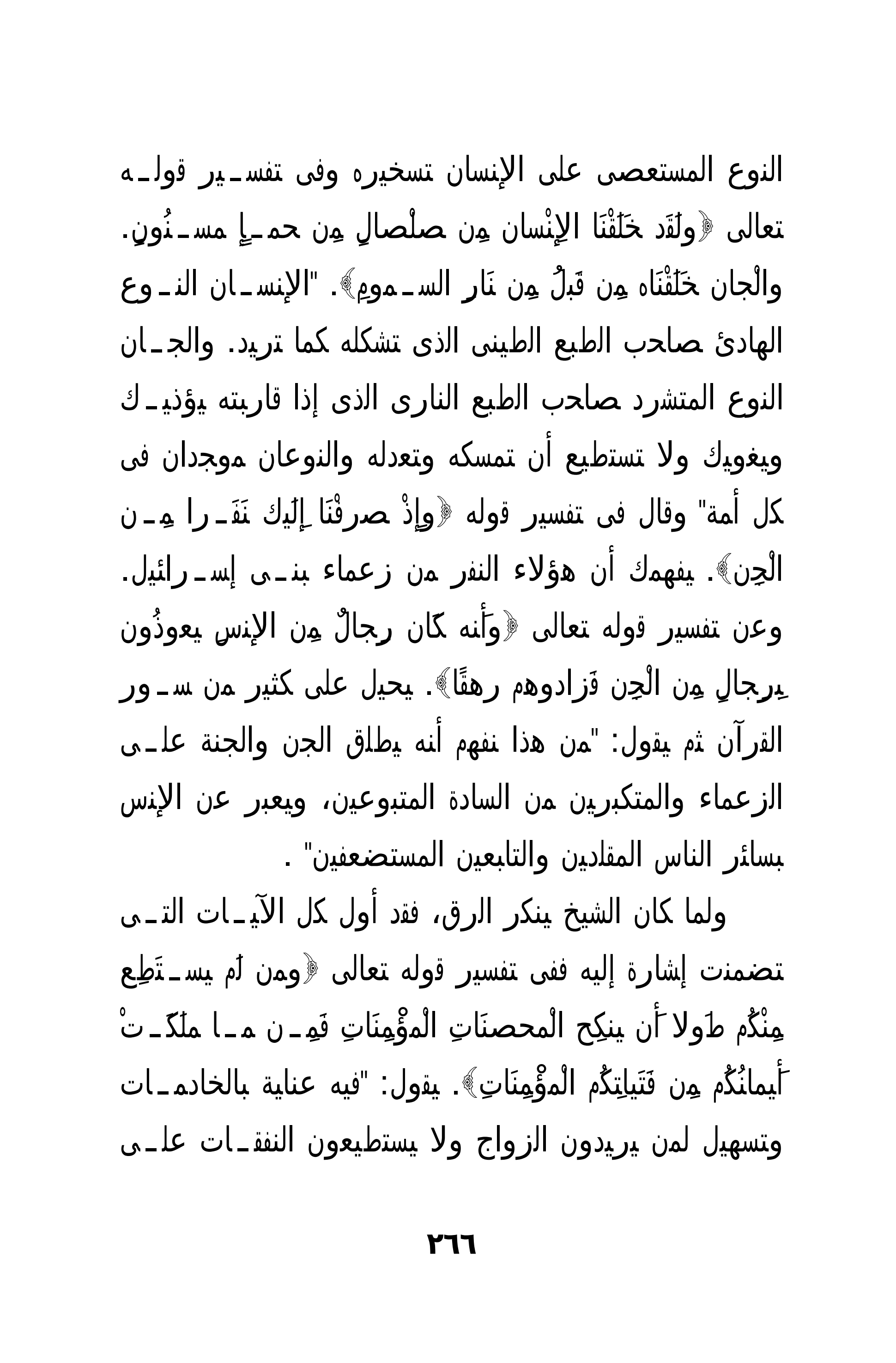
أما معجزات عيسى فقد فسر الآية ﴿أني أَخْلُقُ لَكُم مِـن الطين كَهيئَةِ الطير فَأَنفُخُ فِيهِ فَيكُون طَيرا بِإِذْنِ اللهِ﴾. "يفيدك

التمثيل لإخراج الناس من ثقل الجهل وظلماته إلى خفة العلم ونوره" وعن قوله تعالى ﴿وأُبرِئُ الأكْمه والأبرص﴾. الأكمه من ليس عنده بصر.. والأبرص المتلون بما يشوه الفطـرة.. وعن "وأحيى الموتى" "معناه مشترك بـين مـوتى الأجسـاد وموتى القلوب والنفوس وموتى الجهل والاسـتعباد ومـوتى الاتهام والحكم بالإعدام .

وهو ينكر معجزة الإسراء، ويرى أن المقصود بالآيـة ﴿سبحان الذِي أَسرى بِعبدِهِ لَيلاً مِن الْمسـجِدِ الْحـرامِ إِلَـى الْمسجِدِ الأقْصى﴾. "أنه الهجرة من مكة إلـى المدينـة وأن المسجد الأقصى هو مسجد المدينة" ..

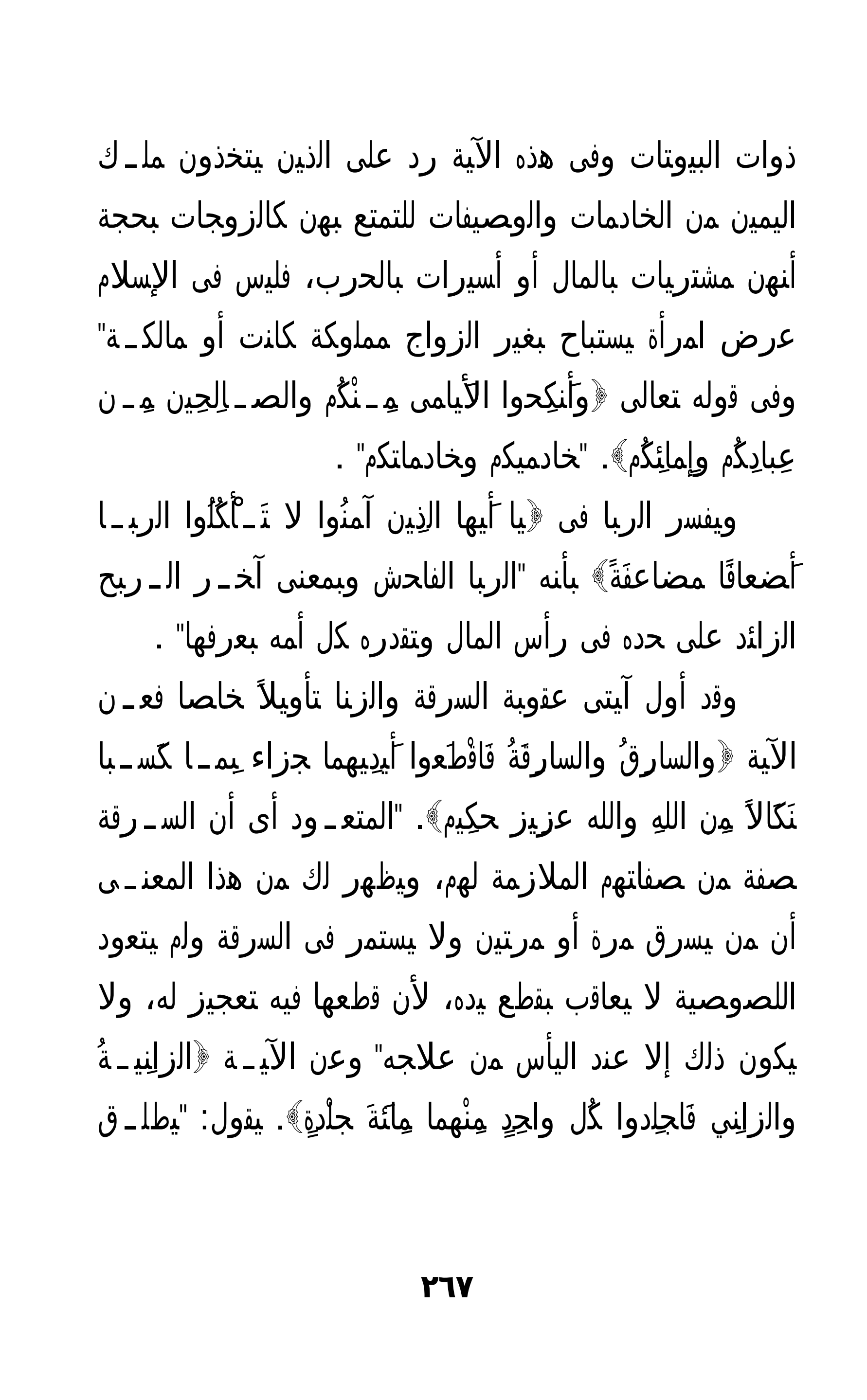
أما عن الملائكة فهم عنده "رسل النظام وعالم السـنن" فإذا جوبه بالنص ﴿وإِذْ قُلْنَـا لِلْملائِكَـةِ اسـجدوا لآدم﴾. أو ﴿جاعِلِ الْملَائِكَةِ رسلاً أُولِي أَجنِحةٍ مثْنَى وثُـلاثَ وربـاع﴾. فإنه يقول عن الأولى "وسجودهم للإنسان معنـاه أن الكـون مسخر له" وعن الثانى "يمثل لك السرعة فى إجراء سننه فى الكون وتنفيذ أوامره فى العالم" .

وفى تفسير قوله تعالى ﴿فَسجدوا إِلا إِبلِيس أَبى﴾. إبليس اسم لكى مستكبر على الحق ويتبعه لفظ الشيطان والجان وهو



النوع المستعصى على الإنسان تسخيره وفى تفسير قوله تعالى ﴿ولَقَد خَلَقْنَا الإِنْسان مِن صلْصالٍ مِن حمإٍ مسنُونٍ. والْجان خَلَقْنَاه مِن قَبلُ مِن نَار السمومِ﴾. "الإنسان النوع الهادئ صاحب الطبع الطينى الذى تشكله كما تريد. والجان النوع المتشرد صاحب الطبع النارى الذى إذا قاربته يؤذيك ويغويك ولا تستطيع أن تمسكه وتعدله والنوعان موجدان فى كل أمة" وقال فى تفسير قوله ﴿وإِذْ صرفْنَا إِلَيك نَفَرا مِن الْجِن﴾. يفهمك أن هؤلاء النفر من زعماء بنى إسرائيل. وعن تفسير قوله تعالى ﴿وأَنه كَان رِجالٌ مِن الإِنسِ يعوذُون بِرِجالٍ مِن الْجِن فَزادوهم رهقًا﴾. يحيل على كثير من سور القرآن ثم يقول: "من هذا نفهم أنه يطلق الجن والجنة على الزعماء والمتكبرين من السادة المتبوعين، ويعبر عن الإنس بسائر الناس المقلدين والتابعين المستضعفين" .

ولما كان الشيخ ينكر الرق، فقد أول كل الآيات التى تضمنت إشارة إليه ففى تفسير قوله تعالى ﴿ومن لَم يستَطِع مِنْكُم طَولا أَن ينكِح الْمحصنَاتِ الْمؤْمِنَاتِ فَمِن ما ملَكَتْ أَيمانُكُم مِن فَتَياتِكُم الْمؤْمِنَاتِ﴾. يقول: "فيه عناية بالخادمات وتسهيل لمن يريدون الزواج ولا يستطيعون النفقات على



ذوات البيوتات وفى هذه الآية رد على الذين يتخذون ملـك اليمين من الخادمات والوصيفات للتمتع بهن كالزوجات بحجة أنهن مشتريات بالمال أو أسيرات بالحرب، فليس فى الإسلام عرض امرأة يستباح بغير الزواج مملوكة كانت أو مالكـة" وفى قوله تعالى ﴿وَأَنكِحوا الأيامى مِـنْكُم والصـالِحِين مِـن عِبادِكُم وإِمائِكُم﴾. "خادميكم وخادماتكم" .

ويفسر الربا فى ﴿يا أَيها الذِين آمنُوا لا تَـأْكُلُوا الربـا أَضعافًا مضاعفَةً﴾ بأنه "الربا الفاحش وبمعنى آخـر الـربح الزائد على حده فى رأس المال وتقدره كل أمه بعرفها" .

وقد أول آيتى عقوبة السرقة والزنا تأويلاً خاصا فعـن الآية ﴿والسارِقُ والسارِقَةُ فَاقْطَعوا أَيدِيهما جزاء بِمـا كسـبا نَكَالاً مِن اللهِ والله عزيز حكِيم﴾. "المتعـود أى أن السـرقة صفة من صفاتهم الملازمة لهم، ويظهر لك من هذا المعنـى أن من يسرق مرة أو مرتين ولا يستمر فى السرقة ولم يتعود اللصوصية لا يعاقب بقطع يده، لأن قطعها فيه تعجيز له، ولا يكون ذلك إلا عند اليأس من علاجه" وعن الآيـة ﴿الزانِيـةُ والزانِي فَاجلِدوا كُل واحِدٍ مِنْهما مِائَةَ جلْدةٍ﴾. يقول: "يطلـق

هذا الوصف على المرأة والرجل إذا كانا معروفين بالزنـا، وكان من عادتهما وخلقهما، فهما بذلك يستحقان الجلد"[1] .

وأورد الشيخ رأيه فى السنة فى مقدمه كتابـه فتحـت عنوان "السنة" قال: (والسنة هى الطريقة العملية فى تطبيـق الكتابات، فوظيفة الرسول تبليغ الكتاب وهداية الناس بالعمل به) .

* * *

وأسوأ مما ذهب إليه الشيخ أبو زيد، واكثر إغراقا فـى الانحراف ما فسر به متنبئ السودان محمود محمد طه آيات القرآن الكريم فى تضاعيف كتاباته ممـا قـد لا يتسـع لـه المجال، ولكن يكفى فحسب أن نورد هذا التفسـير لسـورة الزيتون، كما أثبته الدكتور المكاشفى فـى كتابـه عـن ردة

(١) بالإضافة إلى ما ذكرناه من رجوعنا إلى كتاب "تنوير الأذهان وتبصـره أهل الإيمان فى الرد على كتاب أبى زيد المسمى الهداية والفرقان فى تفسـير القرآن بالقرآن، والذى أشرنا إليه فى مستهل الفقرة، فإننا عدنا أيضاً إلى تقرير اللجنة الأزهرية التى تكونت للنظر فى هذا الكتاب وضمت الشيخ عبد الهادى الفرغانى والشيخ محمد العنانى، والشيخ محمد عبد اللطيف السبكى والشـيخ محمد عبد السلام والشيخ محمد محيى الدين. وقد رفعت اللجنة تقريرها إلـى الشيخ محمد الأحمدى الظواهري شيخ الأزهر ونشرت مجلة نور الإسلام هذا التقرير فى عددين من أعدادها أولهما الصادر فى صفر ١٣٥٠ – ١٩٣١ من ص١٦٢ إلى ص٢٠٥ والثانى الصادر فى ربيع الثـانى مـن ص٢٤٩ إلـى ص٢٨١ .

محمود محمد طه قوله تعالى: ﴿والتين والزيتُون(١) وطُـور سِينِين(٢) وهـَذَا الْبلَدِ الأَمِين(٣) لَقَد خَلَقْنَا الإنسان فِي أَحسـن تَقْوِيمٍ(٤) ثُم رددنَاه أَسفَلَ سافِلِين﴾. {٥ التين} ..

التين والزيتون والبلد الأمين يعنى العقل والجسد والقلب أى توحيد العقل والجسد والقلب يكون الإنسان فـى أحسـن تقويم (وهى مرتبة الذات الإلهية) أما أسفل سافلين فهـى ذرة غاز الأيدروجين، وهى بداية سلم الترقى يقول "وفى أسـفل سافلين كان آدم فى أدنـى درجـات التجسـيد – ذرة غـاز الأيدروجين ثم أنه استأنف سيره فى طريق الرجعـى إلـى موطنه القديم أو المصب القديم – الذات الإلهية – وهى منزلة أحسن تقويم" .

"والمعنى البعيد لهذه الآية، وهو معنى بعيد حقاً – فكان فى إحدى كفتى الميزان "ا " الحقيقة وفى الأخـرى "الإلـه" وفكرة الإله تبدأ من الباطل وتدخل مداخل الحق. وإنما يطلب الحق الحقيقة، يطلب الحق أن ينطبق علـى الحقيقـة تمـام الانطباق، فالإله بمعنى آخر هو ما تصورنا "ا " وهو تصور

مهما بلغ من الكمال قاصر قصوراً مزريـا، وبإيجـاز مـن الناحية العلمية والتطبيقية، فإن إله كل إنسان نفسه"[1] .

(١) كان الدكتور المكاشفى هو قاضى المحكمة التى حكمت بردة محمود طـه وبإعدامه. وعندما ثارت ضجة بعد تجميد قوانين الشريعة – أصدر كتابه هذا عن المحاكمة وأثبتت بالدليل القاطع أنه مرتد، كما عرض – بإفاضة – وجهة النظر التقليدية التى يأخذ بها الجمهور عن الاستتابة فالقتل. كما أورد فتـاوى هيئات مصرية وسعودية بردته وقد لفتت دعوة محمود محمد طه نظرنا عندما كنا نزور السودان فى السبعينات، وحاصرتنا مريداته من النساء بالمطبوعات التى ينشرها، وكن يعرضها للبيع بكل حماسة وإلحاح. وأشـرنا فـى كتابنـا "الدعوات الإسلامية المعاصرة" الذى صدر سنة ١٩٧٨ إلى دعوة "الإخـوان الجمهوريين" وزعيمهم محمود محمد طه. وقلنا دعوه ما دام يقول "لا إلـه إلا ا محمد رسول ا " وكنا نظن أنه مجتهد أخطأه التوفيق ولكن قراءتنا لبقيـة كتبه لم تدع شكا فى أنه فرغ "لا إله إلا ا " من مضمونها لأنه ذهب مـذهب الحلول وصرح أكثر من مرة بالإنسان الإلـه، وأن لكـل شـخص شـريعته الخاصة ويأخذ من ا مباشرة أو "كفاحاً" على حد تعبير وأن مرحلة الإنسـان الكامل "تجعل هذا الإنسان" يحيا حياة ا عالماً علم ا مريداً إرادة ا قـادراً قدرة ا ويكون ا ".. كما أنه فرغ الشطر الثانى من الشهادة "محمد رسـول ا " لادعائه أنه رسول "الرسالة الثانية" وهذه الأقوال وأمثالها تخالف العقيـدة وتنحرف بها، على أننا لو فرضنا أن هذا التجاوز وصل إلى حد الردة فـنحن لا نرى قتل المرتد، بعد استتابته، فالأحكام التى توردها كتب الفقـه تجـافى الآيات العديدة فى القرآن الكريم عمن يرتد، وتناقض روح الإسلام وجوهره. والأحاديث التى يعتمدون عليها لا تحقق ما يريدون، وقتال أبى بكر "للمرتدين" شىء آخر تماماً، فقد كان فيهم من يؤمنون بالإسلام، ويـرددون الشـهادتين ويقيمون الصلاة – لكن دون الزكاة أو الاعتراف بالخلافة فهـم فـى حقيقـة الحال خوارج، يتعين على الدولة قتالهم على هذا الأساس. وقد أصدرنا كتابـاً خاصاً بوجهة نظرنا هو "حرية الاعتقاد فى الإسلام"، وهـو يقـرر حريـة الاعتقاد إيمانا وكفراً فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر. دون أى عقوبـة أو ضغط ولكن الرد عليه الحجة بالحجة والبرهان بالبرهان .

وهناك اختلاف بين ما ذهب إليه الشيخ محمد أبو زيد، وما ذهب إليه المهندس محمود محمد طه. فالشيخ أبو زيد كان يجتهد دفاعاً عن الإسلام. ومحاولة منه لإثبات اتفاقه مع المبادئ والأصول الحديثة فى فترة انحسار الفكر الإسلامى ما بين العشرينات والأربعينات وهيمنة المد الاستعمارى والفكر الأوربى. وقد يشفع له، على انحرافه حسن النية، أما محمود محمد طه فقد قام بدعوته بعد نهضة الفكر الإسلامى ليقدم رؤية للإسلام من عندياته وقذف بنفسه فى اللجج والمتاهات ما بين فرويد ودارون وماركس من ناحية، والحلوليين من المتصوفة والفلاسفة فضل، ودعا لنفسه. وقد أوتى لحنا وجدلاً وذكاء، ولكنه أخلد إلى الأرض، وهو يظن أنه ارتفع إلى السماء .

الفصل الرابع

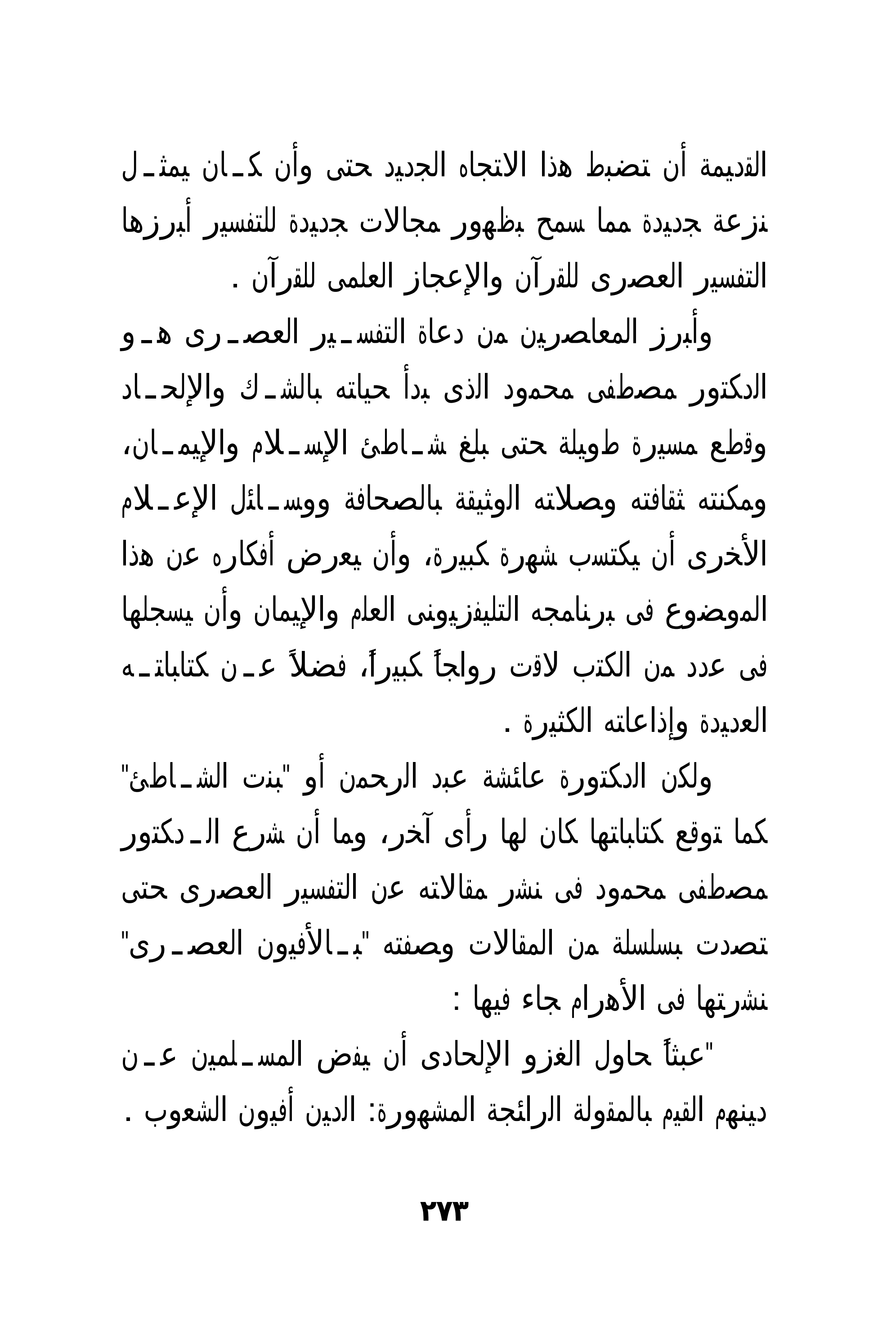
مجالات جديدة للتفسير

– ١ –

التفسير العصرى للقرآن

بقدر ما أدى انحسار الفكر الإسلامى فى النصف الأول من القرن التاسع عشر إلى محاولات التطويع التى أشرنا إلى بعضها، بقدر ما ازدهر الفكر الإسلامى بفضل نجاح الإخوان فى تقديم الإسلام كمنهج حياة. وما تلا ذلك من أحداث مثـل حرب أكتوبر التى شنت تحت لواء "ا   أكبر" ومثل المرحلة النفطية فى السعودية ومثل الثورة الإيرانية الإسلامية الخ...

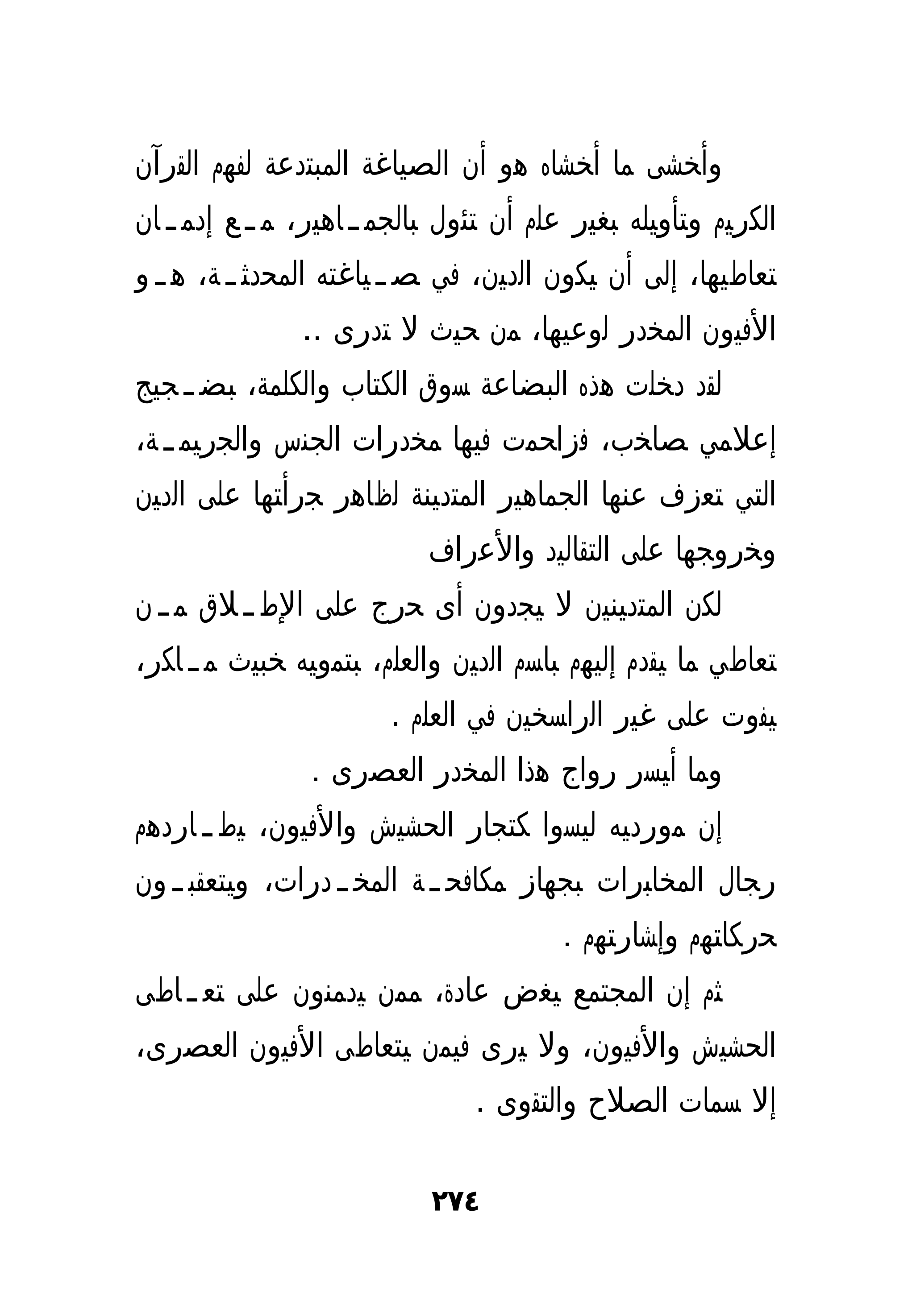
ولا ريب أن هذا الاتجاه له حسناته ومأخذه، وهو بعد لا يعد بدعا لأن من الممكن أن يدخل في أحد مذهبى التفسـير القديمين، مذهب النقل ومذهب الـرأي، ويمكـن للضـوابط


القديمة أن تضبط هذا الاتجاه الجديد حتى وأن كان يمثل نزعة جديدة مما سمح بظهور مجالات جديدة للتفسير أبرزها التفسير العصرى للقرآن والإعجاز العلمى للقرآن .

وأبرز المعاصرين من دعاة التفسير العصرى هو الدكتور مصطفى محمود الذى بدأ حياته بالشك والإلحاد وقطع مسيرة طويلة حتى بلغ شاطئ الإسلام والإيمان، ومكنته ثقافته وصلاته الوثيقة بالصحافة ووسائل الإعلام الأخرى أن يكتسب شهرة كبيرة، وأن يعرض أفكاره عن هذا الموضوع فى برنامجه التليفزيونى العلم والإيمان وأن يسجلها فى عدد من الكتب لاقت رواجاً كبيراً، فضلاً عن كتاباته العديدة وإذاعاته الكثيرة .

ولكن الدكتورة عائشة عبد الرحمن أو "بنت الشاطئ" كما توقع كتاباتها كان لها رأى آخر، وما أن شرع الدكتور مصطفى محمود فى نشر مقالاته عن التفسير العصرى حتى تصدت بسلسلة من المقالات وصفته "بالأفيون العصرى" نشرتها فى الأهرام جاء فيها :

"عبثاً حاول الغزو الإلحادى أن يفض المسلمين عن دينهم القيم بالمقولة الرائجة المشهورة: الدين أفيون الشعوب .



وأخشى ما أخشاه هو أن الصياغة المبتدعة لفهم القرآن الكريم وتأويله بغير علم أن تئول بالجماهير، مع إدمان تعاطيها، إلى أن يكون الدين، في صياغته المحدثة، هو الأفيون المخدر لوعيها، من حيث لا تدرى ..

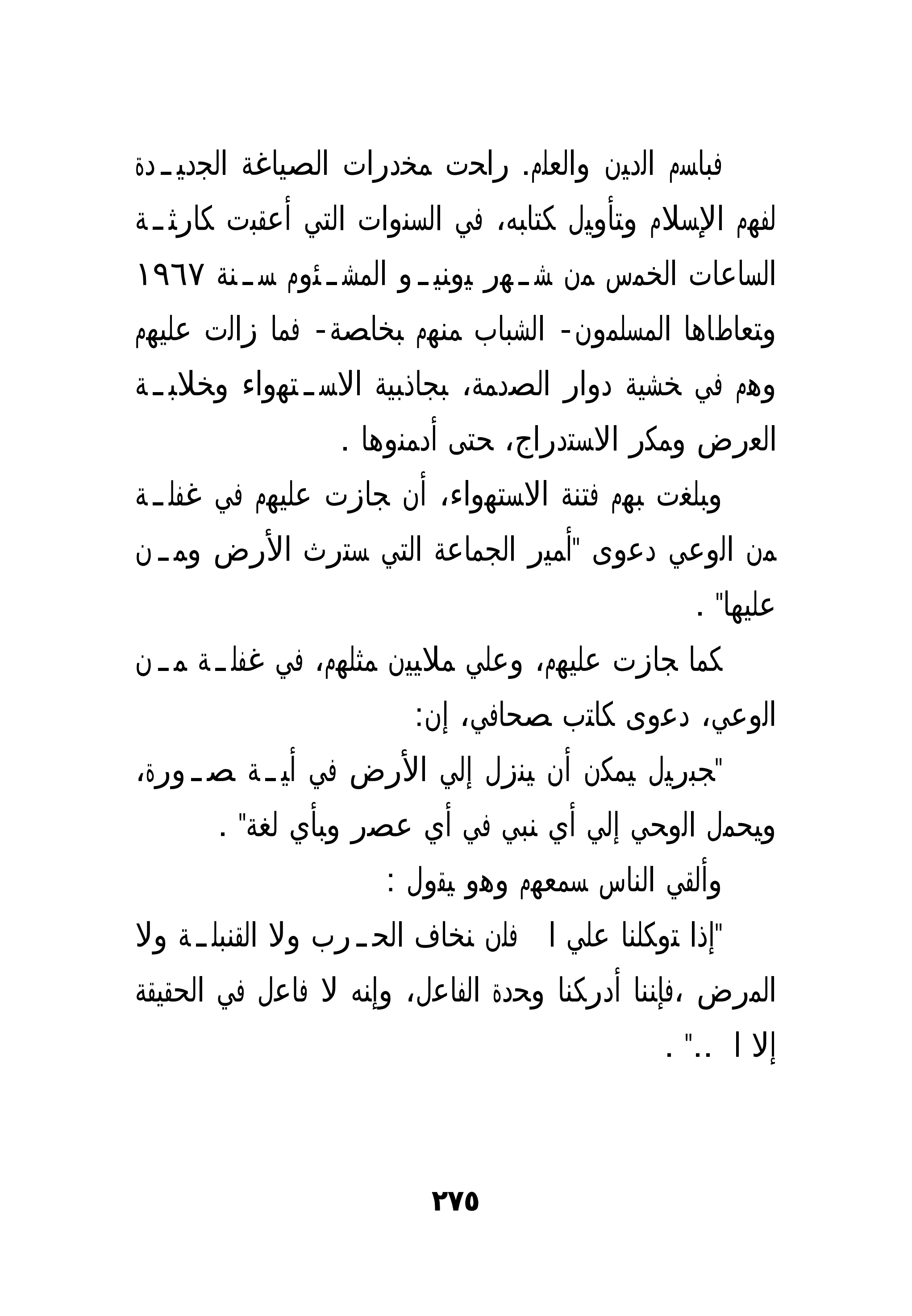
لقد دخلت هذه البضاعة سوق الكتاب والكلمة، بضجيج إعلامي صاخب، فزاحمت فيها مخدرات الجنس والجريمة، التي تعزف عنها الجماهير المتدينة لظاهر جرأتها على الدين وخروجها على التقاليد والأعراف

لكن المتدينين لا يجدون أى حرج على الإطلاق من تعاطي ما يقدم إليهم باسم الدين والعلم، بتمويه خبيث ماكر، يفوت على غير الراسخين في العلم .

وما أيسر رواج هذا المخدر العصرى .

إن مورديه ليسوا كتجار الحشيش والأفيون، يطاردهم رجال المخابرات بجهاز مكافحة المخدرات، ويتعقبون حركاتهم وإشارتهم .

ثم إن المجتمع يغض عادة، ممن يدمنون على تعاطى الحشيش والأفيون، ولا يرى فيمن يتعاطى الأفيون العصرى، إلا سمات الصلاح والتقوى .



فباسم الدين والعلم. راحت مخدرات الصياغة الجديـدة لفهم الإسلام وتأويل كتابه، في السنوات التي أعقبت كارثـة الساعات الخمس من شـهر يونيـو المشـئوم سـنة ١٩٦٧ وتعاطاها المسلمون- الشباب منهم بخاصة- فما زالت عليهم وهم في خشية دوار الصدمة، بجاذبية الاسـتهواء وخلابـة العرض ومكر الاستدراج، حتى أدمنوها .

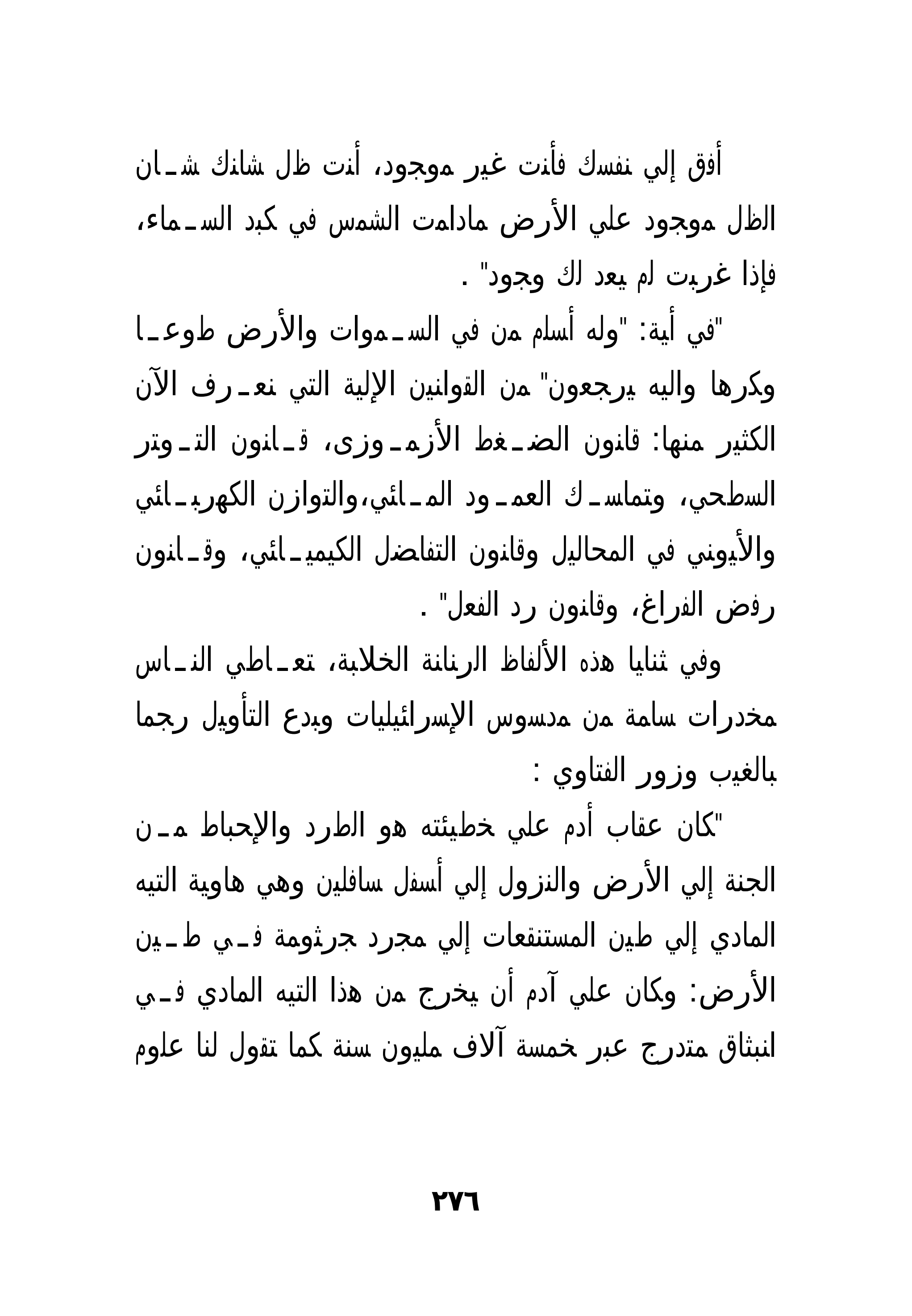
وبلغت بهم فتنة الاستهواء، أن جازت عليهم في غفلـة من الوعي دعوى "أمير الجماعة التي سترث الأرض ومـن عليها" .

كما جازت عليهم، وعلي ملايين مثلهم، في غفلـة مـن الوعي، دعوى كاتب صحافي، إن:

"جبريل يمكن أن ينزل إلي الأرض في أيـة صـورة، ويحمل الوحي إلي أي نبي في أي عصر وبأي لغة" .

وألقي الناس سمعهم وهو يقول :

"إذا توكلنا علي ا فلن نخاف الحـرب ولا القنبلـة ولا المرض ،فإننا أدركنا وحدة الفاعل، وإنه لا فاعل في الحقيقة إلا ا .." .



أفق إلي نفسك فأنت غير موجود، أنت ظل شانك شـان الظل موجود علي الأرض مادامت الشمس في كبد السـماء، فإذا غربت لم يعد لك وجود" .

"في أية: "وله أسلم من في السـموات والأرض طوعـا وكرها واليه يرجعون" من القوانين الإلية التي نعـرف الآن الكثير منها: قانون الضـغط الأزمـوزى، قـانون التـوتر السطحي، وتماسـك العمـود المـائي،والتوازن الكهربـائي والأيوني في المحاليل وقانون التفاضل الكيميـائي، وقـانون رفض الفراغ، وقانون رد الفعل" .

وفي ثنايا هذه الألفاظ الرنانة الخلابة، تعـاطي النـاس مخدرات سامة من مدسوس الإسرائيليات وبدع التأويل رجما بالغيب وزور الفتاوي :

"كان عقاب أدم علي خطيئته هو الطرد والإحباط مـن الجنة إلي الأرض والنزول إلي أسفل سافلين وهي هاوية التيه المادي إلي طين المستنقعات إلي مجرد جرثومة فـي طـين الأرض: وكان علي آدم أن يخرج من هذا التيه المادي فـي انبثاق متدرج عبر خمسة آلاف مليون سنة كما تقول لنا علوم

البيولوجيا، عبر مراحل وأطوار بـدأت: بالخليـة الأولـى والأميبيا، صعدا إلي: الأسفنج والرخويات والقشريات" .

"فرض الحجاب علي النساء. إرهاف لغريـزة الرجـل الجنسية" كما تعلم الكاتب من رحلته إلي قبائل العـراة فـي أعماق أفريقية .

"لو أخذنا آية الأمر بغض البصر، بظـاهر حروفهـا.. فسوف نجد إن الحياة الطبيعية في زماننا، زمن المينى جيب والديكولتيه والجابونيز والصدر العريان والشـعر المرسـل والباروكات الذهب، أمر صعب والسير في شارع عماد الدين أو فؤاد أو سليمان باشا "كذا" سيرا مطابقا لحروف الآية، هو الأمر العسير. ونحن قد نرى وجها فنهتف بالقلـب إعجابـا: ا : ونقصد الخالق الذي صور، وليس المخلوق فـلا تكـون هذه النظرة حلالا فقط وإنما تكتب لنا حسنة" .

مع قوله باحتمال أن تنتهي الحياة علي الأرض بحـرب ذرية من الصين، فيكون قيام الساعة بعد نحو ثلاثين سـنة، كتأويل رؤيا يوحنا اللاهوتى

وتقريره إبطال الجزاء في الآخرة بنص قوله :

"إن كل ما جاء عن الجنة والجحيم- في القرآن- ما هو إلا ألوان من ضرب المثال وألوان مـن الرمـز؟ والنـذير للضالين بعذاب جهنم "مثل تخويفك لابنك حينما تحذره مـن إهمال نظافة أسنانه وتقول له: إذا لم تنظف أسنانك بالفرشـاة فان الفئران سوف تأكل أسنانك وبالطبع لن تأكـل الفئـران أسنانك".

"حتى الحساب هنا، يبدو أنه حساب النفس للنفس، تعالي ذو الجلال أن يحاسب أمثالنا وأن يعذب أمثالنا: ولكـن هـذه المعاني تضيع في النظـرة المتعجلـة والقـراءة السـطحية والوقوف عند الحروف وعند جلجلة الألفاظ: أكاد أجزم بـأن ألفاظ القرآن بما فيها من جلجلة وصلصـلة حينمـا تصـف الجحيم، إنما هي نذير حقيقي لأنفسنا عدلا وصدقا.. وأكـاد أضع يدي علي الحقيقة لا ريب فيها" .

﴿والسلام علَى من اتبع الْهدى﴾ صدق ا العظيم[1]

وبعد ثلاث سنوات تقريبا عاودت الدكتورة بنت الشاطئ هجومها المعهود. فنشرت في جريدة الأهرام كلمـة تحـت عنوان ﴿ذلك مبلغهم من العلم جاء فيها﴾.[2].

---

(١) جريدة الأهرام ١٩٧٧/٩/٨.
(2) الأهرام ١٩٨٠/٩/٨ ص١٣.

"لطف ا بأمتنا، ما إن يهل الشهر المعظم[1] حتى تفرز لنا أجهزة الإذاعة والنشر صنفين من العلمانيين :

الصـنف الأول: وحـديث اليـوم عنـه، مـذيعون وصحفيون،يخوضون فيما لا علم لهم به من القرآن الكـريم والحديث الشريف وعلوم العصر ومجهول الغيب، في وجبات يومية علي موائد الصحف، ومسلسلات رمضانية مذاعة علي أوسع نطاق، تلح علي الناس بذرائع تشويه عقلي وديني فادح بما تبث فيهم من بدع تأويل للقرآن الكريم.

في مقال علماني مثلا، يلتقط أحدهم حديثا رواه الترمذى كذا في الحشرات تسمعنا ولا نسمعها – وقد يكون الترمـذى ضعف الحديث بعلة من علل الإسناد أو المـتن ويهـيم بنـا المقال العلماني في صحراء كاليفورنيا ليفرجنا على صندوق العجب من تجارب مسبيرو[2] ففي مسلسل "الإعجاز العلمـى للقرآن الكريم" تقدم بدع من التأويلات العلمانية، في كل حلقة ثلاث آيات، أو كلمات منها مبتورة من سياقها تؤول بآخر ما وصل إليه العلم الحديث عند علماء مسـبيرو، منهـا مـثلاً: تأويل قوله تعالى: ﴿إنا خَلَقْنَـاهم مِـن طِـينٍ لازبٍ﴾. {١١

(1) أي شهر رمضان.
(2) تشير الكاتبة إلى التليفزيون المصري.

الصافات}.. بما اكتشف العلم الحديث من عناصـر تكـوين التربة المماثلة تماماً لتكوين الجسـم البشـرى: النتـروجين والهيدروجين والأكسجين والصوديوم والبوتاسيوم والمغنسيوم والأزوت والحديد والهرمون والبروتين والسيروتونين.. إلى نحو عشرين عنصراً رددتها الفرقة الإذاعية العلمانية، فـى سرد ابله، وقوله تعالى ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيد فِيهِ بَأْس شَدِيد ومنَافِع لِلناس﴾ {٢٥ الحديد}.. إعجازه العلمـى أن العلـم الحـديث اكتشف أن عناصر الحديد تنـزل مـن السـماء. بقـوانين الهيدروليكا والديناميكا "والبوليتيكا" وما لا أدري مما أخـره "يكا".

ولقوله تعالى: ﴿والسـماءِ ذَاتِ الرجـ ـع(١١) والأرضِ ذَاتِ الصـدع﴾. {١٢ الطارق} ..

بترت الآيات من سياقهما مع الآيات قبلهما وبعدهما في رجع الإنسان ليوم البعث والحساب، لنسمع مـن إعجازهـا العلمى ما تقوله الجيولوجيا والانثروبولوجيا (والمنولوجيـا) من إرجاع السماء ما تمتصه من بخـار ميـاه المحيطـات والبحار، ومقداره كذا من ألوف الأطنان في السـاعة إلـى

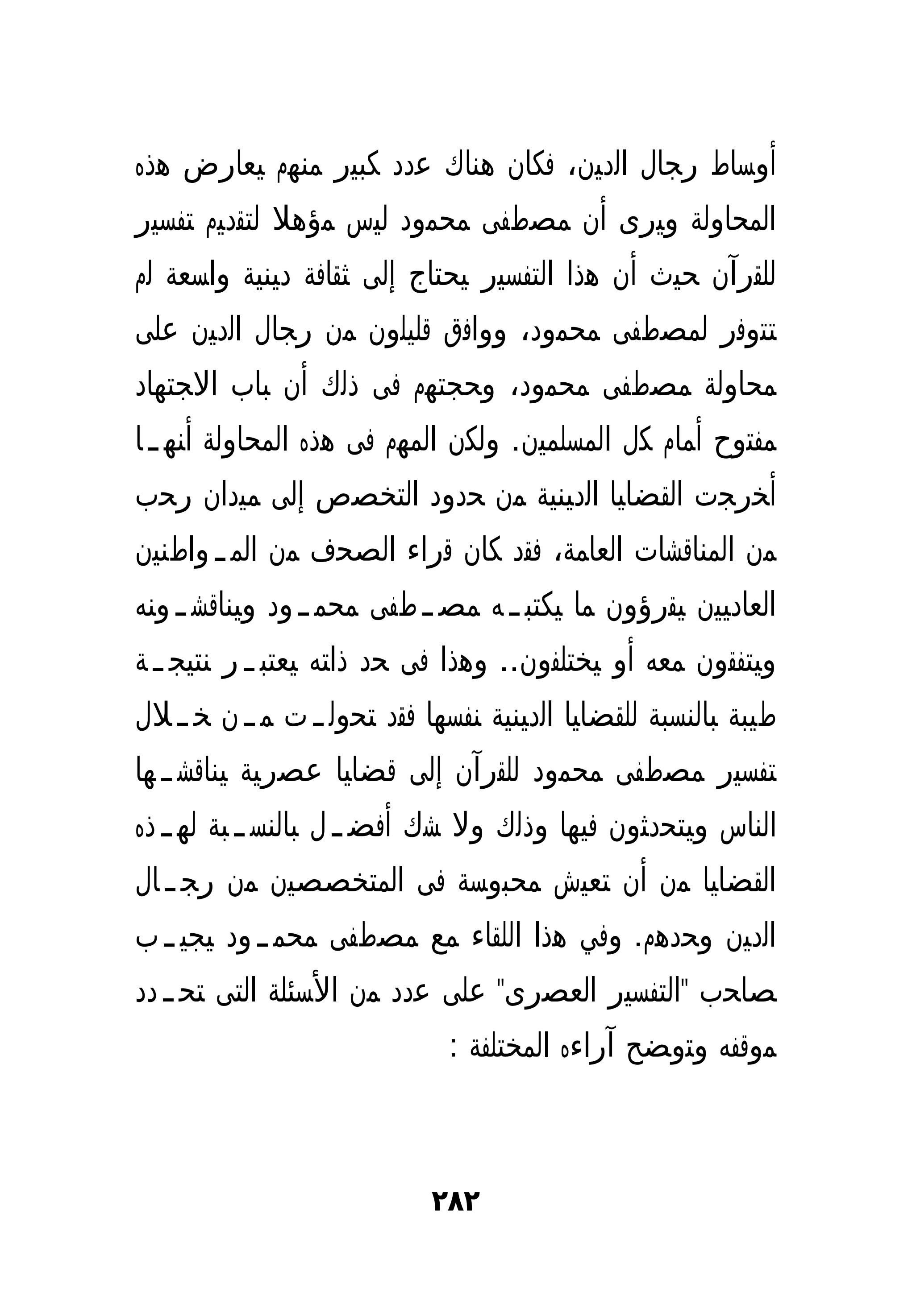
شقوق الأرض بمقتضى قوانين البخر والتكثيف والامتصاص والجاذبية والرجع والصدع ..

﴿وإذَا الْبِحار فُجرتْ﴾ {٣ الانفطـار}.. ﴿وإذَا الْبِحـار سجرتْ﴾ {٦ التكوير}.. بترت الآيتان من سياقهما فى أحداث يوم القيامة حيث تنقض السنن الكونية فتنتشر النجوم وتبعثر، وترج الأرض وتزلزل وتدك الجبال وتنسـف لنسـمع مـا اكتشف العلمانيون من إعجازها العلمى آخر ما وصل إليـه العلم الحديث من تفجير الذرة فى البحار ومـا يحـدث مـن عمليات كهربية ومفاعلات" انتهى .

* * *

ونعتقد أن من حق الكاتب الذى وجهت إليـه الـدكتورة بنت الشاطئ هذا الهجوم العنيف أن يدافع عن نفسه وأن يدلى بوجهة نظره وهذا ما أتاحته له الهلال عندما أجرت له فـى عددها الخاص عن القرآن الذى أصدرته فى ديسمبر ١٩٧٠ لقاء صدرته بالكلمة الآتية :

كانت المحاولة التى قتم بها مصطفى محمـود لتفسـير القرآن من المحاولات المتميزة فى التفكير الدينى الإسـلامى المعاصر، وقد أحدثت هذه المحاولة ردود فعل واسـعة فـى



أوساط رجال الدين، فكان هناك عدد كبير منهم يعارض هذه المحاولة ويرى أن مصطفى محمود ليس مؤهلا لتقديم تفسير للقرآن حيث أن هذا التفسير يحتاج إلى ثقافة دينية واسعة لم تتوفر لمصطفى محمود، ووافق قليلون من رجال الدين على محاولة مصطفى محمود، وحجتهم فى ذلك أن باب الاجتهاد مفتوح أمام كل المسلمين. ولكن المهم فى هذه المحاولة أنهـا أخرجت القضايا الدينية من حدود التخصص إلى ميدان رحب من المناقشات العامة، فقد كان قراء الصحف من المـواطنين العاديين يقرؤون ما يكتبـه مصـطفى محمـود ويناقشـونه ويتفقون معه أو يختلفون.. وهذا فى حد ذاته يعتبـر نتيجـة طيبة بالنسبة للقضايا الدينية نفسها فقد تحولـت مـن خـلال تفسير مصطفى محمود للقرآن إلى قضايا عصرية يناقشـها الناس ويتحدثون فيها وذلك ولا شك أفضـل بالنسـبة لهـذه القضايا من أن تعيش محبوسة فى المتخصصين من رجـال الدين وحدهم. وفي هذا اللقاء مع مصطفى محمـود يجيـب صاحب "التفسير العصرى" على عدد من الأسئلة التى تحـدد موقفه وتوضح آراءه المختلفة :

فى هذا اللقاء أجاب الدكتور مصـطفى محمـود عـن تفسيره لما فى الجنة من أنهار من العسل واللـبن ومختلـف الطيبات بأنها مجرد رموز فقال :

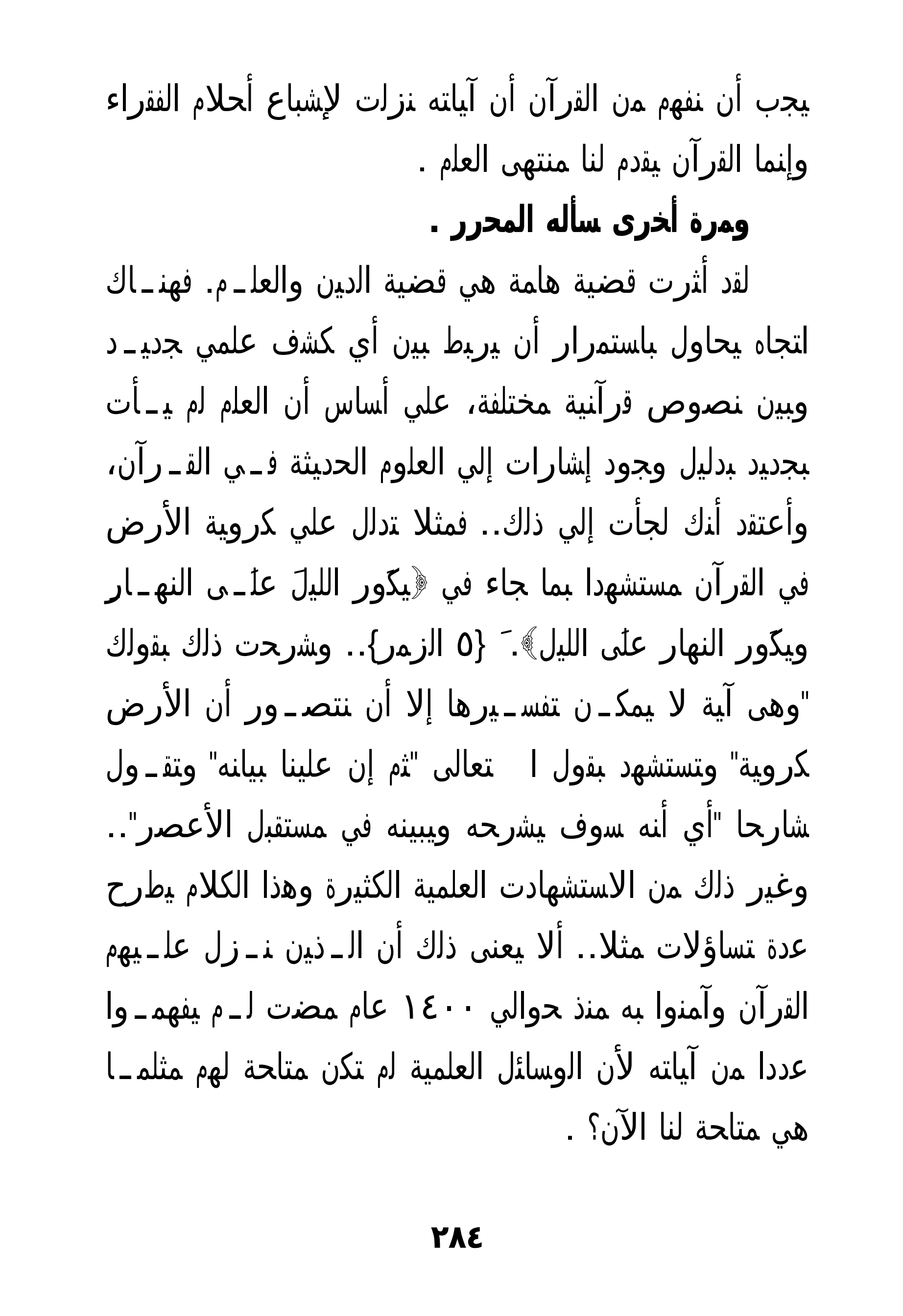
أنا لم أنكر اللذة الحسية فى الآخرة، وإنما قلت بأن هذه اللذة الحسية لا أحد يعرفها تفصيلا. فليس العسل المحكى عنه فى القرآن هو العسل الذى نعرفه، ولا اللبن، ولا النساء هن النساء، وإنما هى درجات من اللذة هى بالنسبة إلينا غيب كأن يقول فنان مثلا :

كانت امرأة جميلة كالضياء .

إن الفنان هنا، يورى حلمه ومثله الأعلى، وبالمثل يمكن أن تكون الجنة ولذتها هى من نوع هذه المراتب العليا التى لا نعرف لها مثيلا على الأرض. وأذكر أيضاً أنى قلت إن نعيم الروح درجات يبدأ من المتع الحسية ويرتفع حتى يصل إلى مقام الأنبياء الذين ينعمون با ذاته وبجمال وجهه وبحضرته الجلالية وفى ذلك يقول القرآن عن الرجل التقى إنه :

﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ﴾ {55القمر} ..

فهنا نجد أن الجنة هي الجوار المطلق للحضرة الإلهيـة وهو أقصي ما يمكن أن يتصوره الإنسان مـن سـعادة ولا



يجب أن نفهم من القرآن أن آياته نزلت لإشباع أحلام الفقراء وإنما القرآن يقدم لنا منتهى العلم .

ومرة أخرى سأله المحرر .

لقد أثرت قضية هامة هي قضية الدين والعلـم. فهنـاك اتجاه يحاول باستمرار أن يربط بين أي كشف علمي جديـد وبين نصوص قرآنية مختلفة، علي أساس أن العلم لم يـأت بجديد بدليل وجود إشارات إلي العلوم الحديثة فـي القـرآن، وأعتقد أنك لجأت إلي ذلك.. فمثلا تدال علي كروية الأرض في القرآن مستشهدا بما جاء في ﴿يكور الليل علـى النهـار ويكور النهار على الليل﴾. {٥ الزمر}.. وشرحت ذلك بقولك "وهى آية لا يمكـن تفسـيرها إلا أن نتصـور أن الأرض كروية" وتستشهد بقول ا تعالى "ثم إن علينا بيانه" وتقـول شارحا "أي أنه سوف يشرحه ويبينه في مستقبل الأعصر".. وغير ذلك من الاستشهادت العلمية الكثيرة وهذا الكلام يطرح عدة تساؤلات مثلا.. ألا يعنى ذلك أن الـذين نـزل علـيهم القرآن وآمنوا به منذ حوالي ١٤٠٠ عام مضت لـم يفهمـوا عددا من آياته لأن الوسائل العلمية لم تكن متاحة لهم مثلمـا هي متاحة لنا الآن؟ .

ما الحكمة في أن ينزل ا آيات علي قوم لن يفهموهـا وإنما سيفهمها من سيأتون بعد ١٤٠٠ سنة؟ .

هل علي العلماء أن يبدءوا بدراسة القرآن أولا قبـل أن يدرسوا المؤلفات العلمية وقبل أن يتوجهوا للمعامل مادام في القرآن كل شيء، عن العلم؟ .

العلم له مجاله. وأنا لم أقصد الحجر علي العلماء باسـم القرآن وإنما كل ما قصدته أنه لا يوجد تناقض بين القـرآن وبين الحقائق العلمية الثابتة ولا يعني هذا أن نكف عن البحث العلمي لمجرد أننا نملك "القرآن". هذا فهم خاطئ لكلامـي.. وأنا أقول إن القرآن لم يفضي إلينا بكل أسراره إلي الآن .

وحكمة ا واضحة في أنه لم ينزل كتابه علي النـاس ليفهم كله وينتهي من أمره في أول جيل. وإنما أنزله للعالمين وليكون سرا يبسط سلطانه علي كل الدهور ويتحدى جميـع العقول وبالنسبة للنقطة الثالثة. فأنا لم أقل هذا الكلام فالعلم له مجاله والقرآن له مجاله.والعلم له أدواته والدين له وسـائله. ولا يصادر أحدهما علم الآخر ولا يحتكـر أحـدهما علـم الآخر". (1)

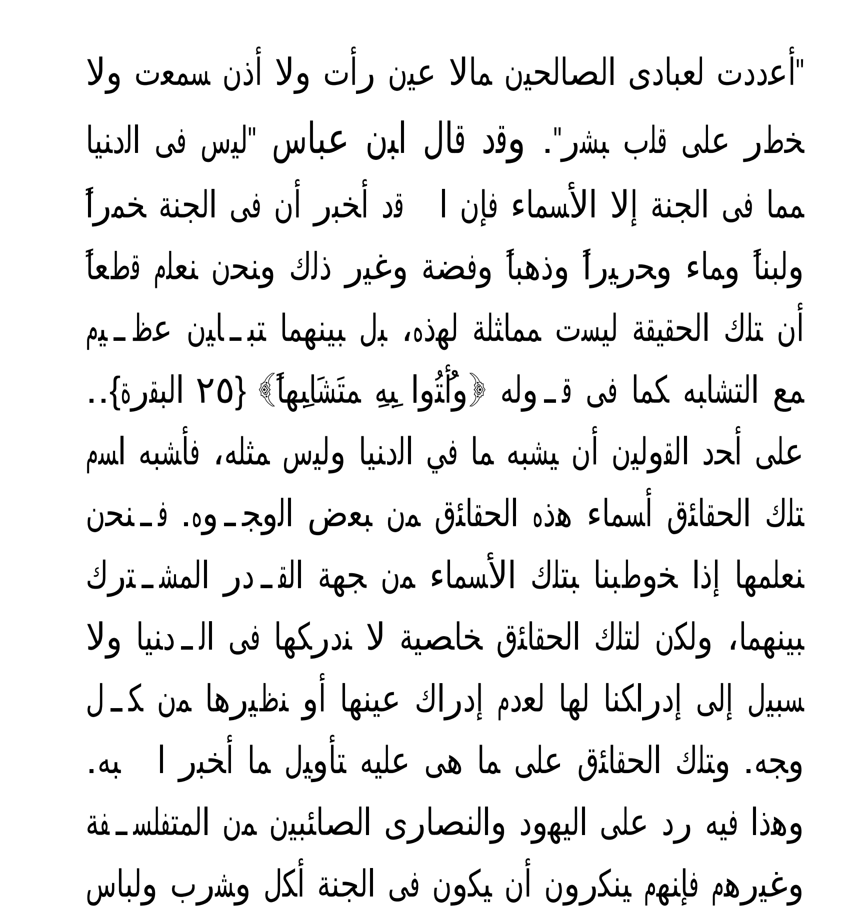
---

(١) مجلة الهلال عدد خاص عن القرآن ديسمبر ١٩٧٠ الصفحات ١٥٢-١٥٧

* * *

والذي لا ريب فيه أن التعسف في تأويـل القـرآن أو المضي به شططا وتطويعه ليتفق مع مبدأ علمي ينم عن عدم فهم لجوهر القرآن ورسالته ويصبح تهافتا لا يكسب القـرآن شيئا، فالقرآن قد كان، وسيظل دائما أعظم وأبقى من كل هذه المكتشفات والمخترعات والنظريات ولن يكون إلا محاولـة جديدة فاشلة كمحاولات عديدة قديمة اعتبرت شاذة، ونبـذت. وفى الوقت نفسه فإن تجاهل اتفاق آيات قرآنية بحكم صريح ألفاظها مع النواميس الكونية يعد وصولا من النقـيض إلـى النقيض ومخالفة لنهج القرآن الذى جـاء مصـدقاً وشـارحاً للسنن الإلهية فى الكون ومستدلاً بها على حكمة ا ..

وقد تجدر الإشارة إلـى أن بعـض التـأويلات التـى تضمنتها التفسيرات العصرية ليست جديدة تماماً. وقد تحدث ابن تيمية فى رسالته "الإكليل فى المتشابه والتأويل" عما فى الجنة من أنهار من لبن وخمر وهل هى حقيقة يجرى فيهـا لبن وخمر كما يعرفها الناس أو أنها رمـوز لـتفهم "النعـيم الروحانى" ورأى أنها من المتشابه، لأن ا تعالى يقول ﴿فَلا تَعلَم نَفْس ما أُخْفِي لَهم مِن قُرةِ أَعينٍ﴾ {١٧ السجدة}.. ويقول



"أعددت لعبادى الصالحين مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر". وقد قال ابن عباس "ليس فى الدنيا مما فى الجنة إلا الأسماء فإن ا   قد أخبر أن فى الجنة خمراً ولبناً وماء وحريراً وذهباً وفضة وغير ذلك ونحن نعلم قطعاً أن تلك الحقيقة ليست مماثلة لهذه، بل بينهما تبـاين عظـيم مع التشابه كما فى قـوله ﴿وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهاً﴾ {٢٥ البقرة}.. على أحد القولين أن يشبه ما في الدنيا وليس مثله، فأشبه اسم تلك الحقائق أسماء هذه الحقائق من بعض الوجـوه. فـنحن نعلمها إذا خوطبنا بتلك الأسماء من جهة القـدر المشـترك بينهما، ولكن لتلك الحقائق خاصية لا ندركها فى الـدنيا ولا سبيل إلى إدراكنا لها لعدم إدراك عينها أو نظيرها من كـل وجه. وتلك الحقائق على ما هى عليه تأويل ما أخبر ا   به. وهذا فيه رد على اليهود والنصارى الصائبين من المتفلسـفة وغيرهم فإنهم ينكرون أن يكون فى الجنة أكل وشرب ولباس ونكاح ويمنعون وجود ما أخبر به القرآن. ومن دخـل فـى الإسلام ونافق المؤمنين تأول ذلـك علـى أن هـذه أمثـال مضروبة لتفهيم النعيم الروحانى إن كـان مـن المتفلسـفة الصائبة المنكرة لحشر الأجساد وإن كان من منافقة الملتـين

المقرين بحشر الأجساد تأول ذلك على تفهيم النعيم الذى فـى الجنة من الروحانى والسماع الطيب والروائح المعطرة. كل ضال يحرف الكلم عن موضعه إلى ما اعتقد ثبوته ، وكـان فى هذا أيضاً متبعاً للمتشـابه إذ الأسـماء تشـبه الأسـماء والمسميات تشبه المسميات ولكن تخالفها أكثر مما تشـابهها فهؤلاء يتبعون هذا المتشابه ابتغاء الفتنة بما يوردونـه مـن الشبهات على امتناع أن يكون فى الجنة هذه الحقائق وابتغاء تأويله ليردوه إلى المعهود الذى يعلمونه فى الـدنيا قـال ا تعالى ﴿وما يعلم تأويله إلا الله﴾ {٧ آل عمران}.. فإن تلـك الحقائق قال ا فيها ﴿فَلا تَعلَم نَفْس ما أُخْفِي لَهم مِـن قُـرةِ أعينٍ﴾. {١٧ السجدة}.. لا ملك مقرب ولا نبى مرسل[1].

بل أن ما أورده الدكتور مصطفى محمود عن الحسـنة التى تكتب لمن يرى امرأة جميلة فيهتف "ا " باعتبار ذلـك إعجاب بقدرة ا جاء بنصه تقريباً فى تفسير سورة النـور لابن تيمية "وإذا قال أحد أنا ما انظر إلى الملـيح الأمـرد

(١) الإكليل فى المتشابه والتأويل تأليف شيخ الإسلام ابن تيمية نشـر مكتبـة أنصار السنة المحمدية (١٣٦٦-١٩٤٧) ص ١٢-١٣.

لأجل شئ ولكن إذا رأيته قلت سبحان ا   تبارك ا   أحسـن الخالقين"[1].

وبالنسبة لعلوم الفلك والطبيعة واستلهام تفسـيرها مـن القرآن نجد هذا النص "روى البيهقى أن بعض الفقهاء قـال يوماً لأبى الحسن الأنبارى الحكيم المهندس الذى كان يقـرر كتاب المجسطى لعمر الخيام ما تدرس فقال أفسر آيـة مـن كتاب ا   فقال له الفقيه وما تلك الآية قال الأنبارى قـول ا   تعالى: ﴿أَفَلَم ينْظـُروا إِلَى السماءِ فَوقَهم كَيفَ بنَينَاهـا﴾ {٦ قّ}.. فأنا أفسر كيفية بنائـها[2].

ولكن للقضية جانباً آخر لا يدور حول الموضوع ومدى صحة وسلامة المبدأ أو خطأ وصواب المنهج، أو توفيق هذا الكاتب أو عدم توفيقه، ولكنه يدور حول الذين يكـون لهـم

---

(٢) وقد رفض ابن تيمية هذه الدعوى ورأى أن جعل هذا النظر المحرم عبادة بمثابة جعل الفواحش عبادة وأن تخصيص عبادة التسبيح عند رؤيـة المـرأة الجميلة إنما يعود إلى أن الجمال يغير قلبه وعقله وقد يذهله لما حصـل فـى نفسه من الهوى.

(تفسير سورة النور لابن تيمية مققه وشرح أحاديثه محمود إبراهيم زايد ودكتور عبد المعطى قلعجى – دار الوعى – حلب ١٩٧٧ ص ١٣٨).

(١) تاريخ حكماء الإسلام – ظهير الدين البيهقى تحقيق الأستاذ كرد على ص ١٠٤ (استشهد بها فى بحث جهود العرب فى الفلك للأستاذ حسن ملا عثمـان – حلب سوريا فى أبحاث المؤتمر العلمى العربى الأول الإسكندرية سـبتمبر ١٩٥٢ نشر الجامعة العربية ص ١٩٥.

الحق فى تفسير القرآن وأن هذا الحق يجب أن يقصر على المتخصصين وقد شرحت هذه الفكرة الدكتورة بنت الشاطئ أكثر من مرة كان آخرها كلمتها فى جريدة الأهرام تحت عنوان "هذا بلاغ للناس" جاء فيها :

"حديث اليوم عن صنف آخر من موردى بضاعة العلمانية، أطباء وزراعيون وعلماء فى القانون والفلك والطبيعات يتصدون لتأويل القرآن بعلوم العصر وليسوا من أهل العلم بالقرآن ولا فكرة لديهم عن علومه التى جاوزت ثمانين علماً ..

البلاء بهم أفدح والفتنة بهم أشد .

العوام يتلقون بضاعتهم العلمانية مأخوذين بألقابهم العلمية ذات القيمة والاعتبار مبهورين بما يخرجون من جرابهم العلمانى من عجائب ما اكتشفوه فى القرآن الكريم من نظريات ومعادلات وقوانين علمية موضحة برسوم بيانية لمسار الأفلاك وطبقات الجو وجيولوجيا القمر وقوائم إحصائية لمقاييس الأبعاد وأوزان العناصر وذبذبات الأذن وطاقة تفجير الذرة وأعمار العصور الجيولوجية وحركة الأجرام السماوية .

والمتخصصون فى هذه العلوم يزدرون تزييف العلمانية العصرية لملصقات قرآنية على علوم الطبيعات والرياضيات. مقابلة على ما يفنون أعمارهم فى دراسة قـانون أو نظريـة منها على علماء الاختصاص فيها، ويعجبون لمقتطفات مـن كلمات قرآنية مبتورة من سياقها تؤول بعلوم لم تقـف عنـد المعروف منها اليوم، بل تظل أبدأ تتلقى جديداً فيها من جهود الأجيال المتعاقبة من العلماء والمكتشفين .

مقال فى الجاذبية وقوانينها يلصق عليه بعض الآية :

﴿الله الذِي رفَع السماواتِ بِغَيرِ عمدٍ تَرونَها ثُم اسـتَوى علَى الْعرشِ﴾. {٢ الرعد} ..

وبحوث فى علم الأجنة منقولة من عشـرات المراجـع الأمريكية تقدم فى تفسير قوله تعالى ﴿خلَـقَ الإِنْسـان مِـن علَقٍ﴾. {٢ العلق}.. ومقال فى سفن الفضاء تلصق عليه آيـة مبتورة من سياقها فى الوعيد: ﴿فَلا أُقْسِم بِالشفَقِ **(١٦)** والليـل وما وسقَ **(١٧)** والْقَمرِ إِذَا اتسق **(١٨)** لَتَركَبن طَبقاً عن طَبقٍ﴾. {١٩ الانشقاق} ..

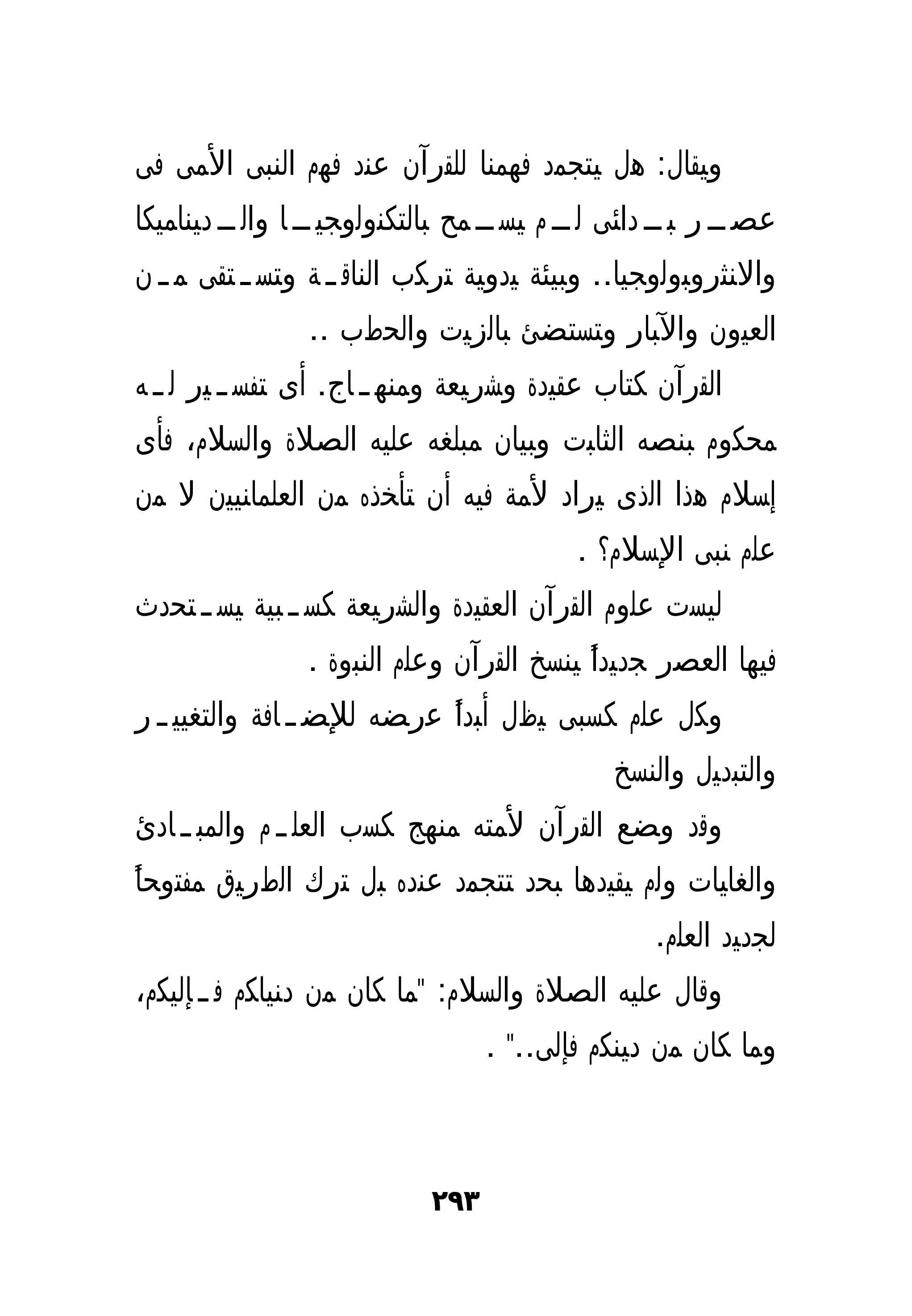
ويقال: يجتهدون ولهم أجـر إذا أخطـأوا وأجـران إن أصابوا .

الاجتهاد مباح لأهله محظور على غيرهم. يجتهد الطبيب والمحامى ويخطئان فلا يحرمان الأجر ويضاعف الأجر إذا نجحت العملية أو كسبت القضية .

ويعاقب من يمارس الطب أو المحاماة بغير مؤهل وأن أصابا فى اجتهادهما فنجحت العملية وكسبت القضية .

ولم نسمع بطبيب رمد يجتهد فى طب القلب أو المسالك البولية فضلاً عن أن يجتهد فى الطب البيطرى أو اللوغاريتمات. ولا عهد لنا بأستاذ فى القانون الدستورى يحاضر فى القانون الجنائى فضلاً عن أن يجتهد فى الديناميكا أو الهيدروليكا أو الاستاتيكا، ولا بعالم نبات يؤلف فى علم الحيوان فضلاً عن أن يجتهد فى الفلك والرياضيات ..

كتاب الإسلام وحده هو المستباح وكأن ليس له علماء ذوو دراية واختصاص. وفى الدولة مناصب كبرى لمشيخة الأزهر والفتوى والإقراء. وأساتذة الاختصاص من كليات أصول الدين والشريعة والحديث واللغة العربية. لا يحاضر أستاذ التاريخ الإسلامى فى الفقه والأحكام أو التفسير وعلوم القرآن أو الحديث وعلومه، فضلاً عن أن يجتهد أحد هؤلاء، ولو كان شيخ الإسلام، فى الطب أو الصيدلة .



ويقال: هل يتجمد فهمنا للقرآن عند فهم النبى الأمى فى عصـر بـدائى لـم يسـمح بالتكنولوجيـا والـديناميكا والانثروبولوجيا.. وبيئة يدوية تركب الناقـة وتسـتقى مـن العيون والآبار وتستضئ بالزيت والحطب ..

القرآن كتاب عقيدة وشريعة ومنهـاج. أى تفسـير لـه محكوم بنصه الثابت وبيان مبلغه عليه الصلاة والسلام، فأى إسلام هذا الذى يراد لأمة فيه أن تأخذه من العلمانيين لا من علم نبى الإسلام؟ .

ليست علوم القرآن العقيدة والشريعة كسـبية يسـتحدث فيها العصر جديداً ينسخ القرآن وعلم النبوة .

وكل علم كسبى يظل أبداً عرضه للإضـافة والتغييـر والتبديل والنسخ

وقد وضع القرآن لأمته منهج كسب العلـم والمبـادئ والغايات ولم يقيدها بحد تتجمد عنده بل ترك الطريق مفتوحاً لجديد العلم.

وقال عليه الصلاة والسلام: "ما كان من دنياكم فـإليكم، وما كان من دينكم فإلى.." .

وردة عقلية ودينية أن يؤخذ أى علم من غير أهلـه وأن يرسخ العلمانيون فى أذهان الناس. أن لديهم من علم القـرآن والدين ما لم يعلمه نبى الإسلام عليه الصلاة والسلام .

﴿إنما يخْشَى الله مِن عِبادِهِ العُلَماء﴾. {٢٨ فاطر}(1).

* * *

ونحن نؤمن إيماناً تاماً أن هذه النقلة من الموضوع إلى الذات، ومن المبادئ إلى الأشخاص نقلة خطيرة وسيئة، وأن القياس الذى أوردته الدكتورة – فى بلاغة يحسدها عليها أبلغ المحامين – قياس فاسد لا يستقيم، فضلاً عن أنه هو نفسه لا يتمشى مع ما أرادته، وما قصدت إليه ..

فبادئ ذى بدء، ومن ناحية المبدأ نقول إن الـذى يهـم دائماً هو الموضوع ويجب أن نطلب الحكمة بصرف النظـر عن المكان الذى توجد فيه، والشخص الذى ينطق بها والشكل الذى تتلبس به ويجب أن نصدر أحكاماً عـن هـذا وحـده ونعرف الرجال بالحق فإذا انعكست الآية فاشترطنا الشروط فى المكان الذى تطلب منه الحكمة والأفراد الذين تتلبس بـه، فأننا نحجر على الحقيقة ونصدر عن الهوى ونشرك بالحقيقة

---

(١) جريدة الأهرام ١٠/٨/١٩٨٠.

الموضوعية المجردة هوى النفوس.. وأغراض الأفراد والفئات ونعرف الحق بالرجال ...

هذا مبدأ قديم عرفه اليونان عندما لم يسمح فلاسفتهم العظام للعلاقات الخاصة سواء كانت تلمذة أو صداقة بأن تؤثر على مناهجهم وما تنتهى إليه هذه المناهج.. وعرفه العرب عندما ترجموا عن اليونان فتخيروا، ولم يمنعهم إعجابهم بالمعلم الأول أن يختلفوا معه أو ينتهوا إلى غير ما انتهى، وعرفها الإسلام ودعا إليها أحر دعوة عندما قرن ما بين الوثنية والأشخاص، وربط بين الديانة والحقيقة الموضوعية، وجعل من الأنبياء – وهم أعلى نماذج البشرية، نقلة للرسالة وحذرهم من أن يحيدوا قيد أنملة عما أوحى إليهم واستبعد منهم كل المعانى الذاتية من نسب أو جاه أو ثروة وندد بمن شاء أن ينزل القرآن على رجل من القريتين عظيم .

وعرفته العصور الحديثة، وكان فى أصل مبدء عظيم أشاعته أكثر من غيرها، ويعد أكبر حسنات الحضارة الأوربية هو الحرية، وبالذات حرية الفكر وهى ما يتفق مع موضوعية المعرفة ولأنها السبيل إلى الحكمة المجردة

والمطلقة وإلى التحرر مـن المصـالح والأهـواء وإرادات الأفراد والفئات والحكام والملاك وسدنةٌ المعرفة وحجابهـا، سواء كانوا كهنة كنيسة أو أسـاتذة جامعـة، ومـا يتلـبس بالمعرفة من مكاسب ومزايا يحرص عليهـا ويسـتأثر بهـا بعض الأفراد .

بل أكثر من هذا إن حرية البحث حتى عندما يسـتغلها مستغل أو يركبها انتهازى أو يتعسفها متعسف بحيث تنتهـى إلى أخطاء أو مغالطات فإن الأمر لا يخلو من فائدة لقضـية الحقيقة، لأنه يبين ركاكة الانحراف وسوء الاستغلال ومغبـة التعسف ويعطى الفرصة لإظهار الحقيقة وتفنيد الشبهات التى قد تراود النفوس دون أن تظهـر علـى السـطوح..وكـلام الدكتورة بنت الشاطئ عن الأشخاص الذين يحق لهم التفسير حجر على الحرية، وسبق إلى الحكم قبل تبين الوقائع وهـو مرفوض من ناحية المبدأ لأن المفروض أن نركز أحكامنـا على ما يقال، وليس على من يقول، فنحن لسنا مـن رجـال تحقيق الشخصية أو الضبطية. ونحـن نفـتح بـاب النقـد والمحاورة على مصـراعيه للقضـايا التـى تثـار.. دون الأشخاص لأنهم هم خارج موضوع القضية صدد البحث .

وقد توضع تلك الدعوى فى قالب موضوعى يبدو بريئاً ومنطقياً ولكنه ينتهى إلى العواقب الخطيرة نفسها فالأستاذ الشيخ محمد الغزالى يقول «لم يزعم أحد أن تفسير القرآن الكريم حكر على عصر من العصور ولا وقف على طائفة من الناس ولكن الذى قيل إن الإحصائيين فى شأن ما هم الذين يسألون عنه ويتحدثون فيه .

والأمر هنا لا يتطلب أكثر من الأهلية العلمية والإحاطة الواعية .

ولما كان القرآن الكريم كتاباً عربياً على درجة مرموقة من البلاغة فإن العوام لا يسوغ أن يتعرضوا لشرحه .

ولما كان قد استغرق فى تكامله بضعا وعشرين سنة فإن تكوين حكم منه فى إحدى القضايا المهمة لا يجوز لمن يجهل تواريخ نزول الآيات والسور .

ولما كان صاحب الرسالة وعليه نزل القرآن قد بين الغوامض وفصل المجمل وهو أحق الناس بتفسير ما نزل عليه فإنه لا يليق بمن يجهل حديث الرسول أن يتصدر لتفسير كتابه .

وعند تمام المسوغات العلمية للتفسير يبقى أمـر آخـر نذكره دون غضاضة وهو أن الذكاء النظرى المجرد لا يرفع صاحبه إلى مستوى التفسير فقد يكون المـرء مـن الناحيـة العلمية متفوقاً ولكنه من الناحية الخلقية مريب تستولى علـى ضميره الشهوات ويصرفه عن تقدير الحـق هـوى عاجـل فكيف يؤتمن على كتاب ا .

فإذا احتاط العلماء لمكانة الوحى وجلال القـرآن ورأوا ألا يتعرض للتفسير إلا رجل يجمع إلى الفقه العـالى تـديناً رفيعاً وتقوى عالية وعبادة خاشعة فهم لم يذهبوا بعيداً ولـم يطلبوا شططاً .

والحق أن التفسير لا يطاق من جاهل بالدين واللغة .

ولا يطاق كذلك من شخص آثم يرتكب الموبقات أو ليّن الذمة يبيع دينه بعرض من الدنيا"(1).

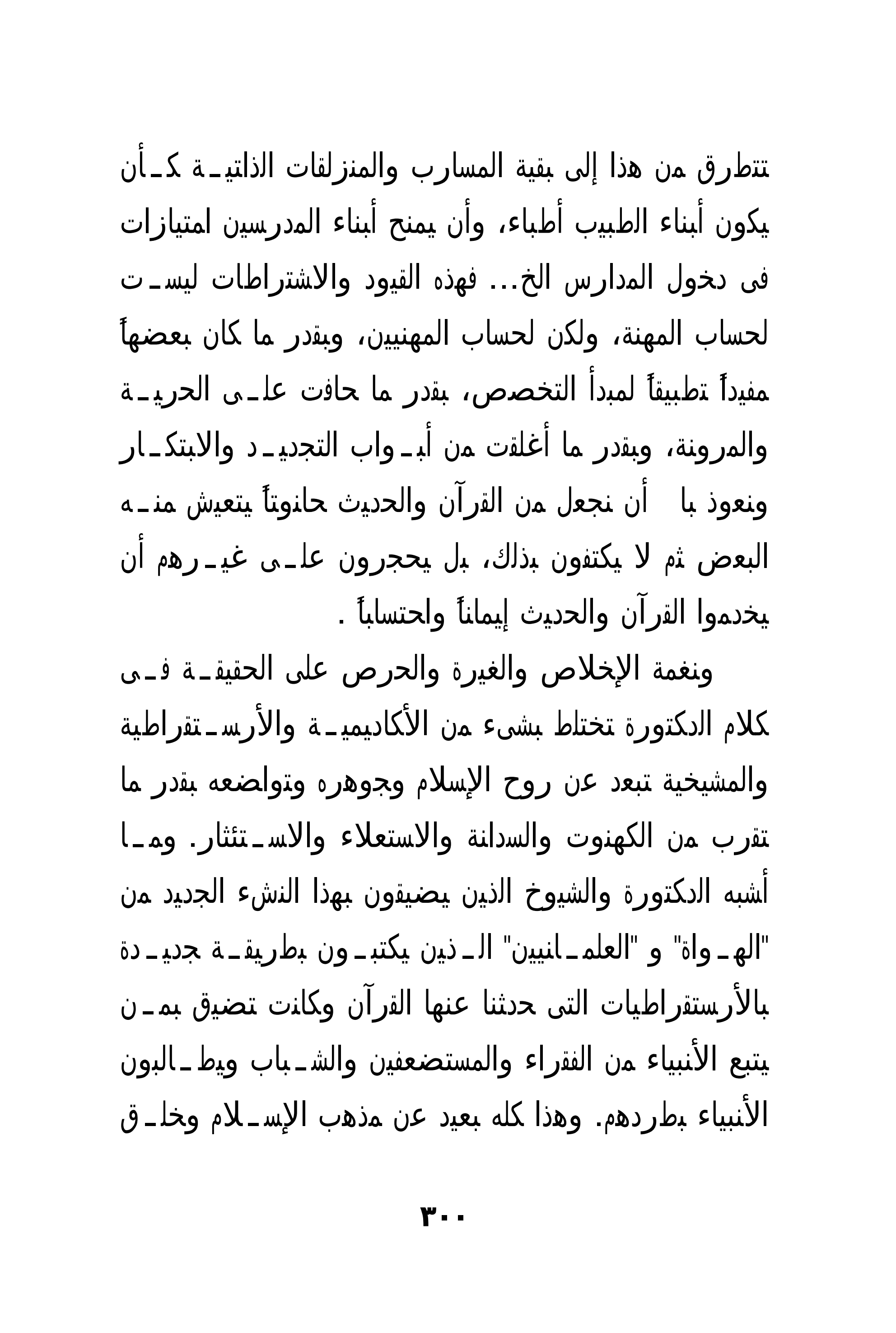
فهذا الكلام الذى يبدو بريئاً ومنطقياً يثير قضايا لا تظهر خلال السطور ولكنها تبرز عند التطبيق وتؤدى إلى الحكـر والتحكم فمن ذا يحكم فى توفر هذه "الأهلية" ؟ لعـل أسـهل الطرق للتوصل إلى ذلك هو الحصول على إجازة دراسـية

---

(١) الهلال عدد خاص عن القرآن (ديسمبر ١٩٧٠) ((هـل يتنـاقض القـرآن والعلم)) للشيخ محمد الغزالى ص ٤٢-٤٣ .

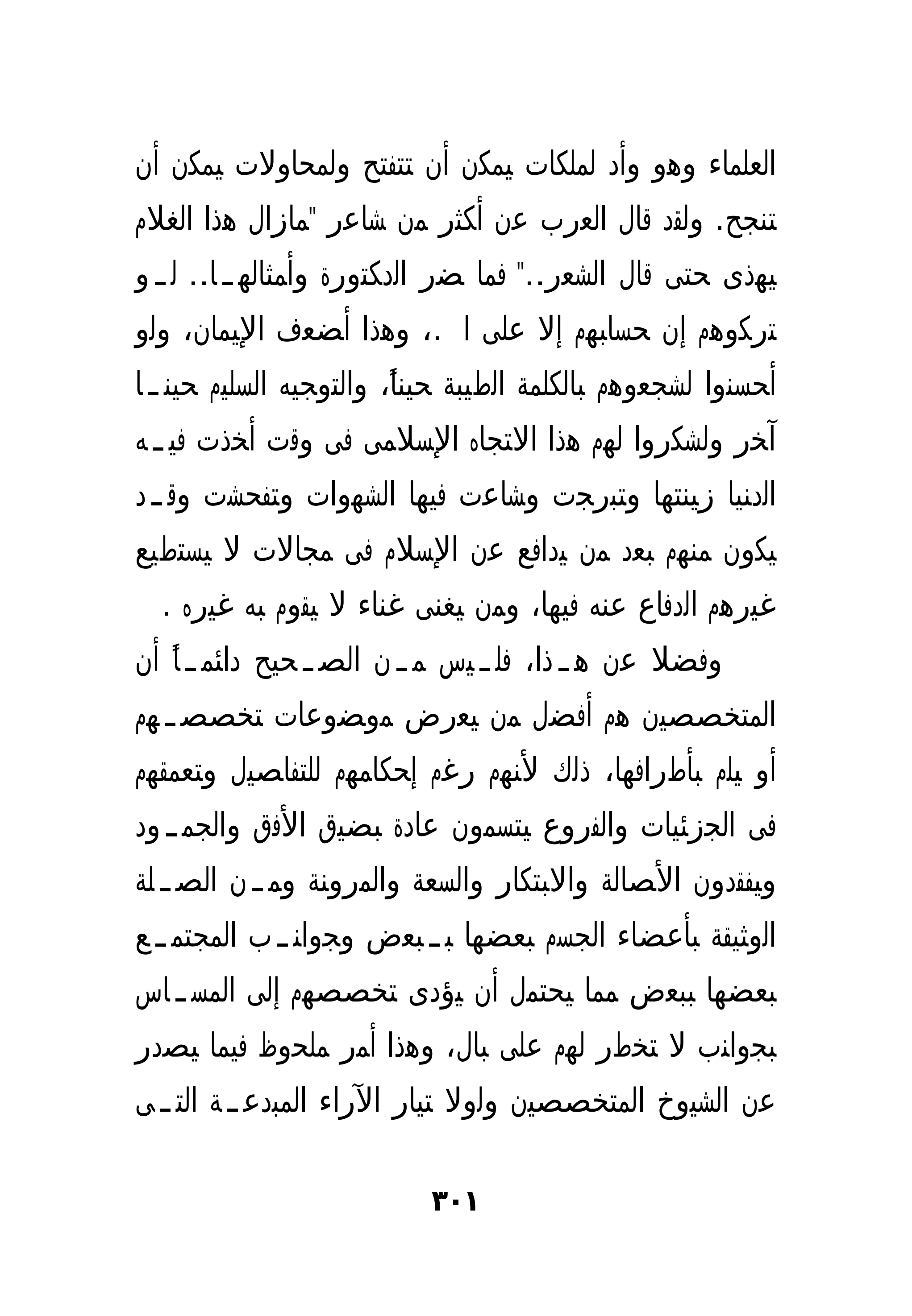
وهذا حكم على التفسير بأن يسير تبعاً لمناهج دراسية تتحكم فيها الدولة وتؤثر عليها المصالح وينتهى بالعقم وأى معيـار آخر يتطلب نوعاً من "تحقيق الشخصـية" ويفسـح المجـال لتدخل العوامل الذاتية ولا يمكن مطلقاً التوصل إلى الضـابط فى مثل هذه الموضوعات وتطلبها هو كتطلـب المشـركين ﴿لَولا نُزلَ هذَا الْقُرآن علَى رجلٍ مِن الْقَريتَين عظِـيمٍ﴾ {٣١ الزخرف}.. والوضع الصحيح للقضية هـو التركيـز علـى "المقولة" وليس على "القائل" ورب مهندس أو ميكـانيكى أو فلاح يصل بنور القريحة أو هدى البصيرة أو بدراسته الذاتية والخاصة إلى مالا يدركه الشيخ المعمم من برنامج تلقاه فـى الأزهر، وما تعنينا "صفات" وهوية الكاتبين فنحن لسنا مـن رجال الضبطية وإنما ننشد الحقيقة والحكمة أنى كانت ومـن أى شخص جاءت .

وقياس العلوم الإسلامية على الطب والهندسـة الـخ... الذى أوردته الدكتورة بنت الشاطئ وغيرها فاسد لأن هـذه مهن وصناعات وفى أصل احتكارها حق ممارسة المهنة كما يعرف ذلك كل من تقصى تاريخ ظهور النقابات المهنية وهى تستهدف الهدف المادى وكفالة المورد ومنع المنافسة وهـى

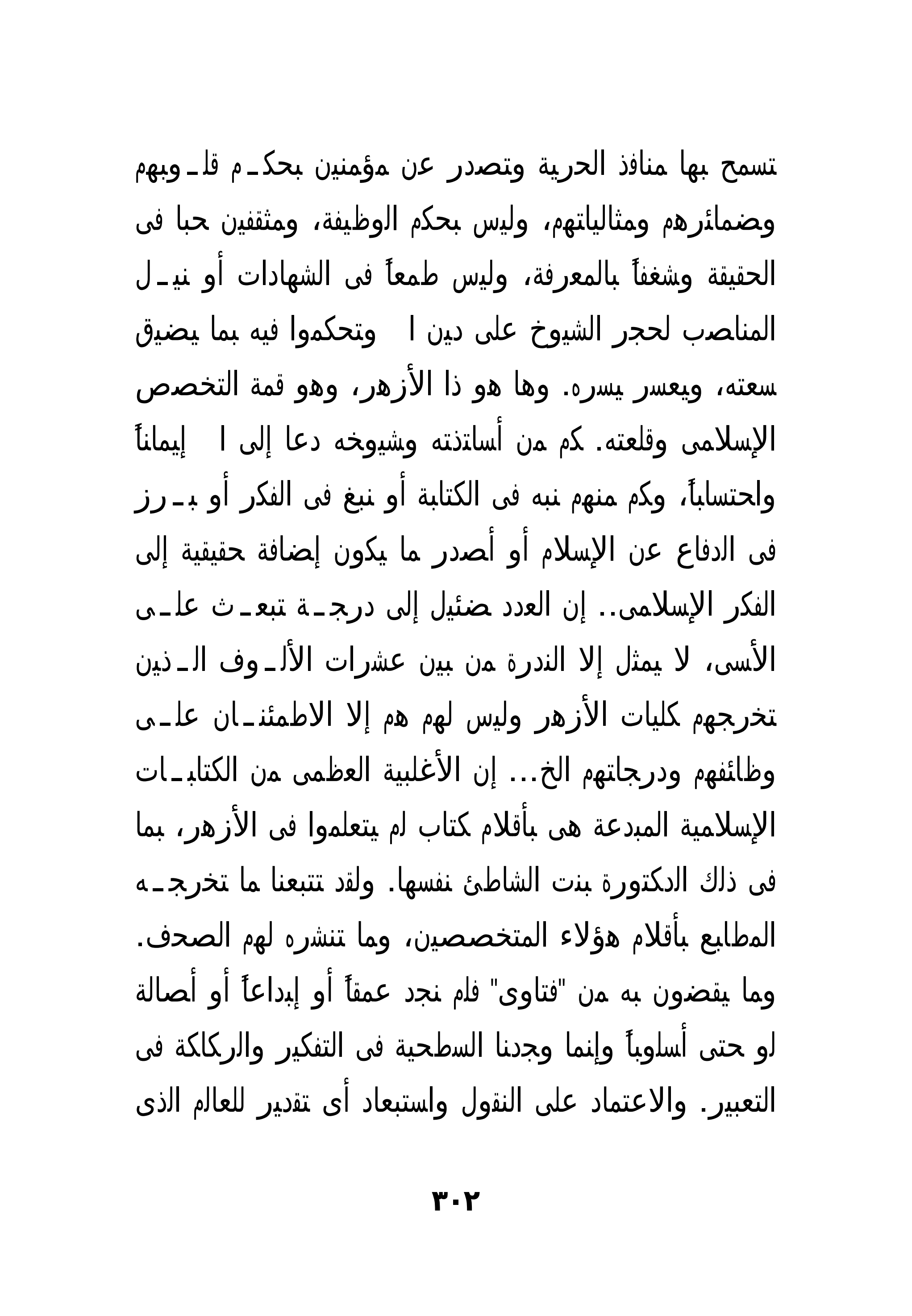


تتطرق من هذا إلى بقية المسارب والمنزلقات الذاتية كأن يكون أبناء الطبيب أطباء، وأن يمنح أبناء المدرسين امتيازات فى دخول المدارس الخ... فهذه القيود والاشتراطات ليست لحساب المهنة، ولكن لحساب المهنيين، وبقدر ما كان بعضها مفيداً تطبيقاً لمبدأ التخصص، بقدر ما حافت على الحرية والمرونة، وبقدر ما أغلقت من أبواب التجديد والابتكار ونعوذ با أن نجعل من القرآن والحديث حانوتاً يتعيش منه البعض ثم لا يكتفون بذلك، بل يحجرون على غيرهم أن يخدموا القرآن والحديث إيماناً واحتساباً .

ونغمة الإخلاص والغيرة والحرص على الحقيقة فى كلام الدكتورة تختلط بشىء من الأكاديمية والأرستقراطية والمشيخية تبعد عن روح الإسلام وجوهره وتواضعه بقدر ما تقرب من الكهنوت والسدانة والاستعلاء والاستئثار. وما أشبه الدكتورة والشيوخ الذين يضيقون بهذا النشء الجديد من "الهواة" و "العلمانيين" الذين يكتبون بطريقة جديدة بالأرستقراطيات التى حدثنا عنها القرآن وكانت تضيق بمن يتبع الأنبياء من الفقراء والمستضعفين والشباب ويطالبون الأنبياء بطردهم. وهذا كله بعيد عن مذهب الإسلام وخلق

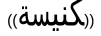

العلماء وهو وأد لملكات يمكن أن تتفتح ولمحاولات يمكن أن تنجح. ولقد قال العرب عن أكثر من شاعر "مازال هذا الغلام يهذى حتى قال الشعر.." فما ضر الدكتورة وأمثالهـا.. لـو تركوهم إن حسابهم إلا على ا .، وهذا أضعف الإيمان، ولو أحسنوا لشجعوهم بالكلمة الطيبة حيناً، والتوجيه السليم حينـا آخر ولشكروا لهم هذا الاتجاه الإسلامى فى وقت أخذت فيـه الدنيا زينتها وتبرجت وشاعت فيها الشهوات وتفحشت وقـد يكون منهم بعد من يدافع عن الإسلام فى مجالات لا يستطيع غيرهم الدفاع عنه فيها، ومن يغنى غناء لا يقوم به غيره .

وفضلا عن هـذا، فلـيس مـن الصـحيح دائمـاً أن المتخصصين هم أفضل من يعرض موضوعات تخصصـهم أو يلم بأطرافها، ذلك لأنهم رغم إحكامهم للتفاصيل وتعمقهم فى الجزئيات والفروع يتسمون عادة بضيق الأفق والجمـود ويفقدون الأصالة والابتكار والسعة والمرونة ومـن الصـلة الوثيقة بأعضاء الجسم بعضها بـبعض وجوانـب المجتمـع بعضها ببعض مما يحتمل أن يؤدى تخصصهم إلى المسـاس بجوانب لا تخطر لهم على بال، وهذا أمر ملحوظ فيما يصدر عن الشيوخ المتخصصين ولولا تيار الآراء المبدعـة التـى



تسمح بها منافذ الحرية وتصدر عن مؤمنين بحكـم قلـوبهم وضمائرهم ومثالياتهم، وليس بحكم الوظيفة، ومثقفين حبا فى الحقيقة وشغفاً بالمعرفة، وليس طمعاً فى الشهادات أو نيـل المناصب لحجر الشيوخ على دين ا وتحكموا فيه بما يضيق سعته، ويعسر يسره. وها هو ذا الأزهر، وهو قمة التخصص الإسلامى وقلعته. كم من أساتذته وشيوخه دعا إلى ا إيماناً واحتساباً، وكم منهم نبه فى الكتابة أو نبغ فى الفكر أو بـرز فى الدفاع عن الإسلام أو أصدر ما يكون إضافة حقيقية إلى الفكر الإسلامى.. إن العدد ضئيل إلى درجـة تبعـث علـى الأسى، لا يمثل إلا الندرة من بين عشرات الألـوف الـذين تخرجهم كليات الأزهر وليس لهم هم إلا الاطمئنـان علـى وظائفهم ودرجاتهم الخ... إن الأغلبية العظمى من الكتابـات الإسلامية المبدعة هى بأقلام كتاب لم يتعلموا فى الأزهر، بما فى ذلك الدكتورة بنت الشاطئ نفسها. ولقد تتبعنا ما تخرجـه المطابع بأقلام هؤلاء المتخصصين، وما تنشره لهم الصحف. وما يقضون به من "فتاوى" فلم نجد عمقاً أو إبداعاً أو أصالة لو حتى أسلوباً وإنما وجدنا السطحية فى التفكير والركاكة فى التعبير. والاعتماد على النقول واستبعاد أى تقدير للعالم الذى

يعيش فيه، والكثير منها يثير التقزز حقاً. فإذا ارتفع أحـدهم عن هذا المستوى تعرضوا له بالنقد والتجريح .

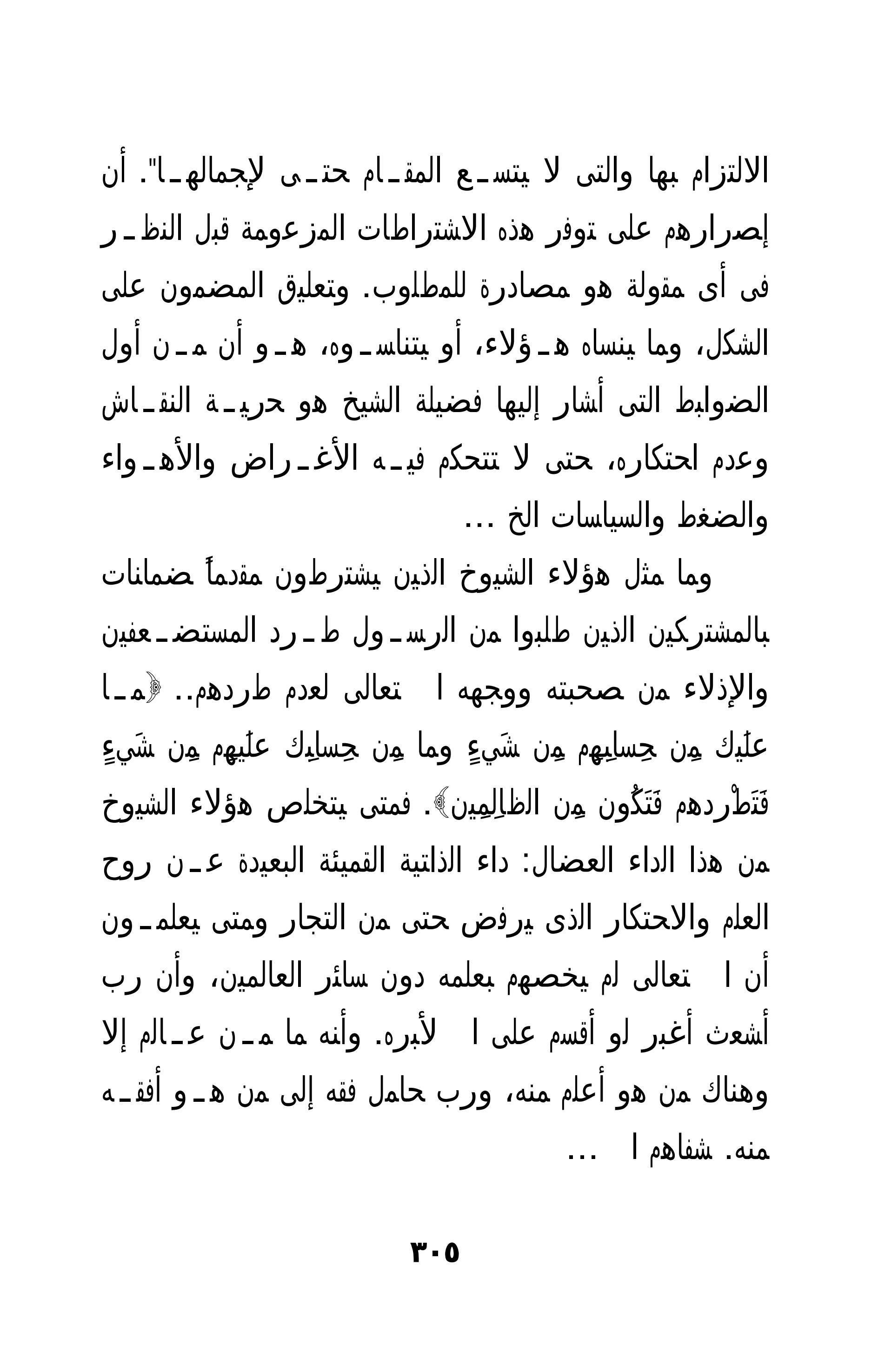
وهناك جانب آخر هام لا أدرى كيف غفل عنه الـذين يريدون أن يحصروا التفسير أو الفقه فى المتخصصين هـو أنه سيؤدى إلى إيجاد  «كنيسة» إسلامية وإكليروس إسـلامى وقسس يكون لهم وحدهم حـق الحـديث والبحـث والنشـر ويمكنهم أن يصدروا أحكام الحرمان على غيـرهم وبـذلك يهدمون أحد مفاخر الإسلام وأسرار حيويته .

وأخيراً فلو افترضنا مع الدكتورة بنت الشاطئ ضرورة اشتراط التخصص، فإن هذا نفسه يرد عليها، لأن فى القرآن من الآيات التى تتحدث عن الشمس والقمر الليل والنهـار.. الأرض والسماء أضعاف ما فيه من آيات الأحكام، ولا يمكن المرور على هذه الآيات دون أى تعليق، ولابد لأى تعليق من المعرفة العلمية بهذه الموضوعات، وفيه من سنن الاجتمـاع وقواعد العمران مالا يمكن تفسيره إلا للذين يحكمـون علـم الاجتماع ومن الجمع ما بين العلم والفـن.. الأدب والفلسـفة مالا يمكن أن يتفهمه إلا العقول الذكية المثقفة ثقافة خصـبه

متعددة المجالات والنفوس السمحة الرضية الرحبة التى تتسع لها وتستوعبها ..

وليست ابنه الشاطئ هى الأولـى التـى رفعـت هـذه الصيحة "المشيخية" ولا هى الأخيرة فكل يـوم يكتـب أحـد الشيوخ بلا حياء ولا خجل عن الكلأ المباح!! أى الدين وأن من الضرورى إحاطته بالأسيجة كما يفعل أصحاب الأملاك، كأن الدين أصبح "دكانا" أو استرزاقا لا تجوز المنافسة فيه إلا لأبناء المهنة وأكد فضيلة شيخ الأزهر تعليقا فى أهرام يـوم ٨٩/١/٢٧ على رأى نشره أحد الكتاب .

"وفضلاً عن هذا فإن الشرع الحنيف قد وكل أمر النظر فى الأحكام لطائفة من الأمة فقهت فى دين ا . يقول سبحانه وتعالى: ﴿فَلَولا نَفَر مِن كُل فِرقَةٍ مِنْهم طَائِفَةٌ لِيتَفَقهـوا فِـي الدين ولِينذِروا قَومهم إِذَا رجعوا إِلَـيهم لَعلهـم يحـذَرون﴾. فالتمييز بين الصواب وغير الصواب من القول فـى أمـور الدين بوجه عام، إنما هو لهذه الطائفة لا للمجتمـع بمعنـى الرأى العام – كإنسان فى أى تخصص علمـى لـه أبعـاده ومقوماته العلمية وله خصائصه ذلك أن الأمر فى التشـريع الإسلامى والاستنباط من نصوصه له ضوابطه التى يجـب


الالتزام بها والتى لا يتسـع المقـام حتـى لإجمالهـا". أن إصرارهم على توفر هذه الاشتراطات المزعومة قبل النظـر فى أى مقولة هو مصادرة للمطلوب. وتعليق المضمون على الشكل، وما ينساه هـؤلاء، أو يتناسـوه، هـو أن مـن أول الضوابط التى أشار إليها فضيلة الشيخ هو حريـة النقـاش وعدم احتكاره، حتى لا تتحكم فيـه الأغـراض والأهـواء والضغط والسياسات الخ ...

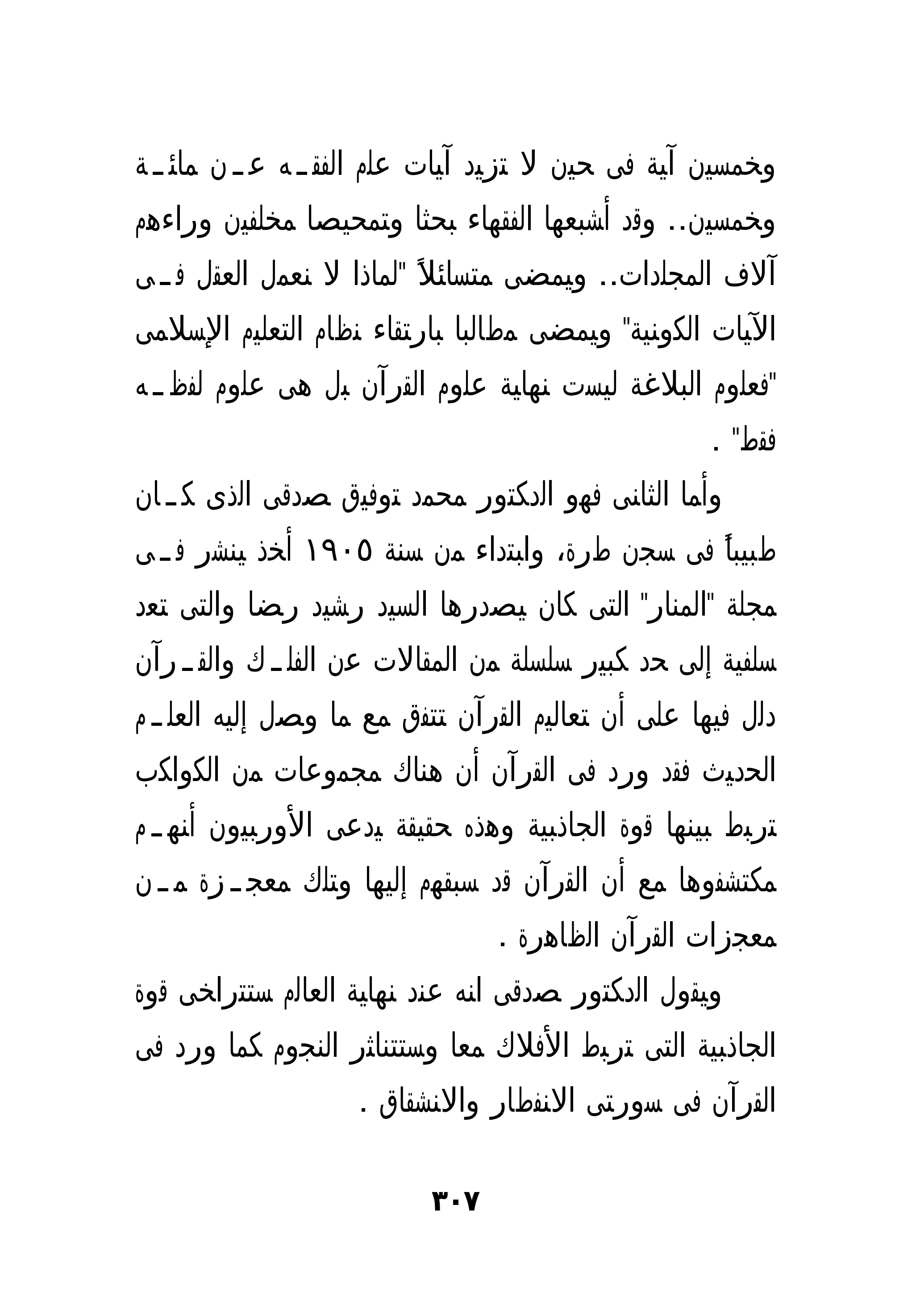
وما مثل هؤلاء الشيوخ الذين يشترطون مقدماً ضمانات بالمشتركين الذين طلبوا من الرسـول طـرد المستضـعفين والإذلاء من صحبته ووجهه ا تعالى لعدم طردهم.. ﴿مـا عليك مِن حِسابِهِم مِن شَيءٍ وما مِن حِسابِك عليهم مِن شَيءٍ فَتَطْردهم فَتَكُون مِن الظالِمِين﴾. فمتى يتخاص هؤلاء الشيوخ من هذا الداء العضال: داء الذاتية القميئة البعيدة عـن روح العلم والاحتكار الذى يرفض حتى من التجار ومتى يعلمـون أن ا تعالى لم يخصهم بعلمه دون سائر العالمين، وأن رب أشعث أغبر لو أقسم على ا لأبره. وأنه ما مـن عـالم إلا وهناك من هو أعلم منه، ورب حامل فقه إلى من هـو أفقـه منه. شفاهم ا ...

- 2 -

الأعجاز العلمى للقرآن

فى مجال الإعجاز العلمى للقـرآن الكـريم ت تضـم الصفحات المنسية أسماء علمين سبقا فى الحديث عن جوانب من الإعجاز العقلى للقرآن لا يكاد الجيل الجديد أن يعرفهمـا هما الشيخ طنطاوى جوهرى والدكتور محمد توفيق صـدقى ١٨٨١ – ١٩٦٠ .

أول هذين عالم جليل عرف بروحه المتفتحة التى دعته فى الثلاثينات إلى تأييد دعوة الإخوان المسلمين الناشئة وقبل أن يوضع اسمه كرئيس تحرير لبعض صحفها. وكـان مـن ثمرات هذا الانفتاح تفسيره "الجواهر" الذى تحدث فيه عـن عجائب مخلوقات ا فى حياة أقل الكائنات شأنا – الحشرات. كالنمل والنحل والعنكبوت الخ... وقد قال عن نفسه أنه "خلق مغرما بالعجائب الكونية معجبا بالبدائع الطبيعية مشوقا إلى ما فى السماء من جمال وما فـى الأرض مـن بهـاء وكمـال "ويستطرد الشيخ متحسرا" أن أكثر العقـلاء وبعـض أجلـة العلماء عن تلك المعانى معرضين".. وتبلغ حسرته أوجها فى قوله "أن عدد الآيات الكونية الصريحة يزيد علـى سـبعمائة



وخمسين آية فى حين لا تزيد آيات علم الفقـه عـن مائـة وخمسين.. وقد أشبعها الفقهاء بحثا وتمحيصا مخلفين وراءهم آلاف المجلدات.. ويمضى متسائلاً "لماذا لا نعمل العقل فـى الآيات الكونية" ويمضى مطالبا بارتقاء نظام التعليم الإسلامى "فعلوم البلاغة ليست نهاية علوم القرآن بل هى علوم لفظـه فقط" .

وأما الثانى فهو الدكتور محمد توفيق صدقى الذى كـان طبيباً فى سجن طرة، وابتداء من سنة ١٩٠٥ أخذ ينشر فـى مجلة "المنار" التى كان يصدرها السيد رشيد رضا والتى تعد سلفية إلى حد كبير سلسلة من المقالات عن الفلـك والقـرآن دلل فيها على أن تعاليم القرآن تتفق مع ما وصل إليه العلـم الحديث فقد ورد فى القرآن أن هناك مجموعات من الكواكب تربط بينها قوة الجاذبية وهذه حقيقة يدعى الأوربيون أنهـم مكتشفوها مع أن القرآن قد سبقهم إليها وتلك معجـزة مـن معجزات القرآن الظاهرة .

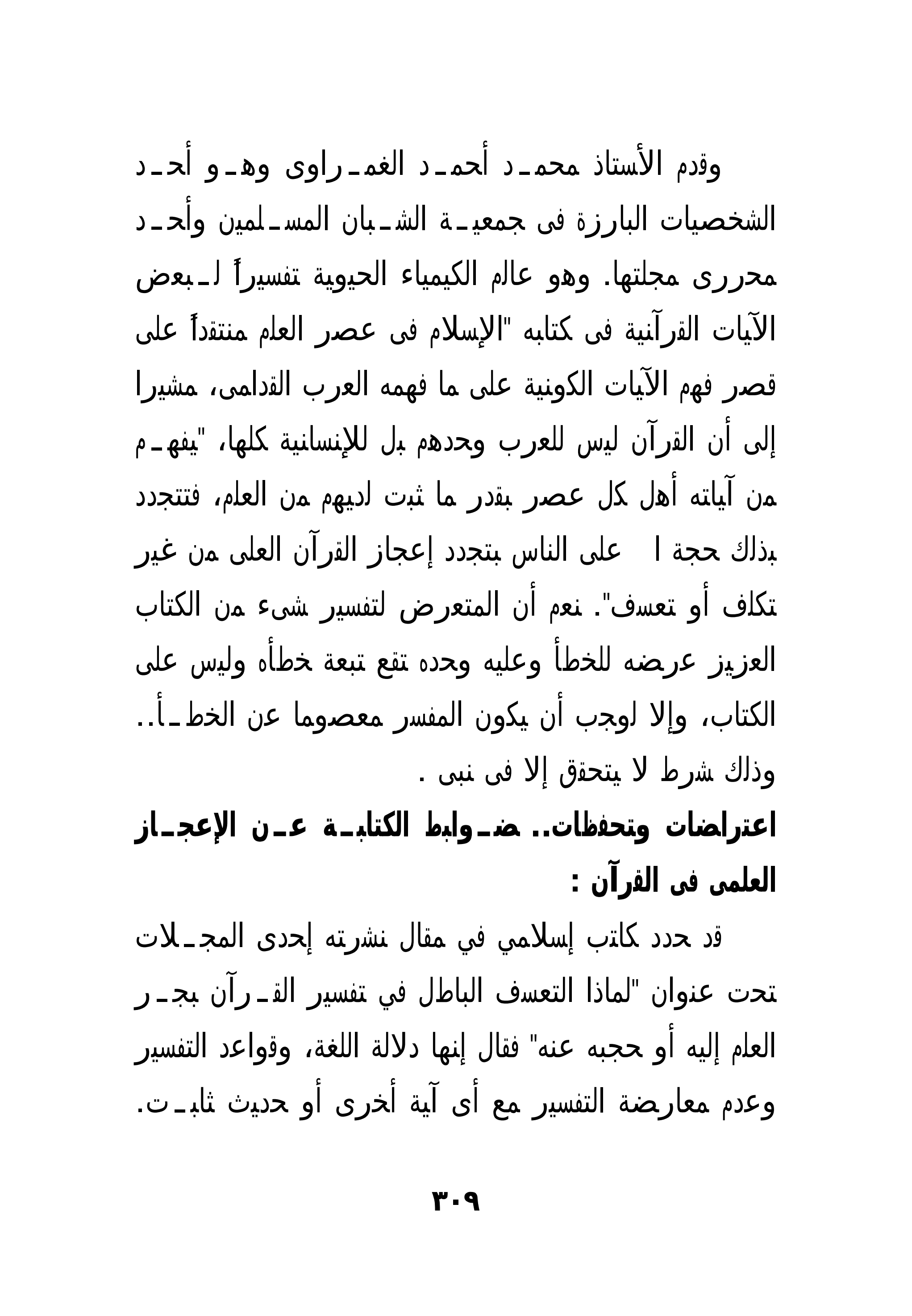
ويقول الدكتور صدقى انه عند نهاية العالم ستتراخى قوة الجاذبية التى تربط الأفلاك معا وستتناثر النجوم كما ورد فى القرآن فى سورتى الانفطار والانشقاق .

ويذهب الدكتور صدقى إلى أن السموات السبع التى يكثر ورودها فى القرآن هى الأفلاك السبعة لأن السماء فى اللغة هى كل ما يعلو الإنسان أو يرتفع عن رأسه وقيل فى السماوات أنها طبقات فوق بعض وذلك لأن مدار كل واحدة منها فوق مدار الأخرى .

ولما كان نظامنا الشمسى يدور حول فلك معين لا نعرف كنهه على وجه التدقيق فمن الواضح أن الأفلاك الأخرى تدور حول كوكب ثابت وليس بعيداً أن تكون كل هذه الأفلاك التى تدور حول مركز واحد مشترك بالنسبة للجميع يجذب الكل ويديره ويضبط نظامه ذلك المركز هو العرش أو كرسى السماوات والأرض .

يروى الدكتور صدقى أن هذا المركز هو على الراجح الذى وصفه القرآن بأنه عرش ا ويثبته فى مكانه قوى خاصة جعلها ا فيه ولسنا نعرف طبيعتها ولكن القرآن يقول ﴿ويحمِلُ عرشَ ربك فَوقَهم يومئِذٍ ثَمانِيةٌ﴾{١٧ الحاقة}..[1].

(١) نشرت مقالات الدكتور صدقى أولا فى المنار ج ٨ سنة ١٩٠٥ ثم طبعت أول مرة قبيل وفاته (١٩٢٠) وأعيد طبعها بعد ذلك سنة ١٩٢٧ وقد اعتمدنا فى هذه الفقرة على كتاب ((الإسلام والتجديد فى مصر)) تأليف الدكتور تشارلز ادامس – ترجمة عباس محمود ص ٢٣٣-٢٣٤.



وقدم الأستاذ محمد أحمد الغمراوى وهو أحد الشخصيات البارزة فى جمعية الشبان المسلمين وأحد محررى مجلتها. وهو عالم الكيمياء الحيوية تفسيراً لبعض الآيات القرآنية فى كتابه "الإسلام فى عصر العلم منتقداً على قصر فهم الآيات الكونية على ما فهمه العرب القدامى، مشيرا إلى أن القرآن ليس للعرب وحدهم بل للإنسانية كلها، "يفهم من آياته أهل كل عصر بقدر ما ثبت لديهم من العلم، فتتجدد بذلك حجة ا على الناس بتجدد إعجاز القرآن العلى من غير تكلف أو تعسف". نعم أن المتعرض لتفسير شىء من الكتاب العزيز عرضه للخطأ وعليه وحده تقع تبعة خطأه وليس على الكتاب، وإلا لوجب أن يكون المفسر معصوما عن الخطأ.. وذلك شرط لا يتحقق إلا فى نبى .

اعتراضات وتحفظات.. ضوابط الكتابة عن الإعجاز العلمى فى القرآن :

قد حدد كاتب إسلامي في مقال نشرته إحدى المجلات تحت عنوان "لماذا التعسف الباطل في تفسير القرآن بجر العلم إليه أو حجبه عنه" فقال إنها دلالة اللغة، وقواعد التفسير وعدم معارضة التفسير مع أى آية أخرى أو حديث ثابت.

فإذا انطبقت هذه الضوابط على التفسير العلمي فيمكن الأخـذ به لأن المسلك الأمثل هو عدم التعسف في محاولة جر العلم إلى القرآن أو حجبه عنه وطبق هذه الضوابط علـى بعـض الآيات التي تناولها التفسير العلمى مثل الآية "يا معشر الجن والإنس، إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فأنفذوا، لا تنفذوا إلا بسلطان" فقد قيل إن هذه الآية تدل على إمكان التخلص من الجاذبية الأرضية والوصول إلى القمـر وغيره من الأجرام السماوية ولكن الكاتب يلحـظ أن الآيـة تقول ﴿إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَـارِ السـماوَاتِ﴾ {٣٣ الرحمن}.. ولم تقل "إلى أقطار السموات" وفرق كبيـر فـي الدلالة اللغوية بين التعبيرين. إن ((من)) لا تصلح فـي هـذا المقام إلا لمعنى واحد هو التجاوز فالمعنى إذن إن اسـتطعتم أن تتجاوزوا أقطار السموات والأرض وتخرجوا عن دائـرة الكونات .

وفي رأى الكاتب أن الآية هي للتعجيـز وأن المعنـى المراد الذي تكنى عنه الآية هو "أن الإنسان لن ينجـو مـن قبضة ا تعالى وما قد ينتظره يوم القيامة من حساب وجزاء

مهما حاول ومهما أوتى من قـوة إلا بسـلطان مـن الإرادة الإلهية يتعلق بنجاته" .

ويستطرد نعم لو جاء التعبير "إلى" بدلا من "من" لكـان التفسير الشائع مقبولا .

ويستطرد :

وكذلك فإن الآية "مالكم لا ترجون وقارا وقد خلقكـم أطوارا" لا تدل على مبدأ التطور ولا تعد سبقا لما جـاء بـه لامارك وداروين لأن صرف كلمة أطوارا إلى هذه المعـاني يتناقض مع آيات صريحة أخرى مثل ﴿لَقَد خَلَقْنَا الْإِنْسان فِي أَحسن تَقْوِيمٍ﴾ {٤ التين}.. وإن كلمة أطـوارا تفسـرها آيـة أخرى هي ﴿يخْلُقُكُم فِي بطُونِ أُمهاتِكُم خَلْقاً مِن بعدِ خَلْقٍ فِي ظُلُماتٍ ثَلاثٍ﴾. {٦ الزمر}.. وفي مقابل هذا فإن الكاتب يرى أت الآية ﴿أَلَم نَجـعل الأرض كِفَاتاً**(٢٥)** أَحياء وأَمواتاً﴾{٢٦ المرسلات}.. تنم عن الجاذبية الأرضية لأن كفاتا هي الجذب والضم – كذلك لاحظ أن القرآن يصف الشمس بأنها سـراج مضئ وإذا تحدث عن القمر وصفة بأنه منير. وأن هذا لغوياً يجعل القمر جرماً بارداً لا حرارة فيه يكتسب نوره من جرم آخر، بعكس الشمس. ويرى أن الآية ﴿وأَرسلْنَا الرياح لَواقِح

فَأَنْزلْنَا مِن السماءِ ماء فَأَسقَينَاكُموه وما َأنْتُم لَه ِبخَازِنِين﴾ {٢٢ الحجر}.. بأنها تعبير عن الحقيقة العلمية الخاصـة بتلقـيح الرياح السحاب بالشحنات الكهربائية الأمر الذي يؤدي إلـى سقوط الأمطار، وأننا لا نستطيع أن نفر بهذه الآية من هـذه الحقيقة العلمية(١).

وتعرض لهذا الموضوع الأستاذ الـدكتور علـى عبـد الواحد وافى فى كتابه "الحرية فى الإسلام" إذ خصص فصلاً موجزاً عن "تعسف بعض الكتاب فى تفسير آيات القرآن وفق النظريات العلمية الحديثة وانحرافهم فى هذا عن مدلول اللغة وأغراض الكتاب الكريم" أشار فيه إلى "الجناية الكبرى التـى جناها بعض من أقحموا أنفسهم فى الدراسات الإسـلامية إذ يحاولون أن يفسروا بعض آيات القـرآن تفسـيراً يجعلهـا منطوية على النظريات العلمية الحديثة، ويسيئون بذلك أبلـغ إساءة من حيث لا يعلمون إلى الإسلام والقـرآن مـن عـدة وجوه .

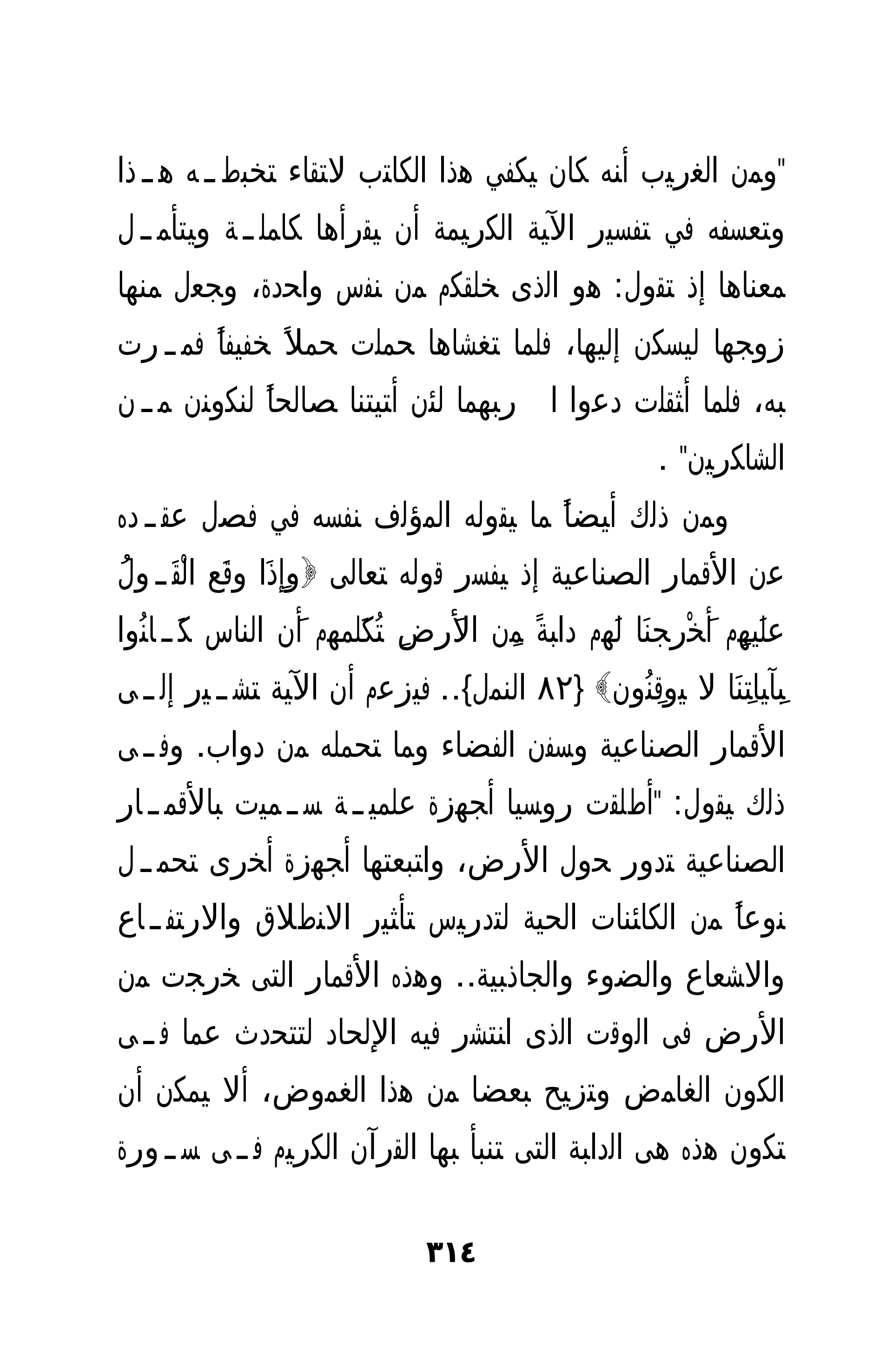
فهم أولاً يتعسفون كل التعسف في تفسير آيات الكتـاب الكريم، وتحميلها مالا تحتمل من المعاني ومـا لـم يفهمـه

---

(١) انظر المقال المشار إليه بقلم الدكتور محمد سعيد رمضان البـوطي فـي مجلة العربي العدد ٢٤٦ جمادى الثانية ١٣٩٩- مايو ١٩٧٩ ص ٥٥- ٥٩.

العرب منها، ولا يمكن أن يفهمه منها ملم باللغـة العربيـة وأساليبها في البيان، حتى يتاح لهم أن يقرروا أن القرآن قـد سبق البحوث الحديثة فيما قالت به من نظريات وما اكتشفت من قوانين، أو قد تُنْبِئ بما عسى أن ينتهى إليه مـن نتـائج. والأمثلة على ذلك تجل عن الحصر فيما يخرجه هؤلاء مـن كتب وما ينشرونه من مقالات .

فمن ذلك مثلاً ما يقوله أحدهم في فصل عقده فى كتابـه عن وحدة الخلق إذ يفسر قوله تعالى: ﴿هو الذِي خَلَقَكُم مِـن نَفْسٍ واحِدِةٍ وجعلَ مِنْهـا زوجهـا لِيسـكُن إِلَيهـا﴾ {١٨٩ لأعراف}.. بأن النفس البروتون وأن زوجها هو الالكترون، وهما العنصران اللذان تتألف منهما الذرة. وفى ذلك يقـول، بعد كلام كثير عن الجسيمات التى تتألف منها الذرة: "هـذه الحقيقة العلمية التى يتيه بها العصر الحديث قـد جـاء بهـا القرآن الكريم منذ ألف وأربعمائة سنة فى صراحة ووضوح، إذ تقرر الآية ١٨٩ من سورة الأعراف أن كل ما خلـق ا إنما من نفس واحدة وجعل منها زوجها أليسـت هـذه هـي البروتونات والإلكترونات.. الكهارب الواحدة موجبة وسالبة، أى النفس الواحدة .. الزوجية الجنس بين موجـب وسـالب



"ومن الغريب أنه كان يكفي هذا الكاتب لاتقاء تخبطـه هـذا وتعسفه في تفسير الآية الكريمة أن يقرأها كاملـة ويتأمـل معناها إذ تقول: هو الذى خلقكم من نفس واحدة، وجعل منها زوجها ليسكن إليها، فلما تغشاها حملت حملاً خفيفاً فمـرت به، فلما أثقلت دعوا ا ربهما لئن أتيتنا صالحاً لنكونن مـن الشاكرين" .

ومن ذلك أيضاً ما يقوله المؤلف نفسه في فصل عقـده عن الأقمار الصناعية إذ يفسر قوله تعالى ﴿وإِذَا وقَع الْقَـولُ عليهم أَخْرجنَا لَهم دابةً مِن الأَرضِ تُكلمهم أَن الناس كَـانُوا بِآياتِنَا لا يوقِنُون﴾ {٨٢ النمل}.. فيزعم أن الآية تشـير إلـى الأقمار الصناعية وسفن الفضاء وما تحمله من دواب. وفـى ذلك يقول: "أطلقت روسيا أجهزة علميـة سـميت بالأقمـار الصناعية تدور حول الأرض، واتبعتها أجهزة أخرى تحمـل نوعاً من الكائنات الحية لتدريس تأثير الانطلاق والارتفـاع والاشعاع والضوء والجاذبية.. وهذه الأقمار التى خرجت من الأرض فى الوقت الذى انتشر فيه الإلحاد لتتحدث عما فـى الكون الغامض وتزيح بعضا من هذا الغموض، ألا يمكن أن تكون هذه هى الدابة التى تنبأ بها القرآن الكريم فـى سـورة

النحل (صوابه فى سورة النمل) فى الآية ٨٢ التـى تقـول ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُـم أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ (النمل:٨٢) فلعله يزعم أن الكلبة "لايكا" التى وضعها الروس فـى أول تجربـة لسـفن الفضاء قبل أن يضعوا فيها أناسي من البشر قد تكلمت بلغـة الكلاب فى أثناء دورانها حول الأرض فنعت على الآدميـين عدم إيمانهم بآيات ا .ومن ذلك أيضاً ما يقوله المؤلف نفسه فى فصل عقده عن الغثاء الأحـوى "إذ يفسـر هذا الغثـاء فى قـوله تعالى : ﴿وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى(٤) فَجَعَلَـهُ غُثَـاءً أَحْوَى﴾ {٥ الأعلى}.. بأن المقصود منه الفحم الحجرى. وفى ذلك يقول: لبثت هذه الكتل الضخمة من الأشجار والنباتـات مطمورة في باطن الأرض سنين عديدة حتى أكتشفها الإنسان واستعملها وقوداً سماه فحماً أليس ذلك ما يقول به القـرآن إذ أن ا هو الذى أخرج المرعى ثم جعله غثاء أحوى" فبحسب ما يراه هذا الكاتب يكون ا تعالى قد من على النـاس فـى القرن السابع الميلادى بتطور جيولوجى لم يكونوا قد عرفوه بعد ولا يستطيعون فهمه من عبارة الآية .

ومن ذلك ما يقوله المؤلف نفسه فى فصل عقـده عـن انشقاق القمر، إذ يفسر قوله تعالى ﴿اقْتَرَبتِ الساعةُ وانْشَـق الْقَمر﴾ {١ القمر}.. فيقول: "إن القمر يقتـرب مـن الأرض، وهذا الاقتراب وإن كان يسير حثيثاً (يريد أن يقـول بطيئـاً فجاء بكلمة تفيد ضد المعنى الذى يريـده) إلا أنـه بتـوالى العصور سيجعل القمر يقترب من منطقة تفوق الجاذبية فيها تلك التى تجعله على بعده من الأرض الـذى يحفظـه.. وأن أول علامة على دخول منطقة الخطر هـو حـدوث زلازل مدمرة فى القمر حتى يصل الحال إلى زلازلة عنيفـة دائمـة تسبب انشقاقه وإذا انشق وتهاوى مكونا طبقات حول الأرض كما فى زحل أفلا يؤثر ذلك فى جاذبية الكواكـب وأجـرام أخرى تمسكها جاذبية القمر نفسه؟.. فهلا يكون ذلـك دلـيلاً على قيام الساعة ..؟

وهذا قليل من كثير مما حواه هذا الكتاب العجيب ومـا تحويه كتب على شاكلته. وانظر إلى أى مدى يصل التعسف بهؤلاء فى تفسير آيات الذكر الحكيم، وتحميلها مالا تحتمـل، وفى التلاعب بكلام ا   واتخاذه هزوا .

ولا يقتصر الأمر على تعسف هؤلاء فى تفسير آيـات الذكر الحكيم وتحميلها من المعانى مالا تحتمـل، بـل أنهـم بمسلكهم هذا يعرضون كلام ا للكـذب والتكـذيب تعالـت كلمات ا عن ذلك علوا كبيرا، وذلك أن كثيراً من النظريات العلمية ليست ثابتة، ولم تقل الكلمة النهائية فيما تعالجه مـن ظواهر. وقد تظهر كشوف أخرى تبين عن خطئها أو عـن نقصها. فإذا فسر كتاب ا على وجه يتفـق مـع نظريـات حاضره، ثم ظهر عدم صحتها فيما بعد فإن هذا يدعو إلـى تكذيب كتاب ا ، أو على الأقل زعزعة ثقة الناس بحقائقه .

وهم بذلك أيضاً يصمون الإسلام بوصمة هو منها براء، إذ يحاولون بذلك أن يظهروا القرآن كتاباً يقـرر النظريـات العلمية على أنها عقائد دينية نزل بها الوحى الأمين من قبـل ا تعالى.وهذا مخالف لاتجاه الإسلام وروحه، ولمـا يحـث عليه القرآن من التأمل فى ظواهر الكون واستنباط قوانينهـا العامة، ولما يقرره من مبادئ سامية تتعلق بحريـة التفكيـر والتعبير"[١].

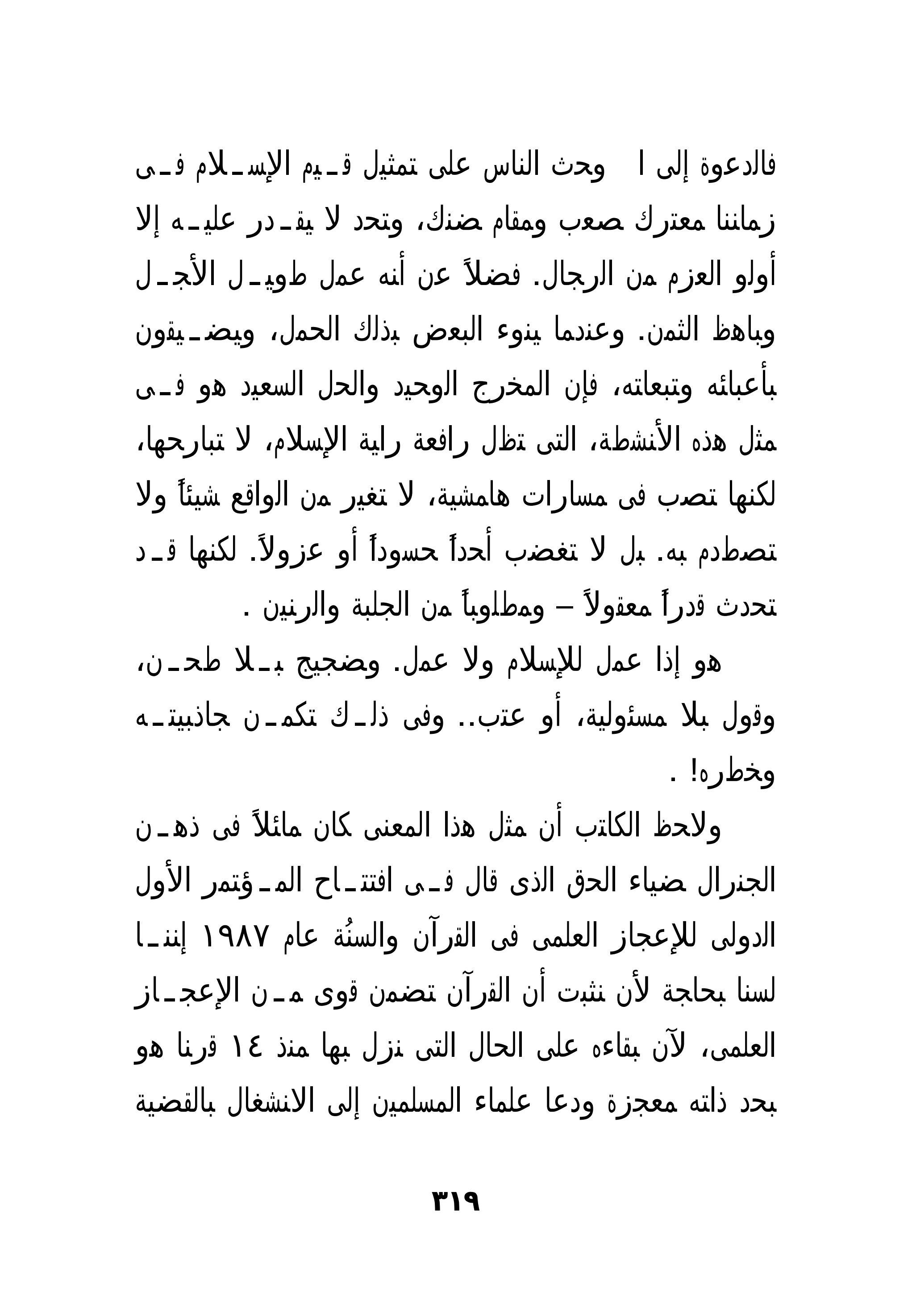
(١) كتاب الحرية في الإسلام للدكتور على عبد الواحد وافى الصـفحات مـن ٨٣ إلى ٨٨ دار المعارف – سلسة اقرأ.

* * *

وكان مما شوه هذا الاتجاه ما يتسرع به بعض الكتـاب من إبداء أراء لا تثبت للنقد أو هى واضحة البطلان كالـذى قاله أحد الاتجاه مما أشرنا إليه فيما سبق وقد ظهر أن لافتـة الإعجاز العلمى للقرآن يمكن أن تضم تحتها صنوفاً فكتـب أحد الأطباء فى تفسير قوله تعالى ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ (الممتحنة: من الآية٤) إن ذلك يعود إلى أنه أول من أختتن وقارن عالم طبيعة معاصر مـا بـين الطواف حول الكعبة ودورة النجوم فى مساراتها .

وقال الشيخ محمد الغزالى أنه قرأ كتاباً يثبت صاحبه أن الأرض ثابتة، وأن الشمس هى التى تدور حولها بأربعين آيه من آيات القرآن، وذكر الدكتور مصطفى محمود فى حديثـه العلم والإيمان التى أذاعها تليفزيون القاهرة يـوم ٨٧/١/٢٠ أن الشجرة المباركة هى شجرة المجال المغنطيسى .

كما يمكن أن يكون فى تركيز الحديث علـى الإعجـاز العلمى للقرآن والتباهى بذلك – ما تنبه إليه كاتـب إسـلامى تعبير عن العجز فى التعامل مع الحاضر، أو الهروب مـن مسئوليات ومتطلبات الواقع، بمختلف ضـغوطه وتعقيداتـه.



فالدعوة إلى ا   وحث الناس على تمثيل قـيم الإسـلام فـى زماننا معترك صعب ومقام ضنك، وتحد لا يقـدر عليـه إلا أولو العزم من الرجال. فضلاً عن أنه عمل طويـل الأجـل وباهظ الثمن. وعندما ينوء البعض بذلك الحمل، ويضـيقون بأعبائه وتبعاته، فإن المخرج الوحيد والحل السعيد هو فـى مثل هذه الأنشطة، التى تظل رافعة راية الإسلام، لا تبارحها، لكنها تصب فى مسارات هامشية، لا تغير من الواقع شيئاً ولا تصطدم به. بل لا تغضب أحداً حسوداً أو عزولاً. لكنها قـد تحدث قدراً معقولاً – ومطلوباً من الجلبة والرنين .

هو إذا عمل للإسلام ولا عمل. وضجيج بـلا طحـن، وقول بلا مسئولية، أو عتب.. وفى ذلـك تكمـن جاذبيتـه وخطره! .

ولاحظ الكاتب أن مثل هذا المعنى كان ماثلاً فى ذهـن الجنرال ضياء الحق الذى قال فـى افتتـاح المـؤتمر الأول الدولى للإعجاز العلمى فى القرآن والسنُة عام ١٩٨٧ إننـا لسنا بحاجة لأن نثبت أن القرآن تضمن قوى مـن الإعجـاز العلمى، لآن بقاءه على الحال التى نزل بها منذ ١٤ قرنا هو بحد ذاته معجزة ودعا علماء المسلمين إلى الانشغال بالقضية

الأهم، وهى البحث فى أسباب تفوق المسلمين العلمـى فـى عصورهم الزاهرة وكيفية استعادة هذه الأسباب فى واقعنـا المعاصر لصناعة الحاضر ومستقبل أفضل"[1].

ولعل الإمام الشهيد حسن البنا قد وضع الأمر فى نصابه عندما عالج هذه القضية فى المقدمة التى وضـعها للتفسـير وكتبها فى العدد الأول من مجلة الشهاب (المحـرم ١٣٦٧- نوفمبر ١٩٤٧) عندما قال "من المقرر أن القرآن لم ينـزل ليكون كتاب هيئة أو طب أو فلك أو زراعـة أو صـناعة، ولكنه كتاب هداية وإرشاد، وتوجيه اجتماعى إلـى أمهـات المناهج الاجتماعية التى إذا سلكها الناس سعدوا فى دنيـاهم وفازوا فى أخرتهم، وهو إنما أشار للعلوم الكونية، ولمظاهر الوجود المادية الطبيعية بالقدر الذى يعين على الإيمان بعظمة الخالق جل وعلا، ويكشف عن بديع صنعه، وعما أودع فـى هذا الكون من المنافع والفوائد لبنى الإنسان، حتى ييسر لهـم بذلك طرائق الاهتداء إلى الاستفادة عن هذه الخيـرات فـى الأرض وفى السماء وفيما بين ذلك، ثم بعـد ذلـك للعقـل الإنسانى أن يجاهد ويكافح فى سبيل الكشف عن مساتير هذا

---

(١) الإعجاز القرآنى: الصالح والفاسد للأستاذ فهمى هويدى – جريدة الأهرام ص ٧ العدد الصادر فى ١٩٨٧/١١/٣.

الوجود والاستفادة مما فيه من قوى ومنافع وحثه على ذلـك وجعل هذا من أفضل العبادة وأعلى أنـواع ذكـر ا ﴿قُـل انْـظُروا ماذَا فِـي السـماواتِ والأرضِ﴾ (يـونس: مـن الآية١٠١) ﴿إن فِي خَلْقِ السماواتِ والأرضِ واخْتِلافِ الليل والنهارِ لآياتٍ لأُولِي الألْبابِ(١٩٠) الذِين يذْكُرون الله قِيامـاً وقُعوداً وعلَى جنُوبِهِم ويتَفَكرون فِي خَلْقِ السماواتِ والأرضِ ربنَا ما خَلَقْتَ هذَا باطِلاً سبحانَك فَقِنَا عذَاب النارِ﴾ {١٩١ آل عمران} ..

ولقد ذهب كثير من المؤلفين والمفسـرين فـى القـديم والحديث إلى أن القرآن الكريم قد تضمن كل أصول العلـوم الكونية، وحاولوا أن يصلوا إلى ذلك بتطبيق آيـات الخلـق والتكوين وما إليها على ما عرف الناس من هذه العلوم، ومن هؤلاء الإمام الغزالى قديماً فى جـواهر القـرآن، والشـيخ طنطاوى جوهرى حديثاً فى تفسيره الجواهر، والدكتور عبد العزيز إسماعيل فى كتابه عن القرآن والطب، وأمثالهم. وهو جهد مشكور ولا شك، ولكنه تكليف بما لم يكلفنا ا به قـد يصل فى كثير من الأحيان إلى التكلف، وخروج بالقرآن عما نزل له من الهداية والإصلاح الاجتماعى وتقرير قواعـدهما

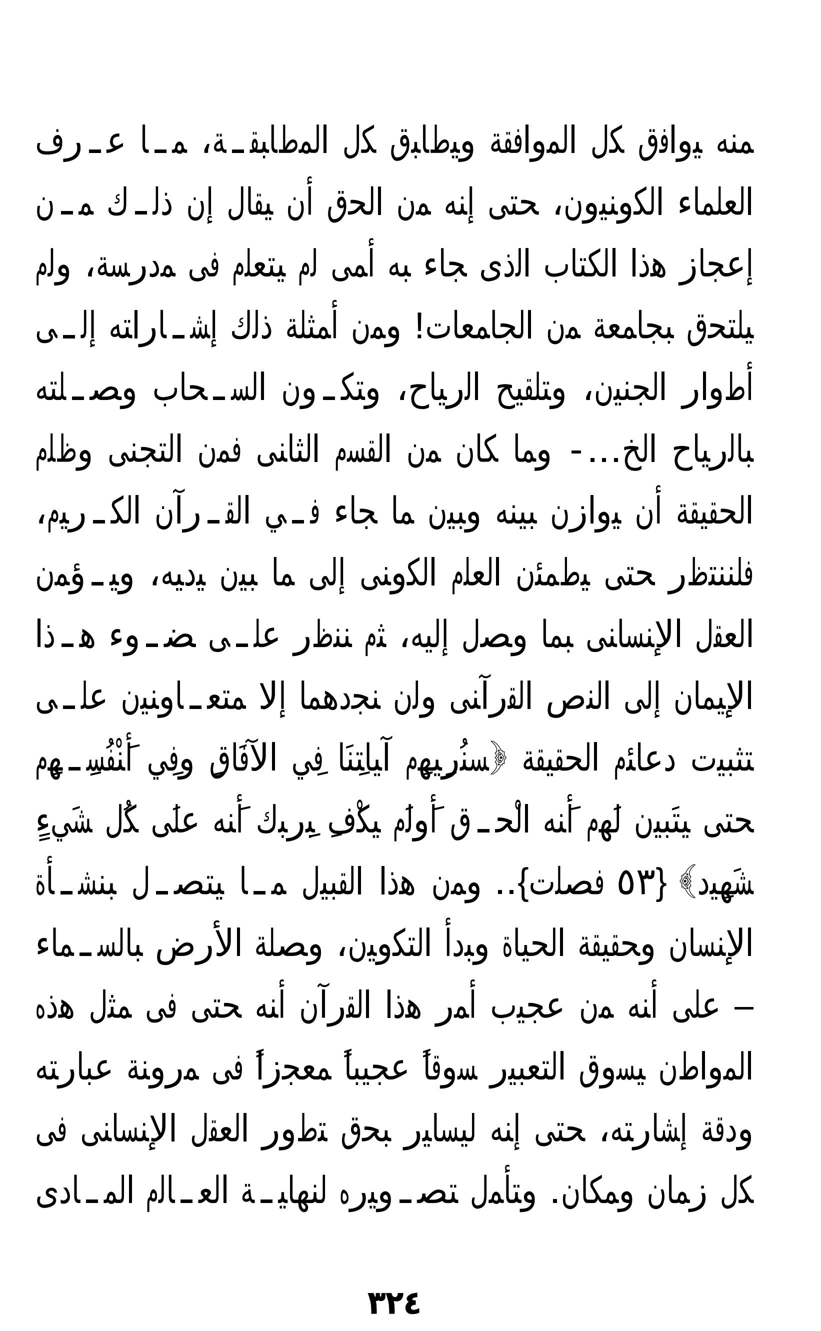
فى النفوس والمجتمعات، وتعريض لمعانى كتاب ا تبـارك وتعالى لاختلاف الآراء، وتضـارب المقـررات العلميـة، واختلاف أقوال العلماء؛ ولهذا كره بعض السلف هذا المعنى وأشار إليه، كما فعل ذلك الشاطبى فى الجـزء الثـانى مـن الموافقات وناقشه مناقشة دقيقة خلص منها إلى «أن القرآن لم يقصد فيه تقرير لشئ من هذه العلوم وإن كان قـد تضـمن علوما هى من جنس علوم العرب أو ما ينبنى على معهودهـا مما يتعجب منه أولو الألباب ولا تبلغـه إدراكـات العقـول الراجحة دون الاهتداء بأعلامه، والاستنارة بنوره، أما أن فيه ما ليس من ذلك فلا .

ومن المقرر كذلك أن القرآن قد تعـرض لكثيـر مـن مظاهر هذا الوجود الكونية، فتناول خلق الإنسان، وتكـوين الأرض والسماء، وجريان الشمس والقمر، وتسخير الكواكب والنجوم والأفلاك، وتراكم السحاب ونزول المطر، وظـاهرة الرعد والبرق، ونمو النبات وتنوع أصنافه،وعجائب البحار، وأعلام الطريق والجبال الرواسى على هذه الأرض، وأطوار الأجنة فى بطون أمهاتها – إلى غير ذلك مما يتناوله علمـاء

الكون بالتمحيص والبيان وما هو موضوع بحـوثهم ومحـل عنايتهم وتجاربهم .

وكثيراً ما تختم هذه الآيات بالحث على التعقل والتفكـر والنظر والتدبر، إشارة إلى أن القرآن الكريم لم يقصد بهـذا التعرض تقرير أصول هذه العلوم، أو تناول فروعها، ولكنه إنما قصد إلى الهداية، وتوجيه الأنظار والنفوس إلى ما تـدل عليه من عظمة الخالق وفائدة المخلوق

ولكن الذى لا يمكن أن يكون محل نزاع هو أن القرآن حين أشار إلى هذه النواميس الكونية، والمظـاهر الوجوديـة المادية، كان من دقة التعبير وصدق التصوير بحيث لا يمكن أبدا أن يصطدم بما يكشف العقل الإنساني عنه فى أطـواره المختلفة من حقائق هذه العلوم ومقرراتهـا، وخصوصـاً إذا لحظنا أن هذه المقررات العلمية تنقسم إلـى قسـمين: قسـم تظاهرت عليه الأدلة وتوافرت الحجـج حتـى كـاد يلحـق بالبديهات، وقسم لازال فى طور البحث العلمى. وكل الـذى بين يدى العلماء الكونيين منه فروض تؤيدها بعض القـرائن التى لم ترق إلى مرتبة الأدلة القاطعة أو الحجج المقنعة. فما كان من القسم الأول فلا شك أن ما أشار إليه القرآن الكـريم



منه يوافق كل الموافقة ويطابق كل المطابقـة، مـا عـرف العلماء الكونيون، حتى إنه من الحق أن يقال إن ذلـك مـن إعجاز هذا الكتاب الذى جاء به أمى لم يتعلم فى مدرسة، ولم يلتحق بجامعة من الجامعات! ومن أمثلة ذلك إشـاراته إلـى أطوار الجنين، وتلقيح الرياح، وتكـون السـحاب وصـلته بالرياح الخ...- وما كان من القسم الثانى فمن التجنى وظلم الحقيقة أن يوازن بينه وبين ما جاء فـي القـرآن الكـريم، فلننتظر حتى يطمئن العلم الكونى إلى ما بين يديه، ويـؤمن العقل الإنسانى بما وصل إليه، ثم ننظر علـى ضـوء هـذا الإيمان إلى النص القرآنى ولن نجدهما إلا متعـاونين علـى تثبيت دعائم الحقيقة ﴿سَنُرِيهِم آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِـهِم حَتَى يَتَبَينَ لَهُم أَنَه الْحَـق أَوَلَم يَكْفِ بِرَبِكَ أَنَه عَلَى كُل شَيءٍ شَهِيد﴾ {٥٣ فصلت}.. ومن هذا القبيل مـا يتصـل بنشـأة الإنسان وحقيقة الحياة وبدأ التكوين، وصلة الأرض بالسـماء – على أنه من عجيب أمر هذا القرآن أنه حتى فى مثل هذه المواطن يسوق التعبير سوقاً عجيباً معجزاً فى مرونة عبارته ودقة إشارته، حتى إنه ليساير بحق تطور العقل الإنسانى فى كل زمان ومكان. وتأمل تصـويره لنهايـة العـالم المـادى

ووصفه للقيامة وآثارها فيه تر أنه أتى فـى ذلـك بالعجـب العاجب!.

* * *

مؤيدات ومؤكدات :

رغم كل التحفظات التى أبدأها علماء إجلاء على هـذا الاتجاه وما يتضمنه من مخاطر تطويع الفهم القرآنى ليتطابق مع نظريات علمية إذا بدت صـحيحة اليـوم فقـد يكشـف المستقبل عن عوار فيها أو نقص، فيسرى ذلك أيضاً علـى الآيات التى فسروها ..

نقول رغم ذلك فإن اتجاه الإعجاز العلمى للقـرآن لـم يتوقف أبداً. بل لقد زاد وحاليا تنشر فى الأهرام يوم الاثنـين من كل أسبوع صفحة كاملة للدكتور زغلول النجار الذى برز فى هذا المجال.. مما ينم عن وجود أصل جعل هؤلاء العلماء يواصلون كتاباتهم، وجمهور يتطلب هذا النوع من الكتابات، خاصة عندما تصدر عن علماء ثقات فى علم الطبيعة مثـل الدكتور جمال الفندى الذى يعد من أقدم من كتب عـن هـذا الموضوع ونشر فى الأهرام يوم ٧٦/٩/٨ مقالاً تحت عنوان "من أعماق الإعجاز العلمى فى القرآن" جاء فيه .

"المعروف أننى من المنادين بضرورة إظهار جوانب (الإعجاز العلمى فى القرآن) فى ضوء الآفاق الواسعة التى فتحها عصر العلم، وعدم تجميد معانيه عند حد ما قاله الأولون، بشرط أن يتم كل ذلك داخل إطار الثابت من حقائق العلم .

والمعروف أن ما تم من تفسيرات علمية داخل هذا الإطار جاء كله صحيحاً ورائعاً وغير متضارب منذ نزل القرآن وبدأ ركب العلم، ذلك لأن حقائق العلم لا تتغير وإنما تتكامل. والأمثلة على ذلك كثيرة، مثل قوله تعالى: ﴿وَأَرسلْنَا الرياح لَواقِح فَأَنْزلْنَا مِن السماءِ ماء فَأسقَينَاكُموه وما أَنْتُم لَـه بِخَازِنين﴾. {٢٢ الحجر}.. ﴿والسماء بنَينَاها بِأَيدٍ وإِنا لَموسِعون﴾. {٤٧ الذريات} ﴿والسقْفِ المرفُوع﴾. {٥ الطور}.. فقد فسر الأقدون كلمة لواقح فى الآية الأولى بأنها إشارة إلى تلقيح الرياح للنباتات، وتلك حقيقة علمية قائمة إلا أننا فسرناها فى هذا العصر بأنها إشارة إلى تلقيح الرياح للسحاب الذى تثيره لكى يجود بالمطر، بمعنى إمداده ببخار الماء وبنوى التكاثف اللازمين للأمطار. وعلى هذا النحو تثير هذه الآية وحدها ثلاث قضايا علمية هامة هى:

أن لفظ (لواقح) لا يقتصر على تلقيح الرياح للسـحاب ببخار الماء ولكن أيضاً بجسيمات متميعة تتم عليها عمليـات التكاثف ونمو نقط الماء أى الإخصاب .

أنه ينجم عن ذلك التلقيح نمو مكونات السحب ومن ثـم نزول المطر، وبذلك تكون الفاء فى قوله (فأنزلنا) هى فـاء السببية .

أن هذا الماء العذب ليس مخزوناً فى مكان معين ولكنه دورة بين السماء والأرض كما هو ثابت ومعروف الآن .

ولسنا بصدد شرح باقى الآيات لضـيق المقـام، إلا أن مسايرة ركب العلم للقرآن أو هضم القرآن لمفاهيمنا العلميـة السليمة منذ نزل فى حد ذاته عمق أعماق الإعجاز العلمى فى القرآن الكريم .

وتتعدد تلك الأعماق بشـكل أخـاذ، حتـى أن الآيـات المتعلقة بظاهرة بالذات إنما تتكامل ولا تتكرر معانيها كمـا يظن البعض خطأ. ولو أننا جمعنا مـثلا الآيـات المتعلقـة بالجبال لحصلنا على معان علمية مختلفة ومترابطة فى نفس الوقت .

ومن بين الأعماق الأخاذة عمق يتصل بمجرد التعبير أو اختيار اللفظ الواحد الذى يحتاج إلى شرح علمـى مطـول، انظر مثلا إلى كلمة "نسلخ" فى قوله تعالى: ﴿وآيةٌ لَهم الليـلُ نَسلَخُ مِنْه النهار فَإِذَا هم مظْلِمون﴾. {٣٧ يّس} ..

أن المقطوع به علميا الآن أن (الفضاء الكوني) الـذى تسبح فيه الأرض والمجموعة الشمسية مظلم بطبيعته وحالك الإظلام، وأن ضوء النهار طارئ عبر قشـرة رقيقـة مـن غلاف الأرض الجوى لا يتعدى سمكها ٢٠٠ كيلو متر فقط، وعلة ذلك أن تلك القشرة التى تعلو سـطح الأرض مباشـرة إنما تعمل على تشتت الضوء أو تناثره فى كل اتجاه عنـدما تواجه الشمس وعلى هذا النحو يقبل ضوء النهار مـن كـل الاتجاهات، وهذه من نعم ا علينا، إذ لا يلـزم أن تواجـه النافذة الشمس مباشرة لكى تضئ الحجرة عندما تفتحها يمكن أن يدخل منها ضوء النهار حتى ولو كانت بعيدة كل البعـد عن الشمس .

وعندما يرتفع رجال الفضاء وسط النهـار فـوق تلـك القشرة تظلم الدنيا من جديد وتظهر النجوم جنباً إلى جنب مع الشمس إلا أن أعدادها تتزايد مما يرهب الـرواد ويخـيفهم،

حتى أن منهم من يصاب بالانهيار العصبى ﴿ولَو فَتَحنَا علَيهم باباً مِن السماءِ فَظَلوا فِيهِ يعرجون(١٤) لَقَالُوا إِنمـا سـكرتْ أبصارنَا بلْ نَحن قَوم مسحورون﴾ . {١٥ الحجر} ..

وتظل قشرة النهار الرقيقة تواجـه الشـمس بـدوران الأرض حول محورها بحيث تنسلخ من جسم الظلام المعـتم تماماً كما ينسلخ جلد البعير من جسده. وهكذا نرى أن اختيار كلمة (نسلخ) إعجاز ما بعده إعجاز!! .

وفى اختيار لفظ (يعرجون) فى الآية السابقة إعجاز من عمق مماثل، ذلك أن الفضاء الكونى لا يعرف الخط المستقيم كما نألفه نحن على الأرض، وأن جميع أسفار الفضاء إنمـا تتم فى خطوط متعرجة أو منحنية.

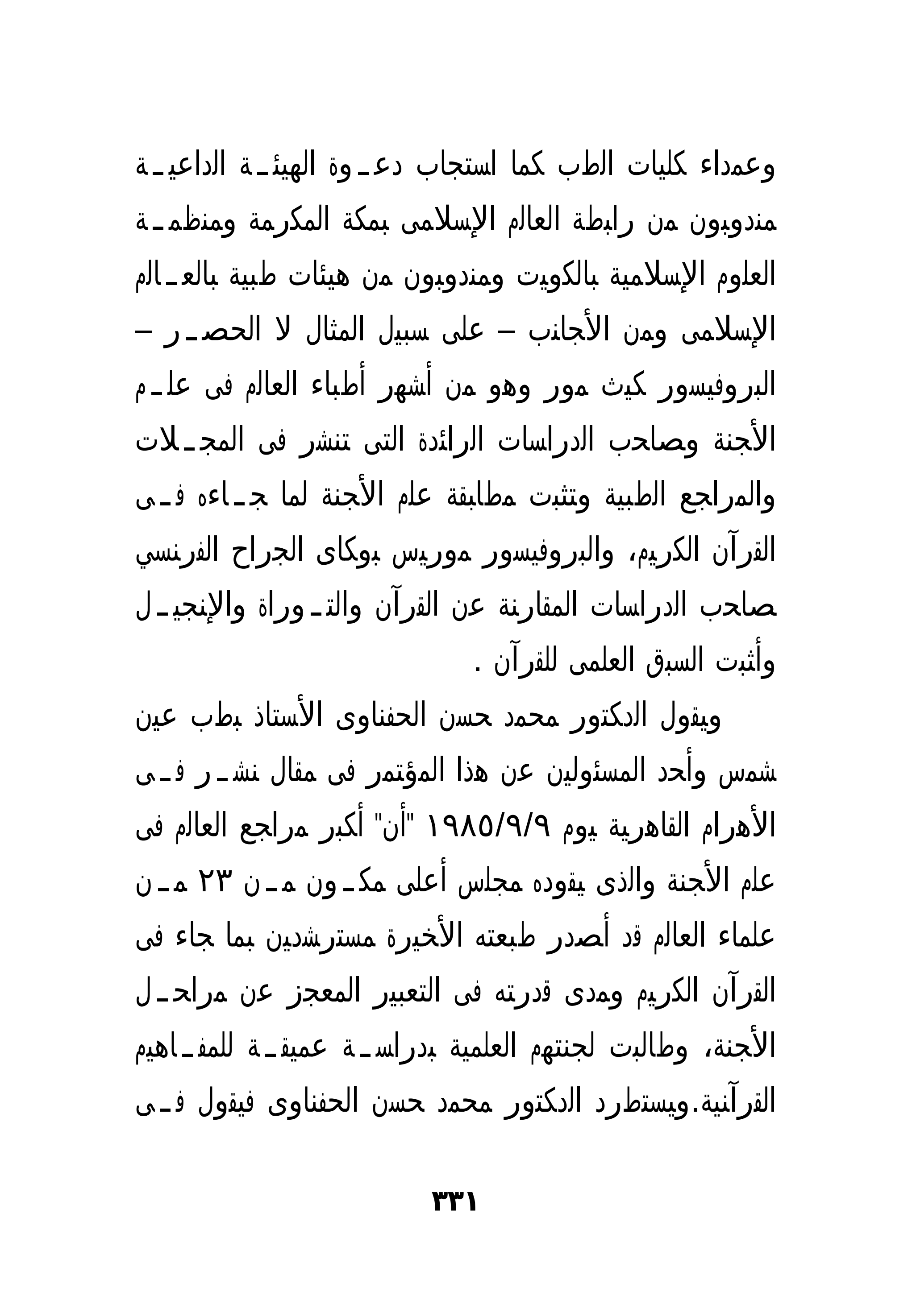
وأعجب العجب أن يطلق القرآن الكريم لفظ (عروج) أو (معراج) على (السبح فى الفضاء الكونى) أو (الصعود قـدماً فى السماء). وجميع أجرام السماء هكذا تسبح فـى أفلاكهـا المنحنية مهما اختلفت درجات ذلك الانحناء وتباينت أنواعـه على النحو المعروف فى هندسة الفراغ مثلاً.

ومن عمق التعبيرات القرآنية قوله تعالى :

﴿أتَاها أَمرنَا لَيلاً أَو نَهاراً﴾. {٢٤ يونس}.. فكلمـة (أو) هنا بمعنى (و) ذلك لأن الأرض عندما يكون نصفها نهـاراً يكون النصف الآخر ليلاً، بحيث تقوم القيامة نهاراً بالنسـبة لقوم وليلاً بالنسبة لقوم آخرين، وقد يكون أيضاً للتعمية وعدم تحديد الزمن كما قال الأولون وا أعلم". انتهى ..

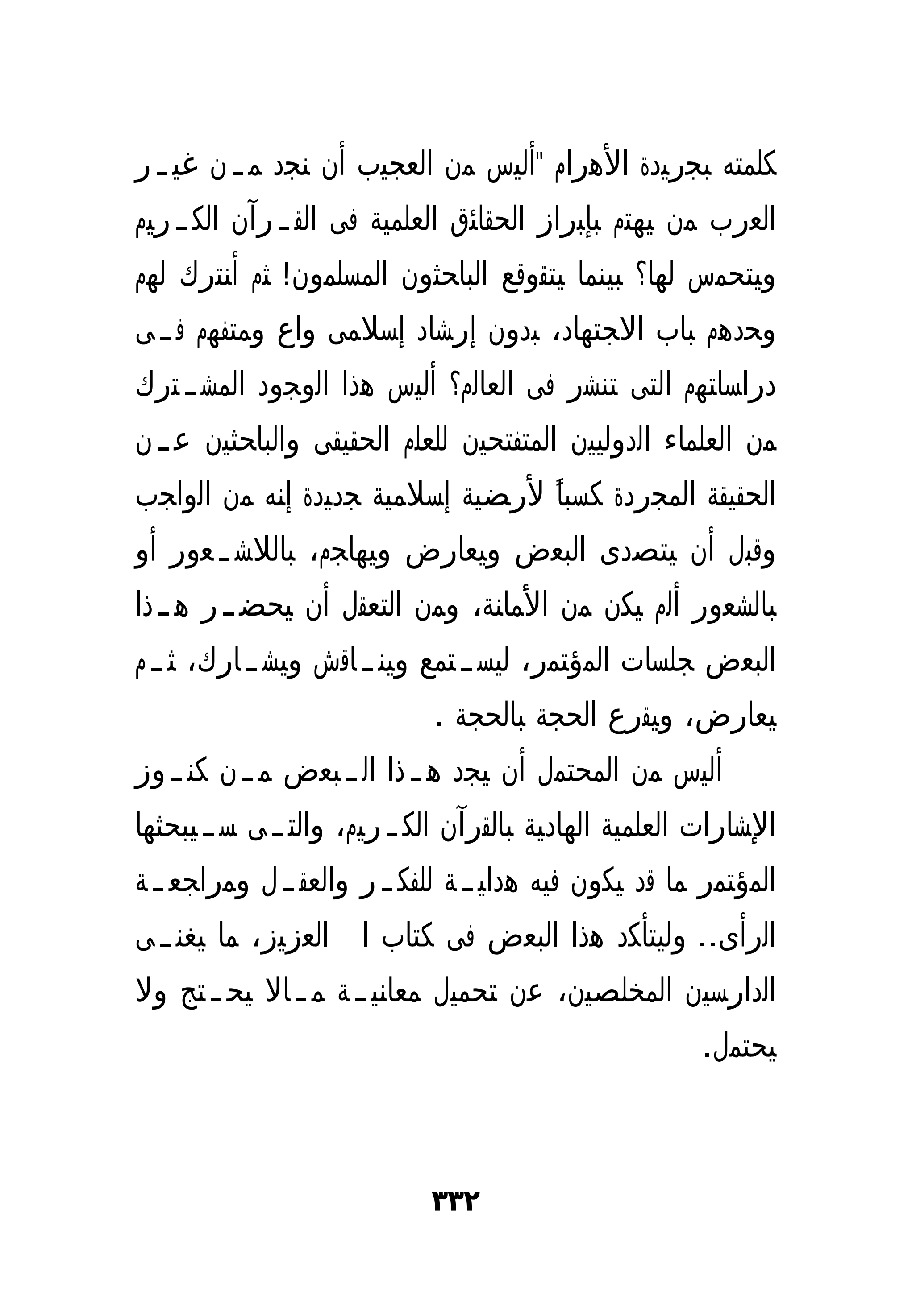
ففى هذه الكلمة نرى أمانة وأستاذية الكاتب فى معالجـة الكلمات، وكيف أنه استطاع بحسه المرهف مع تمكنه العلمى والفنى أن يستكشف مكمن الإعجاز العلمى فى الآيات التـى عالجها. بدون أى افتيات على المعنى أو اللفـظ القرآنـى أو التعسف فى التأويل .

بعد كتابه هذه الكلمة بعشر سنين عقد فى القـاهرة فـى مستهل العام الهجرى المحرم ١٤٠٦ (سبتمبر ١٩٨٥) مؤتمر لدراسة "الإعجاز الطبى فى القرآن" أسهم فيه شـيخ الجـامع الأزهر وفضيلة الشيخ محمد متـولى الشـعراوى ورئـيس جامعة الأزهر وعمداء كلياته وعدد آخر من أساتذة الدراسات الإسلامية. ومن جانب الأطباء إبراهيم بدران، وممدوح جبر، ومحمد عبد المنعم أبو الفضل وزهيرة عابدين وأحمد الملـط وحسن عبد العال ومحمد الظواهرى وغيرهم مـن أسـاتذة



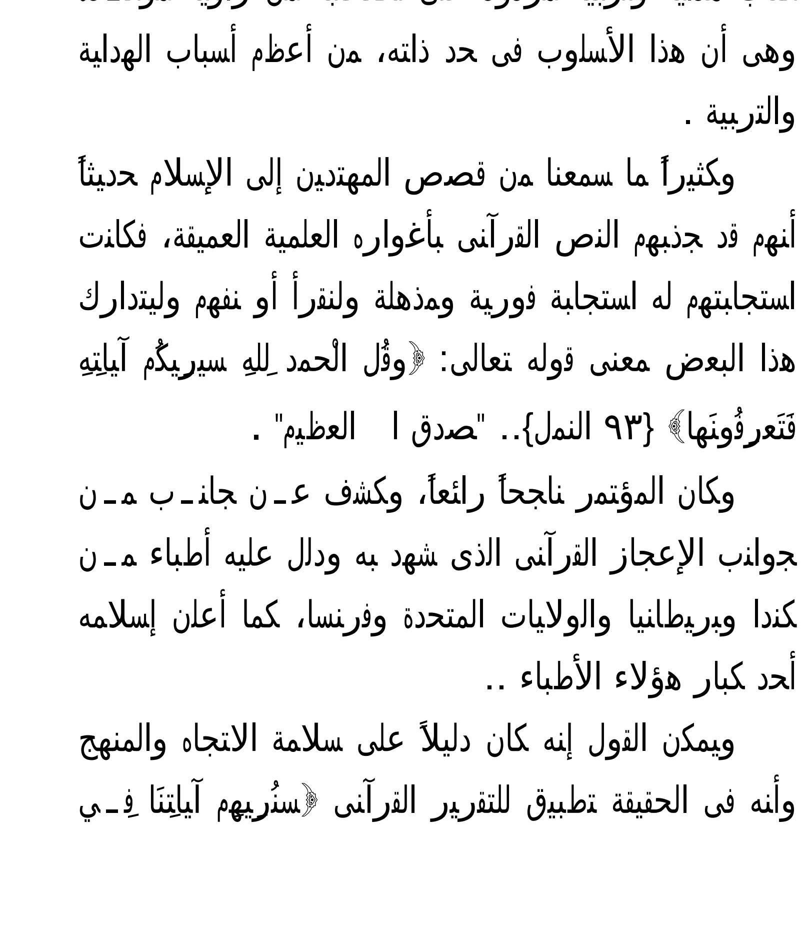
وعمداء كليات الطب كما استجاب دعـوة الهيئـة الداعيـة مندوبون من رابطة العالم الإسلامى بمكة المكرمة ومنظمـة العلوم الإسلامية بالكويت ومندوبون من هيئات طبية بالعـالم الإسلامى ومن الأجانب – على سبيل المثال لا الحصـر – البروفيسور كيث مور وهو من أشهر أطباء العالم فى علـم الأجنة وصاحب الدراسات الرائدة التى تنشر فى المجـلات والمراجع الطبية وتثبت مطابقة علم الأجنة لما جـاءه فـى القرآن الكريم، والبروفيسور موريس بوكاى الجراح الفرنسي صاحب الدراسات المقارنة عن القرآن والتـوراة والإنجيـل وأثبت السبق العلمى للقرآن .

ويقول الدكتور محمد حسن الحفناوى الأستاذ بطب عين شمس وأحد المسئولين عن هذا المؤتمر فى مقال نشـر فـى الأهرام القاهرية يوم ١٩٨٥/٩/٩ "أن" أكبر مراجع العالم فى علم الأجنة والذى يقوده مجلس أعلى مكـون مـن ٢٣ مـن علماء العالم قد أصدر طبعته الأخيرة مسترشدين بما جاء فى القرآن الكريم ومدى قدرته فى التعبير المعجز عن مراحـل الأجنة، وطالبت لجنتهم العلمية بدراسـة عميقـة للمفـاهيم القرآنية.ويستطرد الدكتور محمد حسن الحفناوى فيقول فـى



كلمته بجريدة الأهرام "أليس من العجيب أن نجد من غير العرب من يهتم بإبراز الحقائق العلمية فى القرآن الكريم ويتحمس لها؟ بينما يتقوقع الباحثون المسلمون! ثم أنترك لهم وحدهم باب الاجتهاد، بدون إرشاد إسلامى واع ومتفهم فى دراساتهم التى تنشر فى العالم؟ أليس هذا الوجود المشترك من العلماء الدوليين المتفتحين للعلم الحقيقى والباحثين عن الحقيقة المجردة كسباً لأرضية إسلامية جديدة إنه من الواجب وقبل أن يتصدى البعض ويعارض ويهاجم، باللاشعور أو بالشعور ألم يكن من الأمانة، ومن التعقل أن يحضر هذا البعض جلسات المؤتمر، ليستمع ويناقش ويشارك، ثم يعارض، ويقرع الحجة بالحجة .

أليس من المحتمل أن يجد هذا البعض من كنوز الإشارات العلمية الهادية بالقرآن الكريم، والتى سيبحثها المؤتمر ما قد يكون فيه هداية للفكر والعقل ومراجعة الرأى.. وليتأكد هذا البعض فى كتاب ا العزيز، ما يغنى الدارسين المخلصين، عن تحميل معانية مالا يحتج ولا يحتمل.



إن الاحتجاج بأن هذا الأسلوب العلمى فى التفسير لبعض الآيات تحت بصر أولى التمييز، والدارسين لكتاب ا العزيز يتعارض مع طبيعة القرآن الكريم وأهدافه، باعتباره كتاب هداية وتربية مردود على أصحابه من زاوية مؤكدة وهى أن هذا الأسلوب فى حد ذاته، من أعظم أسباب الهداية والتربية .

وكثيراً ما سمعنا من قصص المهتدين إلى الإسلام حديثاً أنهم قد جذبهم النص القرآنى بأغواره العلمية العميقة، فكانت استجابتهم له استجابة فورية ومذهلة ولنقرأ أو نفهم وليتدارك هذا البعض معنى قوله تعالى: ﴿وقُل الْحمد ِللهِ سيرِيكُم آياتِهِ فَتَعرِفُونَها﴾ {٩٣ النمل}.. "صدق ا العظيم" .

وكان المؤتمر ناجحاً رائعاً، وكشف عن جانب من جوانب الإعجاز القرآنى الذى شهد به ودلل عليه أطباء من كندا وبريطانيا والولايات المتحدة وفرنسا، كما أعلن إسلامه أحد كبار هؤلاء الأطباء ..

ويمكن القول إنه كان دليلاً على سلامة الاتجاه والمنهج وأنه فى الحقيقة تطبيق للتقرير القرآنى ﴿سنُرِيهم آياتِنَا فِي

الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ {٥٣ فصلت}..

وفى ٩٥/٥/١١ نشر الدكتور حسب النبى أستاذ الفيزياء بجامعة عين شمس ورئس الجمعية المصرية للإعجاز العلمى للقرآن فى جريدة الأهرام مقالاً تحت عنوان :

الإعجاز العلمى والحقائق المثبتة علماً ..

"نشر الأهرام للدكتور على خليل يعترض فيه على ربط سرعة الضوء فى الفراغ وقدرها ٢٩٩٧٩٢,٥ كم/ث بالقرآن الكريم، بدعوى أن مبدأ النسبية لأينشتين (الذى اعتبر هذه السرعة ثابتاً كونياً مطلقاً وحداً أقصى) قد يتغير مستقبلاً فى نظرية الأوتار الفائقة، ويتساءل ماذا يكون موقف الإعجاز العلمى للقرآن لو ثبت أن هذه السرعة ليست العظمى بعكس مبدأ أينشتين أو نتائج حساباتى التى أعطت قيمة مساوية لسرعة الضوء تماماً من نصوص قرآنية فى بحثى المشترك مع هيئة الإعجاز بمكة والنشور فى الأزهر ومؤتمر مكة والقاهرة وموسكو (منذ عامين) .

ونظراً لأن سيادته قد تجاوز سرعة الضوء خيالاً وأصول الحوار العلمى عمداً واصفاً هذه المعجزة "بادعاء

المعرفة وحصاد التفاهات» بينما الموضوع أمر إلهى كـونى قرآنى أوضحه فيما يلى :

أولاً: لا خوف على القـرآن فقـد تعهـد ا بحفظـه (الحجر:٩) وبإظهـار إعجـازه العلمـى بمـرور الـزمن (فصلت:٥٣)، (الأنعام:٦٧)، (ص:٨٨) وبأن آياته مفصـلة علـى علـم {٥٢ الأعـراف}.. {٤٩ العنكبـوت}.. {٧ آل عمران} .

اتفاق نص قرآنى مع نظرية علمية يؤكـدها ويجعلهـا حقيقة يقينية وليست ظنية، وكفى بـا شـهيداً، ولا داعـى للتشكيك طالما اتفق العلم مع القرآن لأنهما لن يتعارضـا إلا إذا ضل طريقه أو أخطأ المفسرون فى فهم الآية القرآنية .

ثانيا: مبدأ النسبية الخاصة الذى أعلنه أينشتين (١٩٠٥) والذى يقضى بأن الكون المشاهد رباعى الأبعاد وأن سـرعة الضوء فى الفراغ هى الثابت المطلق والحد الأقصى للسرعة الكونية وكل المقادير الفيزيائية تنسب لهذه السرعة، حقيقـة علمية وليست نظرية ظنية للأسباب التالية .

هذا المبدأ أدى إلى دمج المادة بالطاقة فى أهـم قـانون عرفته البشرية فى القرن العشرين فـى الفيزيـاء الكونيـة

(الطاقة = الكتلة × مربع سرعة الضوء) وتم اختبـار هـذه المعادلة علمياً تطبيقاً تكنولوجياً فى تصميم المفاعلات الذرية، وصنع القنابل الذرية، واستخدام الطاقة النووية لدفع السـفن البحرية وسفن الفضاء، والعلاج والتشخيص الطبى، كما تـم اختبار الثبات المطلق لسرعة الضوء فى الأرض والسـماء بصرف النظر عن حركة الراصـد أو المصـدر الضـوئى واختبار وتطبيق معادلات تغير الكتلة والزمن والطول بتغير السرعة بالنسبة لسرعة الضوء (طبقاً لهذا المبدأ فى النسبية) فى تصنيع الميكروسكوب الإلكترونى وصـمامات الـرادار وزيادة أعمال الجسيمات الذرية عند التسارع وتصنيع جميع الأسلحة النووية .

ورغم هذا يضع الدكتور على خليل الحظر على النسبية بدلاً من الحظر على انتشار الأسلحة النووية رغم أن النسبية حقيقة مؤكدة علمياً وتكنولوجياً وحاصلة على تأييـد جميـع علماء الفيزياء على جائزة نوبل بعد أينشتين .

ثالثاً: وصف ا مقدار الحد الأقصى لسـرعة الأمـور الكونية فى قوله تعالى ﴿يدبر الأمر مِن السماءِ إِلـى الأرضِ

ثُم يعرج ِإلَيهِ ِفي يومٍ كَان ِمقْداره َأَلْفَ سنَةٍ ِمما تَعدون﴾. {٥ السجدة} .

وبهذا فإن المسافة التى يقطعها (الأمر الكونى) فى زمن يوم أرضى تساوى فى الحد والمقدار المسافة التى يقطعهـا (القمر) فى مداره حول الأرض فى زمن ألف سنة قمرية مما تعدّون أى فى الكون المشاهد لكم وفى الأمـور الخاضـعة لقياسكم .

بحل هذه المعادلة القرآنية لنا سرعة ٢٩٩٧٩٢,٥ كم/ث مساوية تماماً لسرعة الضوء فى الفراغ المعلنة دولياً، ومتفقة مع مبدأ أينشتين، علماً بأن التعبير بالفعل المضارع (يـدّبر، ويعرج) دليل على استمرار هذا القانون الإلهى وثبوتـه وأن عبارة (كان مقداره) أى كان حده لا يزيد عنـه علمـاً بـأن (كان) هنا للكينونة تفيد لغويا الأزلية والدوام بثبوت هذا الحد الأقصى لسرعة الأمر مادام الكون قائماً كما أن لفظ الأمـر أتى هنا ليشمل كل الأمور الكونية التى تعرج بهذه السـرعة المطلقة كالضوء المرئى وغير المرئى بأمواجـه المختلفـة وأمواج الجاذبية وجسيمات النيوترينو المنتشرة جميعـاً بـين الأرض والسماء، كما أن الضوء المرئى أمر إلهـى بـنص

قرآنى {٤٨، ٤٩ القمر}، وأن هذا القانون الكونى الإلهى فى {٥ السجدة} معبراً عنه أيضاً فى قوله تعالى ﴿وإن يوماً عِنْد ربك كألْفِ سنَةٍ مِما تَعدون﴾. {٤٧ الحج}.. وصدق الحق تبارك وتعالى بقوله ﴿وقُل الْحمد لِلهِ سيريكُم آياتِهِ فَتَعرفُونَها﴾. {٩٣ النمل} .

فهل يصح لنا كمسلمين أن نخفى هذا الإعجاز العلمى للقرآن فى أهم قضايا الكون المطلقة فى مبدأ النسبية وهل يجوز أن نشكك فى حقيقة مثبتة علمياً وقرآنياً تماماً كما يفعل العامة فى إنكار حركة الأرض وكريتها بعد رصدها من الفضاء وذكرها فى القرآن! وهل هذا العلم اليقينى إدعاء للمعرفة كما يقول البعض؟! وهو يتّبعون الظنّ وما تهوى الأنفس على اختلاف بواعثهم.. اللّهم فاشهد .

رابعاً: لقد تنبأت معادلات أينشتين قبل نظرية الأوتار الفائقة باحتمال تجاوز سرعة الضوء لجسيمات افتراضية غيبية ذات كتلة تخيلية تدعى "التأكيون" تماماً كما تنبأت الأوتار بكون سداسى الأبعاد (متداخل مع كوننا الرباعى) والسرعة فيه تفوق سرعة الضوء ولكنها لا تخضع لقياسنا أى فى علم الغيب وليس فى عالم الشهادة بدليل حذف كلمتى

((مما تعدّون)) فى وصف الحد الأقصى للسـرعة فـى عـالم الغيب فى قوله تعالى: ﴿تَعرج الْملائِكَةُ والروح إِليهِ فِي يـومٍ كان مِقْداره خَمسِين أَلْفَ سنَةٍ﴾ {٤ المعارج} .

وبالمقارنة بآية {٥ السجدة} نجد هنا وا أعلم أن سرعة الروح خمسون مرة قدر سرعة الضـوء قبـل أن تحـددها نظرية الأوتار الفائقة التى ستبحث فى أمور غيبيـة تـدعم النسبية ولا تهدمها بل تطورها لأكون ثنائية (مرآوية ومضادة ومعكوسة الزمن) كما فى قوله تعالى ﴿ومِن كُل شَيءٍ خَلَقْنَـا زوجين﴾ {٤٩ الذريات}.. بل وتضع جسراً جديداً بين العلـم والقرآن وبين عالمى الشهادات والغيب فى مجال موحد يدمج النسبية بالكم وقوى الطبيعة مع بعضها ويصف لنـا بدايـة الكون فى انفجار عظيم ونهايته فى انسحاق عظيم كما يقـول البروفوسير مبيشيوكاكو أحد علماء هذه النظرية الجديدة فـى كتابة "ما بعد أينشيتين" .

أتوقع وا أعلم أن تكشف الأوتار التى تبحث أساساً فى الأمور الغيبية عن إعجـاز قرآنـى جديـد فـى آيـات {٤ المعارج} و{٣٨- ٤٠ النمل}، {١ فاطر}، {٤٩ الـذاريات}، {١٠٤ الأنبياء}، وآيـات أخـرى فـى موضـوع التوحيـد

والسماوات السبع وغيرها فى أوتار فائقة تعزف سـيمفونية رائعة متكاملة فى عالمى الغيب والشهادة تسبيحاً لخالق الكون عز وجل كما فى قوله تعالى: ﴿تُسبح له السـماواتُ السـبع والأرض ومن فِيهن وإن مِن شَيءٍ إلا يسبح بِحمدِهِ ولَكِـن لا تَفْقَهون تَسبِيحهم﴾. {٤٤ الإسراء}.. انتهى.

وخلال هذه الفترة، وما أعقبها عقدت مؤتمرات للإعجاز العلمى فى القرآن ضمت عديداً مـن أبـرز علمـاء الفلـك والرياضيات والأطباء في العالم وقد كان خـلال أحـدها أن أعلن واحد من أشهر أطباء علم الأجنة الأوروبيين إسـلامه بعد أن ترجمت له الآيات التي تحدثت عن أطـوار الجنـين بمجرد أن يحدث اللقاء الجنسى .

أما صفحة الإعجاز العلمى فى جريـدة الأهـرام يـوم الاثنين من كل أسبوع ويحررها الدكتور زغلول النجار فإنها مستمرة من بضع سنوات وتحظى بقبول كبير .

إننا ضد كل تعسف وتطويع للآيات القرآنية لكى تحقـق غرضاً معيناً. حتى لو بدا نبيلاً، ولكننا فى الوقت نفسه مـن منطلق حرية الفكر لا نستطيع أن نحول بين كـل صـاحب فكرة وفكرة. حتى لو كان خاطئاً، فما بالك وهو مجتهد حسن

الطرية يحاول أن يكشف عن معبر جديد من أبعـاد إعجـاز القرآن ..

فلا يقفن أحد أمام من يدخل هذا الميدان ما دام يسـتخدم الحجة والبرهان.. وليستمر السجال، وللذين يعارضـون أن يعارضوا حتى تظهر الحقيقة – وهى – كما يقولون – بنـت البحث.. وهى ما تبقى فى النهاية ..

بقى أن نقول أن دعوة الإعجاز العلمى للقرآن الكـريم انتعشت وتأسست لها هيئات عديدة بعضها من تكوين الـدول الإسلامية، وبعضها هيئات حرة أو جامعية خاصة فى مصر، والسعودية والكويت وباكستان، وتعقد هذه الهيئات مؤتمرات عديدة وآخر ما وصل إلينا كتاب عن ندوة الإعجاز العلمـى للقرآن الكريم نظمتها الجمعية الخيرية الإسـلامية واشـترك فيها لفيف كبير من أساتذة الجامعات فى فبراير سـنة ٢٠٠٣ (٢٣ ذو الحجة ١٤٢٣) وصدر عنها كتاب كما قدم الدكتور محمد شوقى الفنجرى منحة دراسية قيمتها عشرة آلاف جنية لنيل درجة الدكتوراة فى أحد مواضيع الإعجاز العلمى للقرآن ومنحة أخرى قدرها ستة آلاف جنية لنيل درجة الماجستير .

الفصل الخامس
محاولات التجديد
فى تفسير القرآن الكريم

يصاب الإنسان بالخيبة عندما يراجع ما تمخض عنه أدب النهضة من معالجة قرآنية من أيام رفاعة رافع الطهطاوى حتى الحقبة المعاصرة. نحن بالطبع لا نطمع، ولا نريد، مجلدات كالتى قدمها الأوائل، فإن التفاسير الحديثة التى أشرنا إليها، أعنى تفسير المنار وتفسير الطاهر بن عاشور الخ... وتفسير الشيخ شلتوت وتفسير المراغى وتفسير عبد الكريم الخطيب وتفسير بن باديس الخ... تماثل وتفضل المجلدات القديمة، ولكننا نشير إلى ملحظ التجديد والإبداع الذى قد لا نجده إشارة إليه إلا فى عقلانيات الشيخ محمد عبده وسط ركام المعلومات. وعلى كل حال فإننا سنجد محاولات اختلف حظها من التوفيق فى تحقيق ذلك .

كنا نأمل أن نرى دراسات جادة عديدة فى هذا العصر الحديث، ولكن من المؤسف أن العالم العربى والإسلامى بأسره. وقع تحت الديكتاتوريات العسكرية والمشيخيات القبلية

التى تضيق بحرية البحث، ولا تريـد – بوجـه خـاص – التحرر عما جرى عليه الأقدميون فى هذا المجال بالذات. من هنا كانت الحصيلة ضئيلة .

– ١ –

محاولة الشيخ أمين الخولى

لعل أولى محاولات التجديد كانت تلك التى قام بها الشيخ أمين الخولى. وهو يجرى فى ركاب الرعيل الأول من رجال الثلاثينات والأربعينات من القرن الماضى رعيل طه حسـين ومنصور فهمى وأحمد أمين الخ... وقد نشأ ودخل مدرسـة القضاء الشرعى وهو فى الخامسة عشر مـن عمـره فـأتم الدراسة بها بقسميها الابتدائى والعالى بتفوق. وكانـت هـذه المدرسة – كمدرسة دار العلوم – قلعة من قـلاع العربيـة والإسلام وقد تولى نظارتها وألقى الدروس فيها نخبة ممتازة من خيرة المفكرين والعلماء والفقهاء المصريين .

وأتم دراسته فيها سنة ١٩٢٠ وعين مدرساً بالمدرسـة نفسها فى ١٠ مايو ١٩٢٠ .

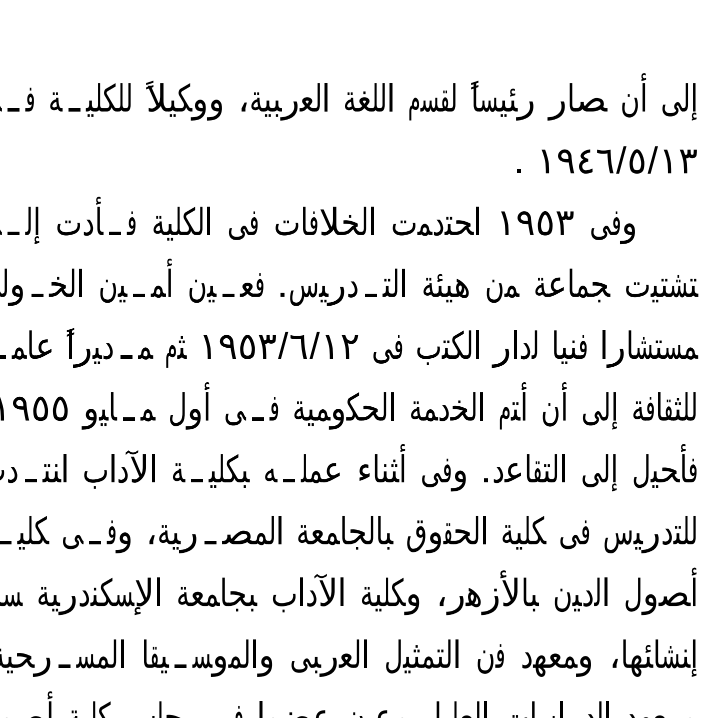
وفى ٧ نوفمبر ١٩٢٣ صدر مرسوم ملكى بتعيين أئمة للسفارات الأربع المصرية المنشـأة فـى لنـدن وبـاريس

وواشنطون وروما، وكانت الأخيرة من نصيب أمين الخولى، فأبحر إليها من الإسكندرية فى ١٤ ديسمبر ووصل إلى برنديزى بعد ثلاثة أيام .

وبقى فى إيطاليا نحو سنتين، تعلم فيها اللغة الإيطالية حتى أجادها، وشرع يطلع على الحياة الدينية والثقافية وجهود المستشرقين فى أوروبا .

ونقل إلى مفوضية مصر فى برلين فى أول يناير ١٩٢٦ بسبب أزمة دبلوماسية أثارها تعلم اللغة الألمانية، وجعل منها ومن الإيطالية وسيلته إلى المعرفة الأجنبية .

ولما ألغيت وظيفة الإمامة من السفارات والمفوضيات المصرية فى سنة ١٩٢٧ عاد إلى مصر، واستأنف عمله الذى كان قد تركه فى مدرسة القضاء الشرعى فى ١٩٢٧/٣/١٩ وفى ١٩٢٨ أغلقت مدرسة القضاء الشرعى أبوابها، فانتقل فى ٣ نوفمبر إلى قسم اللغة العربية من كلية الآداب بالجامعة المصرية (القاهرة الآن) مدرسا ثم أستاذا مساعدا فى ١٩٣٧/٤/٤ ثم أستاذا لكرسى الأدب العربى فى ١٩٤٣/٢/١٧ وفى ١٩٤٦/١٠/١٩ نقل إلى كرسى الأدب المصرى فى العصور الإسلامية. وآل به التدرج فى الكلية



إلى أن صار رئيساً لقسم اللغة العربية، ووكيلاً للكلية فى ١٩٤٦/٥/١٣ .

وفى ١٩٥٣ احتدمت الخلافات فى الكلية فأدت إلى تشتيت جماعة من هيئة التدريس. فعين أمين الخولى مستشارا فنيا لدار الكتب فى ١٩٥٣/٦/١٢ ثم مديراً عاما للثقافة إلى أن أتم الخدمة الحكومية فى أول مايو ١٩٥٥، فأحيل إلى التقاعد. وفى أثناء عمله بكلية الآداب انتدب للتدريس فى كلية الحقوق بالجامعة المصرية، وفى كلية أصول الدين بالأزهر، وكلية الآداب بجامعة الإسكندرية سنة إنشائها، ومعهد فن التمثيل العربى والموسيقا المسرحية، ومعهد الدراسات العليا. وعين عضوا فى مجلس كلية أصول الدين، والمجلس الأعلى لدار الكتب. وفى الساعة الثالثة بعد ظهر الأربعاء التاسع من مارس سنة ١٩٦٦، رحلت روحه عن الدنيا، وعاد جسده إلى قريته شوشاى .

إن هذا السجل قد يعيد إلى الذهن ذكرى الشيخ رفاعة رافع الطهطاوى الذى دخل باريس إماماً للبعثة، فتأثر بالحضارة العصرية وحاول إقامة جسر ما بين الإسلام،

وحضارة العصر وإن لم يقدر للشيخ الخولى القيام بالأعمـال التى قام بها رفاعة رافع الطهطاوى .

كان لهذه الثقافة المتنوعة، إلى جانب مواهبه الخاصة – أثرها إذ جاءت محاولاته تحمل طابعاً من الجدة والأصـالة وكانت النقطة الجديدة فى معالجته للتفسير أنه دعا إلى **تفسير يستشف البلاغة النفسية المؤثرة فى القرآن** وانتقد الطريقة التقليدية القديمة فى التفسير، وقال "فصواب الرأى فيما يبـدو أن يفسر القرآن موضوعا لا أن يفسر علـى ترتيبـه فـى المصحف الكريم سورا وقطعا، ثم إن كانت للمفسر نظرة فى وحدة السور وتناسب آياتها واطراد سياقها فعل ذلـك إنمـا يكون بعد التفسير المستوفى للموضوعات المختلفة" منـاهج تجديد فى النحـو والبلاغـة والتفسـير والأدب ص٣٠٧ – القاهرة ١٩٦١ .

والحق أن الشيخ أمين الخولى أراد تحقيق أمل طمـوح هو تقديم منهج جديد للتفسير أطلق عليـه "المـنهج الأدبـى للتفسير" ولعله قد ظلمه بهذه التسمية لأن المنهج كما وضـع أصوله يقوم على: (١) دراسة طبيعة شبه جزيـرة العـرب وتاريخها ولغاتها وثقافتهـا قبـل الإسـلام. (٢) والتـأريخ

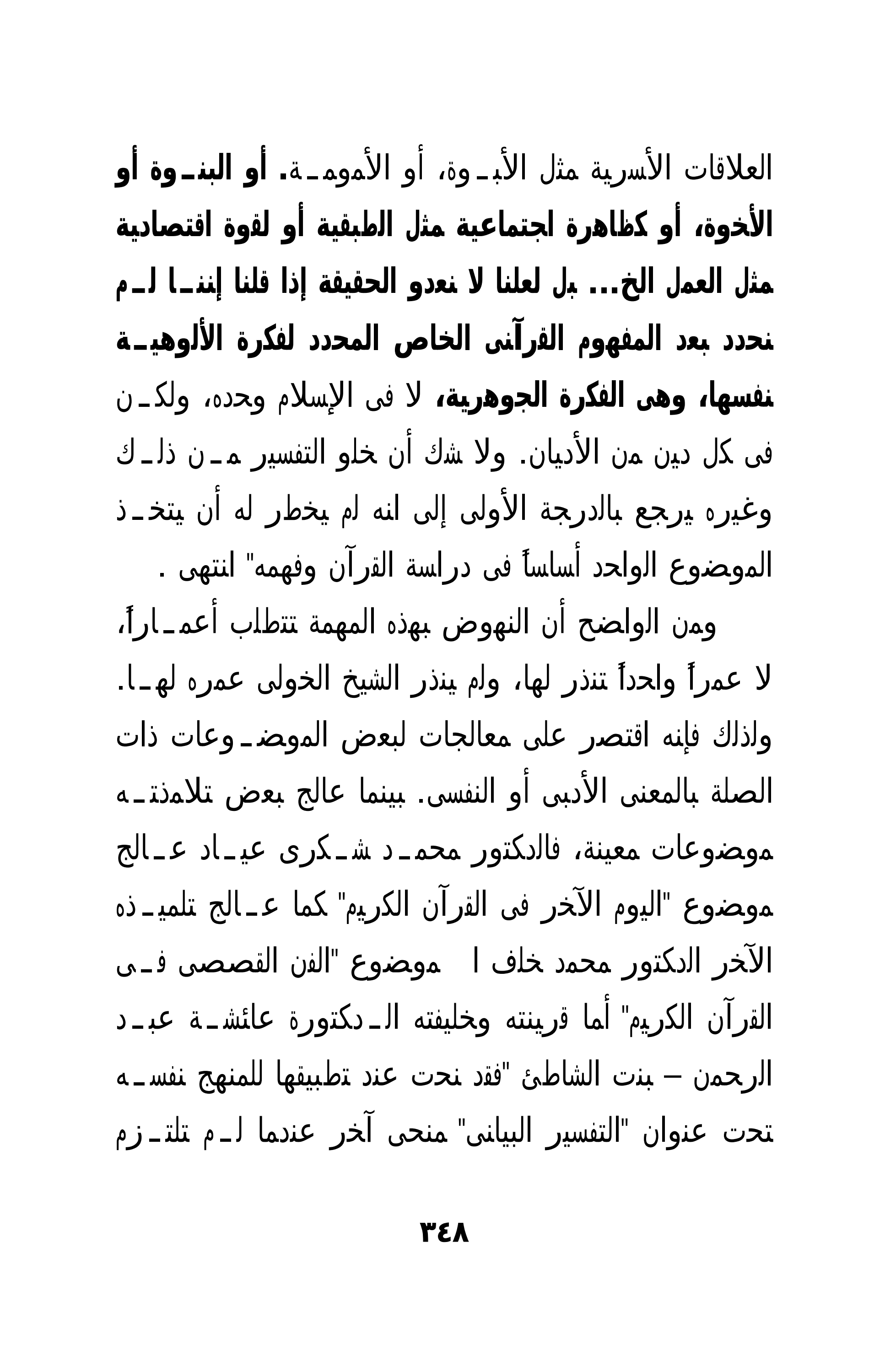
للقـرآن ككتاب. (٣) تصنيف القرآن موضوعيا. (٤) ترتيب سور القرآن وآياته تاريخيا. (٥) دراسة الموضـوع المـراد تفسيره دراسة تبدأ بالمفردات وتنتهى بالمركبات مع العنايـة بالجانب النفسى والاجتماعى"[١] .

وأهم ما يمكن أن يثمره التفسير الموضوعى هو محاولة إدراك النظرة الكلية للقرآن، أو المفهوم القرآنـى أو الفكـر القرآنى – أو فى كلمة – الموقف القرآنى بالنسبة إلى كل ما تناوله القرآن بحديثه. وهذا ما يصعب أو يستحيل التوصـل إليه بالتفسير التقليدى – سورة.. سورة" ..

ومن الجدير بالذكر أن بعض القدماء عنـى بمعالجـة بعض موضوعات القرآن كالخصاص فـى كتابـه "أحكـام القرآن" وابن القيم الجوزية فى كتابه التبيان فى أقسام القرآن" الذى درس فيه موضوعاً واحداً هو "القسم" فى القرآن. ولكن هذه المعالجات لم تكن منهجاً عاماً، وبالتـالى فإننـا – كمـا يذهب إلى ذلك الشيخ أمين الخولى، لم نحصل – على سبيل المثال – على المفهوم القرآنـى الخـاص المحـدد لـبعض

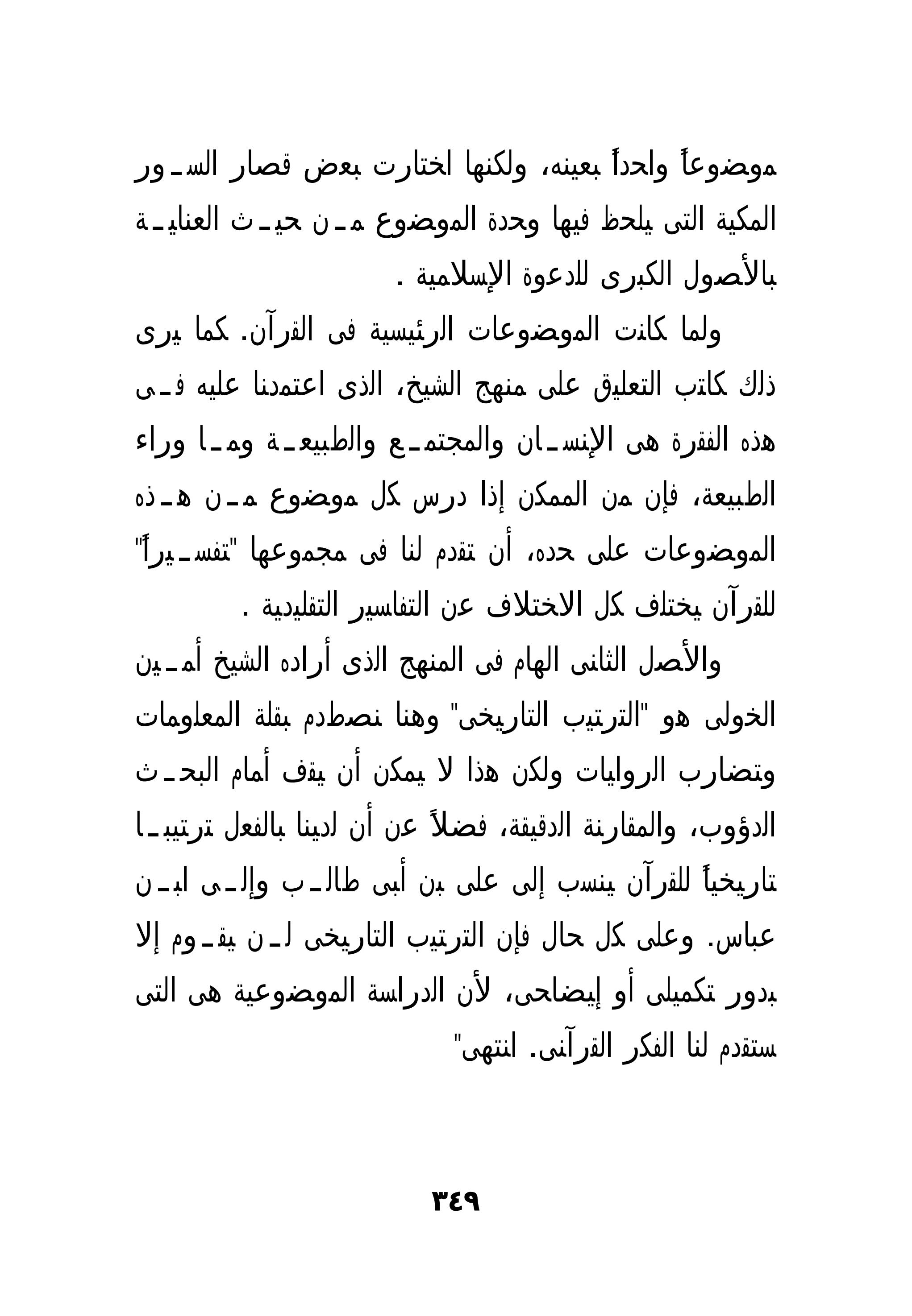
---

(١) أنظر بحثاً للدكتور عبد ا   خورشيد بعنوان "التفسـير الأكـاديمى" هوامش على المنهج الأدبى للتفسير "فى مجلة الثقافـة العـدد نـوفمبر ١٩٧٥ ص٢٠، وقد اعتمدنا عليه فيما جاء بهذه النبذة .



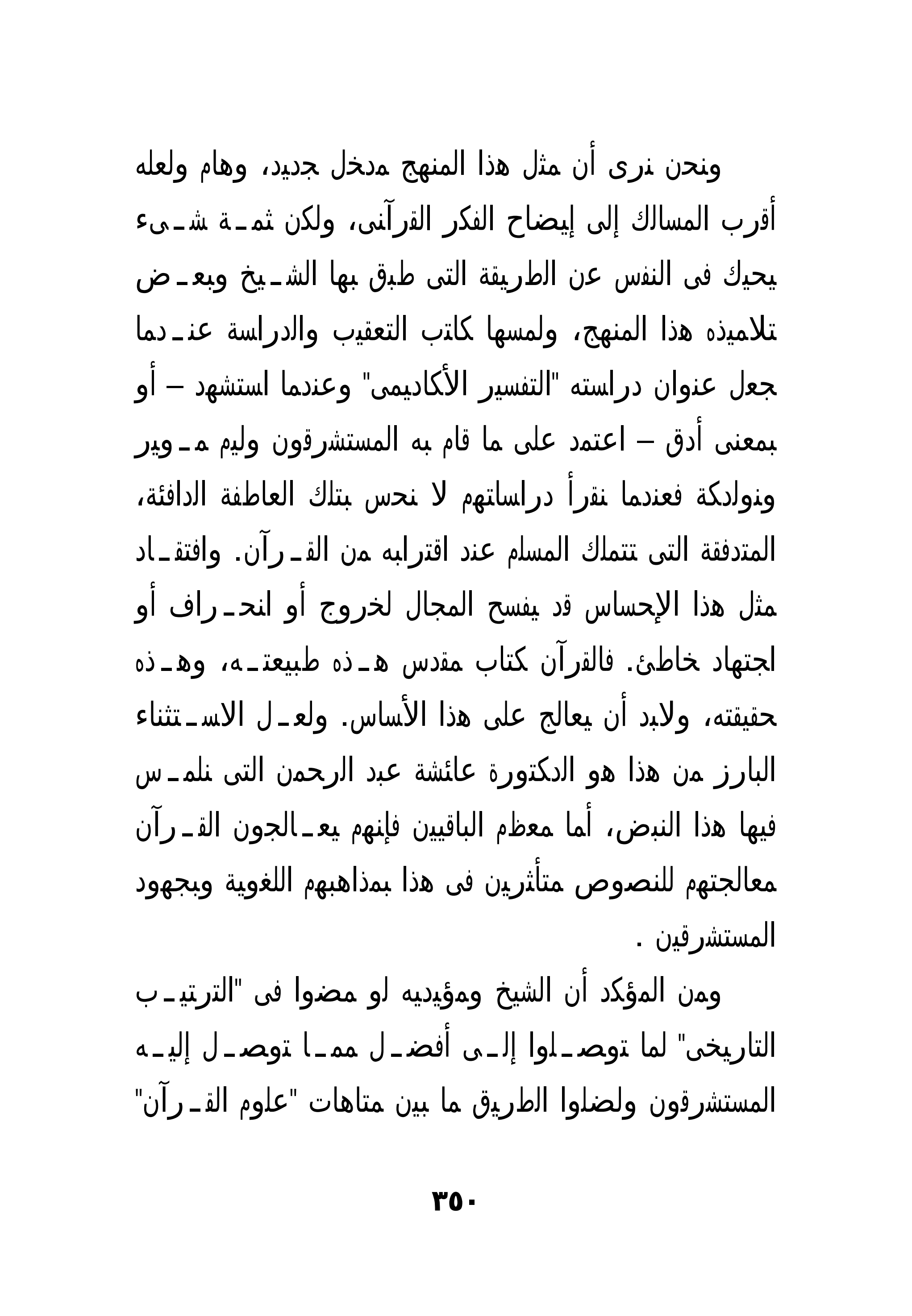
العلاقات الأسرية مثل الأبـوة، أو الأمومـة. **أو البنـوة أو الأخوة، أو كظاهرة اجتماعية مثل الطبقية أو لقوة اقتصادية مثل العمل الخ... بل لعلنا لا نعدو الحقيقة إذا قلنا إننـا لـم نحدد بعد المفهوم القرآنى الخاص المحدد لفكرة الألوهيـة نفسها، وهى الفكرة الجوهرية،** لا فى الإسلام وحده، ولكـن فى كل دين من الأديان. ولا شك أن خلو التفسير مـن ذلـك وغيره يرجع بالدرجة الأولى إلى انه لم يخطر له أن يتخـذ الموضوع الواحد أساساً فى دراسة القرآن وفهمه" انتهى .

ومن الواضح أن النهوض بهذه المهمة تتطلب أعمـاراً، لا عمراً واحداً تنذر لها، ولم ينذر الشيخ الخولى عمره لهـا. ولذلك فإنه اقتصر على معالجات لبعض الموضـوعات ذات الصلة بالمعنى الأدبى أو النفسى. بينما عالج بعض تلامذتـه موضوعات معينة، فالدكتور محمـد شـكرى عيـاد عـالج موضوع "اليوم الآخر فى القرآن الكريم" كما عـالج تلميـذه الآخر الدكتور محمد خلف ا موضوع "الفن القصصى فـى القرآن الكريم" أما قرينته وخليفته الـدكتورة عائشـة عبـد الرحمن – بنت الشاطئ "فقد نحت عند تطبيقها للمنهج نفسـه تحت عنوان "التفسير البيانى" منحى آخر عندما لـم تلتـزم


موضوعاً واحداً بعينه، ولكنها اختارت بعض قصار الســور المكية التى يلحظ فيها وحدة الموضوع مـن حيـث العنايـة بالأصول الكبرى للدعوة الإسلامية .

ولما كانت الموضوعات الرئيسية فى القرآن. كما يرى ذلك كاتب التعليق على منهج الشيخ، الذى اعتمدنا عليه فـى هذه الفقرة هى الإنســان والمجتمـع والطبيعـة ومـا وراء الطبيعة، فإن من الممكن إذا درس كل موضوع مـن هـذه الموضوعات على حده، أن تقدم لنا فى مجموعها "تفسـيراً" للقرآن يختلف كل الاختلاف عن التفاسير التقليدية .

والأصل الثانى الهام فى المنهج الذى أراده الشيخ أمـين الخولى هو "الترتيب التاريخى" وهنا نصطدم بقلة المعلومات وتضارب الروايات ولكن هذا لا يمكن أن يقف أمام البحـث الدؤوب، والمقارنة الدقيقة، فضلاً عن أن لدينا بالفعل ترتيبـا تاريخياً للقرآن ينسب إلى على بن أبى طالـب وإلـى ابـن عباس. وعلى كل حال فإن الترتيب التاريخى لـن يقـوم إلا بدور تكميلى أو إيضاحى، لأن الدراسة الموضوعية هى التى ستقدم لنا الفكر القرآنى. انتهى"



ونحن نرى أن مثل هذا المنهج مدخل جديد، وهام ولعله أقرب المسالك إلى إيضاح الفكر القرآنى، ولكن ثمـة شـىء يحيك فى النفس عن الطريقة التى طبق بها الشـيخ وبعـض تلاميذه هذا المنهج، ولمسها كاتب التعقيب والدراسة عنـدما جعل عنوان دراسته "التفسير الأكاديمى" وعندما استشهد – أو بمعنى أدق – اعتمد على ما قام به المستشرقون وليم مـوير ونولدكة فعندما نقرأ دراساتهم لا نحس بتلك العاطفة الدافئة، المتدفقة التى تتملك المسلم عند اقترابه من القـرآن. وافتقـاد مثل هذا الإحساس قد يفسح المجال لخروج أو انحـراف أو اجتهاد خاطئ. فالقرآن كتاب مقدس هـذه طبيعتـه، وهـذه حقيقته، ولابد أن يعالج على هذا الأساس. ولعـل الاسـتثناء البارز من هذا هو الدكتورة عائشة عبد الرحمن التى نلمـس فيها هذا النبض، أما معظم الباقيين فإنهم يعـالجون القـرآن معالجتهم للنصوص متأثرين فى هذا بمذاهبهم اللغوية وبجهود المستشرقين .

ومن المؤكد أن الشيخ ومؤيديه لو مضوا فى "الترتيـب التاريخى" لما توصـلوا إلـى أفضـل ممـا توصـل إليـه المستشرقون ولضلوا الطريق ما بين متاهات "علوم القـرآن"

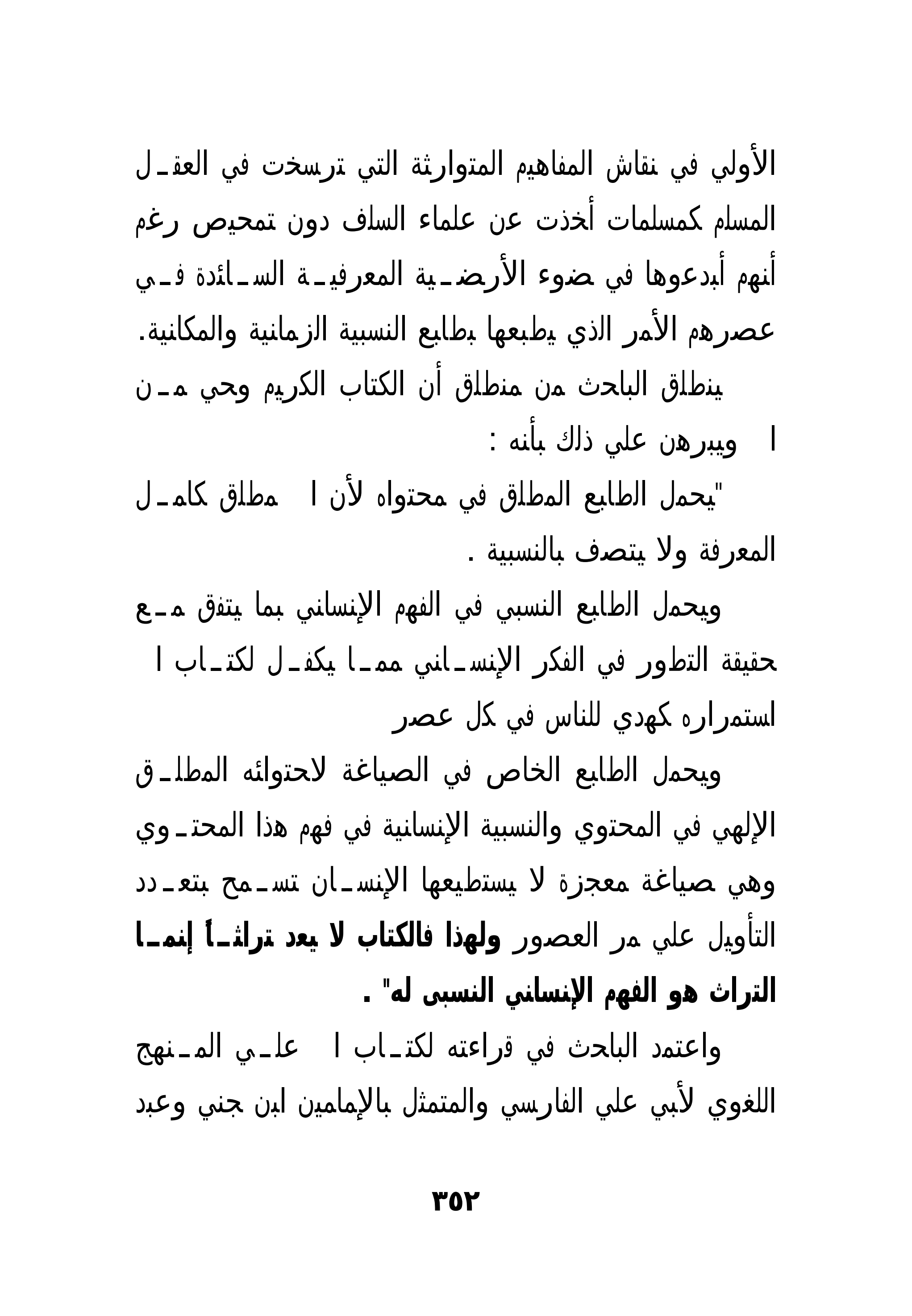
وما بين شذوذ الحداثة وانحرافاتها فنقطة الإبداع هى محاولته التفسير "النفسى" وفكرة الدراسـة الموضـوعية، وبالنسـبة للموضوعات التى أرتاها، فهذا كله مدخل سليم للتعرف على القرآن، وإن لم يكن جديداً تماماً وفات الجميـع أن ترتيـب القرآن الموجود بين أيدينا إنما يمثل الترتيب الذى قـام بـه الرسول فى مراجعته الأخيرة، وأشرنا إلى ذلك فى حينه .

- ٢ -

الدكتور محمد شحرور
وكتابه "الكتاب والقرآن"

أمضي د. محمد شحرور الحاصل علي درجة الدكتوراه في الهندسة من جامعة كامبردج. قرابة خمسة وعشرين عاماً في البحث والتقصي ليخرج كتابه الضخم "الكتاب والقـرآن: قراءة معاصرة" .

إنه جهد صادق وممضن.. يحدوه الأمل فـي الخـروج بالفكر العربي والفقه الإسلامي من أزمته الخانقة والتوصـل إلي استنباط منهج مبتكر في كيفية تناول كتاب ا بالدراسـة والفهم الموضوعيين ويشرع د. شحرور ومنـذ الصـفحات



الأولي في نقاش المفاهيم المتوارثة التي ترسخت في العقـل المسلم كمسلمات أخذت عن علماء السلف دون تمحيص رغم أنهم أبدعوها في ضوء الأرضـية المعرفيـة السـائدة فـي عصرهم الأمر الذي يطبعها بطابع النسبية الزمانية والمكانية.

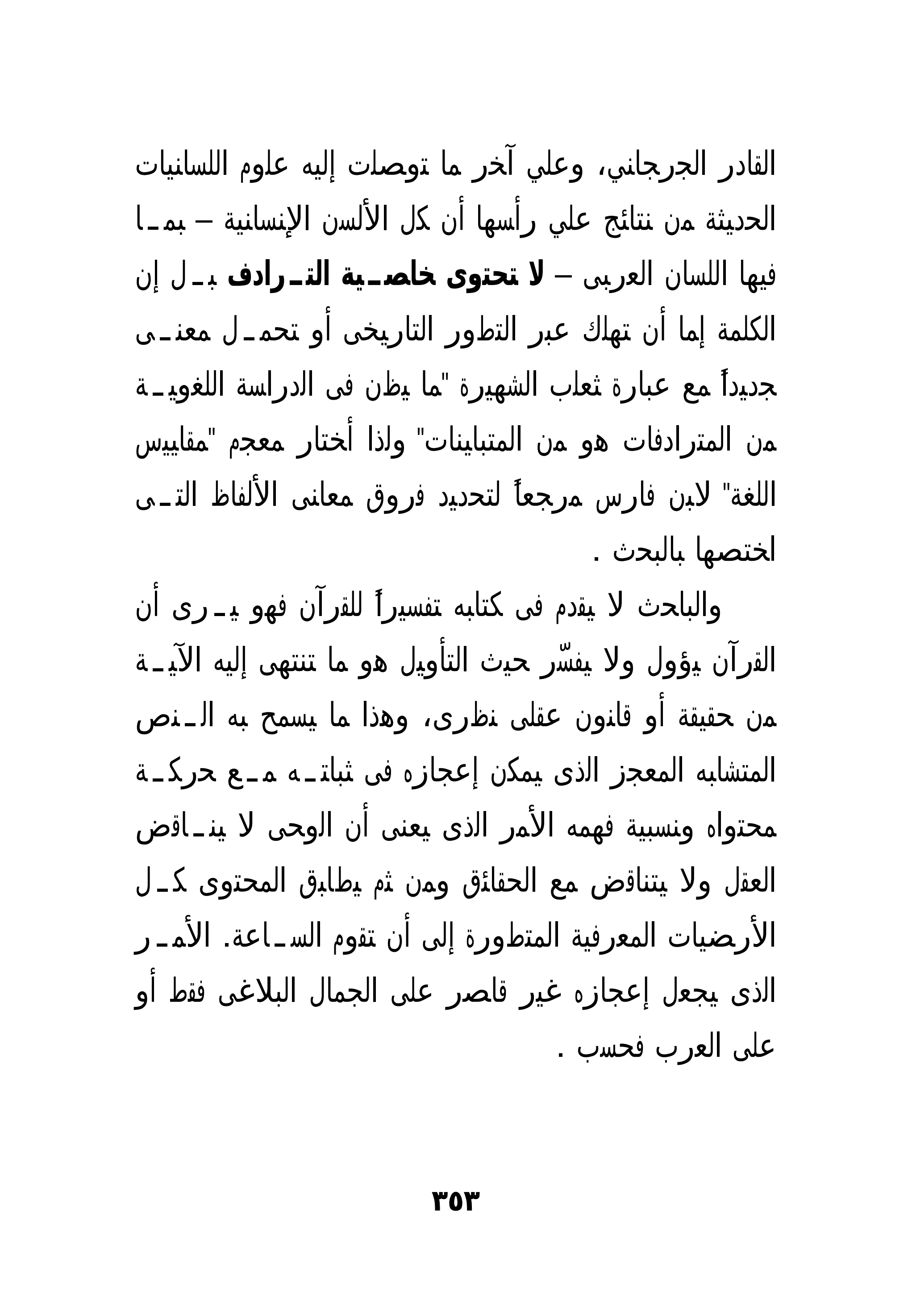
ينطلق الباحث من منطلق أن الكتاب الكريم وحي مـن ا ويبرهن علي ذلك بأنه :

"يحمل الطابع المطلق في محتواه لأن ا مطلق كامـل المعرفة ولا يتصف بالنسبية .

ويحمل الطابع النسبي في الفهم الإنساني بما يتفق مـع حقيقة التطور في الفكر الإنسـاني ممـا يكفـل لكتـاب ا استمراره كهدي للناس في كل عصر

ويحمل الطابع الخاص في الصياغة لاحتوائه المطلـق الإلهي في المحتوي والنسبية الإنسانية في فهم هذا المحتـوي وهي صياغة معجزة لا يستطيعها الإنسـان تسـمح بتعـدد التأويل علي مر العصور **ولهذا فالكتاب لا يعد تراثـاً إنمـا التراث هو الفهم الإنساني النسبى له" .**

واعتمد الباحث في قراءته لكتـاب ا علـي المـنهج اللغوي لأبي علي الفارسي والمتمثل بالإمامين ابن جني وعبد



القادر الجرجاني، وعلي آخر ما توصلت إليه علوم اللسانيات الحديثة من نتائج علي رأسها أن كل الألسن الإنسانية – بمـا فيها اللسان العربى – **لا تحتوى خاصـية التـرادف** بـل إن الكلمة إما أن تهلك عبر التطور التاريخى أو تحمـل معنـى جديداً مع عبارة ثعلب الشهيرة "ما يظن فى الدراسة اللغويـة من المترادفات هو من المتباينات" ولذا أختار معجم "مقاييس اللغة" لابن فارس مرجعاً لتحديد فروق معانى الألفاظ التـى اختصها بالبحث .

والباحث لا يقدم فى كتابه تفسيراً للقرآن فهو يـرى أن القرآن يؤول ولا يفسّر حيث التأويل هو ما تنتهى إليه الآيـة من حقيقة أو قانون عقلى نظرى، وهذا ما يسمح به الـنص المتشابه المعجز الذى يمكن إعجازه فى ثباتـه مـع حركـة محتواه ونسبية فهمه الأمر الذى يعنى أن الوحى لا ينـاقض العقل ولا يتناقض مع الحقائق ومن ثم يطابق المحتوى كـل الأرضيات المعرفية المتطورة إلى أن تقوم السـاعة. الأمـر الذى يجعل إعجازه غير قاصر على الجمال البلاغى فقط أو على العرب فحسب .

وفى عجالة نعرض أبرز ما توقف عنده الباحـث مـن آيات ومن ثم نتائج بحثه .

قوله تعالى ﴿هو الذِي أَنْزلَ علَيك الْكِتَـاب مِنْـه آيـاتٌ محكَماتٌ هن أُم الْكِتَابِ وأُخَر متَشَابِهاتٌ﴾. {٧ آل عمران}.. يفرّق الباحث أولاً بين النبوة والرسـالة فـالنبوة علـوم أى: مجموعة معلومات وأخبار وهى الآيات المتشـابهات التـى تحتوى المطلق الإلهى فى المحتـوى والنسـبية فـى الفهـم البشرى لها والتى أطلق عليها الكتاب الكريم مصطلح القرآن والسبع المثانى. أمّا الرسالة فهى أحكام أى: مجموعـة مـن التشريعات وهذه هى الآيات المحكمات القابلة للاجتهاد حسب الظروف الاجتماعية والاقتصادية ما عدا العبادات والأخلاق والحدود وقد أعطاها الكتاب تعريفاً خاصاً هـو "أم الكتـاب" وهناك آيات لا محكمات ولا متشابهات أطلق عليها مصطلح "تفصيل الكتاب"

وطبقاً لما سبق يرى الباحث أن آية الإرث – مـثلاً – ليست من "القرآن – النبوة" ولكنها "أم الكتاب – الرسالة" بل من أهم أجزاء الرسالة وهى الحدود ولا ينفى هذا أنها مـن عند ا . لكن الباحث ينفى أن أم الكتـاب والقـرآن اسـمان

لمسّمى واحد وللبرهنة على ذلك يورد البـاحث قوله تعالى : ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرآنٍ مُبِينٍ﴾. {١ الحجر}.. مبيناً أن القرآن إما أن يكون شيئاً آخر بحيث يكون عطفهما للتغـاير، أو أن يكون جزءاً من الكتاب وعطفهما مـن بـاب عطـف الخاص على العام وينّبه الباحث إلى أنّ «كتب» تعنـى جمـع أشياء بعضها مع بعض لإخراج معنـى مفيـد أو موضـوع متكامل ولذلك فمن الخطأ أن تفهم كلمة كتاب عندما ترد فى المصحف أنها تعنى موضوعاً واحداً ككتاب الخلق والسـاعة والصلاة... بينما تعنى إذا جاءت معرّفة ب الـ ـ "الكتـاب" مجموعة هذه المواضيع .

يرى الباحث أن البينة فى اللسان العربى تعنـى الـدليل المادى القابل للإبصار والمشاهد وأنها كانت معجزة خارجـة عن الرسالة عند موسى وعيسى عليهما السلام الـخ... أمّـا محمد صلى ا عليه وسلم فقد أعطى "آيات بينات" هى جزء من النبوة القرآن. يكون التأويل النهائى لها هو تحوّلها مـن علم إخبارى إلى علم نظرى يدعّمه العلم الحسّى الأمر الـذى أغفله العلماء المتقدمون عند وضعهم قواعد التأويل .

ويتوقف الباحث عند ﴿ورتل الْقُرآن تَرتِيلاً(٤) إنا سنُلْقِي علَيك قَولاً ثَقِيلاً﴾. {٥ المزمل:}.. رافضـاً المعنـى السـائد للترتيل وهو التألق فى التلاوة ومبينـاً أن الأصـل اللغـوى "للترتيل" هو التنسيق والتنظيم وأن القول الثقيل لـيس ثقيـل النطق وإنما المقصود وعورة الفهم مما يتناسب مع الترتيـل الذى هو ترتيب وتنسيق الآيات الواردة فى موضوع واحـد حتى يسهل فهمها .

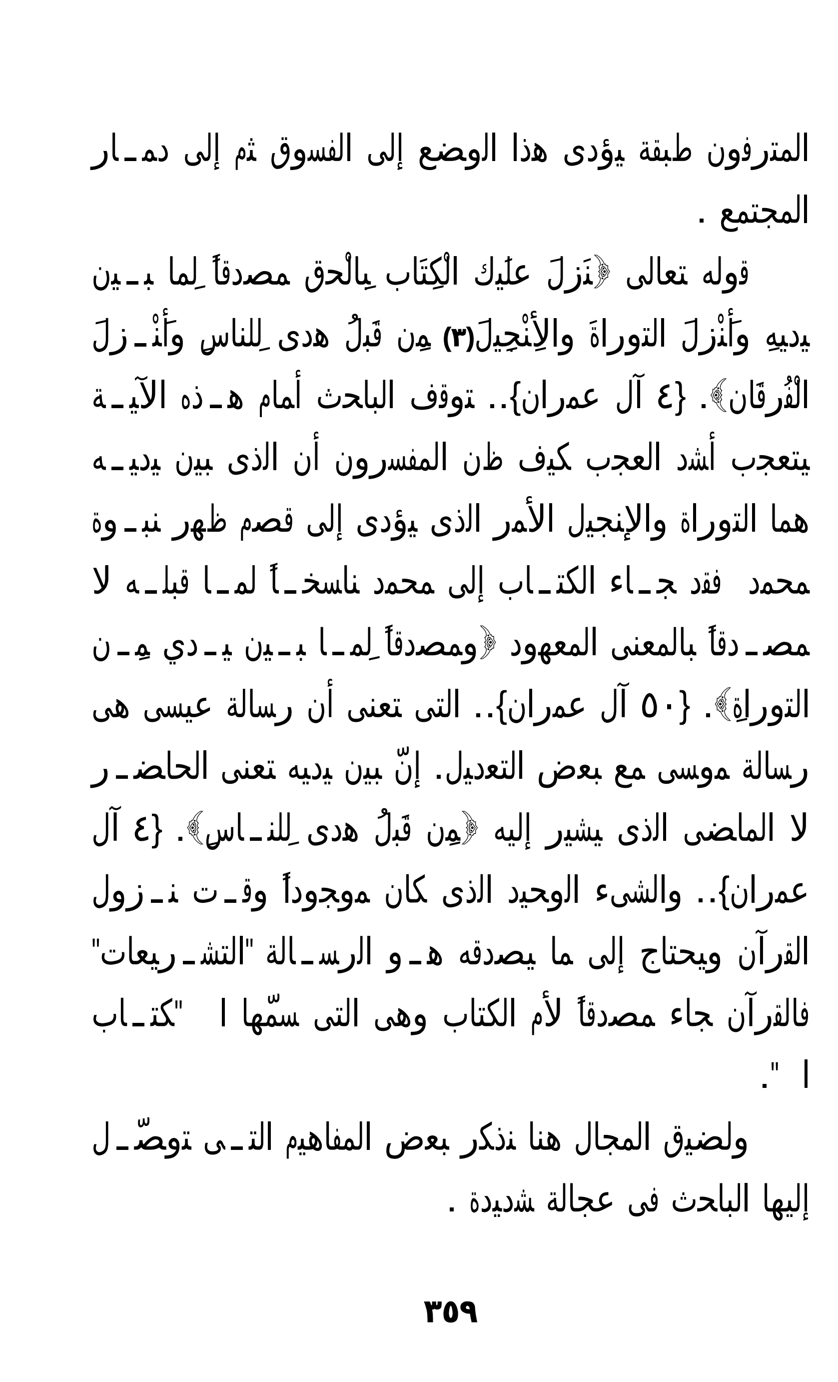
وكمثال على إتباعه قاعدة الترتيل هذه نعرض ما توصّل إليه من نتائج فى تأملاته للقصص القرآنى الذى يـرى أنـه يشير إلى خط تطور التاريخ الإنسانى بالمعرفة والتشـريع. حيث يرى أن نوح عليه السلام هو أول بشر يتصل بالسماء وأنه وبه بدأ الإنسان الحديث حيث امتلك الإنسان لغة مجردة بأبسـط صـورها {١٦٣ النسـاء - ٦٣ الأعـراف – ١٠ إبراهيم}.. وقد اقتصرت رسالته على التوحيد والاستغفار فقط وواجهه قومه بالكفر والنكران وكانت نبوّته قفزةً نوعبةً على سلّم التطور من الناحية العلمية للإنسان ﴿وأَعلَم مِن اللهِ ما لا تَعلَمون﴾. {٦٢ لأعراف}.. وشملت نبوتـه تعلـيم البشـرية ركوب الماء بواسطة ربط الخشب بالآليـات الطبيعيـة {١٣

القمر}.. ويتضح من الآيات ﴿قَالَ سآوي إِلَى جبلٍ يعصِـمنِي مِن الْماءِ قَالَ لا عاصِم الْيوم مِن أَمرِ اللهِ إِلا من رحِم وحالَ بينَهما الْموج فَكَان مِن الْمغْرقِين﴾. {٤٣ هود}.. أن المنطقـة التى سكنها نوح وقومه منطقة محاطة بالجبال تعرضت لتيار مائى قوى بدا موجه كسلاسل الجبال {٤٢ هود}.. وجـاءت إشارة الطوفان متمثلة بنشاط أحد البراكين الخامدة {٤٠ هود} فركب نوح ومن الفلك ثم طرح السيل جثث قوم نوح ورماها فى فوّهة البركان {٢٠ نوح} فقد أستعمل فى الآية فاء السببية والتعقيب بين الغرق وإدخال النار ويلاحظ الباحث أن النـار ذكرت نكرة مما يعنى أنها ليست نار الآخرة .

وتضمن الوحى إلى نوح عليه السلام التبشير بالبنيـان والاستقرار وتذليل الأنعام ﴿ويمدِدكُم بِأَموالٍ وبنِـين﴾. {١٢ نوح}.. حيث يرى الباحث أن المال لا يعنى النقد وإنما هـو من الفعل "مول" وتعنى أدوات الإنتاج البدائية وطبقاً للقاموس فالخروج إلى المال يعنى إلى الضياع والإبل. كما أن البنـين لا تعنى الأولاد الذكور ولكنها من الفعل "بنى" الـذى يعنـى الثبات والإقامة وتلك حقيقة البنيان والأبينة .

ويرى الباحث أن نبوة نوح عليه السلام تمثل تنمية المدارك العقلية للإنسان بتوجيهه للتفكير فى الكون من حوله {١٣/١٤/١٥ نوح}.. كما تمثل بداية العبادة التجريبية والاستغفار {٧/٤/٢٨ نوح}.. وبداية وترسيخ مفاهيم البعث والجزاء {١٧/١٨ نوح}.. كما تشير الآيات إلى بداية ظهور التمايز الاقتصادى والاجتماعى ووجود مبدأ الأجر والاستخدام { ٧٢ يونس – ١٠٩/١١١الشعراء – ٢٧ هود}.

ويتوقف الباحث عند قوله تعالى ﴿وإِذَا أَردنَا أَن نُهلِك قَريةً أَمرنَا مترفِيها فَفَسقُوا فِيها فَحق علَيها الْقَولُ فَدمرنَاها تَدمِيراً﴾. {١٦ الإسراء}.. مبيناً أنها من القرآن النبوة وأنها تحوى قانوناً اجتماعيا، الأمر الذى يدل على احتواء "القرآن" على القوانين الموضوعية الفاعلة خارج الوعى الإنسانى حيث يرى أن المترفين هو أدق مصطلح يمكن أن ينطبق على كل طبقة بيدها مقاليد الأمور ولها من الامتياز ما لا يتوفر لبقية الناس بغض النظر عن العنوان المرفوع لهذا المجتمع حيث لا يهتم القرآن بالشعارات. <u>والفعل أمر له خمسة أصول</u> أحدها بمعنى الزيادة والنمو أى عندما يصبح



المترفون طبقة يؤدى هذا الوضع إلى الفسوق ثم إلى دمار المجتمع .

قوله تعالى ﴿نَزلَ عليْك الْكِتَاب بِالْحق مصدقاً لِما بين يديهِ وَأَنْزلَ التوراةَ والإِنْجِيلَ(٣) مِن قَبلُ هدى لِلناسِ وَأَنْزلَ الْفُرقَان﴾. {٤ آل عمران}.. توقف الباحث أمام هذه الآية يتعجب أشد العجب كيف ظن المفسرون أن الذى بين يديه هما التوراة والإنجيل الأمر الذى يؤدى إلى قصم ظهر نبوة محمد فقد جاء الكتاب إلى محمد ناسخاً لما قبله لا مصدقاً بالمعنى المعهود ﴿ومصدقاً لِما بين يدي مِن التوراةِ﴾. {٥٠ آل عمران}.. التى تعنى أن رسالة عيسى هى رسالة موسى مع بعض التعديل. إنّ بين يديه تعنى الحاضر لا الماضى الذى يشير إليه ﴿مِن قَبلُ هدى لِلناسِ﴾. {٤ آل عمران}.. والشىء الوحيد الذى كان موجوداً وقت نزول القرآن ويحتاج إلى ما يصدقه هو الرسالة "التشريعات" فالقرآن جاء مصدقاً لأم الكتاب وهى التى سمّاها ا "كتاب ا ".

ولضيق المجال هنا نذكر بعض المفاهيم التى توصّل إليها الباحث فى عجالة شديدة .

الذكر: الصيغة القرآنية أى تحول القرآن إلـى صـيغة لغوية إنسانية بلسان عربى.

الفرقان: الوصايا العشر التى جاءت إلى موسى وعيسى عليهما السلام ثم إلى محمد {١٥١ -١٥٣ الأنعام} بالإضافة إلى فرقان خاص لمن يريد زيـادة فـى التقـوى {٧٤/٦٣ الفرقان}

كلمات ا : هى المدلولات نفسها فكلمة الشمس بالنسـبة هى عين الشمس فكلمات ا هى عين الوجود ونواميسه. لأن ا أحادى فى الكيف ا أحد "واحد فى الكم "هـو إلـه واحد" .

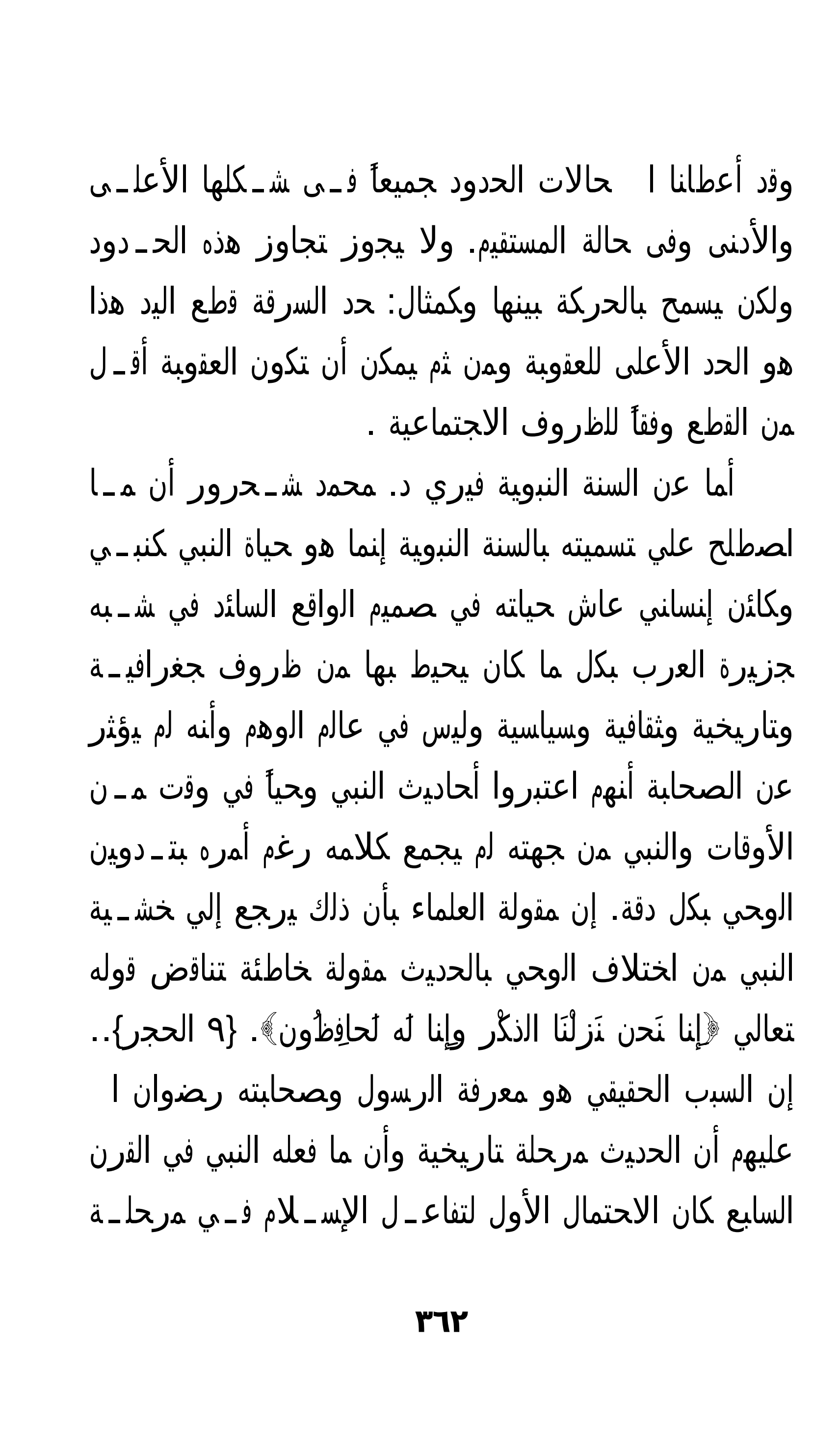
السبع المثانى: هى سبع آيات كل منها فاتحـة لسـورة حيث المثانى تعنى الأطراف حسب الأصول اللغوية وبعد أن يورد هذه المثانى يعلق بأنها مقاطع يتألف منها أصل الكـلام الإنساني وليس العربى فقط .

الروح: الظن السائد بأن الروح هى سر الحياة العضوية بعيد عن مفهومها فى كتاب ا ولقد أدى ذلك إلى الابتعـاد عن البحث فى أصل الحياة والإنسان والأنواع ثم يسـتعرض آيات الوفاة والموت فلا يجد للروح ذكراً بل النفس فـالنفس

هى التى تحيا وتموت وا   تعالى أعطانا الروح مـن ذاتـه وليس من المادة الكونية المكونة للإنسان ولذلك سمّى الأحكام روحاً وجبريل روحاً لقيامه بحمل أوامر ا   ونواهيه، لأنهـا ليست حقيقة مجسمة وإنما سلوك واع .

الفقه والسُنة :

يرى الباحث أن رسالة محمد تتألف مـن: الحـدود – العبادات – الأخلاق – التعليمات ذات الطابع الخاص أو العام – التعليمات ذات الطابع المرحلى. ولقد توصل الباحث إلـى نظرية جديدة تماماً فى رؤيته لأسس التشريع الإسلامى مبنية على صفتين للدين الإسلامى وهما الاستقامة والحنيفية وقـد كان إبراهيم (عليه السلام) هو أول من أدرك أن كـل شـئ حنيف أى متغير ما عدا ا   سبحانه حيث "الحنف" تعنى الميل والانحراف قليلاً. ويرى الباحث أن صلاحية الدين الإسلامى لكل زمان ومكان تكمن بهذه الحركة الجدلية بين الاسـتقامة والحنيفية التى تكسب التشريع تطوره الذى يناسب ما تفـرزه التناقضات الداخلية للحياة الإنسانية ومن ثم فالإنسـان فـى احتياج إلى ثوابت «الصراط المستقيم» لتشكّل بدورها علاقـة جدلية مع المتغيرات {٣٠ الروح} دونما انتهاك لحـدود ا   .



وقد أعطانا ا   حالات الحدود جميعاً فـى شـكلها الأعلـى والأدنى وفى حالة المستقيم. ولا يجوز تجاوز هذه الحـدود ولكن يسمح بالحركة بينها وكمثال: حد السرقة قطع اليد هذا هو الحد الأعلى للعقوبة ومن ثم يمكن أن تكون العقوبة أقـل من القطع وفقاً للظروف الاجتماعية .

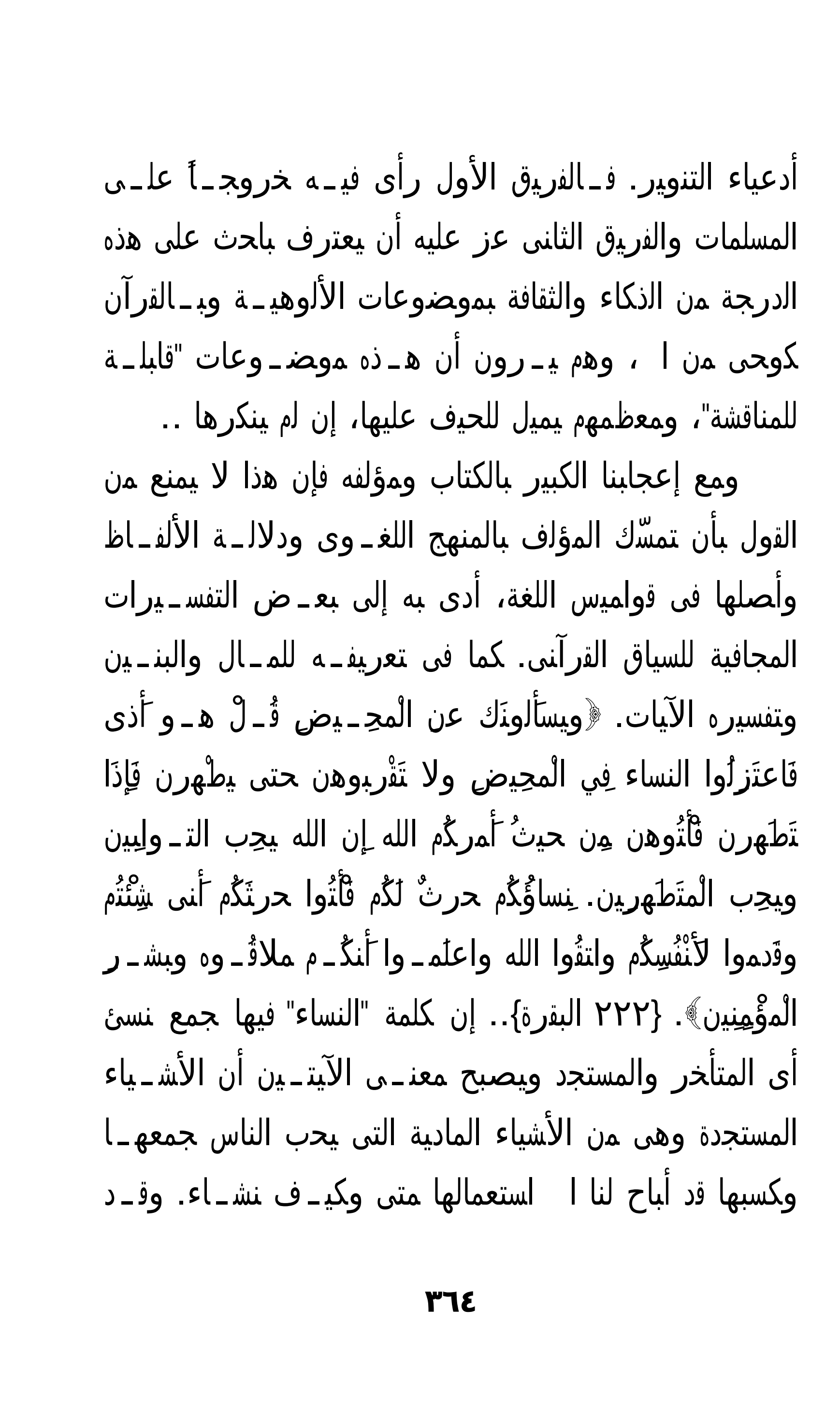
أما عن السنة النبوية فيري د. محمد شـحرور أن مـا اصطلح علي تسميته بالسنة النبوية إنما هو حياة النبي كنبـي وكائن إنساني عاش حياته في صميم الواقع السائد في شـبه جزيرة العرب بكل ما كان يحيط بها من ظروف جغرافيـة وتاريخية وثقافية وسياسية وليس في عالم الوهم وأنه لم يؤثر عن الصحابة أنهم اعتبروا أحاديث النبي وحياً في وقت مـن الأوقات والنبي من جهته لم يجمع كلامه رغم أمره بتـدوين الوحي بكل دقة. إن مقولة العلماء بأن ذلك يرجع إلي خشـية النبي من اختلاف الوحي بالحديث مقولة خاطئة تناقض قوله تعالي ﴿إنا نَحن نَزلْنَا الذكْر وإِنا لَه لَحافِظُون﴾. {٩ الحجر}.. إن السبب الحقيقي هو معرفة الرسول وصحابته رضوان ا عليهم أن الحديث مرحلة تاريخية وأن ما فعله النبي في القرن السابع كان الاحتمال الأول لتفاعـل الإسـلام فـي مرحلـة

تاريخية معينة ولكنه ليس الاحتمال الأخير وبما أن رسـالته تقوم علي خاصية الحدود فقد كان الرسول هو الوحيد الـذي سمح له بالاجتهاد لكي يعلم الناس أن يجتهدوا من بعده. ذلك الدرس الذي وعاه جيداً عمر بن الخطاب ومن ثم فالسنة تمثل الجانب النسبي في الإسلام في مقابل المطلق.. ا جل جلاله ووحيه حيث أخذ الرسول المطلق – الحدود مـن الرسـالة وحولها إلي عالم الحقيقة النسبي وهذا هو السبب المحـوري في حرص النبي وصحابته علي الوحي الذي هو المطلق أما الباقي فمتروك للإنسان في سياق الزمن فلا قوالـب جـاهزة ولا توقيف لحركة التاريخ .

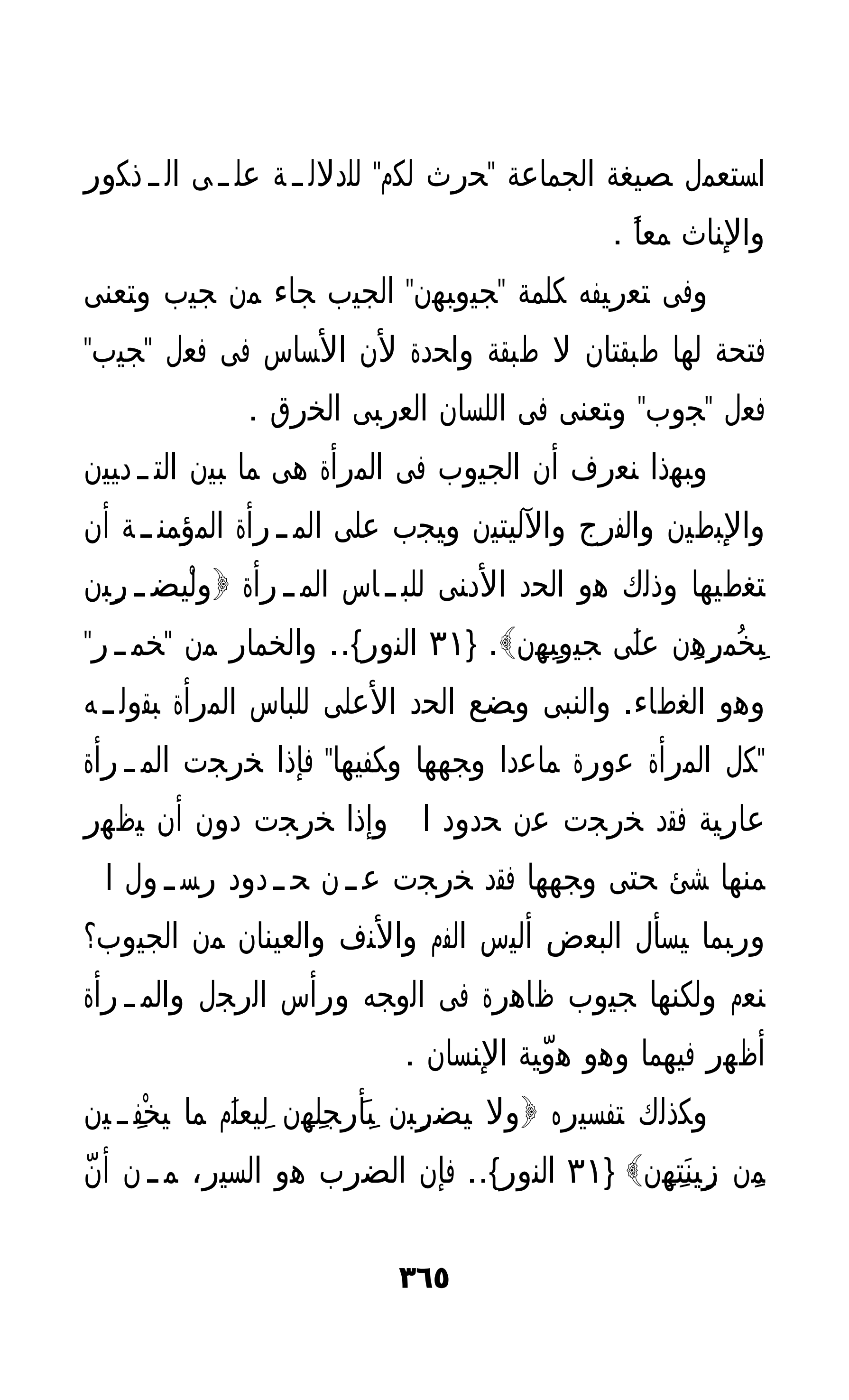
* * *

ولاشك أن كتاب الدكتور شحرور يمثل محاولة تـوفر لها الإخلاص والعلم والدأب والرغبة العارمة فى تفهم آفـاق القرآن الكريم ولهذا فإنه اتسم بالأصالة وتوصل إلى ما لـم يتوصل إليه غيره .

وقد طبع الكتاب طبعات متعددة وتعرّض لموجـة مـن الهجوم لم تقم على أسس علمية أو تأخذ صفة موضـوعية، وجاء هذا الهجوم من معسكر فقهاء التقليـد ومـن معسـكر


أدعياء التنوير. فـالفريق الأول رأى فيـه خروجـاً علـى المسلمات والفريق الثانى عز عليه أن يعترف باحث على هذه الدرجة من الذكاء والثقافة بموضوعات الألوهيـة وبـالقرآن كوحى من ا ، وهم يـرون أن هـذه موضـوعات "قابلـة للمناقشة"، ومعظمهم يميل للحيف عليها، إن لم ينكرها ..

ومع إعجابنا الكبير بالكتاب ومؤلفه فإن هذا لا يمنع من القول بأن تمسّك المؤلف بالمنهج اللغـوى ودلالـة الألفـاظ وأصلها فى قواميس اللغة، أدى به إلى بعـض التفسـيرات المجافية للسياق القرآنى. كما فى تعريفـه للمـال والبنـين وتفسيره الآيات. ﴿ويسألونَك عن الْمحِـيضِ قُـلْ هـو أَذى فَاعتَزِلُوا النساء فِي الْمحِيضِ ولا تَقْربوهن حتى يطْهرن فَإِذَا تَطَهرن فَأْتُوهن مِن حيثُ أَمركُم الله إِن الله يحِب التـوابِين ويحِب الْمتَطَهرِين. نِساؤُكُم حرثٌ لَكُم فَأْتُوا حرثَكُم أَنى شِئْتُم وقَدموا لأَنْفُسِكُم واتقُوا الله واعلَمـوا أَنكُـم ملاقُـوه وبشـر الْمؤْمِنِين﴾. {٢٢٢ البقرة}.. إن كلمة "النساء" فيها جمع نسئ أى المتأخر والمستجد ويصبح معنـى الآيتـين أن الأشـياء المستجدة وهى من الأشياء المادية التى يحب الناس جمعهـا وكسبها قد أباح لنا ا استعمالها متى وكيـف نشـاء. وقـد



استعمل صيغة الجماعة "حرث لكم" للدلالـة علـى الـذكور والإناث معاً .

وفى تعريفه كلمة "جيوبهن" الجيب جاء من جيب وتعنى فتحة لها طبقتان لا طبقة واحدة لأن الأساس فى فعل "جيب" فعل "جوب" وتعنى فى اللسان العربى الخرق .

وبهذا نعرف أن الجيوب فى المرأة هى ما بين التـديين والإبطين والفرج والآليتين ويجب على المـرأة المؤمنـة أن تغطيها وذلك هو الحد الأدنى للبـاس المـرأة ﴿ولْيضـرِبن بِخُمرِهِن علَى جيوبِهِن﴾. {٣١ النور}.. والخمار من "خمـر" وهو الغطاء. والنبى وضع الحد الأعلى للباس المرأة بقولـه "كل المرأة عورة ماعدا وجهها وكفيها" فإذا خرجت المـرأة عارية فقد خرجت عن حدود ا وإذا خرجت دون أن يظهر منها شئ حتى وجهها فقد خرجت عـن حـدود رسـول ا وربما يسأل البعض أليس الفم والأنف والعينان من الجيوب؟ نعم ولكنها جيوب ظاهرة فى الوجه ورأس الرجل والمـرأة أظهر فيهما وهو هوّية الإنسان .

وكذلك تفسيره ﴿ولا يضرِبن بِأَرجِلِهِن لِيعلَم ما يخْفِـين مِن زِينَتِهِن﴾ {٣١ النور}.. فإن الضرب هو السير، مـن أنّ

ضرب فى اللسان العربى لها أصل واحد ثم يستعار ويحمـل عليه وأول معنى محمول عليه هـو الضـرب فـى الأرض بغرض العمل والتجارة والسفر كقوله تعالى ﴿يا أيها الـذِين آمنُوا إِذَا ضربتُم فِي سبِيل اللهِ فَتَبينُوا﴾. {٩٤ النساء} ..

و "القلب" عند الدكتور شحرور هو المخ ولا يثنيـه أن يضعه القرآن فى الصدور.أما الشهر فى سورة القدر فلـيس المقصود به شهر رمضان ولكنه "إشهار" القرآن .

كما أن المقصود بقوله تعـالى ﴿فَـلا أُقْسِـم بِمواقِـع النجومِ(٧٥) وإِنه لَقَسم لَو تَعلَمون عظِيم﴾ {٧٦ الواقعة}.. فهم أسرار مواقع النجوم فى الكتاب كله وهـى الفواصـل بـين الآيات وليس مواقع النجوم فى السماء حسب المفهوم الشـائع على كل حال .

نقول: إن كلام الدكتور شحرور فى هذا كلـه ممـا لا يستقيم ..

وقد احتفلنا بالدكتور وكتابه هذا الاحتفال لأنـه يمثّـل المثقف المسلم والمفكر الذى يبدأ من منطلـق إيمانـه بـا وكتابه ورسوله ولكنه يعمل لكى يستخرج منه ما يوحى بـه العقل السليم والفكر المستقيم فنجا بذلك من التـأثير بنظـرة

المستشرقين وزخرف قولهم الذى خضع له وتأثر به كثير من المثقفين المسلمين المعاصرين فذهبوا إلى أن القـرآن مـن "التراث" وعاملوه كما يعامل أى كتاب تراثى فضلّوا وأضلّوا، مما سنشير إليه فى الفقرة التالية :

إن نقدنا لبعض ما جاء فى الكتاب لا ينفى ما بذل فيـه من جهد وما اتسم به أصالة .

– ٣ –

مدرسة المستشرقين وما بعد الحداثة

أدت التطورات السريعة للفكر الأوربى إلى ظهور آراء ومذاهب تختلف كل الاختلاف عما كان عليـه الأمـر قبـل خمسين عاماً. ولم تعد عقلانية "ديكارت" التى كان يفخر بها طه حسين وأقام عليها شكوكه فى النصوص القرآنية تعنـى شيئاً بعد أن استبعدت ودفع إلى الصدارة بنيتشه وأفكاره ذات الطابع النفسى وليس العقلانى كما استخدم فرويد وطريقتـه بحيث ظهر علم تحليل "نفس للمعرفة" يماثل علم تحليل نفس الإنسان الذى وضعه فرويد، ويهدف مثله إلى الإيغـال فـى عوالم اللاوعى والمناطق المجهولة وأظهـر تحليـل نيتشـه لعملية المعرفة أنها محض سلسلة من الاستعارات مما يجعل

إدعاء المعرفة مستحيلاً فهى استعارات تتحرك من الشـىء إلى الذهنية ومن الصورة إلى اللفظ الذى يتضمن تعبيراً عن حالة الفرد المزاجية ومن هذه الحالة إلى اللفظ الذى يفرضـه العرف الاجتماعى على أنه صحيح ثم مرة أخرى من هـذا اللفظ المقنن إلى الشىء الذى لا ندرك منه إلا أكثر الملامـح قابلية للاستعارة بسهولة فى قاموس المفردات التى ورثناهـا وفى النهاية تتحال الحقيقة "ويموت ا "!![1] .

وقد يوضح هذا التطور النص التالى المقتبس من أحـد النقاد العرب المتخصصين فى هذا المجال وهو الأستاذ على حرب فى كتابه "نقد الحقيقة" "كذلك شأن النص الفلسفى فقـد تبدلت النظرة إليه وبات هو الآخر مفتوحاً علـى الاخـتلاف والمغايرة وانفتاح النص الفلسفى على ما ليس هو يتـيح لنـا عقله ينسخ من اللامعقول والخيالى ويقـوم علـى الحجـب والخداع اللامعنى والفراغ فعلى هذا النحـو صـارت تقـرأ النصوص لدى نيتشه أو ماركس أو هيدغر أو التوسـير أو فوكو أو دولوز أو دريدا وأمثالهم وذلك كل حسب منهجه إذ لكل قراءة منهجاً فى البحث والتحقيق، فلقد بين نيتشه بمنهجه

---

(١) نهاية الحداثة بقلم جيانى فاتيمو ترجمه وليد الخشاب مراجعة وائل غـالى مجلة القاهرة أبريل سنة ٩٣ ص١٢٤ .

الأصولى اللغوى وهو يبحث فى أصول المفاهيم أن الحقيقـة الفلسفية هى نسيج من الاستعارات والتشبيهات وأن النص هو شفرة مفاهيم مؤلفة من تنضـيد دلالـى وتـراكم مجـازى وتوظيف خيالى. وبيّن هيدغر بمنهجه الظهـورى التـأويلى وهو يبحث فى كيفية نشوء المرويات أن القول الفلسفى يخدع ويتستر على مالا يقوله. وأن مالا يقوله هو الذى يحض على التفكير به لإعادة بنائه واستكشاف ما لم يفكر فيه وما لم يقله. وبين ألتوسير بمنهجه التشخيصى وهو يعيد قـراءة أعمـال ماركس أن للنص أعراضه وزلاته وأن له صمته وفراغـه بحيث يكون لدينا دوماً مالا يرى داخل حق الرؤية ذاته وبين فوكو بمنهجه الأثرى وهو ينقب عن أنظمة المعارف ويحفر فى طبقات النصوص أن الخطاب يمارس ضرباً من الرقابـة على الحقيقة ويقوم بإجراءات منع واستبعاد مما يجعل قـول الحقيقة أقل حقيقة مما يدعى وبين دولوز بمنهجـه البنيـوى وهو يبحث عن كيفية تشكيل المعنى أن المعنى ليس صـورة ولا هو ماهية ولكنه نسق تتغير عناصره وتتعـدد مراكـزه وتكثر انزياحاته مما يعنى أن الشىء الذى يعنى بذاتـه بـل بموقعه ونسبه واختلافه وأخيراً فلقد بـين دريـدا بمنهجـه

التفكيكى وهو يسعى إلى تفكيك المعنى أن النص ليس ساحة بيانات بل ساحة تباينات وأنه مجال للتوتر والتعارض وحيز للتبعثر والتشتيت وذلك حيث يتولد دوماً عن القـراءة تفكـك المبنى وانفجار المعنى وتشظى الهوية"[1].

وليس فى هذه التطورات أية محاولة للبحث عن حقيقـة أو للاهتداء إلى أصل أو استخدام للعقل للفصـل بـين حـق وباطل. صحيح وزائف. إنها إحـدى عربـدات الحضـارة الأوربية فى مجال البحث والتحقيق وقد انفسح لهـا المجـال فهيمنت روحها – وهى الانطلاق – ومضت على غلوائهـا للانطلاق فى حد ذاته وبدون هدف معين لأن هذا الانطـلاق هو من روح الحضارة الأوربية. وقلما تنتهى هذه المنـاهج المنفلتة إلى حقيقة، وهى تخضع للهـوى وللتقـدير الـذاتى ويخدع أصحابها بمختلف ما يطرأ لهم ويعرض مـن سـبل للانخداع كما يخدع الجيولوجى فى أثر أو عالم الـنفس فـى تفسير سلوك الأطفال أو عالم الاجتماع فـى بحثـه عـادات وتقاليد القبائل البدائية الخ ...

---

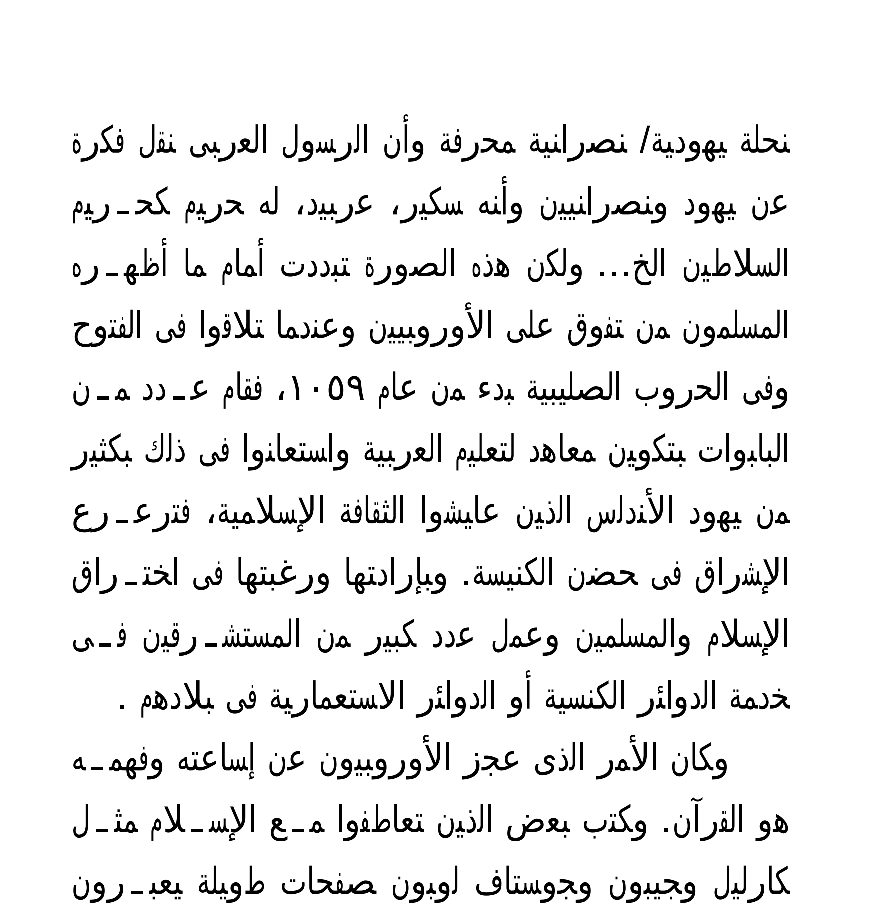
(١) نقد الحقيقة – تأليف على حرب ص ٢١-٢٢ المركز الثقافى العربـى – بيروت.

وهى توقف "النص" كما يقف برئ أمام محقق يـرفض تماماً كل ما أمامه من أقوال ويفضل أن يتسـقط الصـغيرة والكبيرة والشبه والعوارض.. إلخ ويتبنى منها ما يهديه إليـه فكره هو..!! وهى فى حقيقة الحال الصورة الحديثة للسفسطة اليونانية القديمة بيد أنها مدجّجة بمزيد مـن المفـاهيم التـى تسوغ لها الهدم والتفكيك والحفر دون أن تصل إلى طائل أو تعنى بسد ما حفرته وإعادة الركام الذى استخرجته .

فكل هؤلاء كان الباطل الذى جاءوا به أكثر من الحـق الذى اهتدوا إليه .

* * *

إذا كان هذا هو شأن الحداثة مع نصوص مثل نصوص ماركس أو غيره من الأدباء والشعراء، فإن الأمـر بالنسـبة لتفسير النص القرآنى أسوأ ويكاد يكـون مختلفـاً اخـتلاف العربية من اللغات الأوربية. وعلى كل حـال فـإن تـاريخ الاستشراق مغرق فى القدم. وقد ظهر مع ظهـور الإسـلام وانتصاره وعندما علمت أوروبا بذلك وكانت وقتئذ فى أشـد فترات القرون الوسطى تخلفاً، تملكها الحيرة وظـن رجـال الكنيسة. وهم وقتئذ الذين يمثلون رجال المعرفة، أن الإسلام



نحلة يهودية/ نصرانية محرفة وأن الرسول العربى نقل فكرة عن يهود ونصرانيين وأنه سكير، عربيد، له حريم كحـريم السلاطين الخ... ولكن هذه الصورة تبددت أمام ما أظهـره المسلمون من تفوق على الأوروبيين وعندما تلاقوا فى الفتوح وفى الحروب الصليبية بدء من عام ١٠٥٩، فقام عـدد مـن البابوات بتكوين معاهد لتعليم العربية واستعانوا فى ذلك بكثير من يهود الأندلس الذين عايشوا الثقافة الإسلامية، فترعـرع الإشراق فى حضن الكنيسة. وبإرادتها ورغبتها فى اختـراق الإسلام والمسلمين وعمل عدد كبير من المستشـرقين فـى خدمة الدوائر الكنسية أو الدوائر الاستعمارية فى بلادهم .

وكان الأمر الذى عجز الأوروبيون عن إساعته وفهمـه هو القرآن. وكتب بعض الذين تعاطفوا مـع الإسـلام مثـل كارليل وجيبون وجوستاف لوبون صفحات طويلة يعبـرون فيها عن عدم فهمهم للقرآن، وأنه متعارض وغير متراكب.. وأن ألفاظه متنافرة الخ... وفاتهم أن القرآن له طبيعة فنيـة عربية لا يمكن أن تترجم أو يعبر عنها بدقه .

فإذا التمسنا لهؤلاء العذر بعدم إمكانهم فهم اللغة العربية. فإن مشكلة المستشرقين الذين يعرفون العربية هى أنهم تقبلوا

كتابات أئمة الفقه والتفسير والحديث كما لو كانت مراجع لا تقبل المناقشة تمثل الحكم الفصل فى موضوعها. وقد كان هذا بالنسبة لهم أمراً بديهياً فهو كاعتمادهم فى المسيحية على كلام "الأباء" والبطاركة الخ... ودق عليهم أن الإسلام ليس فيه كنيسة وأنه لا يعطى الفقهاء حق التحليل والتحريم والحكم، وأن الأمر فى هذا كله يعود إلى القرآن وما ساقوه من أحكام لا يكون ملزما للدين وإنما يمثل اجتهاداتهم ونعترف أن من الظلم لهم أن نطالبهم بتحقيق هذه المراجع نفسها، والعودة بها إلى القرآن لأنهم ولابد سيغرقون فى بججه، ولأنه ليس مطلوباً منهم أن يكونوا "ملكيين أكثر من الملك" أى محققين أكثر من فقهاء المسلمين أنفسهم .

ولما كانت معظم هذه المراجع محشوة بالإسرائيليات والأحاديث الضعيفة وأبيات الشعر المنحولة.. ولما كانت من مزايا المستشرقين المعروفة، والمسلم بها، التوثيق. فإن هذه الميزة أصبحت سلاحاً للطعن فى الإسلام .

من أجل هذا لا نعد التوثيق هى الميزة الجلى للمستشرقين وأن كانوا قد برعوا فيها ولكن التنهيج والتنظيم، ومرة أخرى فإن هذا فقد لا يكون مجديا بالنسبة للقرآن كما

هو مجد بالنسبة لكتب أخرى – وذلك للطبيعة الفريدة للقرآن التى لا يماثله فيها كتاب آخر. وهكذا فإن كل جهد نوادكه فى ترتيب سور القرآن – مكيا ومدنيا – وحسب النزول – الذى انبهر به كثير من المجددين الإسلاميين يعد لا قيمة له ما دام الرسول قد أعاد ترتيب السور قبل أن يموت فـى مراجعتـه المراجعة الأخيرة، كما ذكرنا ذلك ونقلناه فى صدر بحثنا .

ومع هذا فنحن لا نكتم إعجابنا وتقديرنا للعمل الذى قام به بعضهم وبوجه خاص المستشرق الألمانى أوتو بريتـزل الذى خلف المستشرق براجستر أيسـرا (١٨٨٦- ١٩٣٢)، فى إتمام مشروع جمع المصادر الخاصة بالقرآن الكـريم، إذ كتب بريتزل إلى المجمع العلمى العربى بدمشق بشرح عمله "لقد نوينا – تسهيلاً لمحبى الإطلاع أن ندون كل آيـة مـن القرآن الكريم فى لوحة خاصة تحوى مختلف الرسـم الـذى وقفنا عليه فى مختلف المصاحف مع بيان القراءات المختلفة التى عثرنا عليها فى المتون المتنوعة، ومتبوعـة بالتفاسـير العديدة التى ظهرت على مدى العصور وتـوالى القـرون. وحينما انجلت المهمة عن طبع العديد مـن الآثـار لعلمـاء العرب والمسلمين لم يكتف "بريتزل" عند هذا الحد، بل أتحفنا

برسالة فريدة فى تاريخ علم القرآن باللغة الألمانيـة وهـى تحتوى على أسماء المؤلفات فى علم القرآن الموجـودة فـى الآفاق ودور الكتب فى العالم. وغير غريب بعد أن نشـاهد تحقيق: أسرار التأويل وأنوار التنزيل للبيضاوى، والكشـاف للزمخشـرى، والاتقـان للسـيوطى وكتـاب المصـاحف للسجستانى، و(مقدمتان فـى علـوم القـرآن) علـى أيـدى مستشرقين آخرين. وهى كتب مهمة فـى التفسـير وعلـوم القرآن[1].

٤

محمد أركون واجتهاداته

هذا المفكر الجزائرى الأصل، المسلم الديانة تربّى فـى حجر الاستعمار الفرنسى وتعرّض صبياً وشـاباً لكـل مـا يتعرض له الجزائـرى العربـى المسـلم مـن إكراهـات وضرورات ومحن ثم عاش فى فرنسا ونهل حتى ارتوى من معارفها وثقافتها حتى وصل إلـى أعلـى محافـل الثقافـة

(١) انظر بحثاً بعنوان "تقويم الجهود الاستشراقية فـى الدراسـات القرآنيـة للأستاذ عز الدين المفلح فى مجلة الحج العدد السادس جمادى الآخرة ٤٢٤ – أغسطس ٢٠٠٣ ص٥٨ .

"السربون" حيث يشغل منصب الأستاذية ونذر نفسه لقضـية الفكر الإسلامى وبوجه خاص القرآن واسـتطاع بالفعـل أن يقدم إضافته .

إنه من الطبيعى أن يساء فهـم أركـون. ولـيس مـن المستغرب أن تأتى إساءة الفهم من المعسكرين المتعارضـين معاً! معسكر السلفيين الإسلاميين ومعسكر المستشرقين. لأن أركون ندد بتقوقع الفكر الإسلامى وكشـف عـن سـوءات المفسرين والمحدثين الخ... فاستحق لعنة السلفيين، ولأنه من ناحية أخرى انتقد تعصب وضيق أفـق وتفاهـة معلومـات المستشرقين فاستحق غضبهم عليه، وضيقهم به .

هذا أمر مفهوم ولا يثير بالنسبة لنا تساؤلاً. ونحن معـه تماماً فى حملته على المفسرين والمستشرقين ولكـن عنـدما يعالج أركون القرآن نفسه باعتبار تراثاً أو نصاً فإنه يكـون مثل المستشرقين الذين لا يرجون وقاراً "لأنهم ببساطة لا يؤمنون به" .

وقد يصّور محنة أركون والورطة التى تورط فيها أنـه وجد نفسه منساقاً لأن يجعل مفتاح فكرته عن القرآن أنه "**ذو بنية أسطورية متعالية**" ولم يتنبـه لاسـتغراقه فـى الفكـر

الأوربى إلى أنه يضع نفسه فى خندق واحد مع المشـركين الذين قالوا عن القرآن "أساطير الأولين" وعندما تنبه إلى ذلك حاول – بجدع الأنف – أن يخلص نفسه محمـلاً المسـئولية لإساءة الترجمة ومفرّقاً ما بين **myth** أى الأسطورة وما بين **mythology** وهى الخرافة .

وقال إن الأولى ذات معنى إيجابى والثانية ذات معنـى سلبى الأولى تعنى المجاز الرافع والخيال المجنح أو الفرضة الحسنة التى لها نواة فى الواقع وإن لم تكن واقعة أو تاريخية بالمعنى الحرفى للكلمة أو أنها السـقف الأعلـى والسـماء الواسعة التى تظلل الوجود وتخلع عليه المعنى، إنها الأحلام الطوباوية والخيال الرطب الذى يبعث فى الوجود ويخرجنـا (ولو للحظة) من قتامة الواقع وإكراهاته ويرتفع بنا إلى سماء صافية ومثالية رائعة، بهذا المعنى فإن الكـائن البشـرى لا يستطيع أن يعيش بدون الأسطورة. هذا على الرغم مـن أن الأسطورة تتحول وتتغير من عصر إلى عصر ومن جيل إلى جيل كما إنها ترتبط بخاصيات المجتمـع ودرجـة تطـوره فالأسطورة فى المجتمع التونسى مثلاً تختلف عن الأسطورة فى المجتمع الفرنسى بمعنى أن الأسطورة فى مجتمع زراعى

لما يصنع تختلف عن الأسطورة فى مجتمع ما بعد التصـنيع وما بعد الحداثة. وكل مجتمع يبحث عن أسطورة تأسيسية أو عصر تدشينى ذهبى فقد ملامحه الواقعية والتاريخية وتحوّل إلى شئ يتجاوز الواقع أى إلى أسـطورة (أنظـر صـورة العصر الأول للإسلام بكل شخصياته وأحداثه بالنسبة للوعى الإسلامى أو بدايات المسيحية بالنسبة للوعى المسـيحى. أو حتى الصورة الأسطورية للثورة الفرنسية بالنسبة إلى الوعى الجمهورى الفرنسى الحالى) بل إن ديجول نفسه قـد تحـول مؤخراً إلى أسطورة وساهمت فى ذلك وسائل الإعلام والكتب المدرسية التى تعلّم للطلاب فى المدارس الخ... كل مجتمـع بحاجة إلى أسطورة يعيش عليها .

هذا هو الفرق بين الأسطورة والخرافة، إنه فـرق فـى الدرجة لا فى النوعية فالأسطورة عنـدما تتـدهور وتـنحط تتحول إلى خرافة غير ذات معنى ولكنها راسخة الجذور فى الوعى الشعبوى لأمة من الأمم أو لفئة من الفئات، ففى حين أن الأسطورة كانت ذات قيمة إيجابية تشحن الهمم بالعزائم وتدفع باتجاه الفتوحات وتحقيق الذات على الأرض نجـد أن

الخرافة تثبط العزائم وتدعو للاسترخاء والاستسلام لأحضان العصبيات .

ويعود أركون لإيضاح جانب جديد من جوانب دفاعه عن الأسطورة. ((نحن نعتقد أن العقل الحديث يعيد للأسطورة وظائفها النفسية والثقافية ويشكل إستراتيجية شاملة للمعرفة يكون فيها العقلانى والخيالى (أى الأسطورة بالمعنى الأنثروبولوجى) للكلمة فى حالة تداخل وتفاعل مستمرة من أجل توليد وجوده الفردى والجماعى والتاريخى. وعندئذ نتخلى للمرة الأولى عن الإطار الثنوى للمعرفة حيث كان العقل يتضاد دائماً مع الخيال والتاريخ يضاد الأسطورة والصح يضاد الخطأ والخير يضاد الشر والعقل يضاد الإيمان الخ ...

وعندئذٍ ندخل فى مرحلة العقلانية التعددية والمتضامنة مع كل العمليات النفسية التى يموضعها القرآن فى القلب والتى يحاول علم الأنثروبولوجيا الحالى إعادة الاعتبار لها وإدخالها تحت أسم "المخيال أو المتخيل"[1].

---

(١) الدكتور محمد اركون: الفكر الإسلامى نقد واجتهاد ص ٨٨ – ترجمة هاشم صالحج – دار الساقى – لندن.

نقول إن كل كلام أركون عن الأسطورة وهى كما ذكرنا مفتاح فهمه للقرآن إنما هو تنظير للفكر الأوربى الذى قام بعد استبعاد فكرة ا على الميثولوجيا اليونانية أولاً. وقد أصاب القرآن الكريم المحز عندما نسب الأساطير للمشركين لأنهـا هى إيمانهم الحقيقى ولأن تفرقة أركون تفرقه مفتعلة فالأصل اللغوى واحد والعلاقة بينهما عضوية. بل قـد نـذهب إلـى عكس ما ذهب إليه أركون فالأسطورة تبدأ خرافة لتنتهى إلى عقيدة ويحتمل أن يكون إيمان اليونان أيام سقراط وأفلاطون بالميثولوجيا اليونانية أقل مما رسبته هذه الميثولوجيـا فـي الوجدان الأوربي بل والمجتمع الأوربي بكل علومه وآدابـه وفنونه التي استعار لها أسماء شخوص وآلهة الميثولوجيا .

والخطأ في أركون أنه قبل أن يكون أوربيا كـالأوربيين الذين مهما كانت أمجادهم الفكرية فإنهم – دائمـاً وأبـداً – يفكرون علي أساس أن أوربا هي الكون وأنه لاشيء سـوى الفكر الأوربي من اليونان حتى الآن يستوي في ذلك ماركس وهيجيل وغيره فهم جميعاً يبنون كل أفكـارهم علـي بنيـة أوربية خالصة. وقد قبل أركون أن يتنازل عن ميـزة أنـه عربي ومسلم التي كانت يمكن أن تجعلـه شخصـاً مختلفـاً

وتجعله يدخل مدخلاً مختلفاً ولما كان عليه – ولـيس علـي المفكرين الأوربيين – أن يخاطب المسلمين فإنـه حـاول أن يضفي علي الفكر الأوربي مسحة إسلامية وهيهات. فهنـاك خط فاصل رئيسي بين عالم ا وعالم الوثنية، بين الإسـلام وبين الأسطورة. وقد كان يمكن لأركون أن يقول إنـه لابـد لكل الشعوب من إيمان وهذا الإيمان قد يكون زائفـاً فيأخـذ شكل الأسطورة قبل أن يهدي ا الناس بالصورة السليمة عن طريق الوحي والأنبياء والكتـب السـماوية التـي تسـتخدم التصوير الفني والمجاز أو تبدأ من مستوي القوم الذين أنزلت لهم، ولكن مضمونها يختلف تماماً عن الأسطورة، لأنه يبرز الحقيقة العظمى ا .

بل إن أركون كان يستطيع أن يمضي إلي ما هو أبعـد فيقول: إن الجذور الأسطورية للمعتقدات الدينية ظلت قويـة ومؤثرة حتى بعد إرسال ا تعالي للرسـل وألقـت بظـلال وغشاوات علي نقاء العقائد السماوية .

كان أركون يستطيع أن يقول هذا لو تحرر من المنـاخ الأوربي وطريقة أوربا في دراسة الأديان التي تستبعد تماماً فكرة ا وتأخذ بما وجدته لدي القبائل البدائية فـي أفريقيـا

والأمزون واستراليا والهند الـخ... أو فـي كتـب السـحر والتنجيم... وهذا عندها هو "الأنتربولوجى" العلمي المقبول .

ورغم كل ما يمكن أن يؤخذ علي أركون فقد استطاع أن يصد بحكم مكانته الرفيعة وإيمانه الإسلامي غائلة كثير مـن المستشرقين وأن يعرض وجهة نظر إسلامية يتقبلها الفكـر الغربى، وأنه توصل إلي نتائج سليمة فى نقده لبعض مسالك الفقهاء التقليديين .

علي كل حال فإننا نعتقد أن أركون كبقية الذين تـأثروا بالثقافة الأوربية وانبهروا بها حيناً من الدهر يعيد بين الفينـة والفينة النظر في أفكاره وينتهي إلي إشراقات تختلـف عمـا ذهب إليه عندما كان مأخوذاً بكليته بالثقافة الأوربية وأنه بعد رحلته الطويلة مع "فوكو" وأمثاله من أنصار التفكيك والحفر انتهى إلي أن "التأويل" هو مفتاح المعالجة القرآنية ((فـالقرآن كتاب ينص علي التأويل ويقبل التأويل ولا يكتنه إلا بالتأويل فهو نص تأويلي أو لنقل نص التأويل بامتياز" .

٥

الدكتور نصر حامد أبو زيد وكتابه :
"مفهوم النص دراسة في علوم القرآن"

في صدد التدليل علي كساد النشاط الثقافي وخمول الفكر المصرى قال أحد النقاد: إن كتاب "مفهوم النص" لـم يثـر صدي قي حين أنه أخطر بكثير من كتاب "أصول الحكم في الإسلام" للشيخ علي عبد الرازق الذي أقام الـدنيا وأقعـدها عندما صدر في العشرينات. لأن هذا الأخير إنمـا تعـرض لإحدى قضايا الفكر الإسلامي وهي الخلافة في حين أن كتاب "مفهوم النص" يتعرض لصميم القرآن الكريم نفسه .

كان هذا قبل أن يتنبه المجتمع المصرى الخامـل إلـى الكتاب وأن يجعله بل ويجعل شخصية مؤلفه، قضية كبـرى تحكم فيها المحاكم بالتفريق ما بينه وبين زوجته – ربما لأول مرة فى مصر – بدعوى ارتداده .

ونعتقد أن الدكتور نصر حامد أبو زيد لم يتـأثر فيمـا ذهب إليه بعالم ما بعد الحداثة كالدكتور أركون ولم يتغلغـل في عالم فوكو وشنشنة نيتشه والتوسير وديدرو... الخ إنـه

يعود إلي ديكارت وفكرة الشك. وقد تأثر عميقـاً وبصـورة مباشرة كأستاذ أدب عربي بالدكتور طه حسين الذي يعتبـره دون مواربة مثله الأعلى. وقد قال طه حسين إن ذكر القرآن لبناء إبراهيم وإسماعيل الكعبة لا يكفي لإثبات ذلـك. فجـاء نصر أبو زيد ليضع المنهج الذي ينتهي إلي مثل هذه النتائج، وهذا المنهج هو معالجة "النص" القرآنى باعتبـاره "منتجـاً ثقافياً"، وإذا كان له أساتذة مـن الأقـدمين فهـم المعتزلـة وشنشنتهم حول خلق القرآن ..

ولعله ترفّق بالقارئ فلم يصّرح بمذهبه من البداية فأخذ يحوم حول التراث والدراسات الأدبية والنصوص ثم انتقـل إلى الحديث النبوى حتى ذكر صراحة القرآن وأنه هو النص "**بألف ولام العهد**" .

ولا يثنيه عن هذه المعالجة أن يكون القرآن نصاً إلهيـاً صادراً عن ا فكائناً ما كان فإنه قد ألتبس باللغـة واللغـة ليست وعاء فارغاً ولكنها أداة الثقافة والمعرفة ومن ثم فيمكن معالجته من هذا المدخل كمنتج ثقافى ..

ونقرأ له بكلماته ...

"إن البحث عن النص ليس فى حقيقته إلا بحثاً عن ماهية القرآن وطبيعته بوصفه نصاً لغوياً" ص١٢.

"إن الدراسة الأدبية – ومحورها مفهوم النص – هـى الكفيلة بتحقيق وعى علمى يتجـاوز بـه موقـف التوجيـه الأيديولوجى السائد فى ثقافتنا وفكرنا" ص١٣ .

"إن النص فى حقيقته وجوهره منتج ثقافى والمقصـود بذلك أنه تشكل فى الواقع والثقافة خلال فتـرة تزيـد علـى العشرين عاماً وإذا كانت هذه الحقيقة تبدو بديهيـة ومتفقـاً عليها(!!) فإن الإيمان بوجود ميتافيزيقى سابق للنص يعـود لكى يطمس هذه الحقيقة البديهية ويعكر – من ثمّ – إمكانيـة الفهم العلمى لظاهرة النص. إن الإيمان بالمصـدر الإلهـى للنص ومن ثمّ لإمكانية أى وجود سابق لوجوده العينى فـى الواقع والثقافة أمر لا يتعارض مع تحليل النص من خـلال فهم الثقافة التى ينتمى إليها. ولنقـل بعبـارة أخـرى إن ا سبحانه وتعالى حين أوحى للرسول بالقرآن أختـار النظـام اللغوى الخاص بالمستقٍبل الأول وليس اختيار اللغة اختيـار لوعاء فارغ. وإن كان هذا مـا يؤكـده الخطـاب الـدينى المعاصر. ذلك أن اللغة أهم أدوات الجماعة فى إدراك العالم

وتنظيمه. وعلى ذلك لا يمكن أن نتحدث عن لغـة مفارقـة للثقافة والواقع أيضاً ما دام أنه نص داخـل إطـار النظـام اللغوى للثقافة. إن ألوهية مصدر الـنص لا تنفـى واقعيـة محتواه ولا تنفى من ثمّ انتماءه إلى ثقافة البشر" ص٢٧.

إن القرآن يصف نفسه بأنه رسالة تمثل علاقة اتصـال بين مرسل ومستقبلٍ من خلال شفرة. ولما كان المرسل فـى حالة القرآن لا يمكن أن يكون موضوعاً للدرس العلمى. فمن الطبيعى أن يكون المدخل العلمى لدرس النص القرآنى مدخل الواقع والثقافة، الواقع الذى ينتظم حركة البشـر المخـاطبين بالنص وينتظم المستقبل الأول للنص وهو الرسول والثقافـة التى تتجسد فى اللغة. بهذا المعنى يكون البدء فـى دراسـة النص بالثقافة والواقع بمثابة بدء بالحقائق الإمبريقية .

ومن تحليل هذه الحقائق يمكن أن نصل إلى فهم علمـى لظاهرة النص. إن القول بأن النص منتج ثقافى يكون فى هذه الحالة قضية بديهية لا تحتاج لإثبات ومع ذلـك فـإن هـذه القضية تحتاج فى ثقافتنا إلى تأكيد متواصل نأمل أن تقوم به هذه الدراسة .

لكن القول بأن النص منتج ثقافى يمثل بالنسبة للقـرآن مرحلة التكون والاكتمال. وهى مرحلة صار الـنص تقـاس عليه النصوص الأخرى وتتحدد به ومشروعيتها. إن الفارق بين المرحلتين فى تاريخ النص هو الفارق بين استمداده مـن الثقافة وتعبيره عنها وبين إمداده للثقافة وتغييره لها" ص٢٨ .

"ولعل الحديث عن دور الواقع والثقافة فى تشكيل هـذه النصوص (القرآن والحديث) يمثل نقطة الانفصـال وربمـا التدابر بين منهج هذه الدراسة وبين المناهج الأخـرى التـى يتبناها الخطاب الدينى المعاصر عند مناقشة هـذه القضـايا حيث تعطى الأولوية عند مناقشة النصوص للحديث عن ((ا عز وجل قائل النص ثم يلى ذلـك الحـديث عـن النبـى)) (المستقبل الأول) للنص ثم يلى ذلك الحديث عن الواقع تحت عناوين "أسباب النـزول" و "المكـى والمـدنى" و "الناسـخ والمنسوخ" إن مثل هذا المنهج إن اكتملت له أدوات البحـث المنهجى من الدقة والاستقصاء بمثابة ديالكتيك هابط فى حين أن منهج هذه الدراسة بمثابة ديالكتيك صاعد. وعلى حين يبدأ المنهج الأول من المطلق والمثالى فى حركـة هابطـة إلـى الحسى والمتعين فإن المنهج الثانى يبدأ من الحسى والعينـى

صعوداً. يبدأ من الحقائق والبديهات ليصل إلـى المجهـول ويكشف عما هو خفى" ص٢٩ .

* * *

إن هذه الفقرات هى ما تهمنا بالدرجة الأولى من كتاب "مفهوم النص" لأنها تمثل المنهج والفكرة الرئيسية فيه وهـى أن النص القرآنى مهما كانت قداسته فإنه بعد أن التبس باللغة وتجسد فيها أصبح نصاً لغوياً يخضع لكل مـا تخضـع لـه النصوص اللغوية من تفاعل ومؤثرات .

وعندما أراد أن يطبق هذا المنهج على التفاصيل قال فى معالجته لمفهوم الوحى: "لقد كان ارتباط ظـاهرتى الشـعر والكهانة بالجن فى العقل العربى وما ارتبط بهما من اعتقـاد العربى بإمكانية الاتصال بين البشر والجـن هـو الأسـاس الثقافى لظاهرة الوحى الدينى ذاتها ولو تصورنا خلو الثقافـة العربية قبل الإسلام من هذه التصورات لكان استيعاب ظاهرة الوحى أمراً مستحيلاً من الوجهة الثقافية. فكيف كان يمكـن للعرب أن يتقبل نزول ملك من السماء على بشر مثله ما لـم يكن لهذا التصور جذور فى تكوينه العقلى والفكرى" .

وهذه الفقرة أقرب إلى شطحات المستشرقين الذين يغلب على معظمهم عدم الإحكام والشمول للموضـوع الإسـلامى وأنهم يبنون النتائج على مقدمات وهنانة فمن قال إن العرب تقبلوا فكرة نزول ملك على بشر بوحى لسبق تأثرهم بـالجن والكهانة وقد كان هذا نفسه هو أكبر أسباب كفـرهم وآيـات القرآن التى تسجل دهشتهم من إرسال بشر "يأكـل الطعـام ويمشى فى الأسواق" ﴿وما منَع الناس أَن يؤْمِنُوا إِذْ جـاءهم الْهدى إِلا أَن قَالُوا أَبعثَ الله بشَراً رسولاً(٩٤) قُلْ لَو كَان فِي الأَرضِ ملائِكَةٌ يمشُون مطْمِئنين لَنَزلْنَا علَيهم مِن السماءِ ملَكاً رسولاً﴾. {٩٥ الإسراء}.. وقد وجد الشعر والكهانة فى كـل الأمم القديمة تقريباً. وقد وجد فى اليونان أكثر مما وجد فـى العرب ولم يوجد الأنبياء. فالفقرة كلها ساقطة سواء طبقناهـا على العرب أو على غيرهم .

ولا يمكن لأحد أن يلوم أو ينتقد الكتاب المسـلمين، إذا جعلوا من حقيقة أنّ القرآن مـن عنـد ا . **نقطـة البدايـة الحاكمة للموضوع وأخذوا** يهبطون منها إلى الرسول عـن طريق الوحى وهى الطريقة التي وصفها الدكتور نصر أبـو زيد بأنها "ديالكتيك هابط" وليس من ذنب المسلمين إذا أخذوا

به لأن القرآن "**نزل" و "أنزل**" من السـماء وهمـا صـيغتان للنزول تكررتا في القرآن. وليس أمام الكاتب المسـلم إلا أن يعترف بهذه الحقيقة أو أن يعطى فكرة ا "أجـازه" عنـدما يكتب أو يخلعها قبل أن يجلس على مكتبه .

وكرر الدكتور نصر أبو زيد هذه الدعاوى فى كتاب نقد الخطاب الدينى فهو يقول "النص منذ لحظة نزوله الأولى أى مع قراءة النبى له لحظة الوحى تحول من كونه نصاً إلهيـاً وصار فهماً إنسانياً" أنه تحول من التنزيل إلى التأويـل، إن فهم النص للنبى يمثل أولى مراحل حركة النص فى تفاعلـه بالعقل البشرى، ولا التفات لمزاعم الخطاب الدينى بمطابقـة فهم الرسول للدلالة الذاتية للنص ٢٧ وفى ص "١٠٥" يقـول "وفى قضية ميراث البنات بل فى المرأة بصفة عامـة نجـد الإسلام قد أعطاها نصف نصيب الذكر بعد أن كانت مستبعدة استبعاداً تاماً وفى واقع اجتماعى اقتصادى تكاد تكون المرأة فيه كائناً لا أهلية له وراء التبعية الكاملة بل الملكيـة التامـة للرجل أباً ثم زوجاً. اتجاه الوحى واضح تماماً ولـيس مـن المقبول أن يقف الاجتهاد "عند حدود المدى الذى وقف عنده الوحى وإلا انهارت دعوى الصلاحية لكل زمان ومكان" .

ويقول "الواقع هو الأصل ولا سبيل لإهداره ومن الواقع يكون النص ومن لغته وثقافته صيغت مناهجه" .

فالواقع أولاً.. والواقع ثانياً.. والواقع أخيـراً وإهـدار الواقع لحساب نص جامد ثابت المعنى والدلالة يحول كليهما إلى أسطورة] انتهى .

فكيف يمكن أن يتحول النص منذ لحظة نزوله الأولـى أى مع قراءة النبى له لحظة الوحى من كونه نصاً إلهياً إلـى فهم إنسانى من التنزيل إلى التأويل ..

إن القرآن لم يتحول أبداً ولكن الذى يتحول ويتغير هـو فهم الناس له، هو تفسيرهم له، هو تأويله .

وتفسيره وتأويله شئ. والنص نفسه شئ آخر، ويمكـن دون حرج أن ننقد التفاسير ما شئنا وأن نحكم عليها بقـوانين الظواهر الاجتماعية ولكن هذا لا يمس أبداً النص نفسه الذى يحتفظ بكل قدسيته، لأنه لم يحدث له ما يمس هـذه القدسـية ويظل دائماً هوهو، ويظل ملهماً خلاقاً ..

وفى قضية ميراث المرأة فهل فات الدكتور نصـر أن المعول فى الميراث الإسلامى هو وثاقه العلاقـة بـالمتوفى وليس ما إذا كان الوريث ذكراً أو أنثى وهناك حالات عديدة

ترث فيها الأنثى أضعاف ما يرث الذكر. هذا فضلاً عـن أن الميراث قطعة من نظام إسلامى يوجب التزاماً على الرجـل نحو المرأة، بل يمكن القول إن الخط المقـرر فـى القـرآن بالنسبة للمرآة كان حمايتها من عدوان الرجال وكان يمكـن للمؤلف أن يقول إن علينا أن نعود إلى الحكمة فى النص فإذا انتفت الحكمة التى أرادها النص فـيمكن – بنـاء علـى أن الحكمة ملحظ من ملاحظ النص – تجميد نص مؤقت وفـى هذه الحالة بالذات، وهو ما فعله عمـر بـن الخطـاب فـى اجتهاداته المعروفة...

وكان يصل بهذا إلى ما يريد دون الافتئات على الـنص ويعزز موقفه باستشهاد موثق ومقبول. أما دعوى أن الواقـع هو الأصل ولا سبيل لإهداره... وأن إهدار الواقع لحسـاب نص جامد ثابت المعنى والدلالة يحول كليهما إلى أسطورة... فهذا محض ادعاء، لأن الأديان إنما جاءت لتسمو بـالواقع لا أن تستسلم له، وما فائدتها إذا كان عليها أن تسلم للواقع .

إن أزمة الدكتور نصر وإضرابه والدكتور طه حسـين من قبل تعود إلى استغراقهم فى فكـر المستشـرقين الـذين يستبعدون بحكم مناهجهم أى ذكر فى كتابـاتهم وبالتـالى

يعاملون القرآن كأى كتاب وأى "منتج ثقافى"، وقد تخـالطهم (الدكتور طه حسين ونصر أبو زيد وأمثالهم) رغبة ما بـين الزهو والشر فى اختراق المقدسات وابتداع المناهج رغم أنهم فى هذا إنما يمثلون صورة من صور التقليد. والقارئ لكتاب "فى الشعر الجاهلى" يلمس أن الفقرات المشبوهة التى جلبـت على مؤلفه العار لم يكن لها ضـرورة علـى الإطـلاق إلا التفاخر بالشجاعة وتجاوز الحدود والجرأة على القرآن وقـد أظهر هذا بجلاء الأستاذ محمد نور رئيس النيابة الذى حقـق مع طه حسين وأثبت أن لديه معرفة وعلماً يفوق علم ومعرفة طه حسين نفسه وألجأه إلى الاعتذار الذى استند عليـه فـى استبعاد "القصد الجنائى" وبالتالى حفـظ الموضـوع فحقـق الحسنيين: أثبت خطأ طه حسين فى تهجمه دون مبرر علـى القرآن وفى الوقت نفسه فإنه باستبعاد القصد الجنائى حفـظ الموضوع وحال دون محاكمته

ولولا هذه الرغبة فى التظاهر لما عجـز طـه حسـين ونصر أبو زيد عن أن يكونا أفضل من المستشرقين الـذين هاموا بهم – لأنهما يؤمنان با وأن هذا الإيمـان يمكـن أن يهديهم إلى ما لم يهتد إليه المستشرقون. وهل الصـواب أن

نقبل ما يقول ديكارت أو دوركايم ونرفض ما يقول القـرآن ؟؟ .

لقد أعاد التاريخ نفسه مع هؤلاء السادة الذين نهجوا نهج أسلافهم المعتزلة الذين فتنوا بالفلسفة اليونانية فابتغوا سـبيلاً للبرهنة على وحدانية ا وقداسته غير السبيل الذى رسـمه القرآن فتوزعتهم الطرق أمشاجاً وضللتهم الدعاوى التى تعود إلى فلسفة وثنية أصلاً وفرعاً قلباً وقالباً... وليس هناك فرق بين كلمات الدكتور نصر أبو زيد "**إذا كان الكلام الإلهى فعلاً فإنه ظاهرة تاريخية لأن كل الأفعال الإلهية أفعال "فى العالم"** المخلوق المحدث إى التاريخى والقرآن الكريم كذلك ظـاهرة تاريخية من حيث أنه واحد من تجليات الكـلام الإلهـى وإن يكن أشمل هذه التجليات لأنه آخرها". وبين المعتزلة الـذين ذهبوا إلى "بشرية" القرآن وأن القرآن من حيث هو كلمـات وحروف وأصوات ومداد مكتوب فى صحف هـو محـدث مخلوق. بل هو بهذه الصفات فعل للإنسان المتكلم به والقارئ له والكاتب لآياته. وقال أغلبهم إن القرآن كما نحكيـه نحـن الآن ليس هو ذات "المحكى" عن ا سـبحانه وأن الحكايـة غير المحكى والذى نحكيه نحن كلام وصوت وحرف ومداد

أما المحكى عن ا سبحانه وتعالى فهو المعنى وقـد عبـر الرسول عليه الصلاة والسلام عن هذا "المعنى" بلغة العـرب التى جاء بها القرآن الكريم[1].

وبناء على هذا فقد ذهب المعتزلة إلى أن القول بخلـق القرآن يعنى فى مقدمة ما يعنى القول "ببشرية" هذا الكتـاب من حيث اللغة والأصوات والحروف واللهجات وبما أن هذه الأشياء هى ثمرة جهد بشرى أثمر قواعد أتفق عليها النـاس "وتواضعوا" عليها ووضعوا لها القواعد والأصول فإن ذلـك يجعل للعقل الإنسانى مجالاً أكبر فى النظر إلى هذا الكتـاب بالتفسير والتأويل[٢] .

وقد تصور المعتزلة أن لا كلام إلا بجارحة (اللسـان) وأنه لما كان ا منزها عن الجوارح فإن القرآن ليس كـلام ا . ولو عاشوا العصر الحديث ووجدوا الراديو يتكلم بـدون لسان لكان لهم مندوحة عن هذا الشطط، ولوجـدوا أن عـدم التفكير فى هذا لا يخالف العقل فى شىء لأن العقل يعجز عن أن يدرك كنه ا تعالى .

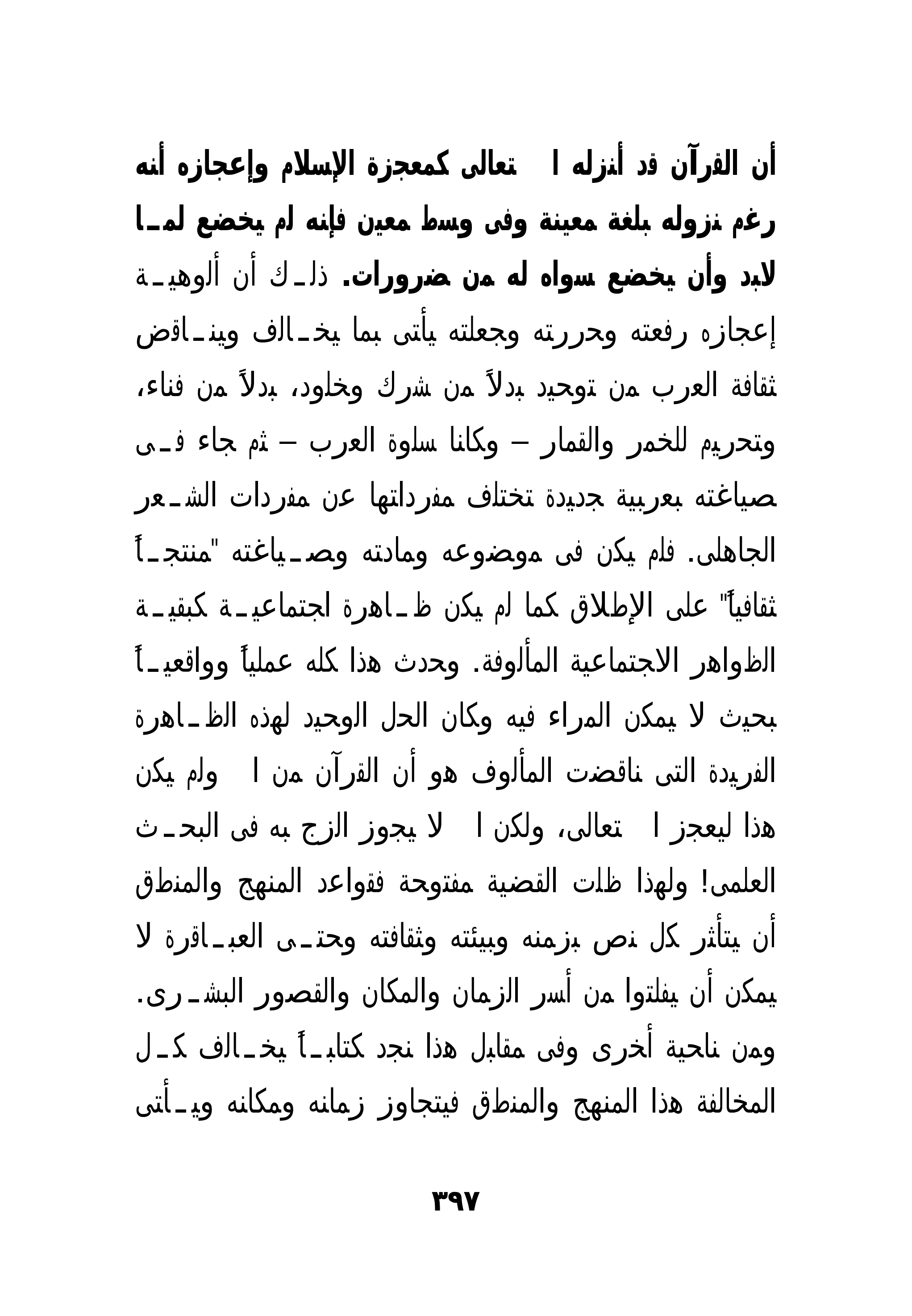
---

(١) المعتزلة والقرآن – الدكتور محمد عمارة – مجلة الهلال عـدد ديسـمبر ١٩٧٠ نقلاً عن القاضى عبد الجبار "المحيط بالتكليف" ص ١٦٠-١٦١.

(١) المرجع السابق ص١٦٠ – ١٦١ .

والقضية فى حقيقتها بالنسبة للمعتزلة المفتونين بمـنهج الفلسفة اليونانية وللمحدثين المفتونيين بمنهج الفلسفة الأوربية الحديثة هى محاولة للجمع بين عقيدتهم كمسلمين يؤمنون با وهذه الفلسفات – الفلسفة الأوروبية الحديثة – التى تستبعد ا وهى محاولة شيطانية تعسة محكوم عليها بالفشل. ومـا دام القرآن كلام ا – كما يؤمن كل مسلم – فـإن أى محاولـة لتقصى كيفية حدوث ذلك أو طبيعته تخرج عن إطار العالـم المادى والفلسفة الدنيوية والتجريبية وتصبح جزءاً لا يتجـزأ من عالم الغيب الذى استأثر به ا تعالى ولا داعى للافتيات عليه. وقد عالج القرآن نفسه هذه النقطـة عنـدما تعـرض لشكوك المرجفين فى قوله تعالى ﴿ماذَا أَراد الله بِهذَا مثَلاً﴾. {٢٦ البقرة}.. ﴿وما جعلْنَا عِدتَهم إِلا فِتْنَةً لِلذِين كَفَروا﴾ {٣١ المدثر}.. وفى مواجهة هؤلاء المرجفين، وقان الراسخين فى العلم ﴿يقُولُون آمنا بِهِ كُل مِن عِنْدِ ربنَا﴾. {٧ آل عمران} ..

وقد كان يمكن للدكتور نصر أبـو زيـد وإضـرابه أن يهتدوا إلى الحل فمع أن القرآن كان لابدد أن ينـزل بلغـة، ولابد أن يحدث نوعاً من التفاعل ما بـين الـنص المقـدس واللغة ومتواضعاتها. **فإن القضية الجديدة فى الموضوع هى**



أن القرآن قد أنزله الله تعالى كمعجزة الإسلام وإعجازه أنه رغم نزوله بلغة معينة وفى وسط معين فإنه لم يخضع لما لابد وأن يخضع سواه له من ضرورات. ذلك أن ألوهية إعجازه رفعته وحررته وجعلته يأتى بما يخالف ويناقض ثقافة العرب من توحيد بدلاً من شرك وخلود، بدلاً من فناء، وتحريم للخمر والقمار – وكانا سلوة العرب – ثم جاء فى صياغته بعربية جديدة تختلف مفرداتها عن مفردات الشعر الجاهلى. فلم يكن فى موضوعه ومادته وصياغته "منتجاً ثقافياً" على الإطلاق كما لم يكن ظاهرة اجتماعية كبقية الظواهر الاجتماعية المألوفة. وحدث هذا كله عملياً وواقعياً بحيث لا يمكن المراء فيه وكان الحل الوحيد لهذه الظاهرة الفريدة التى ناقضت المألوف هو أن القرآن من الله ولم يكن هذا ليعجز الله تعالى، ولكن الله لا يجوز الزج به فى البحث العلمى! ولهذا ظلت القضية مفتوحة فقواعد المنهج والمنطق أن يتأثر كل نص بزمنه وبيئته وثقافته وحتى العباقرة لا يمكن أن يفلتوا من أسر الزمان والمكان والقصور البشرى. ومن ناحية أخرى وفى مقابل هذا نجد كتاباً يخالف كل المخالفة هذا المنهج والمنطق فيتجاوز زمانه ومكانه ويأتى

بما هو مخالف للعهود والمقرر بصيغة معجـزة حـار فـى تحديدها البلغاء، وسيظل هؤلاء البلغاء يضربون أخماساً فـى أسداس حتى يؤمنوا أنه من ا .والغريب المؤسف فى أمـر الدكتور نصر أبو زيد أنه جمـع بـين أسـوأ مـا يقدمـه المستشرقون، وأسوأ ما يقدمه الأسلاف!! أسوأ مـا يقدمـه المستشرقون لأنهم يعالجون القرآن بعد استبعاد ا ! باعتباره منتجاً ثقافياً، وأسوأ ما قدمه الأسلاف لأنه تقبل ما وضـعوه من أفانين علوم القرآن وأقر النسخ، وأسباب النـزول لأنهـا فيما رأى تدعم وجهة نظره عن نسبية الأحكام القرآنية. فـى حين أن الكلام على أسباب النزول والنسخ من سقط المتـاع، ومالا يقف أمام أى نقد أو تمحيص وقد عالجنا هذا بإسـهاب فيما سبق من هذا الكتاب .

إننا نقول لهؤلاء الكتاب ألا تعقلون ألا تتفكرون ما هـذا الغباء الذى تتمسكون به وتحرصون عليه عندما لا تفرقـون بين قصيدة شاعر أو مسرحية مسرحى أو تاريخ مؤرخ وبين كتاب أثر أثراً بعيداً فى حياة العالم بأسره على امتداد ألـف وأربعمائة عام ودمـر الإمبراطوريـات الطبقيـة رومانيـة وفارسية وأحيا أمماً وأوجد حضارات وتضمن الروائع فـى

التشريع والسياسة والاقتصاد وهو الأصـل للضـمير لـدى الملايين من مختلف الأجناس ومختلف العصور هل تعـدون ألفاظه المقدسة التى يتعبد بها كالألفاظ التى وضعها زيـد أو عبيد من الكتاب والمؤلفين .

إن هذه الصفة الفريدة للقرآن والتى لا يشترك فيها مـع القرآن أى كتاب آخر تجعل من الحـق أن يعـالج معالجـة خاصة وأن تعد معالجته كأى نص آخر ظلماً للحقيقة .

إن المفكر الأمين هو الذى يعترف بالحق أما الذى ينكر حقيقة لاشك فيها أو يدعى حقيقة لا أصل لها فإنه لا يكـون مفكراً وإنما دجّالاً[1] .

(١) إن هذا النقد لآراء الدكتور نصر أبو زيد لا يعنى أننا نؤيـد محاكمتـه أو اعتباره مرتداً فنحن أبعد الناس عن ذلك، أولاً: لأننا لا نرى فيما قاله ارتداداً وإنما اجتهاداً خاطئاً حمله عليه أخذه بالمفاهيم الأوروبية التى تأثر بها معظـم مثقفينا، وعبر عنه بأسلوب فج – كان له عنه مندوحة لو رزق الكياسة التـى هى من عدة الكاتب، وثانياً: لأننا حتى لو افترضنا ارتداده، فـنحن لا نرتـب على الردة حكماً من أى نوع وكما قلنا فى كتابنا "كلا ثم كـلا. كـلا لفقهـاء التقليد. وكلا لأدعياء التنوير" ليس هناك بالنسبة للردة حد أو استتابة أو تعزير وإنما يكون الرد بالكلمة: كلمة فكلمه، وبرهاناً ببرهان. كما فعلنا هنا. ونحـن لا نقر أبداً مصادرة أى كتاب لأنه قتل لحرية الفكر والمفـروض أن حريـة الفكر إنما يعنى بها حرية الفكر المخالف، كما نستبعد تماماً دعـوى التكفيـر حتى بالنسبة لمن يقر على نفسه بالكفر، لعدم الاختصاص. لأن ا تعالى هو الذى يفصل فى هذه الأمور يوم القيامة .

- ٦ -

كتاب تثوير القرآن

اقتراب مختلف ..

يختلف كتاب تثوير القرآن – الذى أصدرناه فـى سـنة ٢٠٠٠ عن كل الكتب السابقة عن القـرآن بمـا فـى ذلـك اختلاف المنهج والهدف ..

فالمفسرون جميعاً من الطبرى حتى سيد قطب وشحرور استعدوا قبل اقترابهم من القرآن كما يستعد المحـارب قبـل الدخول إلى معركة فالأسلاف اشترطوا ضرورة إحكام علوم اللغة وما فيها من نحو وصرف وبيـان الـخ... والناسـخ والمنسوخ وأسباب النزول الخ... والمحدثون تسلحوا بكل ما قدمتهم لهم ثقافة "الحداثة" من لسانيات وعلوم فـى الدلالـة والحروف والأسلوب، فضلاً عن فلسفاتهم ومذهبياتهم ومـا وضعتها من أصول للبحث والدراسة.. وقد كان آخر هـؤلاء المحدثين هو الدكتور محمد شحرور الذى طبق مـنهج أبـى على الفارسى للتعرف علـى معـانى الكلمـات وجـذورها واشتقاقاتها كما استخدم الرياضيات الحديثة للتعـرف علـى الحدود ..

وبدت هذه الطريقة طبيعية لأنها جعلت مهمتها "دراسة" القرآن. فأصبح هناك دارس ومدروس كل واحد منهما مستقل عن الآخر ومنعزل عن الآخر، وأعمل كـل دارس مبـادئ درسه ومعداته ومفاهيمه وقواعده الخ... بما فى ذلك سـكين النسخ، وتخصيص العموم وتحديد أسـباب النـزول الـخ... ولكنهم لم يقدموا لنا القرآن ولكن قدموا أنفسهم وما لديهم من مقدرة ومهارة فى استخدام وسائلهم للتعامل مع القرآن ..

وكأنى بالقرآن يقول لهم ويلكـم أتعلمـون ا بـ دينكم؟ أتشنون معركة فى القرآن تستخدمون أسلحتكم الصدأة اعرفوا أقداركم، وألقوا أسلحتكم "وأسجد وأقترب" .

هذا بالنسبة للمنهج. أما الهدف فقد كان هدف بعضـهم التوصل إلى الإعجاز اللغوى أو العددى أو العلمى فى القرآن أو تعريف مبهماته وأسباب نزوله.. بما عمد كتاب آخـرون من المستشرقين باستخدام وسائلهم الخاصة للتنديـد بـالقرآن وإظهار ما يدعون من تفككه وتناقضه !! ..

وقد توصل هؤلاء وأولئك بالفعل وبقدر سـلامة هـذه الوسائل أو نقصها إلى نتائج. ولكنهم لم يصلوا إلى مـا أراده

القرآن لأنهم لم يسألوه. ولكـن فرضـوا عليـه منـاهجهم، فأعطاهم ما يريدون وليس ما أراد القرآن ..

الأمر بالنسبة لتثوير القرآن مختلف ..

لم يرد كتاب "تثوير القرآن" دراسة القرآن كبقية الكتب، ولهذا فلم يستعد بأى عدة. إنه أراد الاقتراب من القرآن شيئاً فشيئاً حتى يتحقق نوع من المعايشة، لهذا لم يستعد إلا بمـا أعده ا للناس جميعا عندما أوحى لهم بالعقل

دخل "تثوير القرآن" عالم القرآن وقد غسل نفسه وروحه من كل ما وضعوه فيها من منهجيات، أسلم قيـاده للقـرآن. دخله كما يدخل الحاج مكة محرماً، متجـرداً.. لـيس علـى شفتيه إلا التلبية "لبيك اللهم لبيك" .

وكانت الوسيلة العملية لهذه المعايشة قراءة القرآن مثنى وثلاث مع تدبر عقل وإسلام قلب وتعرف على ما خفى مـن ألفاظ بما يوضحه القرآن من استخداماته المتعددة لها بحيـث يكون لها معان لا معنى واحد، ولا يتوقف عندما لم يهتد إلى بعض هذه المعانى وقنع بما وقر فى قلبـه منهـا، لأن فـى القرآن من الأسرار والأعماق ما لا يبلغها جيل معين وإنمـا يدركها جيل لاحق ..

ولم يكن لهذه المعايشة هدف معين، لقد بدت الأهداف التى أفنى المفسرون أعمارهم لها صغيرة جزئية فضلاً عن أن فرض ثقافاتهم على القرآن غيرت وبدلت، ووصلت إلى النقيض. لقد آمن تثوير القرآن أن معايشة القرآن ستقوده فى النهاية إلى سر القرآن نفسه، إلى الاسم الأعظم منه إلى الإكسير الذى يحول الضعف قوة... وإذا كان هناك شىء استصحبه فهو فكرة استلهمها من حديث للرسول "أثيروا القرآن" أو "ثوروا القرآن" وهو حديث وإن لم يكن قوى الإسناد. فإنه رائع المعنى وقد كان شفيع الكتاب أنه تقرب إلى القرآن بكلمة من رسول القرآن. فلم يبدع شيئاً من عنده..

وانتهت هذه المعايشة الوثيقة، بأن الاسم الأعظم للقرآن وإكسيره المعجز هو أن القرآن ثورة لها من القوة والفعالية ما تغير الأوضاع، فتقضى على عهد من الانغلاق، والظلام، والأنانية والجهالة لتبدأ عهداً من النور والانفتاح والعدالة والحب والحرية... ويتم هذا بعيداً الطريقة الدموية الوحشية التى نهجتها الثورات الأوروبية.. أنه "ثورة" بمعنى قوة تغير الأوضاع. فتبعد وضعاً يقوم على الظلم والجهل والانغلاق

والأنانية لنبدأ عهد يقوم على العدل والحرية والعلم والنور..
إنه ببساطة وبلاغة يخرج الناس من الظلمات إلى النور .

كيف توصل القرآن إلى هذا ..

لقد توصل إلى هذا لأنه عرض فكرة ا تعالى عرضاً منطقيا تتقبله العقول وتتشربه القلوب وأثبت قوتـه القـاهرة وحكمته المطلقة وإرادته للشىء كن فيكون، وشـرح القـيم النبيلة من حب وحرية واتفاق وكرم وشجاعة وصـدق فـى القول ووفاء فى الوعد وإحسان فى العمل، وربطهما فى حلقه أسمائه الحسنى. وندد بأسلوب له زخم العواصف والشلالات بالطغاة والطغيان وأن مصيرهم الهزيمة فى الدنيا والجحـيم فى الآخرة وأن العافية هى للمؤمنين الذين لا يريدون علـواً فى الأرض وكان فى أسلوب القرآن من الوعـد والوعيـد، الترغيب والترهيب ما فى كل درجات السلم الموسيقى مـن رقة تتسلل إلى القلوب ومن صخب يثقب الآذان .

استنفر القرآن كل ما فى الإنسان من عقل ومنطق. وكل ما فيه من عواطف الخير والعطاء. كما أسترهبه مـن كـل طغيان أو فساد ووعده الانتصار فى الحياة الدنيا والجنة فـى

الآخرة. وأوكل القيام على هذا وتطبيقه لنبى كريم أمين فيه كل مقومات القيادة. فتحققت ثورة الإسلام ..

أن ثورية القرآن.. تختلف عما عهده الناس من ثورات آدمين يمليها الغضب والثأر وحب الانتقام. فتسـفك الـدماء وتبيح الحقوق بحجة "الشرعية الثورية" إن ثورية الإسلام هى ثورية الكلمة لا السيف.. الإيمان لا القهر ..

الأديان ثورات جماهيرية ..

من هذا المنطلق وضع كتاب "تثوير القرآن" نظرية عن أن الأديان فى حقيقتها هى الثـورات الحقيقيـة، والمباشـرة للشعوب والجماهير فمن كان يفكر فى العهود الموغلـة فـى القدم فى الجماهير الكادحة من فلاحين وحرفيين. هـل هـم الملوك؟ ما أبعد هذا، هـل هـم النـبلاء الـذين يسـترقون الجماهير؟ هل هم الفلاسفة الذين يعكفون فلسفة عسيرة الفهم لا يفهمها إلا القلة فى عهد لم تكن الجماهير تميز بين الألف وكوز الذرة! لا أحد كان يمكن أن ينهض فى العهـد القـديم بالجماهير، والجماهير نفسها كانت عاجزة، فقـدت أغلبيتهـا الوعى وتقبلت الاستسلام بينما عجزت القلة التى وعت مـا

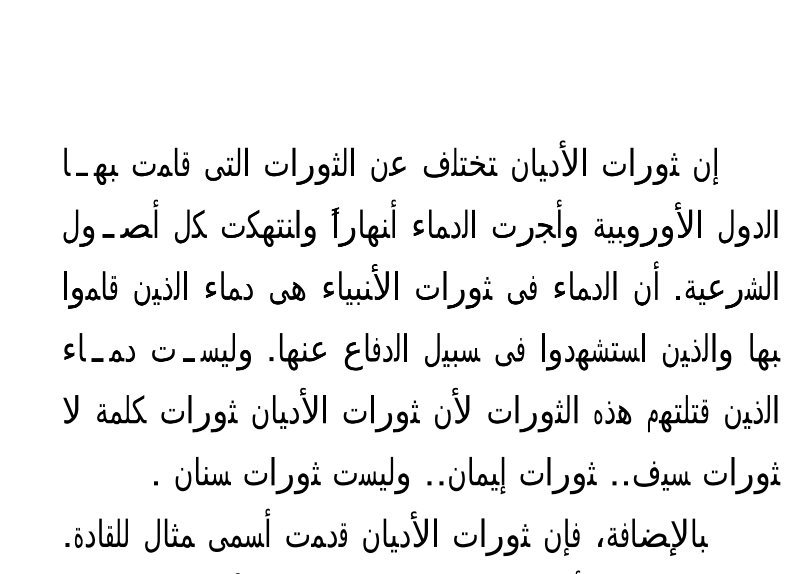
هى فيه من ظلم عن الثورة، وعندما حاولت سـحقت ومثـل بقادتها .

الأديان وحدها هى التى تدخلت: موسى يدعو لليهوديـة وإطلاق بنى إسرائيل ويقودهم من مصر "بيت العبودية" إلى أرض الحرية. من كان يستطيع أن يفعل هذا أمام الفرعـون دفاعاً عن مجموعة ضعيفة مستذلة، وبأى قوة استطاع موسى أن يقف أمام فرعون ويتحداه؟ بقوة الدين... وتدور القـرون وتجد الشعوب والجماهير نفسها وهى فى قبضـة الجبـروت الرومانى الذى هيمن بالسيف والتنظيم علـى العـالم أجمـع وجعله تبعاً لروما، ومكن رومـا مـن أن تسـتعبد شـعوباً بأسرها.. هل كان يتصور أن يستطيع نبى مغمور ولد فـى إحدى قرى الإمبراطورية وتبعه بعض صـيادى الأسـماك والحرفيين هل يتصور أن يجابـه هـذا الرجـل الجبـروت الرومانى بشرعة الحـب.. إن الصـراع بـين المسـيحيين والرومان يمثل أقسى معركة للصراع ما بين الوثنية والدين. الوثنية التى تسترق الناس والدين الذى يحررهم وانتصـرت المسيحية .

وأخيراً تظهر ثورة الإسلام فى بادية العـرب ووسـط القبائل الوثنية المتناحرة والتى كان قصارى فخرهـا سـبق جواد وإنشاد قصيدة أو كسب رهـان.. وكانـت الغـارات بعضهم على بعض وسيلة مقررة لمقاومة الجدب. ظهر محمد رسول الإسلام فوحد هذه القبائل، وجعلها تنبذ إلهتها الحجرية وشرابها المسكر.. ورهانها.. وغاراتها.. فوجدها.. ووضـع فى يدها الكتاب والميزان.. لتصلح أوضاع العالم الطبقى مـا بين فارس وبيزنطة ..

أليست هى ثورات بالمعنى الدقيق للثورة.. ألم يكن لهـا فكر نظرى مميز يتبلور فى عقيدة.. ألم تشترك فيها الجماهير بل ألم تكن الجماهير هى مادتها ألم تحقق تغييـرات شـاملة كاسحة فى كل ميادين الحياة ..

إن أوروبا تحدثنا عن التاريخ السياسى وتاريخ الملـوك والأسر المتوجه والنبلاء والأمراء، وما استجد بيـنهم مـن حروب أو تذكر لنا التاريخ الاقتصادى الذى يجعل التـاريخ يسير تبعا للاقتصاد ولما تمليه علاقات ووسائل.. ولكنهـا لا تحدثنا عن التاريخ الدينى.. لأنه لم تنبعـث منهـا الـديانات الكبرى ولا ظهر فيها الرسل من أولى العزم ..



إن ثورات الأديان تختلف عن الثورات التى قامت بهـا الدول الأوروبية وأجرت الدماء أنهاراً وانتهكت كل أصـول الشرعية. أن الدماء فى ثورات الأنبياء هى دماء الذين قاموا بها والذين استشهدوا فى سبيل الدفاع عنها. وليسـت دمـاء الذين قتلتهم هذه الثورات لأن ثورات الأديان ثورات كلمة لا ثورات سيف.. ثورات إيمان.. وليست ثورات سنان .

بالإضافة، فإن ثورات الأديان قدمت أسمى مثال للقادة. فهم من الشعب يأكلون الطعام ويمشون فى الأسـواق. ولـم يصلوا إلى زعامتهم بالحسب أو النسب أو الجاه ولكن بالخلق والصبر والإيمان ومواصلة الدعوة حتـى اكتسـبوا إيمـان الجماهير. وهم فى قيادتهم للثـورات لا يبغـون علـواً ولا يحسون زهواً ولا يكسبون مـالاً أو يتمولـون ثـروة. ولا يرهبون اتباعهم ولا يفرضون إرادتهم بحكم السلاح إنهم ابعد ما يكونون عما تقدمه لنا دراسة التاريخ للقـادة السياسـيين والعسكريين والملوك الذين إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلـوا أعزة أهلها أذلة ..

إذا كانت الأديان قد قدمت أعظم الثـورات شـأنا فـى التاريخ وأقربها وأمسها بالجماهير والشعوب وإذا كانت قـد

قدمت النماذج المثلى للقيادة وما يجب أن تتصف به من بعـد عن الذاتية وإذا كانت هذه الثورات التى حققت أعظم تغييـر فى العالم قد حدثت دون سفك دماء أو بدماء قليلة معظمهـا من أصحابها الذين استشهدوا فى سبيلها ...

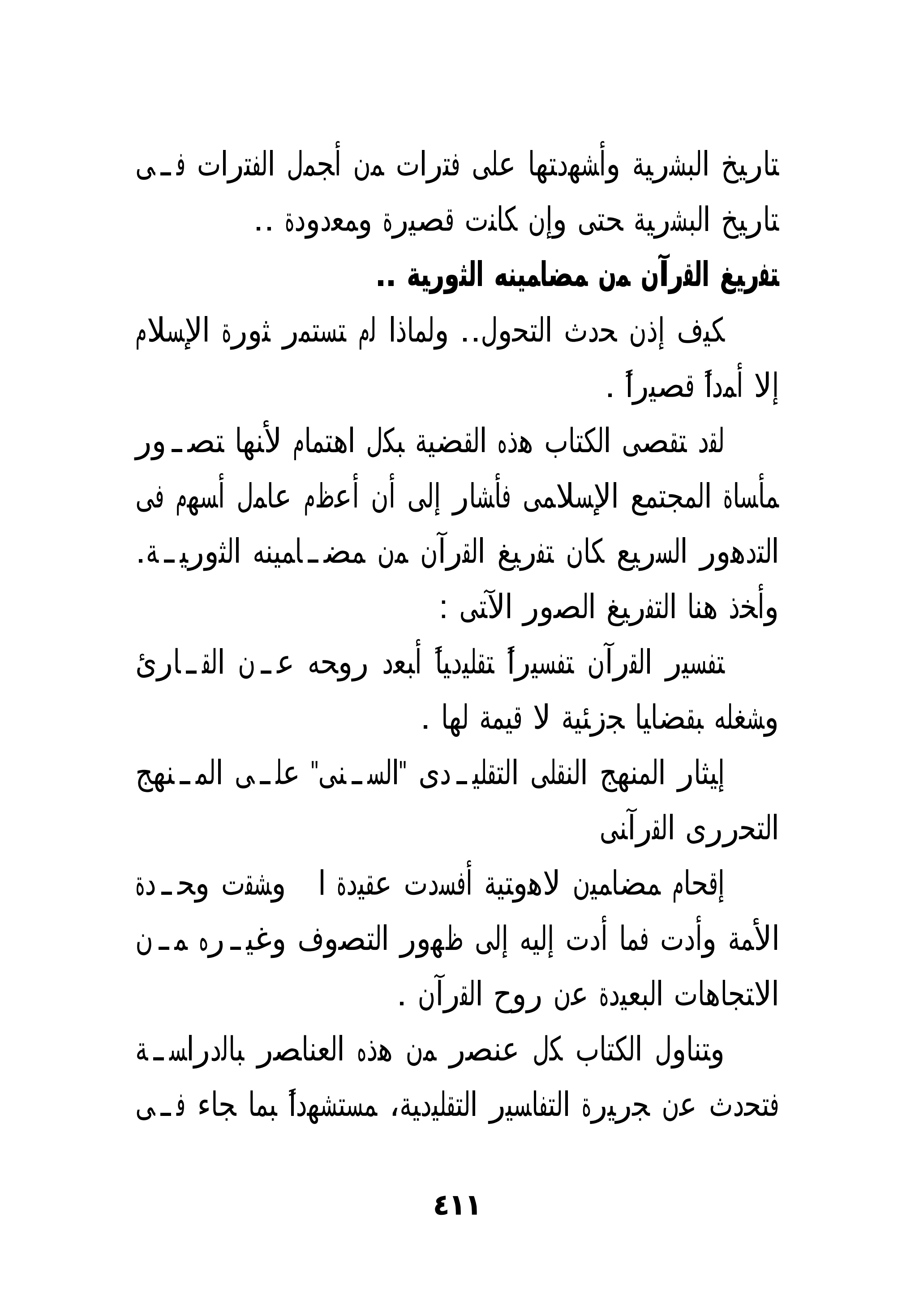
إذا كان الأمر كذلك فكيف يجوز أن تغفل هذه الصفحات المؤثرة فى تاريخ الإنسانية؟ كيف جـاز أن يتجاهـل هـذا الجانب التاريخى للجماهير التى اشتركت فيها.. كيف جـاز الإدعاء أن الأديان "أفيون الشعوب" وأنها "تضحية بالدنيا فى سبيل الآخرة" ..

كلاً أيها السادة لقد أقامت الأديان الدنيا على أحسن تقويم فأحلت من ناحية "حكم القانون" ممثلاً فى قيم لا يجوز حتـى للإنسان أن ينتهكها كما أقامت مـن ناحيـة أخـرى "حكـم الإنسان" بحيث لا تستبد المبادئ بالإنسان فتضحى بـه فـى سبيلها، وبهذا خلصت مـن مشـكلة الحكـم.. والتعـارض المظنون ما بين إرادة الفرد ومصلحة المجتمع. وكان سبيلها للقضاء على التناقض هو الإيمان وأن التناقضات إنما جاءت للخطأ فى تحديد المواقف وتعيين الحقوق والواجبات كـالظن أنه ما دامت "الأغلبية" تريد، فيجب تحقيق إرادتها صوابا أو

خطأ.. إن الدين يتدخل هنا ليوضح أن الأغلبية قد لا تكـون على هدى دائما، ويغلب أن تكون مضللة وليس لها أن تنتهك الحقوق الأساسية التى أقرها القانون الإلهى للإنسان بحيـث يكون الصواب الالتزام بالمبدأية ولكن المبدأيـة إذا أصـيبت بالتعصب الأعمى وفقدت حاسة الاعتدال والنقد ومناخ الحرية (والأديان تقوم على حرية الفكر، لأنها إيمان، ولا إيمـان إلا بفكر، ولا فكر إلا فى حرية) فإنها تسىء ويجب على الشعب أن يقفها، وهذا كله مـا قدمتـه الأديـان لإدارة المجتمـع.. وللحيلولة دون تغول السلطة من ناحية أو التعصب من ناحية أخرى .

* * *

بعد أن انتهى "تثوير القرآن" من عرض نظريتـه عـن الأديان كثورات جماهيرية تسـتهدف التحريـر.. عـرض التطبيق العملى لها بثورة الإسلام فى شبة جزيـرة العـرب وكيف حولها الإسلام من قاعدة قرشية لكسب المزيـد مـن الأرباح لتجارية واستتباع الجماهير بإلهتها الوثنية إلى أمة لها قيم ولها حضارة أثبتت جديتها واصالتها وقدمت إضافتها إلى



تاريخ البشرية وأشهدتها على فترات من أجمل الفترات فـى تاريخ البشرية حتى وإن كانت قصيرة ومعدودة ..

تفريغ القرآن من مضامينه الثورية ..

كيف إذن حدث التحول.. ولماذا لم تستمر ثورة الإسلام إلا أمداً قصيراً .

لقد تقصى الكتاب هذه القضية بكل اهتمام لأنها تصـور مأساة المجتمع الإسلامى فأشار إلى أن أعظم عامل أسهم فى التدهور السريع كان تفريغ القرآن من مضـامينه الثوريـة. وأخذ هنا التفريغ الصور الآتى :

تفسير القرآن تفسيراً تقليدياً أبعد روحه عـن القـارئ وشغله بقضايا جزئية لا قيمة لها .

إيثار المنهج النقلى التقليـدى "السـنى" علـى المـنهج التحررى القرآنى

إقحام مضامين لاهوتية أفسدت عقيدة ا   وشقت وحـدة الأمة وأدت فما أدت إليه إلى ظهور التصوف وغيـره مـن الاتجاهات البعيدة عن روح القرآن .

وتناول الكتاب كل عنصر من هذه العناصر بالدراسـة فتحدث عن جريرة التفاسير التقليدية، مستشهداً بما جاء فـى

كتابنا الأصلان العظيمـان الكتـاب والسـنة وغيـره مـن الدراسات، وهذا القسم قد أدرج تقريباً فى فصول هذا الكتاب عن "تفسير القرآن" قدامى المفسرين ..

ورأى الكتاب أن الانتقال من الفقه القرآنى إلى الفقـه السنى نقطة انتقال من الفكر التحررى العقلانى إلـى الفكـر التقليدى النقلى. ومع أن الرسول أمر أن لا تكتب أحاديثه فإن الذى حدث كان التهافت على الأحاديث وركـوب الصـعبة والذلول بحثا عن حديث حتى تراكمت "بالأطنـان" أحاديـث عرقلت، وعوقت، بل وأوقفت عمل القرآن ولم تـنجح كـل المحاولات التى بذلت لتنقية السنة فقد اتسـع الخـرق علـى الراتق .

وضرب الكتاب المثل بثلاثة أحاديث لا ترقـى لمرتبـة الصحيح المؤكد، ومع ذلك هيمنت على المجتمع الإسـلامى وعلى الفكر الإسلامى طوال ألف عام ..

أولها حديث الأئمة من قريش الذى جعل كل المفكـرين الإسلاميين (باستثناء الخوارج) يلتزمون ذلك وعـزز هـذا الطريق غير مباشر دعوى الشيعة فى الإمامـة، وهـو مـا

يخالف مبدأ المساواة الذى قـرره الإسـلام، وأن النـاس لا يتفاضلون إلا بالتقوى. وان المناصب لا يشغلها إلا الأكفاء .

والحديث الثانى "المرأة عورة" وما دامت المرأة عـورة فيجب سترها فى البيوت. وكان هذا الحـديث هـو أسـاس الفصل بين الجنسين والحيلولة دون اختلاط النساء بالرجال.. وجعل المجتمع الإسلامى مجتمعا "ذكورياً" وما يعنيه هذا من حرمان المرأة من حقها فى العمل وفى "الأمـر بـالمعروف والنهى عن المنكر" الذى أوجبه القرآن عليهن .

والحديث الثالث "من بدل دينه فاقتلوه" وهو من أحاديث الأحاديث وراويه عكرمة الذى استبعده الإمـام مسـلم مـن صحيحه. ومع هذا فكل المذاهب الإسلامية أخذت بهذا المبدأ مما أصلت سيف الإرهاب على كل فكر حر لأن الفقهاء بنوا عليه أن من جحد معلوما من الدين بالضرورة فهـو مرتـد. ويتعين قتله ! .

وعمدت قوى التحول إلى إقحـام مضـامين لاهوتيـة وصوفية فى القرآن الكريم، كانـت الأولـى تتعلـق بآيـات الصفات التى مزقت الأمة وتمت بسببها أكبر حركة اضطهاد كادت أن تؤدى بحياة الإمام أحمد بن حنبل – دون أن يكون

لها أى معنى. فلم يثر انتباه المسلمين طـوال أيـام النبـوة والخلافة الراشدة آيات الصفات أو يرون فيها ما يمكـن أن يكون محور خلاف... ولكنهم شغلوا الأمـة بهـذه القضـية اللاهوتية. بل إنها تمثل كيف شغلت "أحرار الفكر" فبدلاً من تطبيق حرية الفكر للجميع حضوا أنفسهم بها دون الآخرين. وبدلاً من أن يطالبوا بتطبيق العدل على الخلفاء الظلمة فإنهم طالبوا بتطبيقه على ا !!، وبهذا تبددت دعوة أحرار الفكـر هذه، بل وجهت ضد ا بدلاً من أن توجه ضـد الخلفـاء!! وكان التصوف ملاذاً لفريق كبير من الناس ضـاق بجفـاف الفقهاء والتفافهم حول السـلطان أو بانحرافـات المعتزلـة ودعاويهم على ا .. فانعزلوا عن المجتمع وأقاموا لأنفسـهم عالماً خيالياً يحكمه الأقطاب والأوتاد وترأس ديوانه السـيدة زينب... ويحفل بالكرامات والخوارق الخ ...

واستقطبت الفرق الصوفية جماهير عديدة وكانت هـى التنظيم الجماهيرى الإسلامى الذى كان يمكن أن يحقق خيراً كبيراً للأمة، ولكنه حقق ذلك لشيوخه وأقطابه وترك النـاس يصطلون مشاكل الواقع بينما يتخلل حياتهم أحـلام يقظـة.. تعللهم دون أن تقدم شيئاً ...

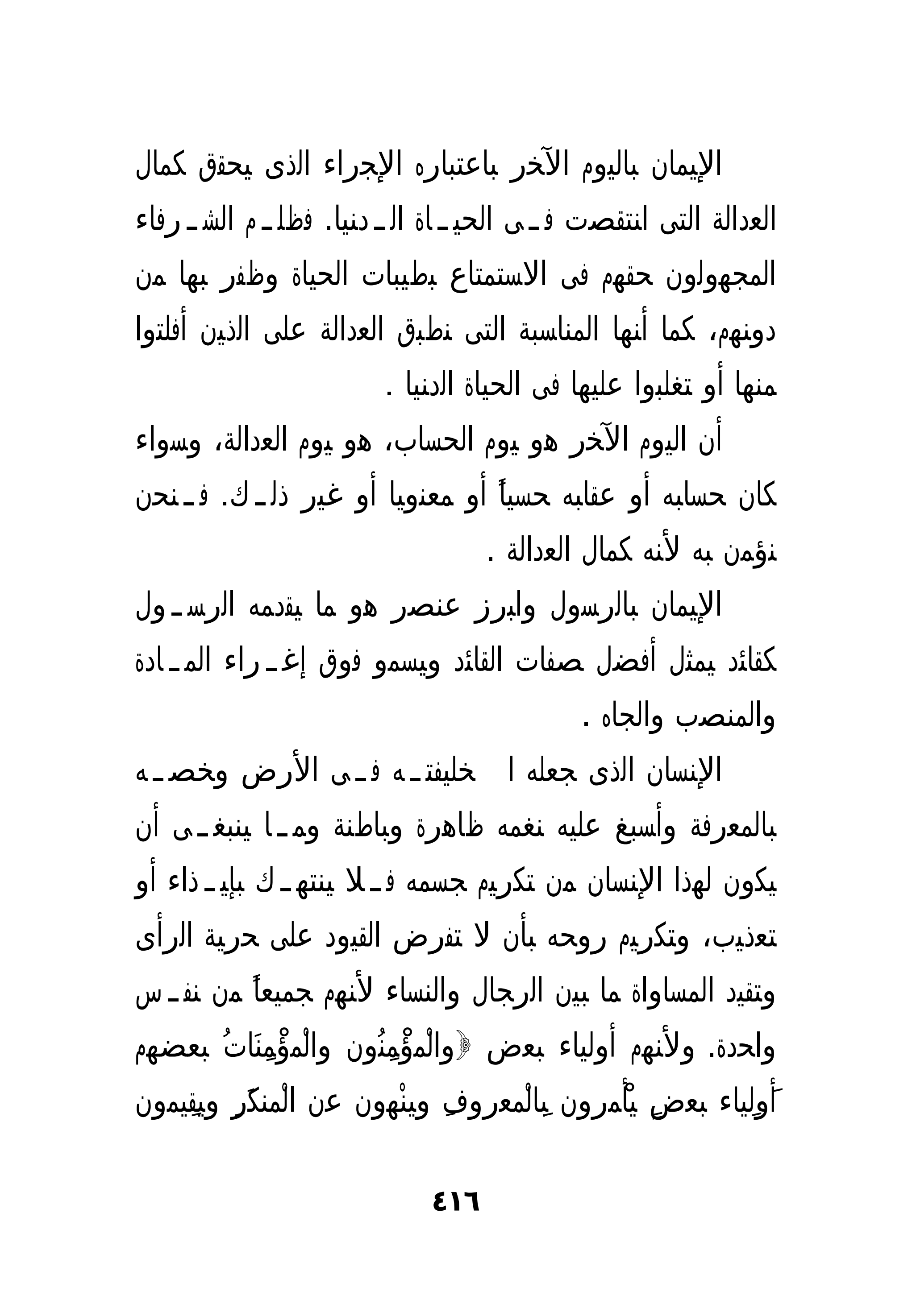
* * *

أدت كل هذه العوامل إلى تفريغ القرآن عن مضـامينه الثورية بحيث لم يعد كما كان محور الثورة ..

والمطلوب اليوم إعادته إلى طبيعته الثورية التحرريـة الأولى والخطوة الأولى هى إزالـة هـذه الغشـاوات كـل الغشاوات التى أضيفت عليه، بالتفاسير والمفاهيم اللاهوتيـة بحيث يعود القرآن كما أنزل على محمد .

إن القراءة المتدبرة للقرآن.. ككل ستوحى باسـتخلاص منظومة القيم التى تحكم ثورة القـرآن والتـى تقـوم علـى مفاهيمه بالنسبة للقوى العظمى التى عنى بها القرآن وهى :

الإيمان با تعالى، كما عرضه القرآن دون زيـادة أو نقصان، باعتباره القوة الخالقة لهذا الكون، المـدبرة لـه – والواضعة للقوانين والنواميس التـى يسـر عليهـا الكـون والمجتمع. وباعتباره أصل القيم التى هى جوهر الهداية مـن حب أو خير أو حرية أو علم أو عدالة أو مسـاواة الـخ... والتعرف على الفرق بين قيم تنبثق عن ا تعالى فسيكون لها الكمال والشمول وقيم أخرى تضعها الـنظم فتتجـرد مـن الموضوعية والكمال .



الإيمان باليوم الآخر باعتباره الإجراء الذى يحقق كمال العدالة التى انتقصت فـى الحيـاة الـدنيا. فظلـم الشـرفاء المجهولون حقهم فى الاستمتاع بطيبات الحياة وظفر بها من دونهم، كما أنها المناسبة التى نطبق العدالة على الذين أفلتوا منها أو تغلبوا عليها فى الحياة الدنيا .

أن اليوم الآخر هو يوم الحساب، هو يوم العدالة، وسواء كان حسابه أو عقابه حسياً أو معنويا أو غير ذلـك. فـنحن نؤمن به لأنه كمال العدالة .

الإيمان بالرسول وابرز عنصر هو ما يقدمه الرسـول كقائد يمثل أفضل صفات القائد ويسمو فوق إغـراء المـادة والمنصب والجاه .

الإنسان الذى جعله ا خليفتـه فـى الأرض وخصـه بالمعرفة وأسبغ عليه نغمه ظاهرة وباطنة ومـا ينبغـى أن يكون لهذا الإنسان من تكريم جسمه فـلا ينتهـك بإيـذاء أو تعذيب، وتكريم روحه بأن لا تفرض القيود على حرية الرأى وتقيد المساواة ما بين الرجال والنساء لأنهم جميعاً من نفـس واحدة. ولأنهم أولياء بعض ﴿والْمؤْمِنُون والْمؤْمِنَاتُ بعضهم أَولِياء بعضٍ يأْمرون بِالْمعروفِ وينْهون عن الْمنكرِ ويقِيمون

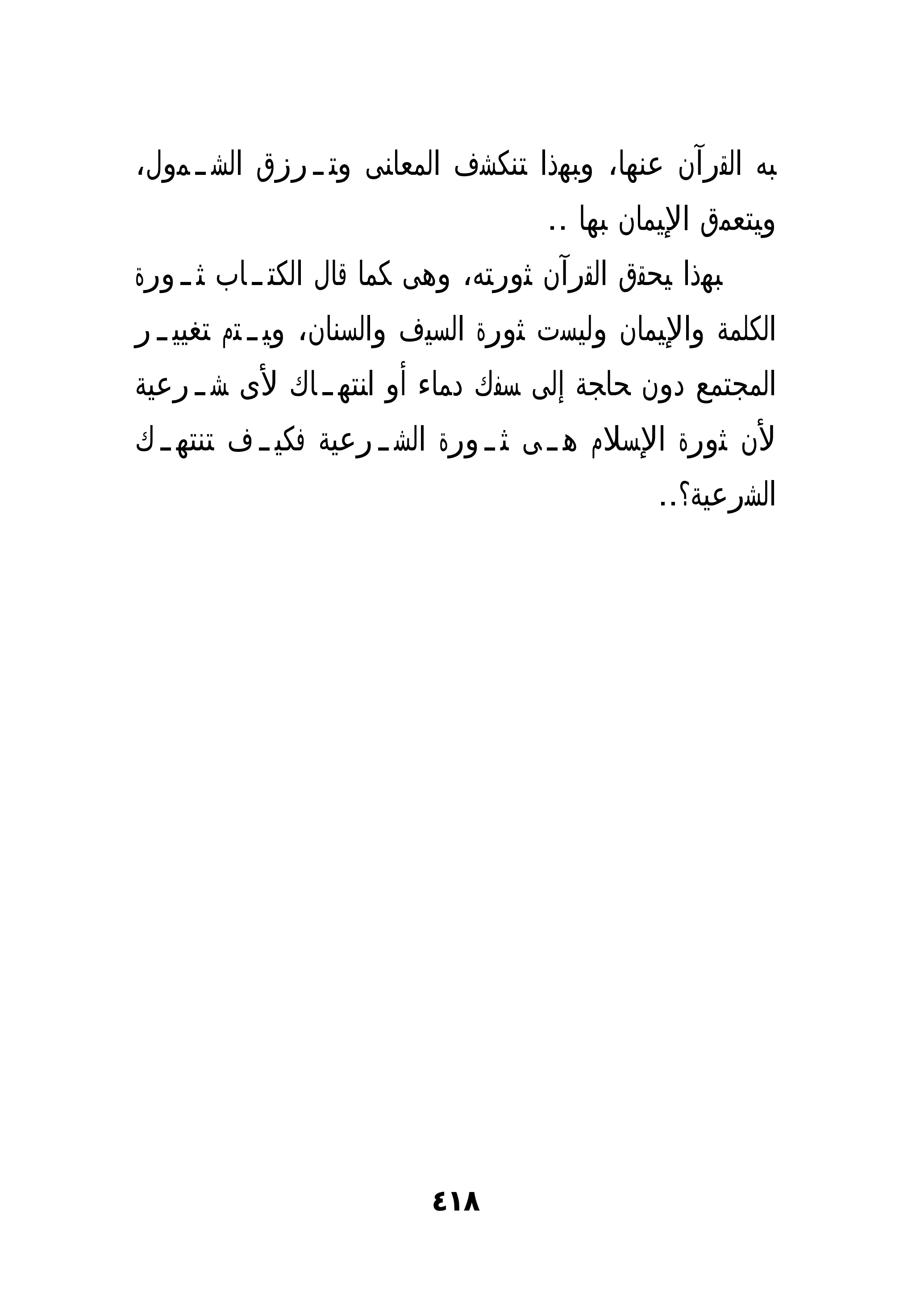
الصلاةَ ويؤْتُون الزكَاةَ ويطِيعـون اللـه ورسـولَه أُولَئِـك سيرحمهم الله إِن الله عزيز حكِيم﴾. {٧١ التوبة} ..

هـ) القيم التى أبرز القرآن أنها هى التى تلهم الهداية لأنها ليست إلا شعاعاً من أشعة الذات الإلهية ينيـر للبشـر الطريق، فالإيمان بها تعبيراً عن الأيمان با ، وهذه القيم التى قد تكون خاصة بالنفس والضمير كالتقوى والأمانة والصدق وقد تكون خاصة بالمجتمع كالعدل الـذى يجـب أن يكـون محور وقاعدة كل العلاقات الاجتماعيـة مـا بـين الحكـم والمحكوم الرأسمالى والعامل الرجل والمرأة الخ... أو تكون بالنسبة للروح كالحرية والمعرفة .

أن هذه القيم هى الغرض الذى من أجله أنزل ا تعالى القـرآن وقال : ﴿لِتُخْرِج الناس مِن الظلُماتِ إِلَـى النـور﴾. وهى ما تجمله الآيـة ﴿ومـا خَلَقْـتُ الْجِـن والإِنـس إِلا لِيعبدونِي﴾. لأن العبادة هى رمز لكل الأعمال الصالحة .

* * *

ودعا تثوير القرآن إلى دراسة القرآن طبقاً للموضوعات التى سبقت إليها الإشارة بحيث يوضع فى كل منها ما جـاء



به القرآن عنها، وبهذا تنكشف المعانى وتـرزق الشـمول، ويتعمق الإيمان بها ..

بهذا يحقق القرآن ثورته، وهى كما قال الكتـاب ثـورة الكلمة والإيمان وليست ثورة السيف والسنان، ويـتم تغييـر المجتمع دون حاجة إلى سفك دماء أو انتهـاك لأى شـرعية لأن ثورة الإسلام هـى ثـورة الشـرعية فكيـف تنتهـك الشرعية؟..